المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكّمة/ العدد التاسع و العشرون / شتاء / ٢٠٢٠

الوعيُ وحده جغرافية الحضارة	عمر شبلي
نقد النقد في "جذوة من ثلوج جبل الشيخ"	د. دريّة فرحات
الشرق الأوسط: الرقعة الجغرافية	د. علي الصمد/ د. عماد هاشم
نحو سرديّات نقدية جديدة	د. سليم بركان
من أجل رؤيا ثقافية جديدة	د. سلمى عطاالله
على طريق الحرير، لغة وثقافات	د. ليال مرعي
أدب الأطفال	رئيفه محمد الرزّوق
العادات والتقاليد اللبنانية لـ"د. جورج زكي الحاج"	زينة زغيب
المنهج التاريخي، شأنه وتطوره	عبلا أبو رجيلي
فلسفة الصين مع كونفوشيوس و لاوتسو	د. ديمة بو ملحم
الحزن جميلاً	علي ضاهر جعفر
قراءة جوّانية في "أحوال الماء"	عمر شبلي
السياسة البريطانية تجاه أكراد العراق	د. أنور فاضل صبي
دور مدير المدرسة بين المجتمع المدني والمدرسة	بثينة بيضون/قاسم زين
الكيانات الفرنجية ودولة الكيان الإسرائيلي	د.محمد عبد العزيز يوسف
التماون وتأثيره في الأدب الشعبي	سيمونا بردويل

- موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدّي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكّمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد التاسع والعشرون - شتاء ٢٠٢٠

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
د.درية فرحات

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان
د. عماد هاشم
د. علي أيوب
د. نصر قرحاني
د. هبة الحشيمي
د. عيدا زين الدّين
د. زهور شتوح (الجزائر)
د. ندى الرمح
د. منال شرف الدين
د. رضا العليبي (تونس)
د. منى دسوقي
د. سمية طليس
أ. حكمت حسن
أ. مروان درويش
أ. زينب راضي
أ. إيمان صالح
أ. سوزان زعيتر
أ. فاطمة البزال
أ. رولا الحاج حسن

اللجنة المحكِّمة

د. ديزيريه سقَّال
د. حسن جعفر نور الدّين
د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل
د. لارا خالد مخول
د. علي حجازي
د. جمال زعيتر
د. مها خير بك ناصر
د. محمد عواد
د. عائشة شكر
د. أحمد رباح
د. يوسف كيال
د. ماغي عبيد
د. سعيد عبد الرحمن

تصميم المجلة	إخراج	المدير المسؤول
عبير سمير نجم	عبد القادر نجيب كرزي ٧٠/٦٢١٤١٠	علي حمود

موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com
مركز المجلة: ريفييرا سنتر – كورنيش المزرعة – دار العودة – الطابق الخامس
الاشتراكات السنوية:
لبنان – للأفراد ١٠٠ ألف ليرة لبنانية – للمؤسسات ١٥٠ ألف ليرة لبنانية
باقي الدول العربية:
للأفراد ١٠٠ دولار – للمؤسسات ٢٠٠ دولار
للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

الوعي وحده جغرافية الحضارة
عمر شبلي ٥

نقد النقد في جذوة من ثلوج جبل الشيخ (قراءة في شعر سلمان زين الدين)
د. درية كمال فرحات ٨

نحو بناء سرديّات نقديّة جديدة قراءة في: السّرد العربيّ، شعريّة وقضايا لـ: عبد المجيد زراقط
د.سليم بركان ١٣

الحزن جميلًا شعريّة محمّد الماغوط
علي ضاهر جعفر ٢٣

قراءة جُوّانية في «أحوال الماء» للشاعر سلمان زين الدين
عمر شبلي ٣٣

الكيانات الفرنجيّة ودولة الكيان الإسرائيليّ - دراسة مقارنة
د. محمد عبد العزيز يوسف ٤٥

من أجل رؤيا ثقافيّة جديدة
د. سلمى عطالله ٥٧

فلسفة الصّين مع كونفوشيوس و«لاوتسو»
د.ديمه بو ملحم ٦٩

الشرق الأوسط: الرقعة الجغرافية، الحدود والمساحة. إشكالية التعريف
د. علي الصمد/ د. عماد هاشم ٨٣

على طريق الحرير، لغات وثقافات
د. ليال مرعي ٩٥

المنهج التاريخي: شأنه وتطوره
عبلا أبو رجيلي ١٢٠

أدب الأطفال (قصص مجلّة فتى الأمن نموذجًا)
إعداد الباحثة: رئيفه محمّد الرّزّوق ١٢٨

السّياسة البريطانيّة تجاه أكراد العراق بين عاميّ (١٩٢٦ - ١٩٤٥)
د. أنور فاضل صبي ١٤٢
دور مدير المدرسة في مواءمة علاقة الطّالب بين المجتمع المحليّ والمدرسة المهنيّة الرّسميّة (المدارس المهنيّة الرّسميّة في قضاء بنت جبيل نموذجًا)
بثينة بيضون وقاسم زين ١٦٣
العادات والتقاليد اللبنانيّة في كتاب «شو حلو مبارح» للدكتور جورج زكي الحاج
زينة زغيب ١٧٦
التماون وتأثيره في الأدب الشعبي بحث قصير
اعداد: سيمونا بردويل ١٩٠
تحليل التّربة المثاليّة لزراعة الصّعتر في لبنان
حسن شعيتو، زينب حمادة، نوال العجوز ٢٠٦
ضبط جودة المنتجات النسيجية من خلال تفسير نتائج وبيانات الاختبار باستخدام التقنيات الإحصائية
م. هاني ابراهيم العلي - أ.د.م نزيه أبو صالح - د.م جمال العمر ٢١٥
Avis de tempête sur la langue arabe
Guilda SKAF ٢٢٨
Forced migration and its impact on the employment of Syrian young women in Lebanon
Suzanne Menhem ٢٣٩
Syrian Displaced and Justice Concerns in Lebanon
Prepared by Blanche Abi Assaf PhD student in socio pedagogy ٢٥٢

الوعي وحده جغرافية الحضارة

عمر شبلي

لا يحقّ للوعي أبداً إلاّ أن يكون هو البدء، «وفي البدء كانت الكلمة»، وليس بعيداً عن هذه الحقيقة معنى الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. الآية ربطت معنى وجود الإنسان بالعلم. والعلم هنا هو الآلة التي ترفع صروح الحضارات الخالدة عبر التاريخ. وإذا كان لا بد من تحديد مفهوم الأبدية فلا يمكن تحديدها إلاّ من خلال أبدية التاريخ المعرفية، أما المفهوم الغيبي للأبدية فهو خارج تكويننا التاريخي المعرفي، ولذا كان بوذا يدّعي الاستنارة، ولم يدّعِ الوحي. وربط بوذا استنارته بالإنسان وترقيته بالمعرفة والسلوك، ومن روائع هذا التوجه ماجاء على لسان بوذا، والمنقول عنه في «قصة الحضارة» لـ ول ديورانت: «وحدث ذات يومٍ أن همَّ برهميٌّ بتطهير نفسه من خطاياها باستحمامه في «جايا» فقال له بوذا: استحمَّ هنا، نعم ههنا، ولا حاجة بك بالسفر إلى جايا، أيها البرهمي، كن رحيمًا بالكائنات جميعًا – فإذا أنت لم تنطقْ كذبًا، وإذا أنت لم تقتل روحًا، وإذا أنت لم تأخذْ ما لم يُعطَ لك،، ولبثتَ آمنًا في حدود إنكارك لذاتك – فما تجني من الذهاب إلى جايا؟. إن كلَّ ماءٍ يكون لك عندئذٍ كأنه جايا».

ولا بدّ من معرفة ترقى بالروح كما ترقى بالعقل، وهذا يعني أن تحرّرَ المعرفة الإنسانَ من كلّ ما يعيق سموَّهُ. وقتها يتحول الوعي إلى معرفة تسبر أغوار النفس اللامتناهية، وقتها تصبح المعرفة استشراقًا مضيئًا، وتنقذ العقل الإنسانيّ من الجفاف والانحراف، وتستخرج مكنونات النفس العميقة لتحولها فعلاً حضاريًا باتحاد الروح والوعي في عملية البناء. وتصبح مهمة المعرفة هي تحرير الإنسان من جهله، ومن لا تحرره المعرفة فلن يتحرر بوسيلة أخرى، ولن يختلف أبدًا عن الجاهل، وربما كان الجاهل أفضل منه. فالمعرفة الإيجابية وحدها هي التي تنقذ الانسانية من عوامل انهيارها، والغباء هو المستنقع النَتِن الفاسد الذي يفسد فيه كل شيء، ويقتل واردَه ليشرب منه. وأشدّ أنواع العمالة للشرور

الغباء، يكفي أن تكون غبيًّا لتصبحَ عميلاً لعدوّك. والوعي وحده هو وسيلة الإنسان لإنجاز انتصاره، فإذا كانت الحروب تحتاج إلى أسلحة فإن النصر يحتاج إلى عقول. لقد جاء على لسان «أوليس» بطل «الأوذيسة» وهو صاحب فكرة الحصان الخشبي التي أنجزت فتح طروادة، كان يقول: «حصان يلد الرجال».

والوعي هو خالق التمرد الذي يصحح مسيرة الأشياء في هذا الوجود. والإنسان منذ فجر وجوده لجأ إلى الأسئلة، وكانت أسئلته تجعله أحرص على فهم وجوده، وفهم المعنى الأخلاقي لكينونتنا، ورفض الظلم والاضطهاد والاعتداء على رغيف خبز الناس، كان «أوليس» يتساءل، وهو يرى البذخ الذي يقدّم لآلهة الأولمب في زمن جوع الفقراء: «لماذا على البشر أن يموتوا جوعًا ولدى الآلهة كل ما يريد أن يأكله البشر؟». هذا التمرد هو الذي جعل سيزيف يتمرد على «زوس» كبير آلهة الأولمب، ويسرق النار التي كانت ملكًا لـ «زوس»، وأعطاها للفقراء على سفوح الأولمب ليطهوا عليها أطعمتهم، ويتدفأوا بها شتاء.

ولكن للأسئلة الصعبة وللتمرد أثمانًا باهظة، وتجربة الفكر المعاند المتمرد عبر التاريخ أدّت إلى قتل ونفي واعتقال وتشريد وتعذيب كلّ من تأبّطَ التمرد وراح يمارسه. ومسيرة الإنسانية على طريق جلجلتها تعطينا أمثلة لا حصر لها على المآسي الكبرى التي مرّ بها أصحاب الفكر التغييري المتمرد على رداءة الواقع. وإذا أردت أن تستنطق حضارة أمة فعُدَّ شهداء الفكر فيها وشهداء الموقف. ومن أوضح أدلتنا ما يعاني منه المثقف العربي النظيف الذي رفض أن يكون بوقًا للسلطات الفاسدة. والسجون المزدحمة بنزلائها تعرف ذلك، وعلى جدران الزنزانة كنت أقرأ لمن سبقني للإقامة فيها: «اللهم امنحني ظهرًا قويًا»، وكنت أشمُّ روائح الدم والقهر والعذاب من خلال تلك الكلمات المحفورة على جدران الزنزانة وجدران روحي المتهدمة.

لابد من الانتماء للقرن الواحد والعشرين حضاريًا وعلميًا ووجوداً. إننا نحن، وأعني العرب، نعيش افتراضيًا في القرن الواحد والعشرين، وفي الحقيقة ما زلنا في القرن الرابع الهجري، العالم يسير إلى الأمام ونحن غائصون في الماضي، ونحاول أن نجعله مستقبلاً، وهذا يناقض حقيقة الوجود الذي يمشي باستمرار إلى الأمام، وينجز إبداعاته المتوافقة مع وجوده الجديد، ونحن ننتمي إلى الماضي وجودًا قبل كلِّ شيء. نستعمل منجزات الغرب واختراعاته، ونسبُّ مُنجِزيها. نركض لنحصل على فيزا لبلاد الكفر نحن «الغارقين» بالإيمان. مراكب المهربين تغص بالمسلمين الهاربين إلى بلاد الكفار، وما

أسهل تعليل ذلك عند أولئك الساكنين في الماضي. كل هذا سببه الغباء والفهم الخاطئ لمسيرة الزمن، الزمن الذي لا يتوقف عن الإضافة والإنجاز الواعي، الزمن الذي يسمو على كل تخلف بمنجزات لا تترك مجالاً لشيء خارج العقل الإنساني. ولن ننتمي إلى عصرنا إلا إذا تخلصنا من غبائنا، لأن الغباء يمنع الإنسان من فهم أسرار الكون ومسيرته. يقول شوبنهور: «كلما كان الإنسانُ أقلَّ ذكاء كان الوجود عنده أقلَّ أسرارًا».

وجودُنا خارجَ الوعي جعلنا مذاهب وطوائف متناحرة، يغزو بعضها بعضًا، كل مذهب يدَّعي أنه مندوب الله على الأرض، وكلُّ طائفة تعتبر أنها الفئة الناجية، إن التعصب نقيض المعرفة، وهو نقيض الوعي القائم على حركة الأشياء باستمرار إلى الأعلى. يقول هيغل: «كل شيء في صيرورة، وهو نسبي ومتحوِّل». التعصب هو دائمًا أشبه بالغرف المظلمة. أما أتباع هذا التخلف الناتج عن التعصب الأعمى، وعن عدم قدرتهم على فهم مسيرة الزمن وقوانينه التي لا تحفل بالغباء المتراكم في رؤوسهم فسوف يظلون متناحرين ومتقاتلين في الشوارع والمساجد والمقاهي، ولا يصدق فيهم سوى قول الشاعر:

وأحيانًا على بكرٍ أخينا
إذا ما لم نجدْ إلاّ أخانا

العتمة في عقولنا وصلت ذروتها. ومشكلة العالم كما يقول برتراند راسل: «مشكلة العالم أن الأغبياء والمتشددين واثقون بأنفسهم أشدّ الثقة.أما الحكماء فتملؤهم الشكوك».

علينا أن نسعى إلى تحصيل الوعي لننتمي لهذا العصر المرتكز على يقين العلم ومنجزاته.

نقد النقد في
جذوة من ثلوج جبل الشيخ
(قراءة في شعر سلمان زين الدين)

د. درية كمال فرحات

تتبارى دور النّشر في الاهتمام بجماليات العتبات الأولى للكتب الصّادرة عنها، هذا الاهتمام في العتبات الأولى جعل المتلقي يقرأها قراءة نقديّة تحليليّة بوصفها المرشدة إلى متن النّص؛ ما دفع النّقاد إلى تأمّل العتبات الأولى وتحليلها وربطها بالمتن النّصيّ.

وأوّل ما يستوقفنا عند قراءة كتاب «جذوة من ثلوج جبل الشّيخ (قراءة في شعر سلمان زين الدين)، للشّاعر عمر شبلي هو العنوان.والعنوان هو من الهوامش التي تحيط بالنّص، ويعدّ من أهم النّصوص الموازية للنّصّ إذ أنّه أوّل ما يصافح بصر المتلقيوسمعه، وهو المفتاح الذي ستُفتح به مغاليق النص، العنوان مفتاح أساسي يتسلّح به المحلّل للولوج إلى أغوار النّصّ العميقة قصد استنطاقها وتأويلها[1].

ودراسة العنوان من الآليات التي اهتمّت بها الدّراسات السّيميائيّة فكانت دراسة مجموع النّصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواشي وهوامش وعناوين رئيسة وأخرى فرعيّة وفهارس ومقدمات وخاتمة وغيرها من بيانات النّشر المعروفة التي تشكّل في الوقت ذاته نظامًا إشاريًّا ومعرفيًّا لا يقلّ أهمية عن المتن الذي يحيط به، بل إنّه يؤدّي دورًا مهمًّا في نوعية القراءة وتوجيهها[2].

يتكوّن عنوان الكتاب من قسمين: عنوان أساسيّ وعنوان فرعيّ. العنوان الأساسيّ يتكوّن من خمس كلمات، وكما يقول جيرار

(١) محمد مفتاح، **دينامية النص**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص ٧٢.

(٢) عبد الرزاق بلال، **مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم**، إفريقيا الشرق ٢٠٠٠، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠ ص٢٣.

جينت فإنّ العنوان مجموعة من العلامات اللسانيّة يمكن أن توضع على رأس النّص لتحدّده، ومن خلاله يمكن أن نصل إلى دلالات متعدّدة، فهكذا يقودنا عنوان هذا الكتاب إلى فهم دلالاته ووظيفته، فهو من أهم العتبات النّصيّة الموازية المحيطة بالنّص الرئيس، حيث يساهم في توضيح دلالاته، واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية إن فهمًا وإن تفسيرًا وإن تفكيكًا وإن تركيبًا. ومن ثم فالعنوان هو المفتاح الضّروري لسبرِ أغوار النّص، والتّعمق في شعابه النّائهة، والسّفر في دهاليزه الممتدة، ومن خلال ذلك نربطه بنتاج الشّاعر الأستاذ سلمان زين الدّين، واكتشاف مفهوم النّقد عند الشّاعر عمر شبلي.

البنية التّركيبيّة للعنوان:

يتكوّن العنوان من خمس كلمات، تبدأ باسم نكرة جذوة وهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه جذوة، وما بعده شبه جملة «من ثلوج» متعلّق بالخبر ومتمّم لمعناه، لأنّ الأصل في هذا العنوان أن يبدأ بجملة اسمية لا اسم مفرد، وهنا يبرز الفرق بين البنيّة السّطحيّة والبنيّة العميقة للعنوان، فالمبتدأ لا يظهر في البنية السّطحيّة للعنوان، إنّما يظهر حتمًا في البنية العميقة، ويبدو ذلك من خلال هذه التّرسيمة:

العنوان -- جذوة من ثلوج جبل الشّيخ

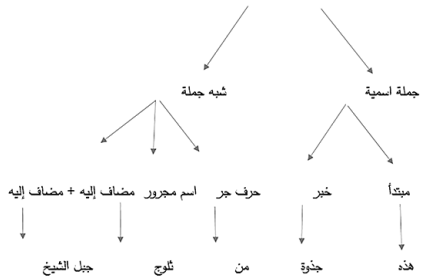

أمّا وفق البنية العميقة فيكون من خلال هذه التّرسيمة:

العنوان -- جذوة من ثلوج جبل الشّيخ

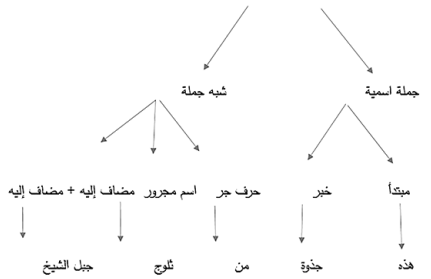

ودراسة البنيّة السّطحيّة والبنيّة العميقة – كما ورد في النّظرية التّوليديّة التحويليّة لتشومسكي –، تظهر لنا تأثير حضور المبتدأ على شكل الجملة، فتحوّلت من الابتداء باسم مفرد إلى حالة الابتداء بجملة اسميّة، وفي حذف المبتدا تأكيد خاصية العنوان التي تشير إلى الإيجاز والاختصار، وقد يُشير إلى تأكيد أهمية الخبر والتّركيز على كلمة «جذوة» التي تعبّر عن رؤية عمر شبلي لشعر سلمان زين الدين.

(١) بسام قطوس، **سيمياء العنوان**، الأردن، وزارة الثقافة، لا ط، ٢٠٠١، ص٥٧.

البنية الدّلاليّة للعنوان:

العنوان يتحوّل إلى مرجع بداخله العلامة والرّمز، فهو «النّواة المتحرّجة التي يخيط المؤلّف عليها نسيج النّصّ»[١]، أي أنّ العنوان يختزل مضمون النّصّ، وهذا ما يتبيّن لنا في عنوان كتاب «جذوة من ثلوج جبل الشّيخ»، حيث يمكن أن نكتشف في العنوان علامات تحيل إلى الزّمان والمكان، فالثّلوج فيها دلالة زمانيّة حيث يرتبط الثّلج بفصل الشّتاء، أمّا الدلالة المكانيّة فيمكن اكتشافها من خلال (المضافين إليه) جبل الشّيخ، وفي ذلك إحالة إلى إضافة المكان إلى الزّمان. ولو تتبّعنا العناوين الفرعيّة في الكتاب لتبين لنا تركيز الشّاعر عمر شبلي على تحديد الأبعاد الزّمانيّة والمكانيّة في شعر سلمان زين الدّين، فيقسّم كتابه النّقديّ إلى فصول يبدأها بموقف من النّقد، مع مدخل إلى شعر سلمان زين الدّين، وبعدها يبحث عن علاقة ديوان «أقواس قزح» بإشكالية الزّمان والمكان.

فيقودنا في كتابه برحلة زمانيّة مكانيّة، نستدلّ من خلالها على علاقة الشّاعر سلمان زين الدّين بالمكان والزمان والتّماهي بهما، يقول الشّاعر سلمان زين الدّين:

يتهجّى الزّعتر االبريّ
والزّوفى وإكليل الجبل
ويعي عن ظهر قلب
ما تُسرّ الرّيح للحور
وما تفضي به التّربة للأزهارِ

فيرى عمر شبلي أنّ « المكان في أقواس قزح يمتدّ من القرية إلى جبل الشّيخ، الشّاب المنتصب والشّيخ المكلّل بلحيته البيضاء دائمًا»، ولعل هذا الشيخ الشّاب هو سلمان زين الدين نفسه، فالقرية «تحمل كلّ صفاته تنمو معه وتنمو فيه، ولا يستطيع أن يخلعها ولو مغتربًا، إنّها قدره الذي يحبّه حتى الحلول، والقرية في شعره ولاّدة».[٢]

ونرى عمر شبلي يؤكد هذه الفكرة، فيذكر في موقع آخر، يبين فيه هذا التّماهي «أنا رحت أصرّ في كلامي هذا على ولوج شخصية جبل الشّيخ، لأنّ شخصية شاعرنا تقمّصت هذا الجبل بعناده، والسّكن في معناه، والتّلفّع برياحه الهوجاء، ولاختزان ينابيعه المتدفّقة وعدم خضوعه لعاديات الزّمان»[٣]. يقول الشاعر سلمان زين الدّين، من المجموعة الشّعريّة «غربتنان»:

وشيخٌ يستوي جَبلاً يُصلّي
ويزخرُ بالمباني والمعاني

(١) عمر شبلي، **جذوة من ثلوج جبل الشّيخ**، بيروت، دار نلسن، لا م لا ط، ٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٧.

وما المكان إلاّ تمثيل للحبّ عند الشّاعر، فالقرية هي الحبيبة، «والحبّ هو الذي يجعل الأشياء غير منتهية أبدًا في شعر سلمان زين الدين، وهو هنا تختصّ به القرية وحدها، إنّها حبيبة من طراز خاص، فالجدول النابع من الجبل نابع من وجدان الشّاعر»[1]، يقول الشّاعر زين الدّين في ديوان قوس قزح:

كان ذاك الطّفلُ مفتونًا بأشياء الحقولْ

يرصدُ الينبوعَ في يقظته من نومِهِ...

لمْ يكنْ يُشغلُهُ البحرُ كما الجدولُ، والرّجعى إليهِ

كان نجمًا لم يساورهُ الأفول

أمّا علاقة الشّاعر بالزّمان فيراها عمر شبلي من خلال الذّكريات التي يعيشها زين الدّين الذي ضاعت جنته «فأقامها وبناها في الذّكريات»، ولم تكن هذه الذّكريات بعيدة من علاقتها بالمكان فالشّاعر كما يرى عمر شبلي « يعيش في الماضي الذي هو المكان/ القرية والذي لم يعد له منه غير الذّكريات. إنّ الذّكرى تحكي وتحكي في شعره. وهي دائمًا تتجوّل في المكان والزّمان معًا، وزمن قصائده قروي أيضًا كالمكان. وقروية المكان والزّمان تحمل أبجديات الواقع الذي يحيط بالشّاعر»[2]، جاء في ديوان قوس قزح:

من زمانٍ

كان ذلك الطّفل يلهو في فراديس الطّفولة

هذه العلاقة الزّمكانيّة التي برزت في تنقيب الناقد عمر شبلي تكاملت في عنوان الكتاب، وعناوين فصوله، لتوضّحها دلالة العنوان الفرعي والإحالة إلى شعر سلمان زين الدين.

وظائف العنوان:

إنّ العنوان هو من أهم العتبات النّصيّة التي توضّح دلالات النّصّ، واكتشاف معانيه الظاهرة والخفيّة، من خلال التّفسير والتّفكيك والتّركيب، وعليه يُشكّل العنوان المفتاح القادر على فهم النّص، وسبر أغواره. وقد حدّد جيرار جينيت وظائف عديدة للعنوان منها الوظيفة التعيينيّة/ التسمويّة، والوظيفة الإغرائيّة،/والوظيفة الوصفيّة/والوظيفة الدّلاليّة الضمنيّة، وقد تتحقّق هذه الوظائف كلّها في العنوان، أو بعض منها، وبما يتعلق بكتاب «جذوة من ثلوج جبل الشّيخ»، فنرى أنّ الوظيفة التّعيينيّة قد برزت من خلال تحديد هوية الكتاب ومضمونه فالعنوان يشي بمسمّيات

(١) عمر شبلي، **جذوة من ثلوج جبل الشّيخ**، بيروت، دار نلسن،لا م لا ط، ص ٤١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦١.

ويمنحها هوية في الكتاب الذي يعدّ جسدًا للعنوان.

أمّا الوظيفة الوصفيّة فكانت من خلال وصف العنوان وحصره في جبل الشّيخ. والوظيفة الإغرائيّة تمثّلت بإغراء القارئ وشدّه لقراءة الكتاب، وجاء العنوان تلميحًا لا تصريحًا. وتبقى الوظيفة الدّلاليّة التي ظهرت جليًّا من خلال تبيان العلاقة بين الشّاعر والزّمكان.

كلمة أخيرة

إنّ الغوص في دراسة سيميائيّة ألسنيّة للعنوان تؤكد ضرورة حسن اختيار العنوان ليتحقّق منه وظائف المجموعة الشّعريّة، ولكن هذه الدّراسة السّيميائيّة تقدّم لنا علامات ودلائل أخرى بعيدة من البعد اللغويّ، وهي تقديم التقّدير للناقد عمر شبلي الذي استوفى الديوان حقّه فقدّم دراسة نقديّة متكاملة، فيها تضامن الشّكل مع المضمون، فجاء في كتابه أسلوب شعري لطيف[1]، أو نراه يلجا إلى الاستطراد المحبّب، فنراه يقدّم مطالعة حول استنطاق الطّلل وعلاقته بالزّمان والمكان[2].

ولعلّ اللافت في الكتاب هو الثقافة الواسعة التي يمتلكها الشّاعر عمر شبلي، فنراه مثلا في مقدّمته ينتقل من مكان إلى آخر. فيعبّر عن موقفه ورؤيته المتكاملة، وفي تنقّله هذا يتحوّل إلى نحلة يجوب الرياض، يمتصّ رحيق الأزهار ويأخذ أريجها ليقدّم لنا من كلّ وادٍ أجمله. فيقدّم لنا معرفته بالنّقد العربيّ واليونانيّ، والحلوليّة إلى العلاقة المتكاملة بين شهريار وشهرزاد، ليبرز جدلية العلاقة بين المرأة والرّجل وموقف الشاعر سلمان من المرأة.

وإذا بدأ الأديب النّاقد عمر شبلي كتابه باقتباس يأخذه من العلامة عبدالله العلايلي، ألا وهو قول « من ينقد عليك يؤلّف معك»، أسمح لنفسي أن أكون مشاركة في التّأليف مع الشّاعر سلمان زين الدّين والشّاعر عمر شبلي.

(١) عمر شبلي، جذوة من ثلوج جبل الشّيخ، ص٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.

نحو بناء سرديّات نقديّة جديـدة
قراءة في: السّرد العربيّ، شعريّة وقضايا لـ: عبد المجيد زراقط

د.سليم بركان - جامعة سطيف/٢/الجزائر

أولًا: تصدير: من الكتاب الى الكتابة النّقديّة:

صدر كتاب في السّرد العربيّ شعريّة وقضايا للباحث: عبد المجيد زراقط، عن دار نشر: الأمير للثّقافة والعلوم ببيروت، في طبعته الأولى سنة ٢٠١٩، يتألّف من ثلاث مئة وخمسة وثمانين صفحة من الحجم الكبير، قسّمه إلى تسعة عشر قسما، مُفردًا لكل منه عنوانًا إشكاليًّا، يندرج ضمن مجال الدّراسات النّقديّة السّرديّة الحديثة، يقول: «يتضمّن هذا الكتاب أبحاثًا في شعريّة السّرد وقضاياه... فمحور هذه الأبحاث هو ما يُسوِّغُ جمعها... ومن ثمة البحث في شعريّة نماذج روائيّة وقصصية»(*)، ما يعني في جانب آخر أن هذا العمل النّقديّ السّرديّ يهدف إلى تأسيس وبناء سرديّات نقديّة جديدة قائمة على فهم وتفسير تكوينية الشّعريّات الفنيّة لمختلف المنجزات السّرديّة والنّقديّة الحديثة، مع محاولة تمثّلها وفق أفق نقديّ سرديّ مُهجّن وجديد، من أجل ذلك قسّم الباحث هذه الدّراسة إلى قسمين: الأوّل تنظيري، بحيث أعاد فيه قراءة مختلف المسارات المفهوميّة والمصطلحيّة والتّداولية لكل من: السّرد، الشّعريّة، الأدبيّة، الصّورولوجيا، السّيرة، الهوية، التّهجير وغيرها. والثاني إجرائيّ، درس فيه المسارات الشّعريّة للتّكوينيّة السّرديّة للسّرد اللّبنانيّ، من خلال الإشارة لمختلف القضايا الفنيّة التي ارتهن فيها السّرد اللّبنانيّ المعاصر من قبيل: مواضيع المقاومة/الهوية/الأيديولوجيا في الأدب النّسوي وكذا بيان قيمة التّفاعل اللّغويّ السّرديّ في القصّ الحديث وما أفرزه فيما بعد من أنواع/أجناس قصصيّة معاصرة من: سير تجلّت كإطار سرديّ بارز في

(*) عبد المجيد زراقط، السرد العربي - شعرية وقضايا -، دار الأمير للثقافة، بيروت، ط١، ٢٠١٩.

بعض النّماذج الرّوائيّة، ليصل إلى الحديث عن قيمة/فعل تهجير الفلسطنيين وأثره الفنيّ والموضوعاتيّ في الرّواية الفلسطينيّة، ثم الكشف عن شعريّات أبنية وأشكال سرديّة هذه الأعمال القصصيّة، وعليه يمكن التّأكيد على أنّ الباحث أراد من خلال هذا العمل النّقديّ المتميز أن يؤطر تصورا نقديّا سرديّا جديدا،حاول من خلاله أن يبني فهما وتفسيرا وتأويلا لمختلف الظواهر السّرديّة سواء في إطارها الأجناسي أم الشكلي السّرديّ، ومن ثمة يمكن قراءة هذا العمل النّقديّ الجديد من زاويتين: معرفية نقديّة حديثة، والثانية: جمالية سرديّة نقديّة جديدة، ففي حديثه عن الإشكالية المفهومية للشعريّة وهو ما استهل به هذه الدراسة، عمل الباحث على تأطير مسار مفهومي/لغوي/معجمي/ اصطلاحي للسّرد من أجل بيان القيم الشّعريّة لمختلف الأنساق السّرديّة المتمفصلة في ثنايا التشكيل القصصي للأعمال الرّوائيّة، وهذا ما منحه في جانب آخر أن يؤطر مسارا مفهوميًّا للشّعريّة الأدبيّة والشّعريّة السّرديّة على الخصوص،التي تنهض عليها جمالية السّرود الأدبيّة، هذا ما جعل الباحث يقوم بحشد مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الإجرائية التي لها علاقة بالدّلالة الإجرائيّة والنّقديّة للشعريّة من قبيل: الفنيّة/الأدبيّة/ الشّعريّة/البلاغة وغيرها، يقول: «يستخدم مصطلح المجاز/الانزياح، بالمعنى الذي ذكرناه، والأدبيّة والشّعريّة، وهي الخصائص اللّغويّة النوعية التي تجعل من البنية اللّغويّة بنية أدبية»[1]، ليصل إلى تأكيد الأهمية التداولية للمصطلحات النّقديّة السّرديّة وكذا الإجرائيّة في الكشف عن أنساق الشّعريّات السّرديّة المتمفصلة في ثنايا الأعمال الرّوائيّة، فكل هذا يحصل – حسبه – من خلال البحث في الهوية النّقديّة للسّرد العربيّ أو الغربيّ بمحاولة النّظر في مختلف المسارات المفهوميّة لشعريّة السّرد المتوالية في التّكوينيّة الإبداعيّة، سواء أكانت في الشّعر أم في النّثر، يقول: «واللافت في هذا النّوع من السّرد أن المبدعين... اهتموا بالسّرد المنظوم»[2]، ما يعني أن الباحث أراد أن يتجاوز بالمطلق المفهوم النّمطي والسّائد، من أنّ التّكوينيّة السّرديّة لها علاقة فقط بالابداع السّرديّ، بل على العكس أنّ لها تمفصلاً أجناسيًّا في النّصوص المنظومة والشّعريّة، مما يجعلها تتمتّع بشعريّات سرديّة فذّة، كل هذا أفضى به إلى البحث في إشكاليّة الشّعريّة السّرديّة

(١) نفسه، ص:١٣

(٢) نفسه، ص٢٦.

القصصيّة، التي استهل فيها التّمييز بين السّرد والقصّ ومبرزًا في الوقت نفسه، لتلك الثّنائيّة البنيويّة السّرديّة التي لها علاقة بالمرجعيّة النّقديّة والمفهوميّة عند الشّكلانيين الرّوس، والمعروفة بثنائية: المتن/المبنى الحكائيّ، وعلى خلفية المرجعيّة السّرديّة الشّكلانيّة، تمثل الباحث بعض إجراءاتها النّقديّة على نماذج شعريّة، من أجل التأكيد على الفاعلية الإجرائيّة للتّحليل البنيويّ السّرديّ لهذه الأعمال – عمر بن أبي ربيعة نموذجًا –، ثمّ الكشف بعد ذلك على أنساق الشّعريّات السّرديّة لهذه النّماذج الشّعريّة، ليصل الباحث إلى التّأكيد على أنّ شعريّة/أدبية السّرد تتجلّى في القصّ كما في الشّعر والنّظم، يقول: «... والبنيّة السّرديّة الأدبيّة تُصنّف وفقًا لخصائص تركيبتها الدّاخلية: سردًا مكونًا، أو سردًا يتقاسم الشّعر أو شعرًا سرديًّا/ نظمًا سرديًّا»(١).

ثانيًا: تجليّات أنساق الشّعريّة السّرديّة في الرّواية:

لقد أفرد الباحث في هذه الدّراسة مبحثًا اجرائيًّا عنونه بـ: ملامح السّرد الرّوائيّ اللّبنانيّ المعاصر، ذلك أنّه اعتمد فيه على تصوّر نقديّ سرديّ قائم على إطارين هما: **ميداني**، ينهض على الإحصاء والتّصنيف من أجل بيان أهم العناصر الموضوعاتيّة التي قام عليها السّرد اللّبنانيّ المعاصر. إطار **تحليليّ**، ينهض على النّمذجة الإجرائيّة البنيويّة من أجل الكشف عن بعض تجليّات أنساق الشّعريّة السّرديّة، التي اتسم بها التّشكيل السّرديّ اللّبنانيّ المعاصر، ذلك أنّه ظهرت أعمال سرديّة لبنانيّة جديدة، عدّها الباحث نصوصًا تأسيسيّة تؤسّس لحداثة سرديّة للنّص الرّوائيّ اللّبنانيّ المعاصر، منها أعمال: «إميلي نصر الله» التي تندرج شعرياتها ضمن المسار التّصنيفي للبنية الإطاريّة السّرديّة، في حين أنّ كل من: «صبحي أيوب/جواد صيداوي» وغيرهما تندرج شعريتهما ضمن مسار البنيّة النّمطية غير المنكسرة، أما أعمال كل من: «منى مُنسي/ إلهام منصور» وغيرهما فإن شعريتهما تندرج ضمن مسار البنيّة السّرديّة المنكسرة، وعليه فقد أفضى هذا التّصنيف إلى تبّني نمذجة شعريّة سرديّة بارزة اتّسم بها السّرد اللّبنانيّ المعاصر، يقول: «... وهذا يفيد أن ملامح السّرد الرّوائيّ في لبنان في هذه الآونة متعددة ومتنوّعة، فتتعايش في هذا السّرد اتجاهات كثيرة هي التّقليدي والتّجديدي والتّجريبي المتنوّع، ما

(١) نفسه، ص٤١.

يعني أنّ التّجربة الحياتيّة المعيشية والأدبيّة هي التي تملي البنية الرّوائيّة»[1].

ثالثًا: التّحليل البنيويّ للنّص السّرديّ اللّبنانيّ:

انطلق الباحث في تحليله لبعض النّماذج الرّوائيّة اللّبنانيّة من رؤية نقديّة بنيويّة بارزة هدفها الكشف عن أدبيّة/شعريّة سرد بعض الأعمال الرّوائيّة «لمحمد جبريل» كنموذج للقراءة البنيويّة الإجرائية الشّكليّة، بحيث تبنى في التّحليل مسارًا تصنيفيًّا، له علاقة بالمسار الموضوعاتيّ، الذي قامت عليه أعمال الرّوائيّ – محمد جبريل – من قبيل: المقاومة/الوطن/القدر وغيرها، وهي في الأصل تيمات ثابتة، قام عليها التّشكيل السّرديّ لنصوص – جبريل –، ثم بعد ذلك اعتمد مسارا اجرائيا نصانيا، له علاقة بالتصور النّقديّ البنيويّ، كشف من خلاله عن بعض أنساق الشّعريّة السّرديّة والنّصية لهذه الأعمال الرّوائيّة أو – قل عن بعض مرجعيات الكتابة السّرديّة لدى – محمد جبريل – ،يقول: «إن مرجع روايات – جبريل – بوقائعها وشخصياتها وأماكنها، هو الحياة... أما بنيتها متخيلة، إذ أنه يأخذ المادة الأولية من المرجع ويشكلها مبنى روائي... ويتميز هذا المبنى ببناء عام يتكون من فصول قصيرة،... لكنه عندما ينتظم في البنيّة يسهم في تشكيل فاعليتها الجمالية الدّلالية...»[2].

وضمن سياق التّحليل البنيويّ السّرديّ، يواصل الباحث في تحليله المنهجيّ البنيويّ الموضوعاتي للسّرد اللّبنانيّ، من أجل الكشف عن الشّعريّات السّرديّة القائمة على موضوعة «الفقد»، التي شكّلت بحق ضمن مسار الحركة الإبداعيّة السّرديّة اللّبنانيّة المعاصرة إطارًا بارزًا – وحتى العربيّة المعاصرة –، ما جعل الباحث يتبنّي التّصور النّقديّ – لبول ريكور – القائم على تحليل «سرديّات المعيش» من خلال قراءة سيميائيّة سرديّة لمختلف العتبات السّرديّة والنّص، لأعمال كلاً من: «هاني الراهب/نبيل سليمان/منير الحايك» وغيرهم، وهي رؤية نقديّة سيميائيّة – في تصوي أكثر منها بنيويّة – أقحمها الباحث ضمن مساره التّحليلي البنيويّ للرّواية العربيّة، من أجل الكشف عن البنيّة العميقة التي شكّلت فيها موضوعة «الفقد» أفقًا جماليًّا للشّعريّة السّرديّة لهذه الأعمال القصصيّة، ليصل الباحث في موضوع آخر البحث في بعض العناصر التّراثيّة التي ساهمت هي الأخرى في منح هذه النّصوص الرّوائيّة شعريّة سرديّة فذّة، قائمة على موضوعات الفقد/

(١) نفسه، ص١٠٢.

(٢) نفسه، ص١٢٣.

الوطن/القدر وغيرها. وعلى خلفية البنيّة الموضوعاتيّة السّرديّة الجديدة لهذه النّماذج جعلت الباحث يطرح بعض الأسئلة الجوهريّة ذات الطّبيعة التّأمليّة والفلسفيّة، تؤسّس لشعريّة خطاب الفقد كعلاقة بارزة في الثّقافة والابداع العربيّين، يقول: «ماذا نفعل لنقوّض الفقد في الوطن؟ وليس في المنفى من دون أن نرتهن لـ: الآخر، ومن دون أن نسهم في «فقد» جديد أشد خطرًا مما نحن فيه»[1]، انّه الفقد الحقيقيّ الذي أسّس للذّات وجودها الفنيّ والأدبيّ ضمن مسار سوسيو سرديّ ديناميّ تتجاذبه كل من الذّات والآخر.

في سياق البحث عن الخصوصية الشّعريّة للكتابة السّرديّة في لبنان، من خلال موضوعة الحب/المقاومة اللّبنانيّة وخصوصًا في الأدب الذي تكتبه المرأة اللّبنانيّة، بحيث انتقى لذلك مجموعة من النّصوص النّسائية التي تمثّلت في إبداعاتها السّرديّة موضوعات من قبيل: الحرب/المقاومة/الوطن وغيرها، أسماء لروائيّات لبنانيّات هن: «إميلي نصر الله/لطيفة الحاج/حنان الشّيخ» وغيرهن، محتكمًا في الكشف عن الشّعريّات السّرديّة، من خلال الوقوف أمام عناصر التّجريب، التي اتسمت بها هذه الأعمال الرّوائيّة، من خلال حسن استثمارهنّ لمختلف عناصر هذه الموضوعات وإعطائها في الوقت نفسه، أبعادًا فلسفيّة سرديّة جديدة، منحت لها الرّيادة والبروز ضمن السّاحة الأدبيّة اللّبنانيّة المعاصرة، هذا ما أفضى بالباحث فيما بعد التّأكيد على قضية التمفصّل الفكريّ والفلسفيّ في عمليات التّشكيل السّرديّ للأعمال الرّوائيّة اللّبنانيّة الجديدة، وقد انتقى لذلك بعض الأعمال القصصيّة المحملة برؤى فكريّة وفلسفيّة، اعتمدها كنماذج بارزة للسّرد اللّبنانيّ المعاصر، أو قل تلك السّرديّات الفلسفيّة الجديدة التي اتسمت بها الأعمال الرّوائيّة المعاصرة في لبنان والقائمة على شعريّات سرديّة جديدة، من ذلك ما كتبه «جبران خليل جبران/ميخائيل نعيمة/خليل تقي الدين» وغيرهم، إنّها تجارب سرديّة قائمة – حسب الباحث – على: «رؤى فلسفيّة، تقوم على وحدة الوجود والحلوليّة وتناسخ الأرواح والتّقمص... فالعناصر المكونة للنّص الرّوائيّ هي التي جعلت الفكر الفلسفيّ يهيمن على هذا النّوع من الكتابات الرّوائيّة»[2].

(١) نفسه، ص١٥١.

(٢) نفسه، ص١٧٠.

رابعا: شعريّة القصص القديم في السّرد اللّبنانيّ الجديد:

ضمن محور الحديث عن الشّعريّات السّرديّة القديمة، أفرد الباحث مبحثًا درس فيه قصة «الإسراء والمعراج» دراسة تصنيفيّة/مقارنة أبان/كشف فيها تأثيرها الجماليّ والفنيّ على القصص العربيّ القديم والحديث من جهة وكشف عن شعرياتها الأدبيّة من خلال تبنيه لرؤية نقديّة بنيويّة وأخرى سيميائيّة سرديّة متمثلة في التّحليل العامليّ السّيميائيّ الذي أقرّه «غريماس» متخذًا في الوقت نفسه «المعراج كموضوعة سرديّة متمفّصلة ضمن عمليات التّشكيل السّرديّ الحديث والمعاصر من قبيل: رواية – قمّة الرجال العشرة – لطراد حمادة»[1].

وفي سياق الحديث عن التّأثير/التّأثّر، انتقل الباحث للحديث عن قضايا التّفاعل السّرديّ القديم بين المشرق والمغرب وما أفرزه هذا التّفاعل من تشكل قصص الرّحلة الأدبيّة العجائبي، والذي تنهض موضوعاته على سرديّات عناصر الرّحلة العجائبيّة، وبه يمكن تعرّف أهم أنساق التّفاعل القصصيّ الحاصلة بين الضّفتين، ما أفضي فيما بعد إلى معرفة هوية الأدب العجائبيّ وتمفّصلها في القصص العربيّ القديم، لذلك اعتمد – الباحث – على دراسة أهم قضايا التّفاعل القصصيّ الحاصلة بين مختلف الأنواع الأدبيّة الحديثة والمعاصرة ثم اختياره لنماذج من القصص العجائبيّ/الغرائبيّ، من قبيل: قصص «الإسراء والمعراج وألف ليلة وليلة والسّير الشّعبية ورسالة التّوابع والزّوابع» وغيرها، يقول: «فهذا النّوع من القصص العجائبيّ يروي حكاية رحلة إلى عالم آخر هو عالم السّماوات، ويصف ما يشاهده هناك، وفيه نلمس خرق قوانين الواقع والطّبيعة وتجاوز المكان والزمان وسعي البطل إلى تحقيق هدفه في فضاء عجائبيّ»[2]، ليصل إلى الكشف عن بعض الأنساق السّرديّة التي اتّسم بها قصص الرحلة العجائبيّ وتفاعلها البارز مع أنساق سرد «قصص المعراج»، وخصوصًا المرجع الأساس لكلّ أشكال هذا القصص، وهو قصة المعراج»[3]، وفي السّياق نفسه يواصل الباحث الحديث عن قضية التفاعل اللّغويّ السّرديّ، مبرزًا تأثيره على تلاقح الأنواع السّرديّة بدءًا من: القصص القديم ووصولاً إلى القصص الحديث، الذي برز وبشكل كبير في أوروبا، ولم يلبث كثيرًا حتى انتشر بشكل بارز ضمن السّاحة الأدبيّة العربيّة، يقول: «ولم يلبث كثيرًا هذا النّوع الأدبي أن تطور وازدهر في الأدب العربيّ»[4]، وكنتيجة لهذه المثاقفة الأدبيّة

(١) نفسه، ص١٩٨. (٢) نفسه، ص٢٠٩. (٣) نفسه، ٢٢٤. (٤) نفسه، ص١٢٣.

السّرديّة الغربية والعربيّة، تجلّت الأنواع الأدبيّة الجديدة بسبب ثقافة التّفاعل اللّغويّ والسّرديّ، يقول: «وهكذا يبدو واضحًا أنّ مما سبق، يفيد أن التّفاعل اللّغويّ – الأدبي في طوريه كان عاملاً مهمًّا في نشأة القص الحديث وتطويره في الأدبيين الغربي والعربيّ»[١].

خامسا: الخصائص المفهوميّة للقصّة والقصّة القصيرة العربيّة:

ضمن هذا المحور الإشكاليّ الخاص، بتحديد أهم المسارات المفهوميّة لجنس القصّة القصيرة العربيّة وأهم الخصوصيات الفنيّة التي اتّسمت بها، انطلق الباحث في تحديده لجنس «القصة القصيرة السّعوديّة «من خلال اعتماده على نماذج من هذا النّوع القصصي، من أجل الكشف عن الشّعريّات النصية والسّرديّة التي تتّسم بها القصّة القصيرة السّعوديّة، من خلال تبنيه لرؤية منهجيّة بنيويّة، تسعى للكشف عن الشّعريّة النّصية، يقول الباحث: «ليس من أهداف هذه الدّراسة أنّ تبحث في هذه القضية، وإنّما تجد فيها دافعًا إلى إجراء دراسة نصيّة»[٢]، كل هذا جعله يشير إلى أسباب تطور القصّة القصيرة، في بلاد الخليج العربيّ من منطلق المناخ الأدبي المهيأ لها، الذي أفرز بدوره جنسًا قصصيًّا جديدًا، وهو «القصّة القصيرة جدا»، فحشد له مسارًا مفهوميًّا ومصطلحيًّا، من قبيل: القُصيصة/القصة الومضة/القصة بحجم الكف/القصة الشّذرة/القصة القبسة، وآخر تداوليًّا ونقديًّا شائعًا بين البحاثة، يقول: «القُصيصة، كلمة واحدة تدل على معنى القصّ وعلى القصير منه»[٣]، ليصل بعد ذلك للكشف عن تكوينيّة شعريّات سرد هذا النوع القصصيّ الجديد، من خلال دراسته لنص: «قرى الملول» لسليمان جمعة»، يقول الباحث: «إنّها كتابة تجريبيّة تكثر النّماذج ظاهرة يتولّى النّقد بلورة خصائصها، فتتم بلورة نوع قصصي جديد»[٤]، وفي السّياق الاجرائي نفسه، يواصل الباحث الكشف عن جماليّات شعريّة السّرد لهذا النوع، من خلال دراسته لأعمال «زكريا تامر» مبرزًا أنساق هذه الشّعريّة السّرديّة، عبر مقولتي: التّصنيف/التّحليل النّصيّ، يقول: «تفيد قراءة هذه النّصوص أنّ كلا منها تمثّل زمنًا مستقلاً: بنية ورؤية»[٥]، أما في حديثه عن إشكاليّة النّوع الأدبيّ القصصيّ الجديد، الذي اكتسح السّاحة الأدبيّة المعاصرة والمتمثّل في «القصّة الومضة»، بحيث قام بتحديد أطرها اللّغويّة/الاصطلاحيّة

(١) نفسه، ٢٤٢.
(٢) نفسه، ص٢٤٥.
(٣) نفسه، ص٢٣٤.
(٤) نفسه، ص٢٨٤.
(٥) نفسه، ص٢٩٠.

والتّداوليّة، من منطلق أنّها: «القصّة الومضة هي قصّة من حيث النّوع والومضة مكوّن من مكوّناتها يميزها عن باقي أنواع القص: كالقصة القصيرة، الأقصوصة، القصة القصيرة جدا، القصصيّة، أما الومضة القصصيّة فهي – ومضة – من حيث النوع، والقصصيّة مكون من مكوناتها تميزها من بقية أنواع – الومض – كالومضة الشّعريّة، الحوارية، المحكية»[1]، ليصل بعد ذلك إلى دراسة بعض النماذج القصصيّة لهذا النوع السّرديّ لكل من: «محمد لقمان، خليل زقوت» وغيرهما، كاشفا شعريتهما السّرديّة والنوعية.

سادسًا: المسارات المفهوميّة للنّوع السّرديّ للقصص السّيريّ الجديد:

انطلق الباحث في بناء المسار المفهوميّ «للقصص السّيريّ» من أنّه يمثل نوعًا أدبيًّا قصصيًّا قديمًا/جديدًا، فرض نفسه بقوة ضمن السّاحة الأدبيّة المعاصرة لما يتمتع به من شعريّات سرديّة فذّة، لذلك عمد الباحث إلى إقامة تمييز مفهوميّ بين السّيرة/المذكرات/الذّكريات/اليوميّات/الاعترافات، يقول الباحث: «إنّ هذه الأنواع من الكتابة فيها عناصر من السّير الذّاتيّة وليست سير ذاتيّة، أما السّيرة فهي تمثل قصّة حياة لشخص ما متميز، تتصّف بما تتصّف به القصّة من خصائص... إنّها بناء أدبيّ متخيّل، لذلك فقد تكون إمّا سيرة شعبيّة مثل سيرة بني هلال أو سيرة ذاتيّة مثل: الأيام لطه حسين، أو غيريّة مثل سيرة جبران خليل جبران وغيرها»[2]، ثم يصل الباحث بعد ذلك إلى تحديد أهم الخصائص الأدبيّة والسّرديّة لأدب السّير الرّوائيّة، متخذًا في ذلك نماذج روائيّة سيريّة، «لجواد صيداوي» من أجل ابراز الشّعريّة السّرديّة لهذه النّصوص السّيريّة الرّوائيّة النّموذجية، من خلال الكشف عن مختلف التّقنيات السّرديّة التي تشكّلت عبرها هذه النّصوص، من منطلق أن جينيتها السّيريّة والسّرديّة، يقول: «إن المادة الرّوائيّة في روايات جواد صيداوي مأخوذة من الحياة المعيشة، وخصوصًا من سيرته الذّاتية وسير شخصيات ومدن يعرفها، وتمثل قضايا وجوديّة وإنسانيّة كبيرة»[3].

سابعًا: الأبعاد الهوياتيّة في الكتابة الرّوائيّة العربيّة:

ينطلق الباحث في دراسة التّشكيلات الهوياتيّة في السّرد الرّوائيّ العربيّ، من خلال حديثه عن إشكاليّة «الأنا والآخر» في الكتابة الرّوائيّة العربيّة اللّبنانيّة، من خلال رواية: الظّل والصّدى «ليوسف حبشي الأشقر»، حيث استهل في هذه الدّراسة

(١) نفسه، ص٢٩٢.
(٢) نفسه، ص٣٠٠/ ٣٠١.
(٣) نفسه، ص٣٢٨.

الإشارة إلى المسارات الموضوعاتيّة المتمفّصلة في الرّواية والقائمة في تشكيلها السّرديّ على ثنائية الأنا والآخر، التي منحت للرواية شعريّة أدبية سرديّة وأخرى فكريّة، لها علاقة مفصليّة مع المسار الصّورولوجي للتّشكيل السّرديّ، الذي اعتمده كإطار اجرائيّ/مرجعيّ في فهم وتفسيروتأويل صورة الآخر الصّهيونيّ في الرّواية المقاومة، حيث اختار لذلك، نماذج روائيّة من كتابات كلا من: «رضا التامر» في مذكراته عن اليهود، ولـ: «سحر خليفة» في رواية «عباد الشمس»، وعبر هذين العملين كشف الباحث عن مختلف أنساق سرد صورة الآخر اليهوديّ العدوانيّ، وفق تشكيل خطاب مضاد للآخر له علاقة بأهم المراحل التّاريخيّة الثلاثة، يقول: «الأولى وسيطر فيها الاستعمار الغربيّ، والثّانية قام فيها الكيان الاستيطانيّ الصّهيونيّ والثّالثة بدأ يواجه فيها المقاومة العسكريّة»[1]، وفي مقابل الكشف عن صورة الآخر الصّهيونيّ في الرّواية اللّبنانيّة، تنهض إشكاليّة البحث في الرّواية إلى الآخر العربيّ في الأدب القصصي الصّهيونيّ، فاستهلّ الباحث فيها دراسة الخصوصية المصطلحيّة والتّداوليّة للأدب الصّهيونيّ، يقول: «يعود اختيار مصطلح «الأدب الصّهيونيّ» إلى تطوّر المصطلحات الأخرى: اليهوديّ/العبريّ/الإسرائيليّ، عن التّعبير عن هوّية الأدب»[2]، ليشير بعدها إلى التّكوينيّة الفكريّة والإديولوجيّة التي تعكس خصوصيّة هذا الابداع والقائمة على فكرة «شعب الله المختار»، هذه الأخيرة أفضت – حسبه – إلى: «الانفصال عن الآخر والانسحاب إلى خلق علاقة فريدة بالرّب: الإحساس بالظّلم والاضطهاد وعدم إقرار الآخر بمقولة التفوّق»[3]، ومن ثمة فقد حشد لذلك الكثير من النّصوص الرّوائيّة التّأسيسيّة للإبداع الرّوائيّ لكلّ من: «ليزهار سميلانسكي» في رواية: «أيام تسيكلاج» ورواية: «آموساي» لـ: «لياكوف رابيوتيز» وغيرهما، محاولاً الكشف عن مضمرات خطاب صورة الآخر العربيّ في هذه الابداعات من جهة، وإبراز مختلف أنساق الخطاب المضاد للآخر، عبر نسق صورة سرد خطاب الاحتقار المعمم على كل شعوب العالم، يقول: «إنّ قتل الآخر العربيّ يكون إحساس بالوجود والموظفة في خدمة المشروع الاستعماري الغربي»[4]، وفي سياق البحث عن هوية وصورة الآخر، يذهب الباحث في دراسة إشكاليّة «التّهجير» الفلسطينيّ في الرّواية الفلسطينيّة، فاختار لذلك نماذج روائيّة لكلّ

(١) نفسه، ص٣٣٩. (٢) نفسه، ص٣٥٣. (٣) نفسه، ص٣٥٥. (٤) نفسه، ص٣٨٤.

من: «رشاد أبي شاور» في روايته «آه يا بيروت» ورواية «إيفان فلسطين» لمروان عبد العالي»، وعبر هذين العملين بين الباحث أهم المراحل التّاريخيّة، التي عاشها الفلسطينيّ في ظل التّهجير المسلّط عليه بفعل مقاومته للاجتياح الإسرائيليّ في لبنان من جهة، ومقاومة العيش في المنفى من جهة أخرى، وعلى خلفيّة موضوعة «التّهجير» المسرودة في الابداع الفلسطينيّ، كشف الباحث عن شعريّة أنساق خطاب التّهجير المتمفّصلة في ثنايا الإبداع الرّوائيّ الفلسطينيّ، من خلال تبني تحليل سيميائيّ سرديّ، يقول: «نحاول أن نقدم هذه الدّراسة معرفة بها بين الروايتين اللتين ترويان تجربتين متميزتين من تجارب الفلسطيني المقاوم»[1].

ثامنًا: خلاصة

هذه أهم القضايا والإشكالات التي عمل الباحث – زراقط – على دراستها وتحليلها تحليلاً حداثيًّا يستجيب لأهم الرّؤى النّقديّة المعاصرة ومتجاوزًا إياها في الوقت نفسه، إلى بناء تصوّرات سرديّة نقديّة جديدة، قائمة على دراسة التّكوينيّة الشّعريّة والسّرديّة لمختلف الأنواع السّرديّة اللّبنانيّة والعربيّة المعاصرة، وعليه يمكن القول إنّ كتاب: **في السّرد العربيّ شعريّة وقضايا**، يشكّل مشروعًا نقديًّا جديدًا ومتميزًا في السّاحة النّقديّة العربيّة المعاصرة، إنّه في النّهاية: **بحث عن سرديّات نقديّة جديدة.**

(١) نفسه، ص٣٨٥.

الحزن جميلًا
شعريّة محمّد الماغوط

علي ضاهر جعفر[*]

خارجًا على القاعدة الشّعريّة العربيّة «**أعذب الشّعر أكذبه**»، يكتب محمّد الماغوط قصيدة النّثر، مُعلنًا انتسابه إلى مرارة الواقع، لتكون القصيدة بين يديه صرخةً وموقفًا، لا استغراقًا في الحزن الرّومنسيّ، أو البلاغة العربيّة الّتي تتوسّل التّشبيه والاستعارة وغيرها من صور وأساليب. هي شعريّة الألم، شعريّة الصّدق والأزقّة، لا شعريّة التّأمّل أو الفلسفة أو الأفكار العُلويّة. مع الماغوط، بات المتلقّي يردّد:

وإنَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائِلُهُ
بيتٌ يُقالُ، إذا أنشدتَهُ: صَدَقا[1]

لا يعني هذا أنَّ الشّاعر يذهب إلى المباشرة في شعره، وإلى إهمال البلاغة كليًّا، لكنَّ الشِّعريَّة عنده لا تقوم على الخيال والانزياح وحسب، بل تنطلق من الواقع، لتضفي عليه رؤيتها الذّاتيّة، ولغتها الخاصّة بها، وتصويرها الشّعريَّ للقضايا المطروحة. هي قصائد متصالحةٌ مع الذّات، لا تنحو منحًى انعزاليًّا، بل تجعل من القضايا الإنسانيَّة محور اهتماماتها.

يقول الشّاعر في قصيدة **نجوم وأمطار**:

يا أهلي..يا شعبي
يا من أطلقتموني كالرَّصاصة خارج العالم
الجوعُ ينبضُ في أحشائي كالجنين
إنّني أقرضُ خدودي من الدّاخل

* * *

(*) شاعر، أستاذ في التّعليم الثّانوي، طالب في المعهد العالي للدّكتوراة - الجامعة اللّبنانيّة - السّنة الأخيرة - اختصاص اللّغة العربيّة وآدابها.

(١) جحا، ميشال، أعلام الشّعر العربيّ الحديث: من أحمد شوقي إلى محمود درويش، بيروت: دار العودة، ط٢، ٢٠٠٣م، ص١٣.

ما أكتبه في الصّباح
أشمئزُّ منه في المساء
مَن أصافحه في التّاسعه
أشتهي قتله في العاشره
أريد زهرةً كبيرةً بحجم الوجه
ثقبًا كبيرًا بين الكتفين
لتنبثق ذكرياتي كلُّها كالينبوع
أصابعي ضجرةٌ من بعضها
وحاجباي خصمان متقابلان

* * *

أريدُ أن أهزَّ جسدي كالسّلك
في إحدى المقابر النّائية
أن أسقط في بئرٍ عميقه
من الوحوش والأمَّهات والأساور
لقد نسيتُ شكل الملعقة وطعم الملح
نسيتُ ضوء القمر ورائحة الأطفال
إنَّ أحشائي مليئةٌ بالقهوة الباردة
والمياه العمياء
وحنجرتي مفعمةٌ بقصاصات الورق
وشرائح الثّلج
أيُّها الماء القديم
أيُّها الماء النّيِّئ..كم أحبك

* * *

بياقاتٍ صلبةٍ حتّى الذّقن
بشفاهٍ دبقة ومعاصم تخنقها الأزرار
نقف لتأكل
نقفُ لنشتاق
نهوي على الذّباب بالقصائدِ والمناديل
لنلمح شجرةً أو طائرًا يمضي.
بأقدامٍ صغيرةٍ لا تعرف الرّحمه
نتّكئ على الأرض
ونقذف أضلاع الرّيف من شارع إلى شارع

* * *

كنتُ أصعدُ الأدراج الملتوية مئات المرّات
نظيفًا كالقطن
لمَّاعًا كورق الآس
أصعدُ وأهبطُ كخنجرِ القاتل
بأحذية الشّهرة، وأحذية البغضاء
معلِّقًا تعاستي في مسامير الحائط
غارِسًا عينيَّ في الشّرفات البعيده
والأنهار العائدة من الأسر
رأيتهم جميعًا تحت السّماء الصّفراء
أغنياء ومسالمين
فقراء ووحوش
ملايين الأسنان تصطدمُ في الشّارع
ملايين الوجوه المقطَّبه
تخفض بصرها تحت الرّعد
رأيتُ الجنازات المسرعه
وأعنَّة الجياد البربريّة تلتهبُ في الشّوارع
والعمّال يسقطون من الأدوار العليا

يقبرون بإحكام تحت المطر الحزين
مع تبغهم وثيابهم وصُرَرِ طعامهم
دون [من دون] أن يثور شيءٌ ما في الصَّحراء
الرّيحُ تصفرُ فوق النَّجيع
والقبورُ الصَّغيره
تتساقطُ كالنَّدى على القبّعات والمعاطف.

* * *

رأيتُ النّسيم المُعلَّب
والصُّحف المرتطمة بالأمطار
شربتُ المياهَ المُسِنَّه
ولعقتُ الزُّبدَة الّتي فيها دماءُ الثَّدي
ولم تساورني الشّكوك أبدًا
في هذه الأرض النّائمة كالطّفل
في هذه الأرض المحدودبة كالجزّار
ولكن من خلال الشّبابيك
من خلال الآلاف المؤلّفه
من النّجوم والجثث والمطارق النّارية
كنتُ أبحث عن ضربة قاصمة لوجهي
عن بحر صغير أنتعله بقدمي
وطعام متكبّر
أطويه على زندي كالوشاح.
لقد مللتُ السّلالم الطّويلة وقاعات الانتصار
أريد أن أشوي الذّرة عند الغروب
أن آكل الحجر والحصى عند الغروب

***

أريد أن أضمَّ إلى صدري أيَّ شيءٍ بعيد
زهرةً برّيّةً
أو حذاءً موحِلاً بحجم النّسر
أريد أن آكل وأشرب وأموت
وأنام في لحظة واحده
إنّني مسرع مسرع
كغيمة أصيبت بالجرب
كموجةٍ وحيدة مطاردة في البحر.[1]

تهيمن على القصيدة لغةٌ مفعمةٌ بالحزن والتراجيديا والتّشاؤم، ولمعظم قصائد الماغوط هذا اللّون وهذه النّبرة. بِنيويًّا، تحيل القصيدة إلى الدّلالات المقصودة أو غير المقصودة.

أمّا على المستوى المعجميّ، فإنَّ للموت حضوره الّذي لا يخفى من خلال المفردات والعبارات الّتي توزّعت في النّصّ: **قتله، المقابر النّائية، الجنازات المسرعة، يُقبَرون بإحكام، القبور الصّغيرة**. في هذا السّياق، «رسمٌ بالكلمات» للمشهديَّة القاتِمة، الّتي تُفصحُ عمّا وراءَها. ههنا، لا سيادة إلاّ

(١) الماغوط، محمد، الأعمال الشّعريّة، بيروت - لبنان، دمشق - سوريا، بغداد - العراق: دار المدى، ط٣، ٢٠١٣م، ص٧٩ - ٨٣.

للموت، ولا غلبة إلاّ له، فهو قدرُ الإنسان الّذي ينتصرُ الشّاعر له.

وإذا ما أراد المتلقّي أن ينعم النّظر في القصيدة، يطالعه – على المستوى النّحويّ – استخدام الحال من قبل الشّاعر، في أكثر من موضع. والحال «**وصفٌ فضلةٌ مَسوقٌ لبيانِ هيئةِ صاحبِه، أو تأكيدِه، أو تأكيدِ عاملِه، أو مضمونِ الجملةِ قبلَه**»(١). في المثال الأوّل، تندرج الحالُ في صورةٍ يحكمها تناقضٌ وتضادّ. هو ليس تضادًّا لفظيًّا قائمًا بين فعلَيْن أو اسمَيْن أو حرَفْين أو عبارتَيْن، لكنَّه تضادٌّ معنويٌّ بين طرفَيْن تُعدُّ الحال إحداهما. يقول الشّاعر:

كنتُ أصعدُ الأدراج الملتوية مئات المرّات

نظيفًا كالقطن

لمَّاعًا كورق الآس

في الأسطر الآنفة حالان: **نظيفًا، لمّاعًا.** هما حالان فيهما من البياض والصّفاء الشّيء الكثير، لكنَّ الالتواء في الأدراج لا يتوافق وهذه الصّورة. فما بين النّظافة واللّمعان من جهة، والالتواء من جهة أخرى، تضادٌّ غير مألوف، إلاّ أنّه دالٌّ معبِّرٌ عن أزمة الشّاعر في الواقع. أزمة أيِّ إنسانٍ نَقيٍّ، مستقيمِ الطّريقة، تواجهه الأزمات، وتعرّجات الحياة، والمفاهيم المزوّرة الملوَّثة. هي أزمة الإنسان العربيِّ في العصر الرّاهن، أزمةٌ تشملُ الفكرَ والواقعَ معًا، تتصادم في حيِّزهما الخيارات والرّؤى، ويعاني الفردُ داءَ الانفصام، بين الدّاخلِ والخارج، بين المفهومِ والمصداق، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

إلى ذلك، ثمّة مزيدٌ من استخدام الحال في القصيدة. يقول الشّاعر:

أصعدُ وأهبطُ كخنجرِ القاتل

بأحذية الشّهرة، وأحذية البغضاء

معلِّقًا تعاستي في مسامير الحائط

غارِسًا عينيَّ في الشّرفات البعيده

يستهلُّ الشّاعر السّطرين الأخيرين الواردين في هذا الشّاهد، بحالين هما: **مُعلِّقًا، غارِسًا.** تشير المفردتان إلى بيان ما عليه الشّاعر من صفات التّعاسة المتجذّرة، مع توكيد ما للواقع المرير من خصائص وسمات. فالغرسُ فيه معنى التّثبيت «**وغَرَسَ فلانٌ عندي نعمةً: أثبَتَها**»(٢). كما أنَّ الفعل علَّق يفيد الدّلالة نفسها بوجهٍ عامّ «**علّق الشّيء بالشّيء وعليه ومنه: جعله معلَّقًا به. وعلَّق الأمر: ضدّ صرمَهُ**

(١) ابن هشام، جمال الدّين أبو محمّد عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١هـ)، شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، ط١، ٢٠٠١م، ص١٣٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادّة غرس، بيروت: دار صادر، لا ط، لا ت، ج ٦، ص١٥٤.

وتَرَكَه»[1] يغرس الشّاعر تعاسته، الّتي سيتبع غرسَها ثمرٌ ونماء لها. وعليه، فالتّعاسة هنا مضطردة، لا خمودَ لها. أما تعليقُها، فهو تثبيتٌ يتنافى والوهنَ، بخاصّةٍ إذا ما اقترنت الحال الدّالّة عليه بشبه الجملة «في مسامير الحائط». يصبو الشّاعر من خلال هاتين الحالين إلى توكيد رؤيته التّشاؤمّية، بلغته المعهودة، وسخريته الحادّة.

إلى ذلك، يحضر الفعل المضارع الّذي يتكرّر ستًّا وأربعين مرّةً، ليشير إلى وصف المأساة وفق ما أراد الشّاعر إبرازها. هي مأساةٌ مستمرّة، غير منقضية، جاء هذا الفعل ليعمّقها. والأفعال الواردةُ أيضًا – فضلاً عمّا لِزَمَنِها الخاصِّ بها من دلالة – تحيل إلى الدّلالة نفسها. ومنها: **أقرضُ، أشمئزُّ، أسقط، تصطدمُ، تلتهبُ، يسقطون، يقبرون، تصفرُ، تتساقطُ،... إلخ**. تحكي كلُّ هذه الأفعال مشهديَّة الموت، واليأس، والحزن. مشهديَّةٌ أراد الشّاعر وصفها والتّعبير عنها، وهي الغاية الّتي جاء الفعل المضارع ليعضده فيها. هي أفعالٌ لا تتّسم بالمهادنة، بل بالتّصادم. أفعالٌ تتركُ في النّفس صداها الحادّ، وصوتها اللاّذع، ولونًا قاتِمًا قانيًا. بينما يلحظ المتلقّي، من جهةٍ أخرى، ندرة الأفعال الماضية الّتي لم يتجاوز عددها تسعة أفعال، ونسبتها الضّئيلة في القصيدة، مقابل نسبة الأفعال المضارعة.

ويبرز على المستوى الصّرفيّ تناوب ضمائر المتكلّم وضمائر الغائب. أمّا ضمير المتكلّم – الّذي يطغى حضورًا – فيشير غالبًا إلى الشّاعر: **فمي، أسناني، أطلقتموني، تعاستي، عينيَّ، أحشائي، خدودي، ذكرياتي، حاجباي،...** إلخ. بينما تشير ضمائر الغائب إلى النّاس، إلى المجتمعات، إلى الطّبقات والفئات الّتي يحكي الشّاعر أوجاعها وأنّاتها. ومن المفردات والأفعال الّتي اتّصلت بها هذه الضّمائر: **رأيتهم، يسقطون،تبغهم، ثيابهم، صُرَر طعامهم، بصرَها، يقبرون،...** إلخ. لكنَّ الشّاعر الذّي يحضر بقوّة من خلال ضمير المتكلّم ليس أنانيًّا منعزِلاً، بل هو مرآة الآخر الّذي لا يُغيِّبُه عن نصّه؛ ففي تعاسة الماغوط تعاسة كلّ المحبطين، ذكرياته هي ذكرياتهم نفسُها، عيناه وما تختزن من صُوَرٍ لا تغادرها هي عيونُ بني قومه. ولعلَّ الفعل «رأيتهم» الّذي يجمع بين ضميرَي المتكلّم والغائب معًا خيرُ شاهدٍ وبرهانٍ على هذا النَّسَب القائم بين الشّاعر والنّاس، بين الفرد والمجتمع، فضلاً عن دلالة الفعل «رأى» الّذي اتّصل به هذان الضّميران.

(١) مجموعة مؤلّفين، المنجد في اللّغة والأعلام، مادّة علق، بيروت: دار المشرق، ط٤٢، ٢٠٠٧م، ص٥٢٦.

بلاغيًّا، يشهد المتلقّي حضورًا للبيان مُتَمثِّلاً بالتَّشبيه والاستعارة. يقع المتلقّي على أحد عشر تشبيهًا، وعلى الكثير من الاستعارات. في توظيف الماغوط للبلاغة، ليست الصُّور البيانيَّة غايةً ومرامًا، بل هي لبنةٌ في بناءِ الصّورة، في التقاط الصّورة، في نقلِ رائحةِ الحزنِ والموتِ إلى القارئ، حتّى لَيَشْعُرُ أنّه أمام ما في الواقع من سوداويّة وظلمٍ وظلامٍ وانكسار، يكادُ – ولعلّه يشعر بالحدث فعلاً – يحضر عند المقابر الّتي يذكرها الماغوط، فيشمّ رائحة الموتى، ويتحسّس هشاشة أجسادهم وأنّات أرواحهم. يقول الشّاعر:

الجوعُ ينبضُ في أحشائي كالجنين

يقوم هذا التّشبيه على طرفين اثنين هما: الجوع مشبَّهًا، والجنين مشبَّهًا به. يغدو الجوع جنينًا مُتَّسِمًا بالنّبض في الأحشاء، ليكشف عن حركةٍ مُنافيةٍ لِلسّكون والجمود، بل إنَّ له حركةً ووجودًا حيًّا. أمّا ذكر نبض الجنين – الجوع في الأحشاء، مع نسبته – من خلال ياء المتكلِّم – إلى الشّاعر، فإنَّ هذا يجعل من الإنسان «حيوانًا جائعًا» إن صحَّ القول، وفق أدبيّات المناطقة، والمنهج الأرسطيِّ في التّعريف، بِـ «الفصلِ» و«الخاصّة». يغدو الجوع نتاجًا ووليدًا، يغدو الجوعُ نجلاً ونَسلاً، يغدو الجوع فرعًا ينتمي إلى أصله، والجوع بدوره سيؤدّي إلى ولادة أشياءَ أُخَر، امتدادًا للنَّسل. فماذا تراهُ يخرجُ من صُلبِ الجوع؟ يبيّن هذا التّشبيه بوضوحٍ وعمقٍ أثر الجوع، وحجمه، ونسبته، وكونه عنوانًا بارزًا في الكشف عمّا في المجتمع والوقع من مآسي وويلاتٍ، عن حجم الحزن الّذي يعاني منه النّاس.

وفي تشبيهٍ آخر في القصيدة يقول الماغوط:

أريد زهرةً كبيرةً بحجم الوجه

ثقبًا كبيرًا بين الكتفين

لتنبثق ذكرياتي كلُّها كالينبوع

في السّطر الثّالث، تشبيهٌ للذّكريات بالينبوع. فما هي أوجه الشّبه بين الذّكريات والينبوع؟ يجمع ما بين المفردتين: التّدفّق، والبدء من العمق لِـ «ينفجر» على السّطح، وكون الشّيء المتدفّق كلاًّ متكوّنً من اجتماع الأجزاء، بل إنَّ هذا التّدفّق هو نتيجة ترسّب طويل الأمد، عميق الغور. مع كلِّ هذه المشتركات، تغدو هذه الصّورة البيانيّة سامقةً وعميقةً في آن، بليغةً بصدق، كاشفةً عن المعنى ليكون أسنى ما يكون مع ما هو عليه من سوداويّة. هو المعنى الآتي من واقع حالكٍ، أشعث، أغبر. ها هو يتجلّى في بيانٍ وانزياحٍ دالٍّ ومعبِّر.

ولا تغيب الاستعارات، الّتي تفوق في عددها سائر الصّور البيانيّة في القصيدة. يقول الشّاعر في إحداها:

رأيتُ النَّسيم المعلَّب

في هذه الجملة، يقيّد الشّاعر المطلق، ويمارس عليه فعلاً لطالما استنكره، وصوّر ويلاته وفظاعته، ذلك هو السَّجن والاعتقال. فمتى بات النَّسيم – الدّالُّ على الحريّة – مُعلَّبًا؟! ولمَ يلجأ الشّاعر إلى هذه الصّورة؟

من خلال هذه الاستعارة، يبيّن محمّد الماغوط حجم المأساة الّتي وصل إليها الإنسان العربيُّ، بحيث باتت الحريّة شبه معدومة، وصارت الحقوق مهضومة، وغدا المباحُ ممنوعًا، وهيمنت الرّقابة والسّلطة على الحياة بكلّ تفاصيلها. تذكّرنا هذه الاستعارة بتصوير الشّقق السّكنيّة في المدن بالعلب المعدنيّة في سياق إبراز الوجه السّلبيّ للمدينة، والنّمط المعيشيّ فيها. فالشّاعر هنا مستاءٌ رافضٌ لما هو عليه الواقع من حال، ولما يحلُّ بالنّاس. يريد للحياة أن تكون نقيَّةً، حرّة، نابضة. ولا يغيب عن المتلقّي في هذ السّياق، كون الحريّة قضيّة شغلت الماغوط في أعمال كثيرة له، من شعريّة ومسرحيّة.

أمّا على المستوى الرّمزيّ، فالقصيدة حبلى بمجموعةٍ من الرّموز، لكنَّ أبرزها وأكثرها حضورًا رمز «الماء». يستحضر الشّاعر هذا الرّمز في مواضع عديدة من القصيدة، ويغلب عليه وروده على سبيل الاستعارة البيانيّة، إذ يسبغ عليه الماغوط عددًا من الصّفات، منها الإنسانيُّ وغير الإنسانيّ. وقد ورد في العبارات الآتية:

١ – أيّها الماء القديم

٢ – أيّها الماء النّيِّئ.. كم أحبُّك

٣ – يقبرون بإحكام تحت المطر الحزين

٤ – شربتُ المياه المسنَّه

٥ – والمياهَ العمياء

لطالما كان الماء رمزًا للخصب والحياة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[١]. لكنَّ هذا الرَّمز، تخلَّى عن دلالته الأصليَّة لدى عددٍ من شعراء الحداثة، وبخاصَّة عند وروده في مفردة «المطر». فهذا بدر شاكر السّيّاب سمّى ديوانه «أنشودة المطر»، وأسبغ على هذه المفردة معاني يائسة، حزينة، متشائمة. فها هو في القصيدة الّتي عنون الدّيوان باسمها يقول:

أتعلمين أيَّ حزنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج الزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد في بالضّياع؟

بلا انتهاءٍ – كالدَّمِ المُراقِ، كالجياع

كالحبِّ، كالأطفال، كالموتى – هو المطر![٢]

لم يقتصر استخدام السيّاب والماغوط وسواهما من شعراء الحداثة لرمز الماء على

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) السّيّاب، بدر شاكر، الأعمال الشّعريّة الكاملة، بيروت: دار العودة: لا ط، ٢٠٠٥م، ج٢، ص١٢٠ – ١٢١.

المعنى السّلبيّ، لكنَّ الحزن سمةٌ مشتركةٌ أسبغاها - أي الماغوط والسّيّاب - على المطر بوصفه ماءً، وهذا ما يستدعي التّساؤل عن السّبب والدَّلالة. إنَّ المطر في الذّاكرة الشّعبيّة، والتّراث الثّقافيّ، والنّصوص المختلفة، يقترن غالبًا بالخير؛ فبهطوله ترتوي الأرض، ويتفتَّق الثّمر، وتكثر الخيرات. وما غياب الماء والمطر إلاّ نذير شؤمٍ وقرينُ عذاب، وإنَّ ما حلَّ بأهل مصر من قحطٍ وانقطاعٍ للمطر أيّام نبيِّ الله يوسف عليه السلام ممّا حكاه القرآن الكريم وكتب التّاريخ، هو في هذا الباب مثالٌ بارز. وللمسلمين صلاةٌ خاصَّةٌ تسمّى «صلاة الاستسقاء»، تؤدّى عند انقطاع الغيث[1]. فإنَّ الحزن المقترن بالمطر لدى الماغوط، ولدى السيّاب قبله، ذو ارتباطٍ بعدم القدرة على إغاثة النّاس، والذّهاب بهم نحو الأفضل. المطر الحزين هنا، هو المطر الّذي لم يعد ذا قدرةٍ فاعلة مؤثّرة، ولم يعد ريًّا للأحلام والأماني؛ فهو، كحال الكثيرين، لا يلوي على شيء، قد حلَّ به الوهن، والعجز.

يعضد هذه الدّلالة للمطر الحزين بوصفه ماءً، رمز الماء المسنّ. لم يعهد المتلقّي استخدام هذا التّعبير وهذه الصّورة من الشّعراء سابقًا، وهو تعبيرٌ يساعد على فهمه، معرفة خصائص المسنّ وسماته؛ فإنَّ المرء، إذا ما تقدّم به العمر، وبلغ من العمر عتيّا، وأصابه الهرم، بات عاجزًا، وهو ما عبّر عنه الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[2] في هذه المرحلة العمريّة، يفتقد الإنسان الكثير من القدرة على العطاء والإنتاج، بل إنّه يغدو عاجزًا، محتاجًا إلى العناية به من قبل الآخرين. فضلاً عن ذلك، فإنَّ علومًا كثيرة، منها علم الاجتماع وعلم الطّبيعة، يقولان بأعمار للنباتات والأشجار والحيوانات، وأعمار للدّول أيضًا، ويرون لها مراحل عمريّة يعدّ الهرم آخرها وأوهَنَها. هذه هي المرحلة الّتي يصف الشّاعر بها الماء في العبارة «**شربتُ المياه المسنَّه**». يشرب المياه المسنّة الّتي ضارعت حالها حال النّاس الذّين يشربونها، وهي الّتي رافقتهم أعمارًا، وقد تنحّت عن كرسيّ السّلطة، سلطة الفعل والإحياء، لتماثل حال ما يكتنفها مِن مجتمعات.

---

(١) يرتبط الغيث بما ينبت من الأرض، فهو اسمٌ محمولٌ على النّتيجة، وتسمية المطر بالغيث لهذا السّبب ألصقُ بما كان منه بعد انقطاع، لِما يترك حينئذٍ من أثرٍ بادٍ في الأرض؛ فالغيث هو «المطر والكلأ؛ وقيل: الأصل المطر، ثمَّ سُمِّيَ ما ينبُتُ بهُ غيثًا» (ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ١٧٥). ويؤيّد هذا المعنى ما ورد في القرآن الكريم. قال تعالى في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

أمّا الماء النيّئ، فهو إشارة إلى عدم النّضج بعد. والماء لا ينضج، بل إنَّ الثّمر هو ما ينضج، والطّعام الّذي يطبخ على النّار. فما هي الدّلالات الّتي رمى إليها الشّاعر؟

يتوقّف على النّضج أمران اثنان: لذّة الطّعام والمنفعة المتأتّية عن تناوله، إضافة إلى صوابيّة القرارات الّتي يتّخذها الإنسان الرّاشد الّذي بلغ مرحلة النّضج. وعليه، فإنَّ النّضج لبنةٌ أساسيّة للخير والفلاح والمنفعة. يمكن لنا، بضمّ عبارة «شربت المياه المسنّة» وما خلصنا إليه من معنى آنفًا، أن نقول: إنَّ الماء النيّئ هنا رمز للأجيال الّتي لا تملك بَعدُ القدرة على التّغيير المراد الّذي يصبو إليه الشّاعر، وبخاصّة إذا ما دقّقنا في جملة «كم أحبك!» الّتي تعقب جملة «أيّها الماء النّيئ» في السّطر نفسه. فهو محبٌّ للأجيال الجديدة، لكنّه يراها غير قادرة في مرحلتها الرّاهنة على تحقيق ما يصبو إليه الماغوط، لافتقارها إلى النّضج، ولما يتّسم به الواقع من ظروف موضوعيّة. لكنَّ هذه الأجيال الجديدة، فيها من التّمسّك بالقيم التّقليديّة ما فيها، ولذلك فإنّها – وفق رؤية الشّاعر الّتي يكشف عنها النّصّ – عاجزة عن اللّحاق بركب الحداثة، إذ تتجاور الجملتان:

أيّها الماء القديم

أيّها الماء النّيِّئ..كم أحبُّك

فإنَّ الأجيال الجديدة تحمل صفتين اثنتين تقصّران بها عن مواكبة العصر، وعن إحداث التّغيير المنشود، هما: التّقليديّة المتقوقعةُ في القِدم، وفقدان النّضج.

استنادًا إلى المستويات الّتي دُرست في هذه العُجالة، وبوصف هذه القصيدة مثالاً لرؤية الماغوط، يتكشّف الشّاعر فردًا ساعيًا إلى الحريّة الّتي يتجلّى انتماؤه إليها، على مستوى اللّغة والأسلوب في هذه القصيدة، بل في معظم قصائده، فضلاً عن مناداته بها على مستويات عديدة، سياسيًّا، واجتماعيًّا،...إلخ. والشّاعر الثّائر هو في هذه القصيدة شاعر يفصح عن اختلال المجتمع والتوائه، يُحزنه حال إنسانه العاجز «القديم»، «المسنّ». هو شاعرٌ لا يهرم، قصيدته غضّةٌ عذبة، تشي بحساسيّته المفرطة، وبحزنه الّذي لم يكن حزنًا مُتعالِيًا، وليس حُزنَ اللّاهث خلف الشّأو الذّاتيّ مع قصوره عن تحقيق ما يرمي إليه وما فيه إشباع أناه، بل هو الحزنُ الصّدى، لكلِّ ما حول الشّاعر من مظاهر وتجلّيات الحطّ من منزلة الإنسان وسلبه حقوقه، حزن لما تعانيه الأمّة العربيّة من وهنٍ وضعف، فيُحاصَرُ المبدعون والثّوريّون والحالمون، وليسَ أدلَّ على هذه المشهديّة السّوداويّة في القصيدة من الألفاظ القاسية المستخدمة، الّتي يشعر المتلقّي بأنَّها أشبه بالصَّفعة، فضلاً عن دلالاتها الّتي لها فعلُ

الوخز الشّديد الإيلام. والماغوط في هذه القصيدة لا يتخلّى عن سخريته اللاّذعة، وهي سبيله إلى إبداء الكثير من مواقفه الفكريّة والسّياسيّة:

لقد مللتُ السّلالم الطّويلة وقاعات الانتصار

تذكّرنا قاعات الانتصار الواردة في هذه العبارة بما كتبه بعض الشّعراء العرب عقب الهزائم العربيّة، ومنها «هوامش على دفتر النّكسة» للشّاعر السّوريّ نزار قبّاني. وإن كانت السّخرية من الانتصار في هذا الشّاهد غير مقتصرةٍ على الانتصار العسكريّ على العدوّ، وبخاصّة مع لحظ سياق القصيدة ودلالاتها. فالشّاعر فيها أشبه بمصوّر يلتقط الصّور بعدسته الّتي لا تغفل أيَّ تفصيل.

في هذه القصيدة، يذهب الحزن والتّشاؤم لدى الماغوط إلى حدوده القصوى، فلا اطمئنان لديه إلى أحد، ولا صلح مع الواقع؛ ومن الأمثلة حول هذه المعاني:

١ – مَن أصافحه في التّاسعه

أشتهي قتله في العاشره

٢ – أصابعي ضجرةٌ من بعضها

وحاجباي خصمان متقابلان

في هذه القصيدة، صوت الماغوط وصورته، بما فيهما من حزنٍ ذاتيٍّ وجماعيٍّ، بما فيهما من واقعٍ وانزياحٍ، لا تفارقهما البلاغة والصّدق معًا، وهذه القصيدة كأخواتها، تنتسب إلى الشّاعر الّتي ورثت منه جلَّ صفاته الشّعريّة، فهي في هذا الباب فرعٌ كاشفٌ عن الأصل، ومثال دالٌّ على المفهوم والمعنى الأشمل الأوسع، وهي أيضًا كسواها، رسالةٌ من رسائل الماغوط، ولبنةٌ يرصفها إلى سواها، سعيًا لبناءِ ما تهدَّم من جدارٍ.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – جحا، ميشال، أعلام الشّعر العربيّ الحديث: من أحمد شوقي إلى محمود درويش، بيروت: دار العودة، ط ٢، ٢٠٠٣م.

٣ – الماغوط، محمد، الأعمال الشّعريّة، بيروت – لبنان، دمشق – سوريا، بغداد – العراق: دار المدى، ط ٣، ٢٠١٣م.

٤ – ابن هشام، جمال الدّين أبو محمّد عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١هـ)، شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، بيروت: دار إحياء التّراث العربيّ، ط ١، ٢٠٠١م.

٥ – ابن منظور، لسان العرب، مادّة غرس، بيروت: دار صادر، لا ط، لا ت.

٦ – مجموعة مؤلّفين، المنجد في اللّغة والأعلام، مادّة علق، بيروت: دار المشرق، ط ٤٢، ٢٠٠٧م.

٧ – السّيّاب، بدر شاكر، الأعمال الشّعريّة الكاملة، بيروت: دار العودة: لا ط، ٢٠٠٥م.

قراءة حُوّانية في «أحوال الماء» للشاعر سلمان زين الدين

عمر شبلي

يقول الشاعر بابلو نيرودا: «**لي قلبُ نجّارٍ، وكلُّ ما ألمسُه يصبح غابة**». بابلو نيرودا هنا صانعٌ ونجّارٌ، وجواهري وبَنّاء، وشاعر. هذا كلام يحدِّدُ ماهية الشعر والشاعر في آن. وبابلو نيرودا هنا اختار أن يكون نجّارًا، والنجّار صانعٌ في كلّ حال، لقد اختار نيرودا النجّار، لأنه في غابة، والغابة هي الشعر، وصنع الغابة شعرًا يحتاج إلى خبير بأخشابها، وخبير بقابلية أشجارها للتحوّلات، وللأدوات، وللمخلوقات التي يجب أن تكونها أشجار الغابة، وكيفية استمرار مخلوقاتها المتحوّلة منها، وإليها، وفيها، تمامًا كالناي الذي حكى عنه مولانا جلال الدين الرومي، والذي استمرّ بأنينه من يوم فصلِهِ عن غابته التي كوَّنتْهُ. والغابة التي يصنعها الشاعر، لاتصبح غابة إلا بالناي المُضمَر في كلّ موجوداتها من حركة أخشابها إلى هدير أمواهها، إلى سقسقة جداولها، وحنين طيورها وزغاريدها، وعبثها على أعناق الأشجار المستلقية، ورياحها التي تنوح كالدهر، وتقلّبات الفصول فيها. وقتها تصبح الغابة قصيدة، ووطنًا يجب العودة إليه، ولكن لا بدّ للشاعر النجّار من آلة ليستطيع نقل ألحان ذواتها الكامنة فيها، والتي تعبّر عنها موجوداتها كلّها في جوقة وجودية عجيبة. وقتها لا تبقى الطبيعة خشبًا، بل تغدو قطعة من صانعها، وعلى الشاعر الحقيقي أن يلغي خشبيّة الغابة بالحلول فيها، وهذا الإلغاء غير ممكن إلاّ بالضوء والألم معًا، وبصياغة نسمّيها البناء الشعري، ولكنّ الصياغة مرتبطة بالألم لتحسّ نبض روح الغابة، وكلّ بناء غير هذا متهدّم مهما تباهى بافتعال البناء. الألم في الشعر سابقٌ للضوء، بل وخالقٌ له، لأنّه مخاض المعاناة. والنجّار الذي يدخل الغابة عليه أن يقدّم بين يديها نجاواه الكامنة في أعماقه القصيّة، وهذا ما ندعوه اللغة الحدسية التي تسبق اللغة المباشرة، إنّها الحدس الذي يصنع المولودات، ويُجسّدها. وصناعة المولودات

ترتبط بوجود الآخر في الشاعر وهو يصنع الغابة. والذي يدخل الغابة بلا وجود الآخر فيه يبقى وحيدًا في الغابة، ويتحوّلُ إلى خشبةً فيها، حين تكون في الغابة يجب أن تكون مملوءًا بالآخر، وهذا الامتلاء لا يتّسع له إلا القلب. وهذا يعني أنّ الحبّ وحده هو الذي يُؤَنْسنُ الغابة، ويملأ الشاعر بالمخلوقات الأخرى التي تسعفه في صنع الغابة التي ستصبح مولوده بعد ولادة القصيدة. والمولود الكامن في الشاعرهو يهب له الضوء، وقد تفاجأ الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي حين ذهب إلى الغابة ليتخلّص من الناس، وإذا به يصرخ: «فإذا الناسُ كلّهمْ في ثيابي». وبوجود الآخر يوجد الضوء، والضوء أعلى مصادر تكوينه الحب، والحب هو الثنائية العليا التي لا تبرح الشاعر الذاهب إلى الغابة وحده. فحذار الدخول إلى الغابة بلا حب، وهذا ما عناه بابلو نيرودا بتحويل الخشب إلى روح، والغابة هي الروح. وخالق هذه الغابة هو الشاعر «النجّار» كما أسماه بابلو نيرودا.

في العوالم الشعرية الداخلية يخلق عرّافو الشعر وكهنتُه الآخرَ الداخل في غابة الشاعر الجُوّانيّة، ويجعلونه من سكّان «وادي عبقر» وآلهة جبل «الأولمب». لقد كان عند الأقدمين يقين شعري أنّ قوى أخرى تلقن الشاعر ما يجب أن يقوله. وسبب هذا اليقين الوهمي في رأيي هو الشعر نفسه بما يحمل من غرابة ودهشة ورؤى غير مألوفة. كان للشعر تأثير عالٍ على النفس الإنسانية، ولذا اختاره الناس نشيد الأناشيد في الجنائز، وفي الحالات الحارقة، تلك التي تلذع الوجدان فتُخرج منه لهيبه إلى الكلمة. من هذا المنطلق حكم العرب على الشعر، وميّزوا بين جيده وهجينه، لقد كان الرثاء أمير شعرهم، لما يختزن من لوعة وأسى، ولم تكن لوعتهم وحرائقهم آنيّةً، بل كانت تتّسم بالاستمرار لشدّة علاقتها بالوجدان، لقد كان الشاعر متمَّم بن نيرة يبكي كلما رأى قبرًا، لأنّ ذلك القبر كان يذكّره بقبر أخيه مالك الذي قُتِل في حرب الردّة، يقول متمّم بن نويرة نابشًا وجدانه كلّما رأى قبرًا:

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيته
لقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادكِ
فقلت لهم: إنّ الأسى يبعث الأسى
دعوني فهذا كلُّهُ قبرُ مالكِ

هنا يجب أن أؤكّد، كما أؤكّد في كلّ ما أتناوله من نتاج أدبي على أهمية استواء الصياغة مع الوجدان في عملية البناء الشعري، وأيّ خلل في هذا المضمار يؤدي إلى خلل في العملية الشعرية نفسها. لقد قرأت شعر شعراء بلغوا الأوجَ في عملية البناء الشعري، ولكنّ شعرهم كان خاليًا من الألم، وللتعويض عن الفقر الوجداني لجأوا إلى المبالغات التي أرى أنها آفّةُ الآفات في

شعرنا العربي، قديمه وحديثه. الشعر في حقيقته هو وجدانٌ مسكوبٌ في أوانٍ جميلة. طبعًا على الشاعر أن لا يتعمّد استحضار الوجدان من خارج ذاته، لأنّه سينكشف. وانكشاف ابتعاد الوجدان عن الشعر هو إخلال بالعملية الشعرية برمّتها. وخلو الشعر من الألم الوجداني يؤذي الشاعر مهما عظمت قدرته البنائية في الشعر. هذا إضافة إلى أنّنا أمّة مجروحة، وموتورة الخنادق، وتكاد تكون مسلوبة الهويّة، وأحلامها مطمورة بفسادٍ سميكٍ سميك، ونحن نعاني من مرحلة ألمٍ تكوينيٍّ عميق، نحاول، وتخذلنا المعطيات المتحجّرة. وفينا من المآسي العميقة التي تعصف بوجودنا إلى حدّ الاقتلاع، وهذا ما يجب أن يملأ الشاعر الحقيقيّ أسىً ولوعةً، فكيف يمرُّ شاعر بمآسي هذه الأمّة، ويعبر غيرَ مبالٍ، ثمّ يحاول تغطية عقمه بافتعالِ وهمٍ وطني يناطح السحب برفعته وغلوائهِ، إنّ فهمي للشعر يقوم على اختزان الشاعر روح وطنه، وروحَ أمّته وتجربتها ووجعها ليستطيع الانتقال إلى فرح شعري حقيقي. ومن هذا التوجّه سأدخل في شعر الشاعر سلمان زين الدين، الذي تعامل في شعره مع الوجع الإنساني في ذاته أوّلاً، وفي وطنه، وفي علاقته بالأشياء التي جعلته يلامس وجدانه باستمرار بدخولها فيه، ودخوله فيها في تبادل إبداعي يجعل الرائي والمرئي في رحلة وجودية تؤمن بعمق بعدم فناء الروح، تلك التي تروح لتمتطي جسدًا آخر وتحلّ فيه، وهو يحوك شعره الجميل بتأنٍ، وبفلسفة لا يبتعد عنها في كلّ شعره.

سأدخل إلى سلمان زين الدين من عنوان كتابه «أحوال الماء». طبعًا لم أقل سأدخل إلى شعر سلمان زين الدين من عنوان كتابه، لأنّني أعتبرت أنّه هو شعره، وهذه شهادة له يستحقّها. وحين يكون الشعر هو الشاعر نفسه فإنّك تأوي إليه مطمئنًا وكاشفًا، ومنفعلاً، فالتعامل مع الذات الجوّانية يكون عبر الكلمات، على الرّغم من قصورها في نقل الداخل كلّه إلى الكلمة. ولأنّي قلت سألج من العنوان فلأنّه أعجبني، فالشاعر سلمان زين الدين يجيد صناعة العنوان في دواوينه الشعرية، وفي هذا إغراء لا يندم على الوقوع فيه قارئ شعره. والشعرُ إغواءٌ وإغراء، والعنوان هو أوّل محاولات الإغواء والإغراء. وعندما ينسحب من هاتين الخاصّتين، لا يعود شعرًا، لقد انجذب العربي إلى الكلمة إلى مستوى جعْلِها سلاحًا، «**والقول ينفذ ما لاتنفذُ الإبَرُ**» كما يقول الأخطل التغلبي. هذا على الرّغم من حملةِ المقدّس على الشعر والشعراء، واعتبار الشعر قيحًا في الصدر، كما جاء في الحديث الشريف: «**لئِنْ يملأ أحدُكم جوفًا قيحًا خيرٌ من أن يملأه**

شعرًا». وكانت الغاية هي التحذير من الشعر لقوّة تأثيره في الوجدان العربي، فقد اضطُرَ القرآن للاعتراف بقدرة الشعر على الإغراء والإغواء: «**والشعراءُ يتَّبعهم الغاوون**». وكم كنت أتمنّى أن أجد تأويلاً آخر لهذه الآية التي جعلت الله يخاصم الشعراء، على الرّغم من امتلاء الإنسان العربي يومئذ بالشعر. وهذا يعني قوّة الخصم/الشعر. وحجّتي أنّ الإسلام لم يستطع طرد شياطين وادي عبقر من السكَن في أودية النفس التي تنتج الشعر. لقد ظلّ الشعر خدين الذات العربية، وعرف الرسول وصحابته الذين حاولوا إطفاء نار الشعر أنّ العرب لن يتركوا الشعر حتى تترك الإبلُ الحنين. لقد سجن الخليفة عمر بن الخطاب الحطيئة لبيتٍ قاله في هجاء الزبرقان بن بدر:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

ثم بكى الخليفة نفسُه، والذي كان غاضبًا، عندما أرسل له الحطيئة من سجنه شعرًا مؤثّرًا يحكي فيه جوع أطفاله لأنّه مسجون، ولا مُعيلَ لهم سواه:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مرَخٍ
زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مظلمةٍ
فاغفرْ عليك سلامُ اللهِ يا عمرُ

وقبل عمر أُعجِبَ الرسول العربي محمّد بقصيدة كعب بن زهير، وأفرغ عليه بردته النبوية. وكان الرسول يردّد قول الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد بإعجاب:

وأغضُّ طرْفي إنْ بدتْ لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

وظلّ الشعر حاضرًا، وينافس المقدّس بحضوره، على الرّغم من كلّ محاولات حصاره. وتلك محاولة متقدّمة للشعر في اقتحام المقدّس. لقد ظلّ الشعر على ألسنة الناس مؤثّرًا ومهيّجًا قوّة مذهلة، ووقف بقوّة إلى جانب المقدّس في الدولة الإسلامية الراشدة، ثم خطا أكثر وأمتدّ امتدادًا مذهلاً فاق امتداده في الجاهلية.

سأعود إلى عنوان ديوان شاعرنا سلمان زين الدين، على الرّغم من أنّه لم يبتعد في كلامي السابق عمّا أهدف إلى قوله، وهذا يعني أنّني جالس مع الشعر في «**أحوال الماء**». فالعنوان هو الكتاب، وأحياناً هو الكتاب كلّه، وفيه تتكثف روح الكتاب وتسكب خمرة الكلمات المعصورة من ابنة كرم ينبت في الشاعر بدءًا.

«**أحوال الماء**» كلمتان، الأحوال والماء. الأحوال هنا ذات بُعدٍ صوفيٍّ، وذات بعدٍ عقيديٍّ في آن كما أرى، وأحسّ، وربّما الشاعر نفسه يرى في نتاجه ما لا أراه أنا، لأنّ الشاعر حين يخرج من كتابة القصيدة يصبح أحد قرّائها، وقد يحضره ما حضر

المتنبي في «ابن جنّي» شارح ديوانه حين قال المتنبي: «**ابن جني أعلم بشعري مني**». وفي هذا الكلام شهادة إبداعية لشعر المتنبي، وفيه مدح لنتاج الشاعر الذي يحتمل التأويل بما يضمر في حناياه من وميض ورؤىً، كثافة الرؤيا تعطي مدى أبعد للرؤية. وهذا يكون حين يخرج الشعر من التفسير الفقهي المقيَّد، والمقيِّد. وشهادة أيضًا لشعر سلمان زين الدين.

كلمة «الأحوال» هنا بمعناها المتجاوز لصيغة المفرد، لها دلالات يعشي الرّائي قبل أن يصبح عارفًا، والأحوال هنا بصيغة الجمع هي إشارة عميقة الدلالة للمكابدة التي يعاني منها الرّائي قبل أن يصل إلى مرحلة العرفان. إذن صيغة الجمع هنا هي مسيرة الصوفي وتَرَقِّيهِ من مرقى إلى مرقى، ومن مسيرة الموجود باتّجاه الواجد حتى تمَّحي الفواصل بينهما، وقتها ينطوي في الموجود «العالمُ الأكبرُ»، ويصبح رائيًا وعارفًا، ويكون «**في قلب الله**» كما يقول جبران خليل جبران في «نبيّهِ». الأحوال في هذا العنوان هي مراحل التحوّل العليا، ولذا جاءت جمعًا، والجمع هنا هو إعادة صياغة الموجود، ومن حال أدنى إلى حال أعلى، والحال هنا انتقال من الوميض، فإلى الجذب، فإلى الحلول والمعرفة، وقتها يقول العقل الذي رافق مواجد القلب: إنّ كلّ ما أعرفه يراه القلب، ويقول القلب إنّ كلّ ما أراه يعرفه العقل.

وهذه كلّها أحوال تفسّر مآل الواجد ودخوله في الموجود، كما أشرت سابقًا في كتابي «**جذوة من ثلوج جبل الشيخ**» عن الشاعر نفسه، فجبل الشيخ في العنوان السابق يخرج من رمزية المكان ليصبح حالاً، والحالُّ فيه «بتشديد اللام» هو الشاعر نفسُه، عملقة الجبل جعلت شاعرنا عاشقًا بامتياز، ومتخمًا بالأعالي، ومزدحمًا بها، نعم، الأعالي التي يُغري بها المكانُ الشاعرَ لتقليد الطبيعة الخالقة.. أقصد الحال هنا صعود، وأعني التقمّص ثم الحلول، ولا أقصد التناسخ الذي هو إلى الأدنى، والذي هو عقاب الروح لذاتها بذاتها المتناسخة بالأدنى. وهذا ما رميت إليه بالبعد العقيدي لكلمة أحوال، فالكلمة تشير إلى هذا لارتباطها بكلمة «**الماء**» الثانية في عنوان الكتاب. الماء هو خالق التحوُّل في هذا الكون الذي يحتوينا، وهذا ما فهمته من النص المقدّس في القرآن الكريم «**وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ**». الماء خالق كلّ حياة، وبهذا يحمل الماء صفة الألوهة، وعلاقته بكلمة «**أحوال**» تدلّ على تراتب ما يخلق الماء. والماء هو الحياة والموت في آن، هو موت في طوفان نوح، وهو حياة بعد استواء عرش الألوهة على الماء بعد الأيام الستة التي أتمّ الله فيها خلق هذا الكون

اللامحدود. ويمكننا أن نسأل ما الرابط بين الخالق والماء، ولِمَ استوى عرشه على الماء. وهذا كما أرى يعطي الماء صفة الألوهة، ولا أستغرب الحدس الإيماني في حضارة مصر القديمة، وارتباط الألوهة بنهر النيل. ولكن هنا ما العلاقة بين الأحوال والماء في عنوان صديقنا سلمان زين الدين؟.

أنا أرى أنّ كلمة «الأحوال» مرتبطة بالتطوّرات المتلاحقة والدائبة في كينونة لا تستقرُّ على حال، وهذا التطور المتلاحق هو مسيرة الموجودات كلّها نحو أصلها الذي انفصلت عنه في اليوم السابع. وكان لا بدّ من الماء لينفخ الحياة في حمأٍ مصنوعٍ من فخّار. وكان الإنسان الذي اعتبره الواجد خليفته على الأرض. وأستنتج من هذا الذي قدّمته أنّ العنوان يعني مراحل سير الموجود إلى الواجد.

القصيدة الأولى في الديوان تحمل عنوان الديوان «**أحوال الماء**»، وهي تحكي قصّة تواصله بألوهة الماء، على الرّغم من اعترافه بأنّ الوصول إلى غايته القصوى لا يزال نائيًا، إنّه لا يزال في سجنه الطيني المصنوع من الماء، وهذا ما جعله في الجهة المقابلة التي ترصد، وترى، وتحاول فصل التباين في رحلة مجهدة، مدّتها العمر الترابي كلّه، وتبدو بوضوح التباينات بين أحواله وأحوال الماء، والتي ستصل في سيرها إلى المقامات، والمقامات هنا هي شيء من «سدرة المنتهى» وقد جُعِلتْ للذين يصلون. يقول سلمان زين الدين: «**للماء أحوالٌ، مقاماتٌ/ولي../هو غيمةٌ تبكي على الأرض التي ماتت/فتحيا في الشتاء/...../وأنا خدين الماء،/في حلّي وترحالي،/في سيري وإبحاري/ وتحليقي بأجنحة العبيرْ**». الماء يصنع الحياة في هذه القصيدة، والحياة هنا هي تكرار الفصول، ولكنّها ليست تجاوزًا، وابتعادًا عن طينها. وفيها تكون غاية التقصّي أن تعود أنت إلى النقطة التي انطلقتَ منها، إنّنا نكرّر دورة الحياة في الطين والماء، ولكنّ الخلاص يكون بالوصول إلى المقامات. تأمّل ماذا ينتج الماء الطيني، إنه «**... الدموع الهاميات/ الهاطلات من السماءْ/وهو الثلوج البيض.../وهو الجداول والخمائل والضفافْ/وهو....**». هنا الماء خالق، ولكنّه يعود إلى منبعه، وبين منبعه ومصبّه تسير الحياة عاديّةً، ولا ترتدي غير تكرار ذاتها/أما مخلوقها الذي يشغلها، والذي هو خليفة الله، فله أحوال أخرى، وهو يعبّر عن ذاته بأحاديّته المتحوّلة إلى الأعلى، وخلع التراب. ويومئ لها الشاعر إيماء إلى المقامات «**ولي...**»، وينهي بقوله: «**ولي.....**» مع نقاط بعدها لطول الرحلة صوب المقامات. هذا الافتراق يدلّ على أحاديّة الإنسان في سيره إلى العنصر الذي

انفصل عنه، رغم أنّه في مسيرته كان/ خدين الماء/في كلّ حركاته، إنّما له أحوال ومقامات توجد في الماء/الإله، وليس في مخلوقات الماء المتكرّرة. وحده كالماء له أحوال ومقامات. وكيف لا، والله اختار الماء ليجعل عرشه مستقرًّا عليه. ولكن هل كان الماء قائمًا على الرياح، كما جاء في كلام ابن عباس؟. إنّ مقام الماء على الرياح يشير إلى حركة الكون التي لا تستقر، فالريح حركة، والعرش جامع بين ألوهة الماء وحركة الرياح، وهذا يفسّر إيمان الموجودات كلّها بالحركة الكونية التي لا قرار لها أبدًا. إنّ العلاقة بين الريح والماء والعرش لها غاية يريدها المستوي على عرشه، في حكمة لا يفسّرها إلاّ تراكم الأحوال وتبدّلاتها في مسيرتها التي لا تنتهي إلى الله.

الوجه الأبرز في شعر سلمان زين الدين هو هذا التوجّه الذي يجمع الحسّ العقيدي بالتقصّي والمكابدة مع التركيز على أنّ الجمال وحده هو وقود الرحلة إلى الله. إنّه يقرّ بالمجاهدة، والمكابدة، ولكنّ فتنة الجمال تجعل المكابدة حلوة المذاق، تمامًا كشارب الخمر الذي يتحمّل مرارتها في سبيل الوصول إلى نشوتها، كما يرى الشاعر حافظ الشيرازي. إنّ شاعرنا يصرّ باستمرار في كلّ شعره على صعوبة الرحلة، وربما يكون هادفًا لإغرائنا بمتعة الجمال الذي هو وحده الدرب إلى الله، وإلى الحلول فيه. يقول شاعرنا سلمان: «**وانبجسنا من ظلام النبع أطفالاً،/ ورحنا ننهب الدرب/إلى البحر الكبير**». هناك لفظتان شديدتا الدلالة في هذا المقطع، وهما «**ظلام**» و«**البحر**». الظلامُ هنا أبعد من المشيمة، ولا يحمل همَّ الكفن، لأنّه عائد إلى البحر الكبير حيث لا موت فيه، ولا فناء. إنّ كلمة «الظلام» تحمل تجربة الطين المؤلمة الممتدّة من المشيمة للكفن، والبحر الكبير هو الله صاحب المآب والحلول. وحين نشير إلى ألم الرحلة فإنّنا نستذكر أنينَ الناي الدهريَّ للعودة إلى الغابة التي قُصِفَ منها. إنّ «**ظلام النبع**» يعني الخروج من المشيمة المظلمة التي يُصنَعُ الكون كلّه فيها، والبحر الكبير هو مُلْغي مكابدة الطين فينا. ولعلّ ألم رحلة المسافة بين المشيمة والكفن هو الذي يصرف الشاعر أحيانًا عن التمتّع بفتنة الجمال: «**لم نمتّعْ أعينًا ولهى/بأسرابِ الجمالْ**»، وهذا غير دقيق، فأعلى فتن الجمال تكون في تقصّيهِ والشكوى منه، وهل «**السعادة في الدنيا سوى شبح؟**»، كما يؤكّد جبران خليل جبران، وهنا يجب التأكيد على ذكر جبران كلمة «**الدنيا**». إنّ تحديد انعدام السعادة في رأيه محصور بالحياة الدنيا، ولذا نستمدّ حضورها بصناعتها ولو شبَحًا. وهذا يجبر الشاعر على الإيماء الدائم إلى فتن الجمال

في هذه الرحلة القاسية. إنّه يشكو بقسوة من انشغاله عن فتنة الجمال بتتبّع المجرى، ويقول: «**شغلتْنا فتنةُ الإبحار عن أنفسنا/لم نلتفتْ شطرَ الجمال المستوي/فوق ذرى أعماقنا/لم ننتبهْ أنّ الذي نسعى إليه كامن فينا/**». هنا يستيقظ الشاعر ليعترف بسيطرة الوهم وبغشاوة حلوله على وجدانه، لينتبه فجأة، ويعترف أنّ الجمال ساكنٌ فينا، لأنّه عنصر الله المضيء في الإنسان. وهنا يلتقي سلمان زين الدين مع اللفتة الرائعة للشاعر الكبير إيليا أبي ماضي حين يقول في جداوله، في قصيدة «العنقاء»:

فتّشْتُ جيْبَ الفجرِ عنها والدجى
ومددتُ حتى للكواكب إصبعي
وعلمْتُ حين العلمُ لا يجدي الفتى
أنّ التي ضيَّعْتُها كانت معي

لقد أدرك أبو ماضي كما أدرك شاعرنا سلمان زين الدين أنّ الجمال الذي يخلق السعادة كامنٌ فينا دون أن ندري، وربّما أدركنا ذلك متأخّرين. لقد عانى إيليا أبو ماضي كثيرًا إلى أن وصل إلى الحقيقة الكبرى «**أن التي ضيعتها كانت معي**»، ولنستمعْ إليه وهو يقول في قصيدة «نار القرى» متلهّفًا وساعيًا لإدراك ما لا يدرك:

كيفَ الوصولُ إليكِ يا نار القرى
أنا في الحضيض وأنت في الجوزاءِ
لي ألفُ باصرةٍ تحنُّ كما ترى
لكنّ دونَكِ ألفَ ألفِ غطاءِ
لو من ثرى مزّقتها بيد الثرى
لكنّها سُجُفٌ من الأضواءِ

ولأنّ الزمن متحرّك،فهو وهمٌ أيضًا، لأنّك لا تستطيع الإمساك بأطرافه، وليس «**كالطِوَلِ المُرخَى وثِنْياهُ باليد**» ولكنّه «**كنزٌ ناقصٌ كلّ ليلة**» كما يرى الشاعر طرفة بن العبد. ولكنّ الروح وحدها هي التي تستطيع جمع ما يتمزّق منه في رحلته الأزلية في أضواء لا تتلاشى رغم كثافة الظلام حولها، وتصبح هي العنقاء في تكرار الحياة والموت إلى أن يموتَ الموتُ نفسُهُ، ولكن قبل موت الموت يكون القلق والتوتّر ومطاعنة خيلٍ «**من فوارسها الدهرُ**» كما يقول المتنبي زاد الطريق، ويكون الشعر أحد أسلحة مقاومة الدهر الذي لا يلتفت إلى ضحاياه.

ويمتدّ صوت حزين من ذات شاعرٍ تشعر بأنّها لم تعثر على درِّ الطريق، والحزن هنا لا يلغي استمرارية البحث عن الدرّ حتى في عالم الطين، ويبقى السؤال أنين ناي مكسور يسأل أين تنام ألحانه التي حملها في غربته عن الغابة. يقول سلمان: «**هل تأخّرنا/وفات الوقت في تغيير مجرانا..../وهل نحن الألى نصنع أقدارًا لنا/أم أنّنا صنعُ القدر؟**». إذا كان العجز ابتلاءً، فإنّ في السؤال شوقًا لا

يموت أبدًا، لأنّ السؤال يبقى أبعد من الجواب مهما كان الجواب قويّ الحضور. والقدَر يبقى افتراضًا، وهذا يريح النفوس الباحثة عمّا يملأها رغبة لمعرفة ماذا وراء هذا السراب الذي لا يموت، وهو خدّاع وظمآن رغم ادّعائه أنّه ماء. والقَدَرِيَّة تظلّ متعبة، ولكنّها ينبوع قلق لا يجفُّ. والمتعب في مفهوم القَدَر هو أنّ أقدارنا كُتبتْ بغير حضورنا، ولأنّها كُتبت بغير حضورنا فلن نستطيع تغيير ما خطّته يد القدر، واعتراضنا ليس مجديًا في النهاية، يقول الشاعر الإيراني حافظ الشيرازي:

أقدارنا كُتِبتْ بغير حضورنا
ولذا فلن نقوى على التغيير

ويعترف شاعرنا بأنّه متعَب أمام قدرية مكتوبة سلفًا، ومتعَب أيضًا من عنادٍ مستبدٍّ به، عناد فتىً قرويٍّ لا يرى في جبل الشيخ المقابل قريته إلا نسرًا يملك جناحين عنيدين مستبدين، لا يسأمان من التحليق رغم قدرية جعلت الجبل عاليًا، وجعلت الفتى القروي عنيدًا. وبين علوٍ مُجهِد وعنادٍ مستبدٍّ ينزف شاعرنا قدريته بتحدٍّ وعناد، حين يقول: «**مذْ راودتنا فاتناتُ الحُلْمِ/عن أعمارنا/رحنا نطاردها بأجنحة النسور/لعلّنا نحظى بها/لكنّها راحت تُخاتلنا/وتنأى كلّما منها دنونا/لا طِرادُ النسر أتعبها/ولا عزمُ القوادمِ والخوافي/أنقصتْ منه معاقرة التعبْ/فكأنّما قَدَرُ المطارِد/أن يظلَّ معلّقًا/حتى يحقّقَ حلمهُ/أو دونه يطوي الجناحْ**». المكابدة والعناد صديقان لدودان في هذه الرحلة الصعبة. السراب، سراب الأماني القصية يغري الشاعر بامتطاء الريح، ولكنّما الواحات تبعد، «**وليس ثمةَ نورسٌ/يومي إلى عسل الأمان**»، وكم هو رائعٌ قول المتنبي: «**إذا عظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ**».

لا بدّ من التعب، ولعلّه أهمّ ما في الرحلة، و«**صعبٌ هو المرقى إلى الجلجلةْ**». وللتعب أسبابٌ تغريه بالديمومة، والويل لمن يخلو من الوجع، وقتها يخلو من معنى أن يكون. ولكن لا بدّ من إيجاد مسارب لتفريغ التعب في هذه الرحلة المستبدّة، ومسارب التعب في حياة شاعرنا تتجلّى في «**قصيدة**» و«**رؤيا**». إنّهما محطّتان للاستراحة على دروب العمر المزدحمة بالتعب، فالقصيدة كونٌ آخر، وجغرافية لا حدود لها، وهي تتيح للشاعر أن يكون خالقًا، وحين يخلقها تدخله في سفرٍ قال فيه حافظ الشيرازي: «**لا بُعْدَ في سفرٍ على الأرواحِ**». وهذا يعني أن الخالق يرتاح من تعبه، وهو يرى جمال مخلوقاته. إنّها تشبه تفّاحة حوّاء في شعر سلمان زين الدين، وإغراؤها يعادل إغراء حوّاءَ نفسِها. وشاعرنا يعترف أنّه لا يستطيع أن يعرضَ عن «فتنتها الكبرى». وفي حضرة القصيدة يأخذ التعب معنى مريحًا، وطعمًا لذيذًا. إنّ

مخلوقات الشاعر هنّ بَناتُه، ولذا يأنس بهن، وهنَّ يخطرن بمرحٍ في قلبه وداره، وهذا ما عناه الشاعر عمر أبو ريشة حين رثى الأخطل الصغير، وشبَّهَ قصائده ببنات الشاعر، حين قال:

بناتُ وحيِكَ في أرجائهِ زُمَرٌ
يهزُّها المترَفانِ الزهوُ والخفرُ

والرؤيا هي المسربُ الآخر في شعر سلمان زين الدين، والرؤيا لا تختلف كثيرًا عن القصيدة، فإذا كانت القصيدة مكشوفة وكاشفة، فإنّ الرؤيا تتّسم بمدىً أبعد، وبلغة لا نطقَ لها، ولا حروف، والرؤيا تظلّ كامنة، ولا يستطيع الشاعر كشفها إلاّ إذا حوّلها إلى قصيدة، وحين يحوّلها قصيدة يمسخ كثيرًا من معالمها العصية على البوح والنطق. والرؤيا دائمًا يرافقها الصفاء والنقاء وحضور الحالة الإيجابية. إنّها بعيدة عن التصوّر المادّي، وكان الشاعر يحاولها إلى أن تحوّلت عنده «بساطًا عسجديًّا، وصعد به إلى السماوات العلى ورأى ما رأى، ولأنّها نقاء وصفاء رأى فيها كائنًا سويًّا، وهناك رأى جزيرة، «**ومضى يستطلع الأحوالَ/في تلك الجزيرة/فرأى الذئبَ مع الأغنام في قلب الحظيرةْ/ورأى الغاب يغنّي/... ورأى الناس فُرادى وزمَرْ/ينهلون الودَّ من ينبوعهِ/لم تفرّق بينهم/طائفةٌ أو مذهبٌ أو لون وجه/لم يشبْ ودَّ الينابيعِ كدرْ**».

الشاعر مؤمن هنا أن الفنون تلغي القبح الطارئ على الكون البديع، ويمسح بوفرة الجمال ما أفسده هبوط القبح إلى هذا الوجود، فالفنّ أساسًا هو الجمال نفسه، والقبح لا يُلغى إلاّ بحضور الجمال، وقتها يكون الفنّ خالقًا، ولا يمكن أن يكون خالقًا إلا إذا كان جميلاً، والله بعد استوائه على العرش، ورؤية جمال ما خلق كان «بديع السماوات والأرض». وهذا ما ذهب إليه شاعرنا سلمان في قصيدة «رؤيا». وكم كنت أودُّ ألاّ يصحو شاعرنا ليرى القبح لا يزال قائمًا في هذا الكون، وحسرته هنا جميلة، لأنّ الحسرة ستحرّضه باستمرار للعودة إلى الرؤيا ليكون الشعر خالقًا جمالاً آخر يسعفنا للوصول إلى البديع بفعل ما أبدع في منشآته التي نحن بعض أجزائها. يعود شاعرنًا متلبّسًا الرجفة بعد مرحلة الرؤيا ليقول: «**فجأةً،/دوّى ظلامٌ مستطير،/أجفل الشاعرُ من أحلامه/هبَّ من النوم سريعًا/سائلاً عمّا جرى/أخبرتْه الريحُ/أنّ الظلمةَ البهماءَ/تجتاح قناديل القرى**». إنّ الشعر الجميل يا صديقي يُكتَب تحت أضواء قناديل القرى، وكانت أضواؤها الشاحبة تغرينا بالسفر إلى أعمق ما في هذا الوجود لنعود منه وفي أيدينا قبضة من جمال.

وجميلٌ أنّ شاعرنا تلقّى هذا الوحي، وعاد إلى الكلمة، لأنّها البدء. ولا بدّ من

العودة إلى البدء لتصحيح مسيرة الروح التي مرّت على بعض مناطق القبح في رحلتها إلى بديعها الأوّل. العودة هنا انتصار للجمال، وانحياز إليه. «**تنهض الكلمات من النوم/إثرَ سباتٍ طويلْ/ تغسل الوجه/في ماء نبعٍ أصيلْ/وتقوم من الموت/مثل مسيحٍ جميلْ**». القيامة هنا فعل جميل ذو حركة تصاعدية، وهذه القيامة تذكّرنا بالنار والرماد في عنقاء جديدة، تتقن الانتفاض من الرماد لتحوّل نارها إلى خصب يجعل نهر الموت نهر الحياة، وتجعلنا نرى مسيحًا جميلاً خارجًا وعائدًا من الصّلب، وصاعدًا إلى جبل الزيتون ليهب لنا حبّه وتجربته الضرورية لانتصار روح يسوع على مسامير الصّلب القاسية، ولعشاء جديد بلا يهوذا، وبلا عشّارين وأنبياء كَذَبة. الكلمة هنا هي البدء، وهي الفنّ الجميل، لأنّه وحده المنقذ من كون يجعل على كواهلنا صخرة سيزيف باستمرار. ولعلّ صخرة سيزيف هي نتيجة قسوة آلهة الأولمب الذين انزعجوا من تحوّل الكلمة إلى نار سرقها سيزيف من الأولمب للفقراء. فالكلمة نار أيضًا، والمرقى إلى الجلجة صعب، وما أروع السيّاب حين قال:

«صعبٌ هو المرقى إلى الجلجلةْ/ والصخرُ يا سيزيفُ ما أثقلَهْ/سيزيفُ، إنّ الصخرة الآخرون». تأمّلْ معي البيت الآخير لترى كم يعاني الخلق الجميل من قبح آلهة الأولمب، الذين يريدون الاستئثار بالنار، والتي حوّلها سيزيف من أعالي الأولمب إلى موائد الفقراء. وجميل أنّ الصخرة في شعر سلمان زين الدين لم تقتل عناد سيزيف، وهذا جميل، ومطلوب فنًا والتزامًا. وهذه هي رسالة الكلمة في كلّ زمان، وكلّ مكان. الوقوف مع سيزيف ليس فعلاً جماليًا فقط، وإنّما هو سلوك أخلاقي، لا بدّ من تشجيع حامل الصخرة في كلّ زمان لأنّ الأودية التي تتدحرج إليها الصخرة عميقة كعمق الموت نفسه. وفي هذا الموقف نضال سياسي واجتماعي، وانحياز لآخذي النار من سيزيف إلى مواقدهم. هذا موقف متقدّم في فهم شاعرنا سلمان زين الدين لرسالة الكلمة، فهي ليست رصفًا جماليًا وكفى، وإنّما هي محراث فلاّحٍ ومنجل حصّاد وسيف مقاتل من أجل انتصار إنسانية الإنسان. ومن هذا الفهم المتقدّم لدور الكلمة يلحُّ شاعرنا سلمان زين الدين على تشجيع كلّ سيزيف لأنّ الرحلة طويلة وتستحقّ الصبر والجلَد. يقول شاعرنا: «**وتروحُ يا سيزيفُ/تُمعِنُ في التسلّق والصعودْ/ وأمامك الحُكْمُ الذي/تمضي به صُعُدًا/ إلى الأعلى/وخلفك هوّة الوادي السحيقْ/فحذارِ يا سيزيفُ/من تعبٍ/ يرتّبُهُ الصعود إلى العلى/وحذارِ من موتٍ/يحتِّمه السقوطُ منتصفَ الطريقْ**»،

وشاعرنا هنا يحذّر سيزيف كلّ زمان من الركون إلى الحطام، والقبول بالأدنى، لأنّه يرى ما رأى المتنبي قبله:

ذريني أنلْ ما لا يُنالُ من العلى
فصعبُ العلى في الصعب والسهلُ في السهلِ

وهذا الاتّجاه العالي يؤكّده شاعرنا، وهو يخاطب سيزيفه العصري حين يقول: **«فاصعدْ إلى أعماقك العليا/تجدْ ماءً وأشجارًا/وأنوارًا وقصرا/وإذا بقيت تطاردُ الدنيا...../ستسقط في مهاوي/ وهمكَ الأعمى قتيلاً/تحت صخرات الندمْ».**

ومع ذلك يظلّ شاعرنا مؤمنًا أنّ الصعوبات هي طريق التخطّي، وأنّ الضوء الحقيقي ينفجر من قلب الظلام، ويدرك صعوبة الطريق ولكنّه مؤمنٌ بالوصول. **«واذكري يا نبض قلبي/أنّ من ليل الثرى/تبزغ أنوارُ القِرى»**. وشاعرنا في ديوانه كلّه مؤمنٌ أنّ «العاصفة تجدّد شباب الأزهار» كما يقول شارل بودلير.

نحن بحاجة إلى شعرٍ يبني بمقدار ما يهدم، ولا بناء إذا لم يكن هناك هدم، والهدم هو الذي يحضّ على البناء في أعمال النتاج الفكري والفني، وشاعرنا سلمان بجدارة شاعر يبني ويهدم. إنّ الذي يحمل الصخرة مع سيزيف يعني أنّه واقفٌ إلى جانب سيزيف عصره المقاوم والثائر والحامل لواء التغيير.

نريد شعرًا ينزل إلى قضايا الإنسان ليرفع الإنسان. لقد سئمنا الشعر القائم على المبالغات التي تذهب بعيدًا، وتنسى أنّ على التراب بشرًا يتعذّبون ويجوعون ويحلمون بحياة خالية من الجوع والمرض وأوبئة السياسة والشعراء الذين حوَّلوا الشعر والشاعر إلى ظاهرة صوتية، تخاطب الأكفّ، ولا تلامس الوجدان الإنساني. إنّ الشعر لا يكون شعرًا إلاّ إذا لامس قضايا الإنسان الكبرى: الحلم والحب والخبز والدفاع عن كلّ ما هو حق.

انطلاقًا من هذا الوعي أشدُّ على يد شاعرنا سلمان زين الدين الذي آمن بالإنسان قضية وحلمًا وثورة على الجوع والتخلّف، وحين قرأت قصيدته «تذكّرْ» أدركت ما معنى أن يكون الإنسان شاعرًا كبيرًا، وسأذكر مقاطع من هذه القصيدة التي تعيش قضية الإنسان أوّلاً، إنّه يقول: **«وأنتَ تُعاقرُ دفءَ الفِراشِ/وتبحرُ في خُلْدِهِ المنتظرْ/... وأنتَ تَلَذُّ شهيّ الطعامِ/وتعْذُبُ نفسًا بعذبِ الشرابِ/... تذكَّرْ:/بأنَّ الرصيفَ فِراشٌ/وأنّ السماء لحافٌ/لقسمٍ كبيرٍ من البائسينْ/وليس لديهم طعامٌ شهيٌّ/وماءٌ نميرٌ/وحصنٌ حصينْ».**

أحسنْتَ يا صديقي بوقوفك شاعرًا كبيرًا إلى جانب إخوانك على الأرض. إنّهم هم وحدهم الحقيقة.

الكيانات الفرنجيّة ودولة الكيان الإسرائيليّ

دراسة مقارنة

د. محمد عبد العزيز يوسف[1]

المقدمة

للإشارة الى الأسباب التي أدّت الى حروب الفرنجة، ومن باب الأمانة العلميّة، من الأسلم استخدام مصطلح «مركب» حتى لا نتوهّم أنّ هناك بنية تحتيّة من الدّوافع الاقتصاديّة والاجتماعيّة – مختزلة – تغطيها قشرة من الأكاذيب، أو التّسويغات الدّينيّة، على الرّغم من أهمية العاملين الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

كذلك لا يمكن القول إنّ الصّهيونيّة بوصفها حركة سياسيّة قد نشأت من رحم الصّهيونيّة غير اليهوديّة في أوروبا التي استندت إلى التوراة في ترسيخ «الحقّ الشّرعيّ» لليهود بامتلاك الأراضي المقدّسة، في حين لم يكن هذا الخطاب الديني الا غطاءً للمشروع الكولونيالي الغربيّ. فكما أنّ الحملات الفرنجيّة كانت قد انطلقت من الغرب الأوروبيّ، كذلك الحال إن الصّهيونيّة كانت ولا تزال حركة غربيّة نشأت في الغرب الحديث حيث وجدت الإمبرياليّة الغربيّة في أعضاء الجماعات اليهوديّة ضالتها، باعتبارهم مادة استيطانيّة تسبب مشاكل أمنيّة في حال بقيت داخل العالم الغربيّ، ولكنها تستطيع أن تزيد نفوذه إن نقلت خارجه وتحوّلت الى مادة استعماليّة قتاليّة لحساب الغرب داخل نطاق الدّولة الوظيفيّة.

على المستوى المنهجيّ، لا يمكن طرح القضايا والإشكاليّات على أنّها تخضع لقوانين حتميّة ويقينيّة، لكن في إطار الفرضيّات المحتملة، هل يمكن تشابه المصير بين هكذا كيانات على الرّغم من الفارق الزّمني؟

(١) حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من المعهد العالي للدكتوراه في الجامعة اللبنانية.

أولًا: التّوافق على مستوى الدّوافع بين الظّاهرتين

على الرّغم من أنّ مصطلح الحركة الصليبيّة دال له مدلول دينيّ واضح، الا أنّ الباعث الدّينيّ لم يكن الباعث الأوّل الذي دفع البابويّة إلى القيام بتلك الدّعوة، ودفع جموع الفرسان والغوغاء للخروج أفواجًا من غرب أوروبا نحو الشّرق الذي يفيض باللّبن والعسل، بل إنّ هناك بواعث حقيقيّة أخرى وأسبابًا قويّة، انبعثت من صميم المجتمع الأوروبيّ الغربيّ، وكانت هي الأخرى نتاج ظروف عامة وخاصة، سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وحضاريّة. لذلك من الأسلم استخدام مصطلح مركب للإشارة الى الأسباب والدّوافع التي أدّت إلى حروب الفرنجة بعيدًا عن التّسطيح والاختزال.

فالنّفس البشريّة لا تتحرّك بهذه الطريقة الآلية اذ تتداخل في عقل الانسان أنبل الدّوافع وأكثرها خسة في آن معًا، فالفلاّح المسيحيّ الذي حمل صليبه وفأسه كان مدفوعًا برغبة دينية حقيقيّة، وان كان هذا لا ينفي أيضًا وجود دوافع ماديّة. فهو حين كان يفعل ذلك كان يهرب من الفاقة والدّين ويحمل في وجدانه أحلام الثّراء والخلاص.

في الحقيقة ان البابا أوربان الثّاني هو الذي أطلق القوى المختلفة من عقالها، حينما ألقى خطبته المشهوره في مجمع كليرمونت وحدد يوم ١٥ آب ١٠٩٦ م موعدًا لرحيل الفرنجة حيث كانت صيحتهم «هذه مشيئة الله Good wills it»، هي الشعار الذي سار تحت لوائه الألوف من الجماهير نحو الشّرق.

كذلك يمكن القول إنّ الصّهيونيّة، بوصفها حركة سياسيّة، هي من خلق القرن التاسع عشر، فقد كانت الحركة الصّهيونيّة في القرون الأربعة الماضية في تيارها العريض حركة أوروبيّة، أو بما اصطلح عليه «بالصّهيونيّة غير اليهوديّة» التي استندت إلى التّوراة في ترسيخ «الحقّ الشرعيّ» لليهود بامتلاك الأراضي المقدسة، وعلى التنبؤات الواردة فيها من عودة اليهود إلى أورشليم تمهيدًا لعودة المسيح المنتظر. وقد أوجدت هذه الحركة الصّهيونيّة غير اليهوديّة المناخ السّياسيّ والفكريّ والماديّ لبعث الحركة الصّهيونيّة اليهوديّة، فكان أن مكّن هذا المناخ المتعاطف والمساند للحركة الصّهيونيّة اليهوديّة من تحقيق أكبر منجزاتها بعقد المؤتمر الصّهيونيّ الأوّل بزعامة هرتزل حيث كانت صيحة، « هيا بنا يا أبناء يعقوب lets go, children of Jacob» هي الشّعار الذي اتّخذته الجماهير اليهوديّة.

ومثلما كانت فلسطين في الأدبيّات الكاثولوكيّة تعدّ أساسًا للوطن المقدس الذي أورثه المسيح لأتباعه المسيحيّين، وإنّ على المسيحيّين محاربة الكفار(*) المسلمين

وإنقاذ القبر المقدس من براثنهم، كذلك أصبحت فلسطين أرضا يهوديّة في الفكر المسيحيّ البروتستانتي وأصبح اليهود هم الغرباء الذين تتوجّب عودتهم إلى فلسطين عندما يحين الوقت المناسب.

وكما كانت جموع الجماهير الزاحفة نحو بيت المقدس أيام الفرنجة غربيّة أوروبيّة، تتنازعها دوافع مختلفة، كانت جموع المهاجرين الزّاحفة نحو الأراضي المقدسة في آواخر القرن التّاسع عشر وبدايات القرن العشرين يهوديّة، جاءت من مختلف بلدان أوروبا خصوصًا الشّرقيّة منها.

لقد قدمت تسويغات للمشروعين، وتمّ الدّفاع عنهما عن طريق ديباجات دينيّة تستخدم الرّموز الدّينيّة وتوظّفها في عملية التعبئة العسكريّة إلا أنّ الرّموز الدّينيّة المستخدمة هي في واقع الأمر رموز عرقيّة أو اثنية أو قومية رغم طلائها الدّيني اللامع. ويتبدى هذا في واقع أنّه لا حملات الفرنجة ولا الحملة الصّهيونيّة تحتكم إلى القيم الأخلاقيّة المسيحيّة أو اليهوديّة، ولا يوجد لدى أي منهما استعداد يقيم سلوك المقاتلين التابعين لهما من منظور مسيحيّ أو يهوديّ. فلم يكن الصّليب في الحروب التي يقال لها «صليبية» رمزًا للنّسق الدّيني المسيحيّ، إنّما كان رمزًا للهوية الاثنية الغربيّة المغرقة في الدنيويّة، كما أنّ نجمة داود كان يستخدمها الصّهاينة الذي لا يعرفون الا القليل عن الدين اليهوديّ والذين لا علاقة لهم بالنسق الديني اليهوديّ. فالحملات التي يقال لها صليبيّة، أو تلك التي يقال لها صهيونيّة، هي إذن تعبير عن قوى غير دينيّة – على الرّغم من الدّيباجات والشّعارات الدّينيّة – استولت على الرموز الدّينيّة ووظّفتها مثلما استولت فيما بعد على الأراضي وقتلت أصحابها.

من هنا كانت عنصريّة الدّيباجات الفرنجيّة والصّهيونيّة، ومن هنا أيضًا كان تمييزها الحاد بين البشر وتقسيمهم الى أدنى وأعلى، أو حاضر أو غائب، أو فئة لها كلّ الحقوق وفئة لا حقوق لها على الاطلاق... الخ.

وهذا مختلف تمامًا عن إيمان الدّيانات التّوحيديّة الثّلاث بالمساواة بين البشر حيث تصدر عن الإيمان بأنّنا نولد جميعًا من آدم وآدم من تراب.

ونلاحظ أن ديباجات الفرنجة والصّهاينة ترى غزو فلسطين في إطار فكرة أن الغزاة شعب مقدس أو مختار. وكان يسيطر على كل من الفرنجة والصّهاينة تفكير نخبويّ يجعل زعماءهم ينظرون الى أنفسهم على أنهم طلائع شعوبهم التي ستحمل السّلاح لتخلّص الأرض المقدسة، وأنّ هذه الحملة العسكريّة ما هي الا خروج ثانٍ يشبه خروج

العبرانيين من مصر إلى كنعان. وقد ارتبطت الشّعارات في كلا المشروعين بالأحلام الألفيّة في استرجاع فلسطين بعد عودة المسيح أو تمهيدًا لعودته. ومهما تكن الدّوافع، فإنّ السّمة المشتركة لكلتا الحركتين – الفرنجيّة والصّهيونيّة – هي من ترك الآلاف من الأمورربيين والصّهاينة لأوطانهم والسّير آلاف الأميال نحو بلد مجهول ومصير مجهول، لكي يستوطنوا بلادًا أخرى ويعيشوا فيها في صراع دائم مع أهلها، لا ينتهي.

ويبدو أنّ الرّؤية والإدراك الغربيّ والصّهيونيّ للشّرق كانا منسجمتين إلى حدّ ما. حيث قدّم الفرنجة إلى الأرض المقدسة وهم «يعلمون» أنّها أرض خالية من السّكان، في حين قدم الصّهاينة اليهود الى أرض فلسطين تحت مزاعم أنّ فلسطين كانت بلدًا مهجورًا كالشّعار الذي طرحه اللورد سافتسبري «وطن من دون شعب لشعب من دون وطن»[1]، الذي حوّله الصّهاينة اليهود فيما بعد إلى أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وعلى الرّغم من سكن العرب المتواصل لها أكثر من ٣٠٠٠ سنة[**].

لقد أسهمت حروب الفرنجة بعمق في صياغة الإدراك الغربيّ لفلسطين والغرب (الأرض الخالية من السكان)، ولا يملك الدّارس إلا أنّ يلاحظ عمق التّشابه بين المشروع الفرنجيّ والمشروع الصّهيونيّ الإسرائيليّ، وهذا امر متوقّع لأنّ كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السّائدين في الغرب والشّرق العربيّ، كما أنّ حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوروبا نحو التّوسّع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج. والواقع أنّ الحملات الفرنجيّة احتوت بذور كل أشكال الإمبرياليّة الأوربيّة التي حكمت فيما بعد حياة جميع الشعوب. ولهذا «أصبحت حملات الفرنجة صورة مجازيّة أساسية في الخطاب الاستعماريّ الغربيّ. وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصّهيونيّ، من اليهود وغير اليهود، أنّه استمرار واحياء للمشروع الفرنجي – في نزوعه ودوافعه – ومحاولة وضعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث. فقد ألّف سي. آرز كوندر عام ١٨٩٧م، وهو صهيونيّ غير يهوديّ ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين، كتابًا عن تاريخ المملكة اللاتينيّة في القدس أشار فيه الى أنّ الإمبرياليّة الغربيّة قد نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبيّة»[2]. والواقع أنّ تصوره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصور الصحافة البريطانيّة وكذلك تصوّر بعض أعضاء النّخبة الحاكمة في بريطانيا بأنّ هجوم اللنبي على القدس يساوي حملة صليبيّة أخرى، وقد «صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطانيّ آنذاك، والذي أصدرت

وزارته وعد بلفور، أنّ اللنبي شنّ وربح آخر الحملات الصليبيّة وأعظمها انتصارًا»[٣].

ويمكن القول إنّ المشروع الصّهيونيّ هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمّت علمنته، وبعد أنّ تم احلال المادة البشريّة اليهوديّة التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محلّ المادة البشريّة المسيحيّة.

وقد «لاحظ روبرت برنارد سولومون، وهو ضابط إنجليزي رأس الاتحاد الصّهيونيّ البريطاني، أوجه التّشابه بين المشروعين الفرنجيّ والصّهيونيّ في دراسة له نشرها في جويش رفيو عام ١٩١٢، تحت عنوان «مستعمرات القرن الثّاني عشر في فلسطين» حيث أكّد أنّ المشكلات التي واجهها المستوطنون الفرنجة تشبه من نواحٍ كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصّهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه النّواحي. كما أشار إلى العوامل التي أدّت إلى انهيار ممالك الفرنجة بعبارة: المؤامرات الشّرقيّة التي أدّت إلى الانحلال، ليحذر المستوطنين الجدد منها»[٤].

ولعلّ من الدّوافع المشتركة بين المشروعين هو العامل الجغرافيّ السّياسيّ بالنسبة إلى فلسطين. ففلسطين دائمًا مستهدفة من صناع الامبراطوريات، إذ أنّها تعدّ مفتاحًا أساسيًا لآسيا وأفريقيا، وتعدّ معبرًا على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطّرق البريّة التي تؤدّي إلى العراق وإيران، وهي أيضًا معبر أساسيّ لشطري العالم الإسلامي. وفلسطين في واقع الأمر ليست سوى جزء من ساحل طويل يضمّ سوريا ومصر، يشكّل فاصلاً بين البحر المتوسط في الغرب والمحيط الهندي في الشّرق، حيث يعدّ هذا الموقع، فاصلاً بين مراكز النّشاط في أوروبا الغربيّة والشّرق الأقصى. كلّ هذا يبين تشابك المصيرين بين سوريا ومصر من جهة وفلسطين من جهة اخرى، خصوصًا أنّ كثافة مصر السّكانيّة جعلتها دائمًا المرشحة لقيادة المنطقة بأسرها في صراعها ضد الغزوات الغربيّة. ويلاحظ أن كلا المشروعين الفرنجي والصّهيونيّ اكتشف أنه لحسم الصراع لصالحه، فلا بد من ضرب مصر أو على الأقل تحييدها.

والواقع أن الغزاة الاستيطانيين عادة ما يسلكون طريق البحر، ثم تستقرّ الجيوب الاستيطانيّة على الساحل أو تحتفظ بركيزتها الأساسية فيه كما حدث في جنوب افريقيا والجزائر. وكذلك فان الغزوتين الفرنجيّة والصّهيونيّة سلكتا الطريق البحري نفسه واحتلتا اجزاء من الشريط البحري نفسه، وأنّ كلّ الشّريط الذي احتله الفرنجة أكثر طولاً من الشّريط الذي احتله الصّهاينة.

ومن نقاط التّشابه الأخرى أنّ المشروعين مشروعان استعماريان من النّوع الاستيطاني الاحلالي فالمشروع الفرنجي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربيّة وممالك تدين بالولاء الكامل للعالم الغربيّ. ولذا، لم تأتِ الجيوش وحسب، وإنّما أتى معها العنصر البشري الغربيّ ليحلّ محلّ العنصر العربيّ، وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصّهيونيّ إلاّ في بعض التّفاصيل. فغزو فلسطين تم أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حضر المستوطنون الصّهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصرًا يقوم بالزراعة والقتال.

ثانيًا: التّوافق على مستوى نشأة المشروعين الفرنجي والصّهيونيّ

لقد تعرّض المشرق العربيّ عامة(***) وفلسطين خاصة خلال نهاية القرن الحادي عشر الميلادي إلى غزوة فرنجيّة استعماريّة. كذلك «تعرضّت المنطقة نفسها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي لغزوة صهيونيّة استعماريّة احلالية تعدّ فريدة من نوعها في التّاريخ، إذ تمّ اقتلاع شعب عربي بكامله من وطنه الأصلي فلسطين، وإحلال مجموعات صهيونيّة جاءت من مختلف أصقاع العالم لتسكن محلّه ويعود نجاح كلتا الحركتين الفرنجيّة والصّهيونيّة بصور رئيسية إلى عوامل الضّعف، والتّفكك، والانحلال السّياسيّ، والتّأخر الحضاريّ الذي كان يسود المنطقة العربيّة قبيل كل من العدوانين»(٥).

وكما أنّ حملات الفرنجة كانت قد انطلقت من الغرب الأوروبي، كذلك الحال فإنّ الصّهيونيّة كانت ولا تزال حركة غربيّة تستطيع أن تزيد نفوذ الغرب أن نقلت خارجه وتحوّلت المادة البشريّة اليهوديّة الى مادة استعماليّة قتاليّة لحسابه داخل نطاق الدولة الوظيفيّة حيث وجدت القيادات الصّهيونيّة بدورها أنّ ثمة إمكانية لوضع المشروع الصّهيونيّ موضع التّنفيذ من خلال تقبل الوظيفة القتالية المطروحة، وهذا ما حصل بالفعل.

هذه الرؤية تتناغم مع طروحات بعض المفكرين الصّهاينة، وقد «عبر ليو بنسكر، المفكر الصّهيونيّ الروسي عن حله للمسألة اليهوديّة بقوله: يتوجّب علينا أن نرسل اليهود غير المندمجين والفائضين الى مكان آخر، كما أنّ موسى هس، قد عبر في كتابه «روما والقدس» عن حلّه للمسألة اليهوديّة عن طريق تصديرها خارج أوروبا، إذ يقول: إنّنا عندما نتكلّم عن إقامة مستوطنات في الشّرق لا نعني بأن يهاجر يهود الغرب كلّهم إلى فلسطين، فالدّولة اليهوديّة لا تهدف إلى استيعابهم كلّهم إنّما تهدف إلى استيعاب الفائضين منهم. أولئك الذين فشلوا في أن يشقّوا طريقهم إلى الحضارة الغربيّة بجهد بالغ ويحقّقوا لأنفسهم مركزًا اجتماعيًا»(٦).

كذلك الحال لم تكن الظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة المعقدة في أوروبا مجرد مشكلة أوروبيّة تتطلب حلولاً أوروبيّة، إنّما كانت مشكلة تحتاج إلى التّصدير وهذا ما جاء في توصيف البابا أوربان الثاني حين قال: «هذه الأرض محاطه بالبحر من كل جانب، وتحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكثيرة، إذ لا تفيض بالثّروة الطائلة إنّما لا تكاد تحقّق من الطّعام ما يكفي زراعها فقط»...[٧].

وهكذا أعطت البابويّة الشّرعيّة، منذ البداية، للمشاركين في الحملة الفرنجيّة الأولى في التملك والميراث. كذلك فإنّ الصّهيونيّة كانت حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة تبحث عن الشّرعيّة اللازمة لها التي تمكنها من قيادة اليهود، والتّحدّث باسمهم، ولكنّها تحوّلت إلى حركة منظمة تروّج لرؤية واضحة مضمونها: أن يتم تنظيف المادة البشريّة اليهوديّة من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدّول الاستعماريّة الكبرى في الغرب التي تؤمن للمستوطنين موطىء قدم وتضمن بقاء واستمرار الدّولة الوظيفية هو فلسطين، وهذا يندرج في إطار ما يسمى «العقد الصامت» بين الحضارة الغربيّة والحركة الصّهيونيّة بشأن يهود الغرب، فهذا العقد أتاح الفرصة امام يهود الغرب لأن يحققوا من خلال الخروج من العالم الغربيّ ما فشلوا في تحقيقه من خلال البقاء فيه[٨].

وفي إطار الحديث ذاته عن المادة البشريّة، توالت على شاطىء البحر المتوسط الشّرقيّ، وعلى مدى قرنين من الحملات الفرنجيّة تقريبًا أفواج الأوروبيين القادمين من أوروبا، حجاجًا وافرادًا ومجموعات عسكرية، وجيوشًا كبيرة بقيادة ملوك أوروبا، مثلما تقاطرت على أرض فلسطين ايضًا افواج المهاجرين الصّهاينة. ومثلما بلغ عدد الحملات الفرنجيّة المنظمة مبلغًا، كذلك «بلغ عدد الهجرات الصّهيونيّة المنظمة الى فلسطين منذ عام ١٨٨٠م وحتى عام ١٩٤٨م ست هجرات علمًا أنّ بداية الهجرات الصّهيونيّة إلى فلسطين تعود إلى مرحلة ما قبل ظهور الصّهيونيّة بكثير، كما أنّها لم تتوّفق بعد قيام الدّولة الصّهيونيّة عام ١٩٤٨م، إذ أنّها لا تزال مستمرة حتى اليوم وأن بوتيرة اخف»[٩]. والهجرة من المنظور الصّهيونيّ الحديث هي حجر الأساس في تكوين الكيان الصّهيونيّ الحديث هي حجر الأساس في تكوين الكيان الصّهيونيّ، وقد وضعت الصّهيونيّة فكرة جمع شتات اليهود في أعلى درجات أولوياتها، «فالشّعب اليهوديّ» يعدّ بأسره في المنفى لطالما بقي خارج هذا المكان (فلسطين) ومن المفارقات أنّ غالبية أعضاء الجماعات اليهوديّة قد آثروا البقاء

في المنفى، ومثلهم فعل الفرنجة من قبل، فليس كل من حمل الصليب شارك في الحملات المتوجهة إلى الشّرق.

وقد «قامت فوق الأرض المقدسة مملكة لاتينية بعد أن تمكن الفرنجة من احتلال القدس في الخامس عشر من تموز ١٥٩٩م بعد حصار دام طوال خمسة أسابيع. وقد توقّف بقاء المملكة على احتلال الموانىء كمنافذ على البحر المتوسط، لضمان التّعزيزات والإمدادات القادمة من أوروبا. وقد تولّى جودفري دي بويون مقاليد الحكم كأول حاكم لمملكة أوروبيّة تقام فوق الأرض المقدسة، اذ عد ذلك حدثًا فاصلاً في تاريخ الحركة الفرنجيّة»[١٠].

كذلك بعد زوال الانتداب البريطاني عن فلسطين، أُعلن عن قيام دولة اسرائيل في ١٥ ايار ١٩٤٨م، حيث اشتعلت اثر ذلك الحرب الصّهيونيّة العربيّة الأولى التي تمخضت عن هزيمة الجيوش العربيّة واحتلال الصّهاينة القسم الاكبر من فلسطين وقيام دولة اسرائيل التي نالت اعتراف معظم دول العالم بها.

وكما هو حال الفرنجة، فقد اعتمد الكيان الصّهيونيّ على المنافذ البحريّة المطلة على البحر المتوسط في ضمان وصول افواج المهاجرين والامدادات والتّعزيزات القادمة من أوروبا. كما تولّى ديفيد بن غوريون مقاليد السلطة كأول حاكم أو رئيس لوزراء دولة الكيان الصّهيونيّ.

ومثلما استبدل اسم فلسطين خلال القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر من قبل الغرب الأوروبي – «فرنسا ما وراء البحار» أو «الشّرق اللاتيني»، اطلق اسم «اسرائيل» على الكيان الصّهيونيّ أيضًا.

و«على مدى قرنين كانت أوروبا تهتم بالممالك الفرنجيّة وترسل المهاجرين اليها وتقدم المعونات الماليّة والماديّة، وتجرد الحملات على الشّرق كلما داهمها الخطر، وكان هذين العون والتأييد مستمرين طالما كانت أوروبا تعد مملكة بيت المقدس جزءًا منها وتعمل على تأمين مصالحها»[١١].

كذلك، عدّ الصّهاينة أنفسهم مضطلعين في حماية «الشّعب اليهوديّ» بأسره، وإن غيرهم من أعضاء الجماعات اليهوديّة ممن فضّلوا البقاء في المنفى المزعوم متملصون وهاربون، واغيار يتحدثون العبريّة كما وصفهم جورج فريدمان عالم الاجتماع الفرنسي الصّهيونيّ.

وأمّا دور الكيان الصّهيونيّ في فلسطين فهو متعدّد، ويعدّ أهم دور على الاطلاق، حتى عهد قريب، هو الدّور الوظيفي القتاليّ حيث عائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد استراتيجي والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال مقابل المال، أي أنّها مملوكية بالدرجة الأولى، وعدا ذلك، فإنّها ديباجات اعتذاريّة وتفاصيل متفرعة. ومعنى هذا أنّ الدّولة الصّهيونيّة لن تنتج سلعًا بعينها، ولن تقدم

فرصًا للاستثمار أو سوقًا لتصريف السلع ولن تكون مصدرًا للمواد الخام والمحاصيل الزراعيّة إلى حدّ ما، إنّما سيتم تأسيسها لأنّها ستقدم شيئًا مختلفًا ومغايرًا وثمينًا: دورًا استراتيجيًا يؤمن سيطرة الغرب على العالم العربيّ، فهي خدمة حربيّة كامنة جاهزة على أهبّة الاستعداد لتأدية الخدمات في أي وقت، وهو دور سيكون له، دون شك، مردود اقتصادي، ولكنّه غير مباشر.

ولما «كان الكيان الصّهيونيّ هو الوحيد في العالم، الذي وجد نفسه محاطًا بدول معادية له، وأصبح كجزيرة محاصرة وسط محيط عربي، لم تكن توجّه هذا الكيان نحو إحلال «السلام» على أسس من الحق والعدل، وإنّما كان توجه زعمائه المتوالي نحو التّصلب، وعدم التّخلّي عن نظرية العداء الصّهيونيّة العربيّة الأبدية التي تعتمد على القوة وحدها»[١٢]. كذلك عاشت مملكة بيت المقدس طوال مدّة بقائها محاطة بالاعداء.

لقد كان حال مملكة بيت المقدس والإمارات الفرنجيّة الأخرى كما هو حال الكيان الصّهيونيّ اليوم، حيث رهنت نفسها وبقاءها بالاعتماد الوحيد على قدرتها العسكرية وتفوقها، إلا أنّها ظلت رغم ذلك كيانات غريبة حيث لم تجد قبولاً من الوسط العربيّ، ولم تتوقف المقاومة يومًا واحدًا، ولم يتمكّن الفرنجة في ضوء ذلك كما هو حال الصّهاينة اليوم على الرغم من المعاهدات، والهدنات، واتفاقيات من أن ينعموا بسلام ليوم حقيقي واحد، رغم محاولات ايجاد صيغ للتعايش السّلمي مع العرب سواء من خلال النشاطات التجارية، أو من خلال شرق أوسطية الكيان الصّهيونيّ في المنطقة العربيّة.(***).

وحقيقة أنّ الاحتلال الصّهيونيّ لفلسطين، كما فعل الفرنجة من قبل، قد تسبّب في تعديل جغرافية بلاد الشّام السّياسيّة والطبيعية والديمغرافية. حيث «زرع الكيان الصّهيونيّ سكانًا يهودًا من كل اصقاع العالم في الأرض المقدسة، وخلقوا من الأقلية اغلبية، وهم يحاولون ولا يزالون جعل البلاد عبريّة من خلال كنس المعالم العربيّة والتراث العربيّ، في حين زرع الفرنجة سكانًا أوروبيين في الأرض العربيّة»[١٣].

لقد أظهرت الخارطة الجغرافيّة الجديدة للمنطقة – بعد هذه الاحتلالات – كيانات غريبة في وسط عربي، حيث فصلت مشرقه عن مغربه، وشماله عن جنوبه، كإمارة الرها، وانطاكيا، وطرابلس، ومملكة بيت المقدس الفرنجيّة، والكيان الصّهيونيّ اليوم. وفرضت حدودًا عربيّة – فرنجيّة، وأخرى عربيّة – صهيونيّة، بمحاذاة الأراضي الواقعة تحت سيطرة الفرنجة أو الصّهاينة.

كما أنتجت الخارطة الجغرافيّة للمنطقة وضعًا استراتيجيًا جديدًا، وأهمية أكثر

للمواقع الدّفاعية لكلا الطرفين، إضافة إلى تغيير طرق المواصلات البريّة والبحريّة. فبعد احتلال الفرنجة لأجزاء كبيرة من بلاد الشّام باتت المواصلات البريّة مع مصر محفوفه بالمخاطر لمرورها ضمن مجال سيطرة إمارة الكرك، كما أدّى احتلال الكيان الصّهيونيّ لفلسطين وأراضٍ عربيّة أخرى إلى تحوّل وتغيير في طرق المواصلات البريّة والبحريّة والجويّة بين بلدان الوطن العربيّ، وقطع خطوط المواصلات المباشرة بين أراضيه.

بسبب هذا التّشابه التّاريخي بين المشروعين الفرنجي والصّهيونيّ، وبسبب تطابق الحقائق الجغرافيّة للمشروعين إلى حد ما، فإنّ الوجدان الصّهيونيّ مشغول إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، ومن أهم جوانب هذا الاهتمام بالمشروع الفرنجي هو دراسته من منظور الصّراع العربيّ الإسرائيليّ، عن طريق الدّراسات المقارنة في مشكلات الاستيطان، ومشاكل الموارد البشريّة والعلاقات الدوليّة فضلاً عن محاولة فهم عوامل الاخفاق والفشل التي أودت بالكيانات الفرنيجية.

كما درست بنية الكيانات الفرنجيّة من حيث المقومات البشرية والاقتصاديّة والعسكرية. وهناك من اهتم برصد العلاقة بين هذه الكيانات والكيان الأوروبي المساند له. كما توجّه الاهتمام نحو دراسة مشكلات الاستيطان والهجرة.

و«لكن هذا الاهتمام لم يقتصر على الدوائر الأكاديميّة، فهناك عدد من الشخصيات السّياسيّة الصّهيونيّة مثل رابين وديان وافنيري اهتمّت بمشاكل الاستيطان والهجرة، فاسحق رابين – في سبتمبر ١٩٧٠ – عقد مقارنة بين ممالك الصّليبين والكيان الصّهيونيّ وتوصل إلى أنّ الخطر الأساسي الذي يهدّد اسرائيل هو الهاجس الدّيمغرافي ومنه تجميد الهجرة، وأنّ هذا سيؤدي إلى اضمحلال الدّولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها. ويعقد افنيري في كتابه – اسرائيل بدون صهيونيّة ١٩٦٨ – مقارن مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدّولة الصّهيونيّة. ويخلص إلى أنّ المقارنة درس لا بد أن يتعلّم منه الصّهاينة، فاسرائيل مثل ممالك الصّليبين محاصرة عسكريًا لأنّها تجاهلت الوجود العربيّ في فلسطين ورفضت الاعتراف بهذا الوجود منذ مئات السّنين»[١٤].

وقد عاد افنيري الى الموضوع نفسه عام ١٩٨٣م في مقال نشر في هاعولام هزه بعنوان «ماذا ستكون النهاية؟» فأشار إلى أنّ الصّليبين بالرغم من احتلالهم رقعة واسعة من الأرض العربيّة كانوا قادرين على كل شيء الا العيش بسلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الاساسي للكيان. وعزز من هذا الوضع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين لا تؤمن بالسلام»[١٥].

كما ان المؤسسات العسكرية الاقتصاديّة للفرنجة قامت بدور فاعل في القضاء على محاولات السلام. وحين بدا التوتر بين الفرنجة من جهة وابناء الطوائف الشّرقية من جهة اخرى، وحين ضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب، دب الضعف في المجتمع الفرنجي الاستيطاني كما ان موت الاجيال الأولى من أعضاء النخبة افسح المجال للورثة الضعفاء في وقت ظهرت فيه سلسلة من القادة على الساحة الاسلامية قادوا الامة نحو تحرير الاراضي المحتلة من الجيوب الاستيطانية.

ولما كانت دولة اسرائيل دولة وظيفية، ومجرد أداة في يد قوى عظمى خارجية، فانّ اهتمام المستوطنين الصّهاينة بتجربة الممالك الفرنجيّة هو تعبير أولي عن هذه المسالة، بل إحساس يشوبه قسط كبير من القدريّة والعدميّة الناجمة عن إحساس الأداة بأنّها لا تمتلك ناصية أمورها ولا تسيطر على مصيرها أو قدرها.

إنّ من الحقيقة القول بأنّ هذا التّشابه الكبير إلى حدّ ما بين المشروعين قد يكون دولة اسرائيل إلى المصير نفسه الذي آلت إليه الكيانات الفرنجيّة، وهو لفظه عن المنطقة العربيّة كجسم غريب عنها.

الخاتمة

لعل من أبرز وأهم نقاط التّشابه بين دوافع المشروعين الفرنجيّ والصّهيونيّ أنّهما مشروعان استعماريان من النوع الاستيطاني الاحلالي. فالمشروع الفرنجيّ كان يهدف إلى تكوين جيوب بشريّة غريبة وممالك تدين بالولاء الكامل للعالم الغربيّ، لذا، لم تأتِ الجيوش وحسب، وإنّما أتى معها العنصر البشري الغربيّ ليحلّ محل العنصر البشري العربيّ. وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الإسرائيليّ إلاّ في بعض التفاصيل. فغزو فلسطين كان أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حضر المستوطنون الصّهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصرًا يقوم بالزراعة والقتال.

بسبب هذا التشابه التّاريخي، وبسبب تطابق الحقائق الجغرافيّة للمشروعين الى حد ما، فان الوجدان الصّهيونيّ مشغول الى اقصى حد في دراسة المشروع الفرنجي. وهو اهتمام يشوبه هاجس الاداة التي لا تملك ناصية امرها ولا تسيطر على مصيرها أو قدرها.

إنّ من الحقيقة القول بأنّ هذا التّشابه النّسبيّ بين المشروعين قد يقود دولة اسرائيل إلى المصير نفسه الذي آلت اليه الكيانات الفرنجيّة، لا سيما أنّها دولة تعيش حالتي التناقض والشّذوذ البنيويّ.

المراجع

(*) ورت عبارات مثل: الكفار، والجنس الخسيس، والجنس الشرير، والبرابرة، وغيرها من الألفاظ في خطبة البابا أوربان للدلالة على الأتراك السلاجقة.

(١) Hyamason, Albert M, Palestine under the mandate, 1920 - 1948, Greenwood press publishers, Connecticut,1976, P.10.

(**) يقول روجيه جارودي، في عام ٦٣٨م لم يكن العربيّ قد وصل إلى فلسطين، وإنّما الاسلام، إذا إنّ العرب كانوا في فلسطين منذ اكثر من ثلاثة آلاف عام، أي منذ الهجرات السّامية الأولى القادمة من الجزيرة العربيّة، تلك التي كانت تجوب ارجاء الهلال الخصيب من عموريين وكنعانيين وعرب من ذوي أصل اثني واسرة لغويّة واحدة (روجيه جارودي، فلسطين أرض الرسالات السماوية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩١، ص١٧٤).

(٢) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة، م٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٣٥٢.

(٣) محمد مؤنس عوض، في الصراع الاسلامي – الصّليبي، السّياسة الخارجيّة للدولة النورية(١١٤٦ – ١١٧٤م)، عين للدّراسات والبحوث الانسانية والاجتماعيّة، القاهرة، ١٩٩٨، ص٩٢، ط١.

(٤) عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص٣٦٠.

(***) يشمل المشرق العربيّ الاسلامي المنطقة التي تأثرت بالغزو الفرنجي مباشرة، أو كان لها دور في مجابهته والتّصدي له، وهي المنطقة الممتدة من آسيا الصغرى في الشمال إلى مصر في الجنوب، ومن العراق في الشّرق إلى شواطىء البحر المتوسط في الغرب.

(٥) سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الابحاث العربيّة، بيروت، ١٩٨٩، ص١٧٨، ط١.

(٦) عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص٣٧٢.

(٧) يوشع برأور، الاستيطان الصّليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنان، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعيّة، القاهرة، ١٩٧٣، ص٤٥.

(٨) عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص٢٠١.

(٩) المرجع نفسه، ص٢٠٢.

(١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبيّة، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ٢٠١٠، ص٢٥، ط١.

(١١) يوشع برأور، المرجع السابق، ص١٣٩.

(١٢) أحمد نوفل، الحرب النفسية بيننا وبين العدو الصهوني، الكتاب الثالث، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٦، ص١١، ط١.

(****) إن فكرة الشّرق الأوسط الجديد هي فكرة قديمة بصيغة مطوره من حلم هرتزل في قيام كومنولث شرق أوسطي. والفكرة الجديدة نجمت عن وثيقة امريكية قامت بوضعها العديد من الوزارات ومراكز البحوث الامريكية عام ١٩٧٩م بهدف اقامة نظام شرق أوسطي يكون فيه الكيان الصّهيونيّ المركز الاساسي من خلال دمجه في المنطقة واحلال فكرة الاقليم الاقتصاديّ لدول المنطقة.

(١٣) محمد عبده حتاملة، رؤية اسرائيلية للحروب الصّليبيّة، مركز بحوث الشّرق الأوسط، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤١.

(١٤) المرجع نفسه، ص٤٧.

(١٥) المرجع نفسه، ص٤٩.

من أجل رؤيا ثقافيّة جديدة

د. سلمى عطالله[1]

يُلاحظ، في معظم مجتمعاتنا العربيّة، اليوم، تدني المقروئيّة، أو حتّى شبه غياب ثقافة المطالعة بين معظم فئات المجتمع، «فلا تدخل المطالعة في السّلوك اليوميّ للأفراد، بل ترتبط بمفهوم وظيفيّ للقراءة بحيث يقرأ الفرد ما يلبّي حاجاته المهنيّة أو التّعلّميّة. وقد غابت، في هذا الإطار، للأسف، الدّراسات الميدانيّة الّتي تعالج واقع المطالعة وتدرس أسباب انحسارها» وسبل تعزيزها[2]. كما يُلاحظ أيضًا سيطرة الوسائط الرّقميّة وتراجع الدّولة عن دورها في تعزيز الثّقافة، وتخلّيها عن مسؤوليّتها في ترسيخ ثقافة تلائم العصر، وانسحابها من التّربية بموازاة انسحاب الأسرة، كما إن هيمنة اقتصاد السّوق في المجتمع أدّت كلّها إلى تقوية سلطة الاستهلاك وغرس قيم مدمّرة تعيق ارتقاء الثّقافة، وتوغل بنا في فخاخ الاستلاب. فقد غدونا، في الآونة الأخيرة، نعيش في هامش الحياة المعرفيّة والثّقافيّة، وبالتّالي، في هامش الحياة الحقيقيّة، نلهو في قشور هذه الحياة وتوافهها. ولست أدري إذا كنّا، نحن قد أخذنا أنفسنا إلى هذا الواقع، أو استسلمنا لمن خطّط لأخذنا إليه. إنّما، في كلّ حال، يبدو أنّنا نعيش في مجتمع، الثّقافة فيه في حال تقهقر وخمول، وقد انتهجت خطّ الهروب إلى الأمام، أو القفز على التّاريخ والذّات والتّنصّل من الهويّة لصالح إيديولوجيا اغتيال العقل وهيمنة الاسترخاء والجهل والتّعصّب والطّيش... ما يجعل منّا مجتمعًا سلبيًّا، فاقدًا لسماته المميّزة، يعيش جدليّة العلاقة الهشّة بين الواقع والطّموح.

فما هي الثّقافة؟

إنّ الثّقافة «هي محصّلة المعارف والقيم الحافزة على السّلوك. هذه المعارف تُتوارث في المجتمع وتُتلقّى في الأسر والمدارس

(١) قراءة أعدّتها د. سلمى عطالله، منسّقة اللّغة العربيّة في جامعة سيّدة اللّويزة، وأستاذة النّقد الحديث فيها

(٢) وثيقة من أجل النهوض، ص٣.

وتكيّف السّلوك الفرديّ»[1]. كما هي الشّكل الحضاريّ المحدّد لغويًّا وتاريخيًّا وعقائديًّا، والملامح الخاصّة الّتي تخصّ مجتمعًا معيّنًا وتميّزه عن سواه. وصفة المثقّف تطلق على الفرد أو على مجموعة أفراد باعتبارهم يحوزون على معارف متجانسة أو متنوّعة... وهي «مجموعة السّمات المميّزة للأمّة من مادّيّة وروحيّة وفكريّة وفنّيّة ووجدانيّة... وهي المخزون الجماعيّ للمعرفة والخبرة والمعنى والمعتقدات والقيم والمواقف والأديان ومفاهيم الزّمان والمسافة (المكان) الّتي تكتسبها مجموعات كبيرة من الأفراد وتتوارثها عن الأجيال المتعاقبة»[2]. وفي تعريف آخر، حدّد أحدهم الثّقافة بمزيد من العمق، إذ رأى أنّها «تسرّب الآخر في لحظاته العليا».

ونحن، انطلاقًا من هذا الكلام الأخير، سنعمل في هذه القراءة على توضيح رؤيانا الثّقافيّة الجديدة، والمعالم الّتي ينبغي أن تتأطّر بها، وذلك من خلال الأسئلة التّالية:

١. ما المقصود باللّحظات العليا؟ أو ماذا يتسرّب؟

٢. من هو هذا الآخر؟ أو ممّن تتمّ عمليّة التّسرّب؟ ولمن؟

٣. لماذا يجب أن تحصل هذه العمليّة؟ وكيف؟

أوّلًا: ما هو المقصود باللّحظات العليا؟ أو ماذا يتسرّب؟

إنّ كلمة «ثقافة» مشتقّة من الفعل «ثقّف» أي قوّم وسوّى، علّم وهذّب، وأصل الثّقف هو الحِذْقُ في إدراك الشّيء علمًا وعملاً. غير أنّها تتخطّى هذه الحدود، لتصبح معرفة الشّيء وكونه معًا، وهذا ما يميّزها عن التّعلّم الّذي يقتصر على معرفة الشّيء من دون ضرورة كونه. والمثقّف يكون واحدًا مع علمه أي يلتزمه. فالالتزام هو النّاتج الأوّل للثّقافة وهو في جوهره إيمان بما قَبِلَهُ الإنسان.

وقد حدّد «سارتر» (Jean-Paul Sartre) عمل الثّقافة بابتداع المخارج من المآزق المستحيلة... فيما رأى «أندريه مالرو» (André Malraux) أنّ الثّقافة هي «ما يبقى عندما نكون قد نسينا كلّ شيء»، و«ميشال سار» (Michel Serres) أنّها بحث عن الذّات الإنسانيّة وعن الكون، عبر الخروج من الذّات والسّفر إلى عمق الكيان الشّخصيّ وعمق الآخر والكون في بحث دائم عن المعرفة والجمال.

وهكذا تغدو الثّقافة نهجًا إبداعيًّا تبادليًّا للتّفاعل والتّطوّر، وسلاحًا بشريًّا لمواجهة الحياة، ومادّة تطهّر العقل وتنفعه وتغنيه وتطوّره وتُبقيه في تجدّد واستباق، وترتقي

(١) أومليل، علي: سؤال الثّقافة، ص٦٧.

(٢) الموسى، عصام: تطوير الثّقافة، ص٢٩.

بالإنسان وتسمو به إلى المرتبة الّتي تعطي لوجوده قيمة، فيتعرّف إلى ذاته والآخر، ويدرك حقيقته الوجوديّة والهدف الأسمى لها. بها عبر الإنسان من المستوى الطّبيعيّ إلى المستوى الحضاريّ، من اللّامعنى إلى المعنى حيث لامس لحظاته العليا.

ثانيًا: من هو هذا الآخر؟ أو ممّن تتمّ عمليّة التّسرّب؟ ولمن؟

هذا الآخر هو الإنسان الّذي لامس لحظاته العليا والتزم بها. هو المثقّف. هو الإنسان الفاعل المؤثّر الاعتراضيّ الّذي يتفاعل مع واقعه، يؤثّر فيه يتأثّر به، يسعى لفهمه من جميع جوانبه بهدف تغييره نحو الأفضل. وقد رأى «هيغل» (Georg Friedrich Hegel) أنّه «الإنسان المتميّز الحرّ الفردانيّ الّذي يعتبر نفسه في طليعة قوى التّغيير والتّقدّم». فيما رأى «نيتشه» (Friedrich Nietzsche) أنّه «قائد الأمّة إلى تحقيق الإنسان المتفوّق». أمّا «سارتر» فقد أضفى عليه مضمونًا فلسفيًّا وجوديًّا، أخرجه من إطار معيّن ومحدّد، من مجرّد قرار ليتحوّل إلى مسار طويل، إذ قال: «إنّنا لسنا نحن، إنّنا نصنع ذواتنا».

وبالتّالي، فإنّ عمليّة التّسرّب تتمّ من الآخر المثقّف الّذي وعى معنى الثّقافة ودورها وأهمّيتها، وتَشَكَّلَ بها وارتقى، فكان سبّاقًا إلى غيره، إلى الآخر غير المثقّف، الّذي لم يتمكّن من الارتقاء ومن ملامسة اللّحظات العليا في حياته. وفي هذا الإطار، لابدّ من التّوقّف عند فكرة التّفاعل الّتي تسم هذه العمليّة. ويمكننا القول، هنا، إنّ التّفاعل بين الثّقافات والاغتناء المتبادل بينها وحوارها المستمرّ يحول دون تحكّم الشّركات الغربيّة في شبكات إنتاج المنتج الثّقافيّ وتوزيعه[1]. إذ إنّ هناك صراعًا على المعرفة أو بالتّحديد على السّلطة المعرفيّة في مجتمعاتنا، لمن تكون؟[2]

ثالثًا: لماذا يجب أن تحصل هذه العمليّة؟ وكيف؟

الثّقافة هي «النّتاج الاجتماعيّ – الفكريّ الّذي يؤدّي، بعد التّأثّر به، إلى إحداث تبدّلات نفسيّة واجتماعيّة في المتلقّين له، فيصبح أسلوب حياة»[3]. إنّ عمليّة التّثقيف هي أمر لازم يهدف إلى إدراك الوجود والذّات الإنسانيّة والارتقاء بهما، وإلى خلق الوعي المنير والفعل الإراديّ الصّحيح وحالة من السّلام الخارجيّ والدّاخليّ تعمل جميعها على توطيد الحياة الاجتماعيّة وتطوير الحضارات والرّؤى الإنسانيّة... كما على تعميم حالة الارتقاء وتثبيت العطش الدّائم للجديد والمختلف والأفضل، وتعزيزه.

(١) سؤال الثّقافة، ص٩٢. (٢) المصدر نفسه، ص٩٨. (٣) تطوير الثّقافة، ص٣٠.

ولأنّ الإنسان هو صانع الثّقافة وهو موضوعها، فعلينا أن نعمل، في هذا الزّمن المادّيّ الاستهلاكيّ واللّاغي للقيم والنّائي عن الفكر، على تأسيس منظومة ثقافيّة مكوّنة لعقليّة حداثيّة ولهويّة تعرف الماضي بتراثه وفولكلوره وعاداته وتقاليده وقيمه وموروثاته الشّعبيّة... بتاريخه المكانيّ والحضاريّ والسّياسيّ والعسكريّ والأدبيّ والفنّيّ والعلميّ والهندسيّ العمرانيّ والبيئيّ والدّينيّ... وتنطلق على ضوء هذه المكتسبات لتعي الحاضر، حاضر الإنسان والبلد والمنطقة والعالم بكلّ التّحدّيات والمستجدّات الآنيّة بمختلف أشكالها، ولتتحاشى الأخطاء المرتكبة سابقًا، وتفعّل فكرة النّموّ والتّرقّي والسّعي للأفضل، ولترسم، بالتّالي، بطاقة دخول إلى مستقبل واثق ناجح متميّز وغنيّ. علينا أن نعمل على تأسيس منظومة ثقافيّة محفّزة على المبادرة والابتكار والإقبال والانطلاق نحو الآخر. يشبّه الأديب الأميركيّ «رالف والدو إمرسون» (Ralph Waldo Emerson) المثقّف بنقطة الماء المتموّجة من الوسط إلى الدّوائر المحيطة به، فهو في صيرورة دائمة دوام انتقاله عبر الدّوائر المتتالية الكبر. وهذه الدّيناميّة تفترض حركة دائمة ضمن دائرة الالتزام من الآخر في لحظاته العليا إلى الآخر في لحظاته الدّنيا، وتقودنا، بالتّالي، إلى بناء الثّقافة المجتمعيّة (La culture societale) أو علم اجتماع الثّقافة عبر تغيير أنماط حياتنا وتحويلها إلى ما يتلاءم مع حركة «من ← إلى».

أمّا تحقيق هذا التّغيير والتّحوّل فلا بدّ من أن يخرج عن الطّرق التّقليديّة المستهلكة والعاديّة، أو عن أطر المفروض والواجب. وفي عودة إلى التّحديد الرّئيس الّذي انطلقنا منه، نرى أنّ استخدام المصدر «تسرّب» ليس عبثًا، إذ إنّ فعل التّسرّب يقود إلى اعتبار عمليّة التثقّف والتّثقيف فعلاً عفويًّا ولا شعوريًّا أو إراديًّا، يتحقّق بشكل تدريجيّ سلس وخفيف، ويتحوّل إلى عادة مكتسبة متأصّلة، ورغبة متجذّرة وملحّة، وحاجة دائمة واستعداد متوثّب للقبض على اللّحظات العليا وعيشها والالتزام بها وتسليط الضّوء عليها وترويجها...

يقول «كازنتزاكس» (Nikos Kazantzakis)، الكاتب اليونانيّ حامل جائزة نوبل للآداب، على لسان البطل في رائعته الرّوائيّة الفلسفيّة «ألكسي زوربا» (Zorba the Greek): «بقليل من الجنون نغيّر العالم». ونحن نحتاج إلى هذا الجنون الحرّ والواعي والجريء والصّادق والمسؤول كي نسلّط الضّوء على أهمّيّة الثّقافة، ونسرّبها ونروّج لها، ولا نبقيها محصورة في النّخبة. ونضع رؤى جديدة وأطرًا متنوّعة تراقب وتسائل وتكافئ

وتتابع وتنظّم وتفعّل دور وزارة الثّقافة وتبسط سلطتها على مختلف المرافق، وتمدّ جسورًا واضحة وثابتة مع الوزارات المختصّة ذات الصّلة: التّربية، الإعلام، السّياحة، الشّباب والرّياضة...

ولكي لا يبقى كلامنا ضمن الحدود النّظريّة، لا بدّ من الانتقال إلى المجال التّنفيذيّ. وفي هذا الإطار حاولت جمع بعض الأفكار والنّشاطات والمشاريع الّتي قد تساهم في تعزيز مكانة الثّقافة في حياتنا، كشعب لبنانيّ، وتفعيل دورها في نقلنا إلى الأفضل، وذلك من خلال عمليّة اتّصال متباينة الأشكال والأساليب... ويعدّ «الاتّصال الإنسانيّ اتّصالاً هادفًا ويعرّف بأنّه عمليّة نفسيّة اجتماعيّة قائمة على تبادل الرّموز المشتركة بين طرفين بهدف تحقيق آثار محدّدة»[1]. فما هي الأفكار والنّشاطات والمشاريع الّتي يمكن اعتمادها في هذا المجال الاتّصاليّ؟

هذا ما سنسعى لعرضه، وإن بإيجاز، في الجزء الرّابع والأخير من هذه القراءة، بعد توزيعه ضمن إطارين اثنين هما: الحياة اليوميّة، والحياة الأكاديميّة.

رابعًا: بعض الخطوات العمليّة والتّنفيذيّة

لقد أصبح مجتمع المعرفة هو حاضر المجتمعات المتقدّمة. وهو مستقبلنا لكي لا نظلّ على الهامش. ومجتمع المعرفة – مستقبلنا – مرهون بما ستكون عليه ثقافتنا. والمعرفة الّتي نتكلّم عليها هي معرفة لا تستنسخ الماضي باسم إحياء التّراث والحفاظ على الهويّة، ولا تتحصّن وراء هذا كلّه خوفًا من أن تعصف بها رياح التّغيير في العالم، بل تنطلق من هذا الماضي والتّراث لتصنع المستقبل، ولتؤسّس قيمًا تعظّم الكرامة، وروح المواطنة، والمبادرة والعمل المنتج والتّعايش الدّيموقراطيّ... وامتلاك معرفة كهذه، تتخطّى حدود الشّهادة والاختصاص، هي أقرب إلى الثّقافة الّتي بإمكانها أن تكون مصدرًا للقوّة ومنتجة للثّورة.

لذلك لا بدّ من إصلاح جذريّ لنظرتنا إلى الثّقافة، وهي حجر الزّاوية في الإصلاح الّذي أصبح حاجة لمجتمعاتنا لكي تندمج في عالم اليوم. ويفترض في هذا المجال ألاّ يبقى الأمر حكرًا على الدّولة، بل أن تتضافر كلّ القوى لإنجاح هذا الإصلاح. يقرّ «هيجل»، في كتابه «مبادئ فلسفة الحقّ» «باستقلاليّة ما للمجتمع المدنيّ والّذي يجعله في مستوى بين العائلة والدّولة»[2]. لقد أصبحت الدّولة، في الكثير من بلدان العالم الثّالث، «ترفع هي أيضًا شعار الشّراكة واللاّمركزيّة، لأنّها أصبحت أكثر عجزًا»[3].

(١) تطوير الثّقافة، ص٩. (٢) سؤال الثّقافة، ص١٤٨. (٣) المصدر نفسه، ص١٤٩.

ومن أكثر الوسائل انتشارًا وتأثيرًا في الجمهور هي وسائل الاتّصال الجماهيريّة. ففي منتصف الخمسينات من القرن العشرين تمّ إسقاط الجمهور من الحسابات باعتباره جمهورًا سلبيًّا لا حول ولا قوّة له، لا يملك إلاّ أن يتأثّر برسائل الاتّصال الجماهيريّ وكلّ هذا من منطق أنّ المرسل هو الأقوى[١]. و«تؤدّي الثّقافة الجماهيريّة الّتي تقدّمها وسائل الاتّصال الجماهيريّ دورًا مهمًّا في تكوين معارف الأفراد واتّجاهاتهم. وتُعرَّف الثّقافة الجماهيريّة بأنّها البرامج والموادّ والفقرات المختلفة الّتي تقدّم عبر قنوات الاتّصال الجماهيريّ»[٢]. ويوجّه النّقّاد والمفكّرون والباحثون النّقد الشّديد أحيانًا إلى الثّقافة الجماهيريّة «لسذاجة أطروحاتها الهادفة إلى إرضاء قطاع عريض من الجمهور المتلقّي واجتذابه بأيّ صورة. ولأنّ الثّقافة الجماهيريّة أصبحت صناعة فإنّ القائمين عليها قلّة من المنتجين المحترفين المختصّين بإشباع حاجات الجماهير العريضة إلى موضوعات مبسّطة ومسطّحة تريحها من عناء يوم حافل وتملأ أوقات فراغها وتعود بالتّالي، على المنتجين بالرّبح الوفير، ما يجعل الجماهير رهينة بيد المنتج يحرّكها كيفما يشاء»[٣]. وينظر هؤلاء إلى الثّقافة الجماهيريّة، الّتي أخذت تؤثّر في الأذواق والقيم وتفعل فعلها فيها بسبب تعرّض الجماهير المستمرّ والمتزايد لها، وتأثّرها بها، على أنّها ذات مضمون هابط المستوى، لا تدفع إلى التّفكير، بل تقدّم إجابات جاهزة وسهلة وصورًا نمطيّة. وهي لذلك لا تنمّي الإدراك، بل على العكس من ذلك تخلق وعيًا مشوّهًا ومبسّطًا وغير كامل واطمئنانًا مزيّفًا، لأنّ الجمهور يستجيب لها بشكل غير نقديّ..[٤]. فيما على الثّقافة الجماهيريّة أن تتضمّن برامج التّنمية المختلفة، والتّحدّيات القوميّة والاجتماعيّة، كتحدي الاستقلال في مواجهة التّبعيّة، وتحدي إعلاء القيم في مواجهة القيم التّجارية العشائرية، وتحدي الحريّة في مواجهة الاستبداد، وتحدي احترام الكلمة في مواجهة الاجترار الفكريّ... كما الاستفادة من التّراث وتوعية الجمهور وتثقيفه وتقديم المعارف الضروريّة الّتي تمسّ جوانب الحياة الحديثة...

ويتّصف الجمهور المتلقّي لرسائل الاتّصال الجماهيريّ «بضخامة حجمه، وتوزّعه فوق رقعة واسعة، وعدم تجانسه، واختلاف استعدادات أفراده وقدراتهم. وبما

(١) تطوير الثّقافة، ص٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٩.
(٤) تطوير الثّقافة، ص٤٠.

أنّ هذا الجمهور يكون منفصلاً عن المتّصل (المرسِل)، فإنّ مخاطبته تستدعي توافر مهارات مميّزة في المرسِل تمكّنه من شدّ اهتمام الجمهور إليه وجذبه له، من خلال استراتيجيّات مدروسة يطبّقها لتحقيق ذلك الغرض»[1].

تبيّن الإحصاءات المتوافرة أنّ الشّعب العربيّ يتعرّض إلى وسائل الاتّصال الإلكترونيّة بالدّرجة الأولى. كما تبيّن هذه الإحصاءات انخفاض قراءة الصّحف، وتربطه بارتفاع نسبة الأميّة الّتي تزيد في بعض الأقطار العربيّة عن ٨٠ ٪. وهذا الأمر يقودنا إلى تسليط الضّوء على المضامين الّتي تقدّمها التّلفزة العربيّة، والّتي تستدعي التّوقّف أمامها باعتبار أنّ التّلفاز وسيلة شعبيّة تتعرّض لها الأسرة كلّها. وفي هذا المجال يلاحظ طغيان الجانب التّرفيهيّ في التّلفاز على بقيّة المضامين، وهو ما يحمل معه إشكاليّات متعدّدة. أولاها أنّ التّلفاز يمثّل توزيعًا غير متكافئ بالنّسبة إلى الوظائف الّتي يحقّقها الاتّصال الجماهيريّ بعامّة باعتبار أنّ وظائفه الأساسيّة هي: «التّثقيف والإعلام وتقريب وجهات النّظر لزيادة اللّحمة الاجتماعيّة»[2]. واليوم، من الضّروريّ الإشارة إلى أنّ وسائل الاتّصال الجماهيريّة قد أصبحت أكثر خطرًا بعد أن غدت أكثر شيوعًا وبمتناول الجميع، وبعدما صار الهاتف المحمول وشبكة الإنترنيت هما الوسيلة المتاحة للجميع والمستخدمة بعشوائيّة ولكلّ من أراد... ما جعل المادّة المنقولة عبرهما تتّسم هي نفسها بالسّطحيّة والعشوائيّة والمزاجيّة وانعدام العلميّة وغياب الرّقابة... وبالتّالي، وضع الثّقافة في مهبّ رياح هذه الوسائل الخطرة.

انطلاقًا من هنا، بات من الضّروريّ العمل على تسريب الثّقافة إلى مختلف ميادين حياتنا، ونشرها بين النّاس مستفيدين من وسائل الاتّصال الجماهيريّ، ومن أيّ وسيلة يمكنها المساهمة في عمليّة النّشر هذه. ومن الضّروريّ أيضًا العمل على توسيع رقعة هذه الوسائل لتطال حياتنا اليوميّة والأكاديميّة على حدّ سواء. أمّا أبرز الأفكار الّتي يمكن أن تفي بهذا الغرض، فنوزّعها إلى مجالين، ونذكر منها:

١ - تسريب الثّقافة إلى حياتنا اليوميّة بكلّ تفاصيلها

١ – ١ تأسيس موقع رسميّ خاصّ بوزارة الثّقافة يعمل على نشر دوريّ لكلّ المستجدّات الثّقافيّة، ويكون بمثابة مرجع علميّ وأكاديميّ.

١ – ٢ تأسيس موقع تواصليّ خاصّ

(١) المصدر نفسه، ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٤-٤٦.

بوزارة الثّقافة يعمل على طرح أفكار تثقيفيّة تكوّن مادّة تواصل ونقاش عبر مواقع التّواصل الاجتماعيّ، بين فريق متخصّص من النّخبة والعامّة. بحيث يكون لكلّ يوم فكرته الخاصّة به والمناسبة له والمحاكية لمستجدّاته...

١ – ٣ نشر جهة أو جهات مختصّة ومسؤولة معلومات علميّة وتاريخيّة وأدبيّة وفلسفيّة... بشكل رسائل قصيرة عبر الهواتف المحمولة.

١ – ٤ التّشديد على ألاّ يقوم على إدارة المؤسّسة الإعلاميّة إلاّ المتخصّصون المدرّبون الّذين يفقهون مفاهيم الاتّصال والاتّصال الجماهيريّ.

١ – ٥ تقديم المادّة التّثقيفيّة في قالب قصصيّ ضمن مسلسلات تلفزيونيّة مشوّقة، أو مسابقات محفّزة، أو ضمن إعلانات قصيرة مبتكرة على وسائل الإعلام المرئيّ، وعلى اللّوحات الجداريّة ولوحات الإعلانات الثّابتة والإلكترونيّة...

١ – ٦ اعتماد المعلومة السّريعة والخاطفة للتّرويج للأفكار أو المعلومات أو الأقوال أو الحكم أو الاكتشافات أو الاختراعات أو الإنجازات... وذلك بوضعها على أوراق المعاملات الرّسميّة، وعلى مداخل الأماكن العامّة ومراكز العمل والمصارف... وعلى شاشاتها الدّاخليّة... كما بوضعها على السّلع الاستهلاكيّة كقارورة الماء والمعلّبات وعلب المحارم والسّكاكر والحلويات والمكسّرات والأدوات المنزليّة والكهربائيّة... وعلى أكياس التّسوّق وبطاقات الملاهي والمطاعم والمقاهي... ولوائح الطّعام والمحارم في المطاعم، وعلى بطاقات الحفلات الفنّيّة والمهرجانات والمسرحيّات والأفلام السّينمائيّة...

١ – ٧ تفعيل عمل النّوادي والجمعيّات الثّقافيّة وإيجاد هذا النّوع من النّوادي في كلّ القرى والبلدات والمدن ومراقبة عملها ومساءلتها...

١ – ٨ إقامة ورش عمل وندوات في القرى والبلدات والمدن، ضمن البلديّات والنّوادي وخارجها، تدرّب على إدارة الوقت والاستفادة منه، وتحفّز كلّ الأعمار على التّثقّف والاطّلاع.

١ – ٩ تأسيس مكتبات متنقّلة مجّانيّة أو ذات أسعار رمزيّة، تشجّع على المطالعة، وتقيم، في هذا المجال، النّشاطات لمختلف الأعمار، كما تنظّم المسابقات.

١ – ١٠ اعتماد المسرح المتنقّل (مسرح الدّمى، المسرح الاستعراضيّ، التّاريخيّ...) لتقديم المادّة التّثقيفيّة بأسلوب ممتع.

١ – ١١ الاستفادة من الفنون بمختلف أنواعها (السّينما، المسرح، الغناء، الموسيقى، النّحت، الرّسم...) لنشر الثّقافة، بإضفاء البعد التّثقيفيّ العميق على هذه الأعمال وحثّ المتلقّي على التّفكير والتّأمّل.

١ – ١٢ زيادة عدد المتاحف والمعارض الثّقيفيّة بمختلف أنواعها، وتوزيعها على مختلف الأراضي اللّبنانيّة.

١ – ١٣ تفعيل دور الهيئات والجمعيّات غير الحكوميّة،والتّنسيق في ما بينها وتنظيم جهودها، وزيادة عددها، وعدم حصرعملها بإنشاء مكتبات عامّة إلى ما هو أكثر إبداعًا وفعاليّة.

١ – ١٤ التّركيز على الجهات الحيويّة الخمس الّتي يرتبط بها واقع المطالعة، وهي الأسرة، المدرسة، الإعلام، المؤسّسات الحكوميّة والمؤسّسات غير الحكوميّة، والعمل على التّنسيق فيما بينها.

١ – ١٥ تقديم رؤية تثقيفيّة مترافقة مع خطوات تنفيذيّة عمليّة وترويجيّة، من قبل صاحب كلّ مشروع أو مؤسّسة ضمن القطاعين الخاصّ والعامّ، تكون بمثابة ورقة أساسيّة في الملفّ الّذي تعمل الدّولة على دراسته والموافقة عليه قبل إعطاء التّرخيص بمباشرة العمل.

١ – ١٦ الخضوع لاختبار ثقافيّ معيّن قبل الحصول على أيّ رخصة أو شهادة (سوق، إنقاذ، تطوّع...) وقبل الدّخول في أيّ نقابة.

١ – ١٧ تخصيص جوائز قيّمة للمثقّفين وللأعمال التّثقيفيّة المتميّزة.

٢ - تسريب الثّقافة إلى حياتنا الأكاديميّة بكلّ وجوهها

٢ – ١ العمل على محو الأمّيّة في كلّ الأراضي اللّبنانيّة، ضمن حملات محفّزة، متنقّلة وثابتة.

٢ – ٢ العودة إلى العلوم الإنسانيّة، وخصوصًا الفلسفة والأدب، وتسليط الضّوء على دور الشّعر والقصّة والرّواية في عمليّة التّلقّي وتأثيرها في آليّات التّحويل والتّغيير...

٢ – ٣ إعادة النّظر في المناهج كي تصبح ذات منحى تثقيفيّ غير محدود ضمن أطر المهارات الأكاديميّة فقط، والعمل على مبدأ التّداخل الواضح والمدروس (Integration) بين المناهج، كما التّركيز على المهارة البحثيّة كنقطة انطلاق لأيّ عمليّة تعلّم وتعليم.

٢ – ٤ العمل على إتقان اللّغة العربيّة وعلى تطوير عمليّة تعلّم اللّغات الأجنبيّة، خصوصًا في المناطق النّائية (دورات جانبيّة، حلقات تدريب، مجالات تطبيق ميدانيّة حيّة...)

٢ – ٥ تعزيز التّرجمات وإدخال هذه المهارة إلى صلب المناهج والاختصاصات، خصوصًا في التّعليم الثّانويّ والجامعيّ.

٢ – ٦ إقامة ورش عمل في المدارس والجامعات والمعاهد تضيء على قيمة

الوقت وكيفيّة صرفه، وتدرّب على ما يحفّز على الثّقافة والمطالعة والاطّلاع والمناقشة، وعلى الوصول إلى اختيار الأفضل واستيعابه، وعلى التّربية الإبداعيّة وطرق التّحليل والتّفكير الحديثة وطرح الأسئلة... فالمثقّف يتوالد بالأسئلة ويقترب من النّضج في محاولته الإجابة عنها.

٢ – ٧ إلغاء طرق التّدريس التّلقينيّة المستخدمة غالبًا في المدارس والمعاهد وأحيانًا في الجامعات، والّتي لا تنمّي مهارات التّفكير لا سيّما التفكير النّقديّ الإبداعيّ، ولا تشجّع على التفكير المستقلّ الذي يحتاج إليه الفرد ليتمكّن من المطالعة.

٢ – ٨ العمل على تحويل المطالعة من مجرّد مهارة مفروضة إلى المطالعة كسلوك محبّب وحرّ...

٢ – ٩ تعزيز المكتبات (داخل المدارس والجامعات والمعاهد) وتفعيل دورها في حياة الطّلاّب والأكاديميّين، وتشجيعها على إقامة مشاريع محفّزة على المطالعة.

٢ – ١٠ تنظيم المسابقات والمشاريع والمعارض المرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالثّقافة، داخل المدارس والجامعات والمعاهد، وفيما بينها.

٢ – ١١ تحفيز الطّالب في المدرسة والجامعة على وضع مشروع ثقافيّ يقدّمه قبل التّخرّج يبيّن فيه مخزونه الفكريّ وحصيلته الثّقافيّة اللّذين كوّنهما بمجهوده الشّخصيّ.

٢ – ١٢ تعزيز مبدأ التّربية المستديمة المتكاملة أو «التّعليم المستمرّ».

٢ – ١٣ مراقبة دور النّشر ودعمها وتعزيز عملها، بغية انتشالها من بؤرة السّوق الاستهلاكيّة والارتقاء بها إلى المستوى الثّقافيّ المطلوب.

٢ – ١٤ تنظيم عمل الاتّحادات (اتّحاد الكتّاب والمؤلّفين...) ومختلف النّقابات وتحفيزها على تبنّي الرّؤى الثّقافيّة وعلى رفع مستوى الانضمام إليها إلى المستوى الثّقافيّ المطلوب.

٢ – ١٥ تشجيع الجهات المسؤولة على إقامة لقاءات بين مجموعات شبابيّة أو متنوّعة الأعمار، أو بين مجموعات من طلاّب وأكاديميّين، تناقش كتبًا ومقالات ونظريّات مختلفة (أدبيّة وفلسفيّة وعلميّة...) وتؤطّر أفكارها.

ختامًا، لقد أصبحت الثّقافة حاسمة في كسب المستقبل أو إضاعته، لأنّها أكثر قدرة من غيرها على تثبيت التّصوّرات والقيم والرّؤى... ولأنّها محصّلة المعارف الّتي تشكّل نوعيّة التّفكير والقيم الحافزة والسّلوك وتكوين الإنسان الّذي يستطيع أو لا يستطيع اكتساب المعارف والقدرات النّافعة والاندماج في عالم اليوم أو الوقوف على أبوابه الموصدة دونه.

وبالتّالي، لقد آن الأوان لانبثاق صحوة إنساننا كي يغدو المثقّف القادر على تفعيل قوى التّغيير والتّطوّر، كي يغدو الواعي لدوره كطرف أساسيّ في عمليّة نقل المجتمع نحو الأفضل، خصوصًا أنّ هذا المجتمع ليس كيانًا نقع عليه فجأة بل بنية تنمو وتتطوّر.

قال «ابن خلدون» في مقدّمته: «المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده». وقد حذّر الباحثون العرب من أخطار الغزو (الاستلاب) الثّقافيّ المتعدّد الجهات الّذي تتعرّض له الثّقافة العربيّة والّذي من شأنه دفع المتلقّين العرب إلى الإغراق في قيم اجتماعيّة وثقافيّة غير ملائمة[1]، كما إلى الجنوح إلى الاتّباع، ما يجعلهم يقبلون الاستلاب ويفقدون القدرة على الإبداع ويستقيلون من كلّ مهمّة في صناعة التّاريخ والمساهمة في إثراء الثّقافة الإنسانيّة.

لذا علينا أن نستعيد هويّتنا الثّقافيّة من مهبّ رياح حياتنا المتغرّبة والسّطحيّة والاستمتاعيّة والاستهلاكيّة... كما علينا أن نحفاظ على هذه الهويّة، لأنّها مطلب تنمويّ وحياتيّ يبدأ بالأفراد والنّخب قبل المؤسّسات، وأن ننطلق منها للاستزادة والتّطوير... أمّا فيما يتعلّق بالصّناعات الثّقافيّة المستوردة من الخارج فنحن أمام خيارين أوّلهما فرض العزل الثّقافيّ كما فعلت بعض الدّول مثل الصّين وفرنسا اللّتين تحدّدان استيراد الصّناعات الثّقافيّة من الخارج. والخيار الثّاني فرض الانتقائيّة، وهو أقرب إلى الممكن في وضعنا الحالي[2]، إنّما الانتقائيّة الّتي لا تؤثّر في الهويّة، بل الّتي تعمل على تطويرها وإطلاقها نحو الأفضل، وذلك من باب ضرورة الانفتاح على الآخر.

وحيال هذا الواقع الّذي قد نراه صعبًا ومستحيلاً، علينا ألاّ نقول «إنّ الأمر مستحيل»، بل نقول كما قال «ديغول» عندما خاطب أنصاره في أحد المنعطفات التّاريخيّة للمقاومة الفرنسيّة إبّان الاحتلال النّازيّ لبلاده: «تعقّلوا واطلبوا المستحيل كالمجانين». علينا ألاّ نبقى مجرّد متفرّجين في هذا الزّمن المادّيّ الهشّ والتّافه. فقدرنا، كما قال الأبّ «يوحنّا قمير» «الاستمرار، لا الاستقرار، أو الاستقرار على الاستمرار».

أيّ مستقبل نريده لأنفسنا؟

وهل يمكننا أن نرسم معالمه بعيدًا عن هويّة ثقافيّة حقيقيّة؟ إنّه سؤال ينتظر منّا التّفكير واتّخاذ القرار بوعي ومسؤوليّة...

(١) تطوير الثّقافة، ص٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

المصادر والمراجع

١. أوملیل، علي. سؤال الثّقافة، الثّقافة العربيّة في عالم متحوّل. الدّار البيضاء، المغرب: المركز الثّقافيّ العربيّ، ط١، ٢٠٠٥.

٢. الجبر، محمّد. تحوّلات الثّقافة العربيّة. سوريا: دار التّكوين، ط١، ٢٠١٠.

٣. الحجاري، عبد القاهر. بؤس الثّقافة المدينيّة العربيّة. بيروت: كتابات معاصرة، المجلّد ٢٧، العدد ١٠٥، ٢٠١٧.

٤. الموسى، عصام سليمان. تطوير الثّقافة الجماهيريّة العربيّة. أبو ظبي: مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة، العدد ٦٨، ط١، ٢٠٠٢.

٥. شرابي، هشام. أزمة المتقّفين العرب. السّويد: دار نلسون، طبع في بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

٦. شرابي، هشام. النّقد الحضاريّ لواقع المجتمع العربيّ المعاصر. السّويد: دار نلسون، طبع في بيروت، ط٣، ٢٠٠٠.

٧. مجموعة مؤلّفين. وثيقة من أجل النّهوض بالكتاب وتعميم ثقافة المطالعة – بيروت: وزارة الثّقافة اللّبنانيّة، دار النّهضة العربيّة، ٢٠٠٩.

٨. مجموعة مؤلّفين. المطالعة في الرّيف (أشغال الملتقى العربيّ للمطالعة في الرّيف – الجمهوريّة التّونسيّة، وزارة الثّقافة والشّباب والتّربية)، ٢٠٠٤.

٩. مجموعة مؤلّفين. اللّغة العربيّة: أسئلة التّطوّر الذّاتيّ والمستقبل. سلسلة كتب «المستقبل العربيّ»، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط١، ٢٠٠٥.

فلسفة الصّين مع كونفوشيوس و«لاوتسو»

د.ديمه بو ملحم[1]

لكل حضارة أساس فلسفيّ، فمن غاص في بحر الحضارة الصّينيّة وجد ذلك الأساس متمثلاً في الكونفوشيّة والتّاويّة والكونفوشيّة الجديدة.

توخى مفكرو الصين جميعًا أن يبرزوا أهمية عظمة الإنسان فدعوا إلى احترام الإنسان وتقديره، أمّا الاختلاف بين الفلسفات الصّينيّة فيعود إلى نتيجة الاستبصارات المختلفة عن مصدر العظمة الإنسانيّة. فأرجعت التّاويّة (الطاوية) عظمة الإنسان إلى التّوحّد مع النّهج الدّاخليّ للكون، وربطت الكونفوشيّة تطوير الإنسانيّة بالنّزوع إلى الفضائل الاجتماعية، وارتأت الكونفوشيّة الجديدة المتأثّرة بالبوذيّة الصّينيّة وجوب الجمع بين ما ذهبت إليه التّاويّة والكونفوشيّة.

خير ما يجسّد عظمة الإنسان العبارة التّالية: «الحكمة في الدّاخل والنبل في الخارج» ومعنى ذلك أنّ للإنسان عظمتين إحداهما داخليّة حيث يتحقّق شموخ الرّوح وسلام الفرد ورضائه بكماله، وثانيهما خارجيّة إذ يشعر الإنسان بالكرامة والعزّة في الميدان الاجتماعي وعلى الصّعيد العمليّ.

من أجل توضيح الفلسفة الصّينيّة، ما علينا إلا أن نذكر ما أورده «لاوتسو» Lao tzu[2] عن أهمية الثّوابت أي القوانين الدّاخلية للكون، فمعرفة الثّوابت تدعى بالاستنارة، ومن يعرف الثّابت يتحرّر، ومن يتحرّر يخلُ من الهوى والتّحيز، ومن يخل من الهوى والتحيّز يتسع إدراكه، ومن يتّسع إدراكه يصبح رحب الأفق، ومن

(١) أستاذة في الجامعة اللبنانيّة.

(٢) «لاوتسو» Laotzu صيني بارز، ربما يعود إلى القرن الخامس ق.م. ويعده الكثيرون أعظم فلاسفة الصين قبل كونفشيوس وإن كان قد عاصر المعنى الحرفي لاسمه «المعلم العجوز» قبل كونفوشيوس، إلا أنّه أسس التاوية، ألف كتاب «تاوتي كنج Tao te ching» ورغم البعض لا يتردد في القول بأنه قد يكون شخصية أسطورية إلا أنّ الكثير من المراجع يحدد العام ٦٠٤ق.م. كتاريخ لميلاده والعام ٥١٧ كتاريخ لرحيله عن عالمنا.

يصبح رحب الأفق يكن مع الحقيقة ويستمّر إلى الأبد، ولا يعرف الفشل على امتداد عمره. أمّا الجهل بالثّابت والتّصرّف على نحو يفتقر للبصيرة فهو يوصل إلى الكارثة.

وبالنّسبة إلى كونفوشيوش ينبغي على الإنسان البدء برعاية حياته الخاصة، ثم التّوجه نحو تنظيم عائلته وبعدها وجب عليه نشر النظام في دولته، ومن اتبع هذا المسار يكون قد نجح في إبراز شخصيته النقيّة للعالم.

من الفلسفتين التّاويّة والكونفوشيّة نستشّف الارتباط بين الممارسة والنظرية، ولذلك استطاع أن يتبوأ فلاسفة الصّين العظام مناصب إدارية في الحكومة، أو أن يلمعوا في مجال الفن، من هنا كان لا بد من القول إنّ الاختبار الحقيقيّ للفلسفة يكمن في قدرتها على تحويل الفرد إلى إنسان أكمل.

احتكر الإنسان والمجتمع فكرَ الفلاسفة الصينيين، فكان العالم الإنسانيّ يحتلّ المرتبة الأولى، أمّا عالم الأشياء فيحتلّ مرتبة ثانوية في الكونفوشيّة، حيث برزت بشكل واضح النّزعة الإنسانيّة الاجتماعية، وفي التّاويّة تجسّدت الوحدة الصوفيّة الأنطولوجيّة بين النّفس والكون.

تعلو مرتبة الرّوح مرتبة الجسم، وقد ظهرت الدّعوة إلى تغذية الرّوح ورعايتها جلية في الكونفوشيّة فلا تمييز بين الأخلاقي والروحي، كما جرى التشديد على أن يحظى الإنسان بمستوى أسمى للوجود الإنساني في التّاويّة.

وللفضائل العائليّة دور بارز في تحقيق العظمة، فقد انطلقت الأخلاق الصّينيّة من العناية الشّديدة بشخصية الطفل الأخلاقيّة والروحيّة مشددة على مفهوم حبّ الأبناء للآباء، مع الإيمان بأهميّة التّحلّي بالتّسامح والتّعاطف، فالأشخاص والممارسات، ووجهات النّظر المختلفة، يتعيّن التّسامح معها، والنّظر إليها على نحو متعاطف من أجل تقدير قيمتها.

تميّزت الفلسفة الصّينيّة باعتمادها على التّكامل بين الآراء والمبادئ وعدم تناقضها، فعلى الرّغم من التّعارض بين رأي وآخر إلا أنّه يبقى هناك أساس مشترك. ففي الفكر الصّيني ينظر إلى الخلافات على أنّها تكامليّة، وليست تناقضيّة، حيث يتم النّظر إلى الخلافات بحسبانها مكملٌ بعضها بعضًا، وعليه فإنها تشكّل كلاً واحدًا. وبدلاً من التّفكير في أنّ «أ» و«ب» متعارضان وبذلك يتعيّن على المرء أن يعتمد «أ» فإنّه يفكر في أن «أ» و«ب» متعارضان، وعليه فإن الحاجة ماسة إليهما من أجل الكل الواحد. وعلى سبيل المثال، لا يختار المرء بين الممارسة والنظرية، وإنّما يختار كلا من الممارسة والنّظريّة.

من تكامل المبادئ لا تناقضها، اغتنت حضارة وثقافة الصّين بتراث فلسفيّ، ثري وكامل، محتضنًا الفلسفات المتنوعة الكونفوشيّة والتاية والكونفوشيّة الجديدة.

الكونفوشيّة

سبق ميلاد «كونفوشيوس» و«لاتسو» أزمة قاسية اجتاحت الصين، من هنا لا ينبغي أن يعرونا الذّهول من أنْ يكون هذان الفيلسوفان مصلحين. ولد «كونفوشيوس» عام ٥٥١ ق.م. ونشأ في ظل سلطة حاكمة تفتقر إلى المبدأ الأخلاقي في سياستها للشّعب، فقرّر الدّعوة إلى أن يكون أعضاء الحكومة مزدانين بالاستقامة، ومتفهمين لاحتياجات النّاس ومهتمين بمصالح وسعادة النّاس على قدر اهتمامهم بأنفسهم.

خير ما يعبّر عن كون الكونفوشيّة نزعة إنسانيّة أكثر منها نزعة طبيعيّة هو إيمان كونفوشيوس أنّ مصدر الطّبيعة والسّعادة الإنسانيين يوجد داخل الإنسان لا خارجه.

ومن أهم ما اشتهرت به الكونفوشيّة دعوتها الآتية: «أنجز للنّاس ما كنت حريًا بإنجازه لنفسك»[1] وبذلك تكون هذه الفلسفة قد جسّدت أحد مبادئ الإصلاح الاجتماعي.

استوحى كونفوشيوس الذي عاش من ٥٥١ إلى ٤٧٩ ق.م. بعض أفكاره من عصور سابقة وبمعنى آخر من الكتب الكلاسيكيّة الخمسة: ١. كتاب الشّعر (شيه تشينج Shih ching) وهو يعود إلى عهد « تشو»

٢. كتاب التّاريخ (شو تشينج Shu ching)

٣. كتاب التّغيرات (أي تشينج I-ching)

٤. كتاب الطّقس (لي تشي Li chi) والمراد من هذا الكتاب تنظيم السّلوك الاجتماعي.

٥. حوليات الرّبيع والخريف (تشو تشو chu chiu)

أما الكتب التي تضمّنت أفكار كونفوشيوس فهي الآتية:

١. مختارات كونفوشيوس (لون يو Lun yu) وهي أقوال كونفوشيوس لتلاميذه، وقد قاموا بجمعها وتنسيقها.

٢. العلم العظيم (تاهسو ta Hsuel) وهو يضم تعاليم كونفوشيوس، التي تحتوي اقتراحاته الخاصة بنظام الحكم. ويعكس هذا الكتاب تطوير هسون تسو لفكر كونفوشيوس

(١) سلسلة عالم المعرفة، الفكر الشرقي القديم، جون كولر، ترجمة د. كامل يوسف حسين، مراجعة د. إمام عبد الفتاح ١٩٩٥، عدد ١٩٩، ص٣٣٣.

٣. عقيدة الوسط (تشونج يونج chung yung)، ويضم تعاليم تنسب إلى كونفوشيوس حول تنظيم الحياة.

٤. كتاب منشيوس (منج تسو Meng Tzu) وهو شروح عل متن مبادئ كونفوشيوس، كتبها منشيوس، الذي يعدّ من الشّراح الأوائل لكونفوشيوس. تبوأ كونفوشيوس منصبًا حكوميًا في دولة «لو» «Lu» التي ولد فيها وهي ولاية صغيرة عاصمتها «ليو – يانج» والمعروفة اليوم باسم «هومان» ومنصبه هذا سمح له بإدراك سوء إدارة الحكام والبؤس اللذين سادا الدّولة.

وردًا على فساد السّياسة والمجتمع في عصره، بزغت عند كونفوشيوس فلسفة إنسانيّة اجتماعيّة. ما المقصود من فلسفة إنسانيّة اجتماعيّة؟ إنّها تعني حسبان الإنسان مطلقًا وهنا يمكن مقارنة النّزعة الإنسانيّة بنزعة طبيعيّة أخرى فائقة للطّبيعة.

بالعودة إلى النّزعة الطّبيعيّة أو العالم الإنسانيّ ينظر إلى الطّبيعة على أنها مطلقة وبذلك ينبغي أن تكون أفعال الإنسان متسقة مع افعال الطّبيعة.

أما من منظور النزعة الفائقة للطّبيعة أي الميتافيزيقية، يتأكد وجود قوة فائقة على الطّبيعة والإنسان أي مطلقة، والفائق الطّبيعيّ هو خالق الطّبيعة والبشر، ولن يكون سلوك البشر والأحداث الطّبيعيّة إلا نتيجة تحديد صارم من الفائق الطّبيعيّ.

الفلسفة الإنسانيّة هي الفلسفة التي تنكر إمكانية انقيادها للطّبيعة أو للفائق الطّبيعيّ، إذ هي تسعى لتقدير الكائن البشري وإجلاله وحسبانه الأسمى، بالاضافة إلى تفتيشها عن سعادة الإنسان وخيره. ومن خلال عثور الإنسان على مبادئ الفعل في الإنسانيّة ذاتها، يتحقّق جعل البشر مخلوقات انسانية.

«**جين** Jen»

يشدد كونفوشيوس على أهمية «جين» أي الود أو العطف أو الشفقة في جعل البشر إنسانيين. إذا طيبة القلب هي التي تمثّل الطريق الكونفوشي خير تمثيل، وقد ترجمت «جين» إلى أكثر من كلمة، منها: الفضيلة، الإنسانيّة، الإحسان، الرّجولة الحقة، الطّابع الأخلاقي، الحب، الخير الإنساني، وطيبة القلب الإنسانيّة. وتأثير «جين « على الشعور والفكر معًا وعلى العلاقات الإنسانيّة كافة لا شك فيه في الفلسفة الكونفوشيّة. من هذا الأمر نلمس الاجلال الصيني للقلب أكثر منه للعقل.

عندما أوضح كونفوشيوس لـ «فان تشيه» ماهية «جين» بقوله «إنّها حبّ البشر» لم يكن الا مشددًا على أهمية الأخلاق الناجمة عن حب الآخرين، فإن

كونفوشيوس يقول: «يرغب كل انسان في الثروة والشرف، ولكنهما إذا تمّ تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغي الإبقاء عليهما. ويكره كلّ إنسان الفقر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالامكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنّه لا ينبغي تجنبهما، وإذا نأى شخص رفيع المكانة عن الإنسانيّة (الجين) فكيف يمكن أن يحقّق تلك المكانة؟ ذلك أن الإنسان الرّفيع المكانة لا يمكنه قط التّخلي عن الإنسانيّة (الجين) حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة، فهو في لحظات التعجل وهو مسرع وفقًا لها، وهو في أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقًا لها»[١].

ما يريد قوله كونفوشيوس هو أنّ «التاو» أو «الطريق» السليم للفعل الإنساني هو التقيد بمبدأ «الجين» وبذلك يجب عدم الاكتراث بما يحبه المرء وبتجنب ما يكرهه. ويضيف كونفوشيوس:

«إنّ المثقف الحازم، ورجل الإنسانيّة (الجين) لا يسعى قط للحياة على حساب الاضرار بالإنسانيّة (الجين). وهو يؤثر التضحية بحياته لكي يحقق الإنسانيّة (الجين)»[٢].

أهمّ ما يميّز نهج «الجين» هو يقظة الضّمير (تشونج Chung) والإيثار (شو) حسب رأي «تسينج» تسو «Tzeng tzu» أحد اتباع كونفوشيوس، وهكذا ينبغي التّقيد دائمًا بقاعدة كونفوشيوس الذّهبية الشّهيرة «عامل الآخرين بما تحب ان يعاملوك به» أو «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك»[٣].

لي Li

الحياة اليوميّة المفتقرة إلى «لي li» أي قواعد اللياقة أو آداب المجتمع خير دليل على ابتعاد المرء عن «الجين»، إذ أن «لي» هي التجسيد الحقيقي للجين، فالسّيطرة على النّفس والعودة إلى آداب المجتمع هي الإنسانيّة، وهذا الأمر يتّضح من كلام كونفوشيوس عندما سأل «مي يوان» عن الجين، فقد قال كونفوشيوس: «أن يسيطر المرء على نفسه وأن يعود إلى آداب المجتمع (لي) تلك هي الإنسانيّة (الجين)»[٤].

في الكونفوشيّة نلفي تأكيد أهمية المرء نفسه في الممارسة، فتنمية النّفس تعني قهر الأنانيّة والتّحلي بالإخلاص والاستقامة. وفي هذا التأكيد حث أن يسيطر على نفسه، وأن يعود إلى اللياقة أو آداب المجتمع. وما يلفت الانتباه، أن

(١) المصدر السابق، ص٣٥١.
(٢) المصدر السابق، ص٣٥١.
(٣) المصدر السابق، ص٣٥٢.
(٤) المصدر السابق، ص٣٥٢.

كونفوشيوس استخدم (لي) خمسًا وسبعين مرة في كتابه «المختارات» كونها الوسيلة التي نستطيع بواسطتها ترويض دوافعنا الضارية، فتعبر حينئذ عن طبيعة الإنسانيّة.

تجسد آداب المجتمع (لي) حقًا شرائع السماء، ومن يحرز (لي) يعيش، ومن يفقدها يموت، وإذا أردنا فهم معاني (لي)، أمكننا القول أن (لي) تعني الدين والنظام الاجتماعي والأخلاق، كالحب في حالة الآباء، الولاء البنوي في حالة الأبناء، الاحترام في حالة الإخوة الأصغر، الصداقة في حالة الاخوة الأكبر، الولاء بين الأصدقاء، الاحترام للسلطة بين الرعايا، والنزوع إلى الخير في حالة الحكام.

بالعودة إلى استكشاف مفهوم (لي) تاريخيًا، نجده كأقدم مفهوم ديني يعنى بطقوس الممارسات الدينيّة، ثم أصبح يشير إلى طقوس الزّواج والاحتفالات العسكريّة والحكوميّة.

وفي الاحتفال العلني تتجسّد المشاركة وانفتاح المشاركين كلّ منهم على الآخر، والمشاركة في الحياة المفتوحة تحفّز تطوير «الجين» وتدعمه.

هسيا و Hsiao

من المستحيل تطوير «جين» من دون الاهتمام بالعائلة، التي ترعى الطفل وتعلمه إجلال الآخرين ومبادلتهم المحبة، حيث يأتي الآباء، أولاً فالإخوة والأخوات والأقارب، ثم باتساع النّطاق التّدريجي، الإنسانيّة كافة.

من مظاهر توقير الأهل أي تجسيد «هسياو» أو الولاء البنوي، يذكر كونفوشيوس حماية الجسم، إذ أن الجسم من الأبوين، و(هسياو) لا يتمثل في الرّعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك في جلب الثّراء العاطفي والروحي. وفي حال عدم اتمام تحقيق الأهداف يتوجب أن يقوم الأبناء بهذه المهمة، والأكثر أهمية هو تقديم القرابين إلى روح الوالدين الراحلين.

من تعلم إجلال أبويه استطاع فيما بعد أن يحب ويحترم إخوته، وسهل بعد ذلك أن يحبّ الإنسانيّة بأسرها وأن يحترمها، فمن «هسياو» تنبثق «جين».

يي yi

من الفضائل التي لا بّد من وجودها من أجل تطوير «جين» يذكر كونفوشيوس «يي yi» أي الاستقامة بفضل (يي) يميز الإنسان الصّحيح، وهي تعدّ كنوع من الحسّ الأخلاقي، ومن ازدان بفضيلة يي اي الاستقامة، كان مستعدًا للتّضحية بحياته من أجل شخص يتعرض للخطر، ما ينبغي فعله هو الشيء الصّواب مع وجوب التّشديد على حب الإنسانيّة واحترامها.

«يي» و«هسيا» و«جين» هي خصائص الشّخص الأسمى، وليس من تمييز حاد بين الأخلاق والسياسة، وما إن يتحلّى كل شخص بتلك الخصائص حتى يتسنى قيام حكومة جيدة ونظام اجتماعي نعمه السّعادة.

الحكم عن طريق الفضيلة

بمنأى عن القضاء والقانون، ارتأت الكونفوشيّة أن يكون الحكم عن طريق الفضيلة، وهنا يطرح السّؤال الآتي: كيف نصلح المجتمع؟/

من الواجب أن يتمكن الإنسان من التمييز بين الأشياء. لكي يصبح عارفًا حقًا، ومع الإرادة المخلصة ينشط القلب، وبنشاط القلب يتم اهتمام الإنسان بحياته الشخصية، ثم عائلته، ثم بوطنه، وبذلك يعم السلام العالم. فما هو واضح في الفلسفة الكونفوشيّة أنّ هناك دورًا مهمًا لثمانية عناصر أخلاقية سياسية في سبيل تحقيق العظمة، وهذا وارد في النص الآتي:

«كان القدماء الذين رغبوا في الحفاظ على الطّابع المتجدّد والنقي لسكان المعمورة، ينطلقون أولاً لتنظيم الحياة الوطنية، وعندما أرادوا تنظيم الحياة الوطنية كان عليهم الانطلاق أولاً لتنظيم حياتهم العائلية، ولما أرادوا تنظيم حياتهم العائليّة كان عليهم المضي لرعاية حياتهم الشّخصية، كان عليهم الانطلاق أولاً لكي يعيدوا النشاط لقلوبهم. وإن أرادوا اعادة النشاط لقلوبهم كان عليهم أن يبدأوا أولاً لتحقيق إخلاص نواياهم وتطهير قلوبهم، ولما أرادوا تحقيق إخلاص نواياهم وتطهير قلوبهم كان عليهم أن يعملوا أولاً لتحقيق المعرفة الحقّة، وتحقيق المعرفة الحقة يعتمد على تمحيص الأشياء. وعندما يجري تمحيص الأشياء، فإن المعرفة تتحقق، وعندما بلغوا المعرفة الحقّة أصبحت الارادة، عندئذ مخلصة، وعندما تصبح الارادة مخلصة، فإنّ القلب يعود إليه النشاط، وعندما يعود النشاط إلى القلب، فإنّ الحياة الشّخصية تتم رعايتها، وعندما تتم رعاية الحياة الشخصية، فإنّ الحياة العائليّة تنتظم، وعندما تنتظم الحياة العائليّة، فإنّ الحياة الوطنيّة تغدو منظمة، وعندما تنتظم الحياة العائليّة، فإنّ السّلام يسود العالم[1].

من هذا النّص نستلهم ما وضعه كونفوشيوس على كاهل الحكومة وهو توفير المادة والروح للشّعب، وهذه المهمة طوباوية للغاية، وهي تستلزم عددًا كبيرًا من العناصر، مثل وجود غذاء ومكان

(١) المصدر السابق، ص٣٥٨.

للإيواء وحماية من الأمراض ووسائل توفر النمو الروحي كالفنّ والتعليم والدين... بالإضافة إلى حضور أخلاقي ينظم التنافس ويمنع نشوب النزاع والصراع.

للحكومة أهداف سامية عند كونفوشيوس وهي إصدار القوانين، وجمع الضرائب، وبناء المدارس والمعابد والمتاحف، وتنظيم العمل والانتاج، والمعروف أن في الدولة الكونفوشيّة المثالية يتم القيام بالوظائف الحكومية الأساسية على المستوى المحلي، وليس على المستوى القومي، ومن العلاقات السليمة بين جميع الأشخاص يتحقق هدف الحكم.

في الفلسفة الكونفوشيّة الاجتماعية تشديد على وجوب التّعليم الذي يعني تمحيص الأشياء ومعرفة طبيعة الإنسان. و«المعرفة الحقة» في الكونفوشيّة ليست إلاّ معرفة جذر الأشياء، أو أساسها، ويعطي مثلاً على ذلك أنّه بمعرفة السّبب الأساسي للجريمة أمكننا القضاء على الجريمة ذاتها والتّخلّص من القضايا، فكونفوشيوس يقول: «في التّصدي للفصل في القضايا، فإنّني في كفاءة أي شخص آخر. والأمر الجوهري هو أنّنا ينبغي أن نجعل هدفنا ألا تكون هناك قضايا على الاطلاق...».

يستلزم تملّك ناصية المعرفة تحقيق معرفة حقة ناجمة عن معرفة النفس، والمعرفة الذاّتية تعني ألا يخدع الإنسان نفسه، فالفعل الخاطئ سيعرف لمن يقترفه على الفور، وفساد الشخصية الخاصة يؤثر في مجموعة البشر ويتأثر بها.

ومن عودة النشاط للقلب يتسنى للانسان تجنب التجاوزات التي تقف عائقًا أمام اتخاذ القرار الصحيح. من الانسجام في البيت سيعم الانسجام في كلّ البيوت ومن ثم في المجتمع بأسره، إذ أن دور العائلة في التربية لا يضاهى، فقد ذهب علماء النفس إلى أن السنوات الخمس الأولى في حياة الإنسان هي السنوات الأكثر أهمية بالنسبة لتقرير سلوك وأخلاق الأولاد، فإن كان الوالدان يفتقران إلى الخلق الحميد والسّلوك الجيد، فلا يصدر منهما الحبّ والاحترام للآخر، فماذا عسانا نقول عن خلق وسلوك الأولاد؟ ويظهر الخطر بشكل واضح عندما نعلم أن الكونفوشيّة تعدّ أنّ الأمّة عائلة كبيرة، ودراسة الحكومة تبدأ من البشر لا من المؤسسات، وبذلك توضح لنا السّبب الذي جعل كونفوشيوس يشدد على أهمية فضيلة «هسياو» بحسبانها أساس كل الفضائل.

أكدّ كونفوشيوس أن «الطريق الوحيد المتاح أمام الإنسان الأسمى للقيام بتكوين الناس وارساء عادات اجتماعية جيدة هو إنجاز ذلك من خلال التّربية.

والإنسان لا يمكنه الوصول إلى معرفة القانون الأخلاقي دون تربية»[1].

ومن الأسئلة الملحة التي لم تلقِ إجابة موحدة، كان السؤال التالي: «هل البشر هم أخيار بصورة أساسية ولا يحتاجون إلى تنمية هذا الخير؟» خلت كتابات كونفوشيوس صراحة من أنّ الطّبيعة الإنسانيّة هي أساسًا طبيعة جيدة، ولكن ما ورد ضمنًا في وجهة نظره عن الحكم والتربية، عبّر عنه منشيوس بوضوح. هناك فارق كبير في حالة تبني رأي مفكّر كمنشيوس،مؤمن بأنّ الإنسان خير بطبيعته، وبين رأي مفكر آخر كهوبز مؤمن بأنّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان بطبيعته، ولكن في الحالتين لا غنى عن مهام الحكومة المتمثل في سنّ القوانين ومعاقبة المخالفين.

إذا كان كونفوشيوس قد رحل دون أن يميط اللثام عن السبب الذي يلزمنا ممارسة الفضائل أي (الجين) و«ي» و(هسياو) فقد ألفينا بعده من خاض في هذه المسألة، وكان هناك رأيان، الأوّل يعود إلى منشيوس الذي اعتقد أن علينا أن نمارس الفضائل التي أكدها كونفوشيوس بسبب الخير الأصلي للطّبيعة البشرية، والثاني ينسب إلى «هسون تسو» الذي آمن أنه بسبب الشّر الأصلي للطّبيعة البشريّة ينبغي علينا ممارسة الفضائل.

«**منشيوس**» Mencuis

يوافق «**منشيوس**» كونفوشيوس في مسألة أهمية (الجين) بحسبانها الفضائل، بالاضافة إلى «Li» أو قواعد السّلوك القويم، مع تأكيد وجوب تنمية (الجين)، مع عدم تهميش (هسياو) إذ منه ينبثق الخير، لكن منشيوس كان قد أولى لـ (يي) مرتبة أعلى مما أولاها إيّاها كونفوشيوس، وذلك بجعلها المفتاح الذي بواسطته نحقق تنمية (الجين) وقد ميز منشيوس بين الخير والصواب، وأكد أن الناس يحظون «بخير فعلي» كجزء من طبيعتهم وبذلك يظهر التّباين بين منشيوس وكونفوشيوس حيث أنّ هذا الأخير عدّ الخير والصّواب شيئًا واحدًا، وأنّ الناس لديهم «إمكانية» بالنّسبة إلى الخير.

ما يجدر ذكره أنّ تمييز «منشيوس» بين الـ «يي» و(الجين) لا يعني أبدًا أنهما مختلفان تمامًا ولا يلتقيان، بل إنّه اعتقد أنه إذا تطورت (الجين) بصورة كاملة فإن الـ (يي) ستحذو حذوها بصورة طبيعية.

من أجل توضيح الفكرة المتمثلة في أن الناس أخيار بالفطرة، أورد منشيوس الحجج الآتية:

(١) المصدر السابق، ص٣٦٥.

١. كل البشر سواء بحكم طبيعتهم

٢. الحكيم، وهو خير بحكم طبيعته، هو شخص ما.

٣. ومن ثم فإنّ كل البشر أخيار بحكم طبيعتهم.

ولا بد أن ينتج عن الخير الفطري معرفة الصواب والخطأ، والشعور بالشفقة والتوقير والتواضع والخجل وتملك ناصية الحكم الأخلاقي والشخصية الأخلاقية.

أما وجود الشر فيفسره منشيوس من خلال ذكر ثلاثة مصادر له:

أوّلاً: – على الرّغم من أنّ الناس يحظون بخير فطري، إلا أنّ الإنسان لا يعيش في عزلة، فمن الممكن أن يتأثر بظروف خارجية، بالمجتمع وبالثّقافة.

ثانيًا: تخلّي الناس عن خيرهم الفطري وإقدامهم إلى الشر.

ثالثًا – الافتقار إلى الذي يؤدّي إلى عجز الإنسان عن اتّخاذ القرار السليم، وعدم تغذية المشاعر والحواسّ يؤديان إلى وجود الشر في العالم.

إذا أراد المرء تطوير إنسانيته وتنظيم سلوكه، عليه أن يكون مؤمنًا بضرورة العيش وفقًا لـ (الجين) والـ (يي) والـ (لي)، وبالاعتقاد بوجود الخير الفطري، وأن يمارس الطريقة الكونفوشيّة لأنّها طريقة تحقق الطّبيعة الإنسانيّة.

«هسون تسو» Hsun tsu [١]

في مقابل رأي «منشيوس» ظهر «هسون تسو» الذي تميز برأيه عن منشيوس، فقال أن الإنسان شرير بفطرته، ولن يصبح خيرًا الا من خلال المؤسسات الاجتماعية والثقافية، والإنسان من وجهة نظر «هسون تسو» يرغب الربح والمتع وتغيب عنده الفضائل الأربع التي ذكرها منشيوس. لكن مع هذا كله يبقى عند «هسون تسو» ايمان راسخ أن ظهور الخير مرتبط بإعمال العقل وبالتربية، وليس من المستحيل أن يصبح كل شخص حكيمًا، فالتصرف حسب «لي» يحفظ طبيعة البشر ويميز الإنسان عن الطيور والوحوش.

بالنسبة إلى «هسون تسو» ينتج الخير عن التّنظيم الاجتماعي والثقافيّ، والنظام الاجتماعي والثّقافة ينجمان عن:

١) الدّافع لحياة أفضل

٢) الحاجة إلى التّغلّب على المخلوقات الأخرى.

والحجج هي أنّ:

١) لا بد من تعاون النّاس فيما بينهم لتسهيل الحياة وإشباع الحاجات الضّروريّة للعيش.

(١) المصدر السابق، ص٣٦٩.

٢) من أجل حماية النّاس من خطر المخلوقات وقوى الطّبيعة، وحب التّعاون المتبادل.

ردًا على السّؤال الآتي: كيف يجلب التّنظيم الاجتماعي الخير؟ يجيب «هسوتسو» أنّ التّنظيم الاجتماعي يقتضي قواعد للسّلوك، واتباع هذه القواعد من شأنه أن يجلب الخير، ففي حال عدم إشباع بعض الرّغبات لا يسمح الملوك بولادة التنافس والصّراع والفوضى لأنّ قواعد السّلوك هي التي تنظم الأنشطة المتضمّنة من أجل إشباع الرّغبات. لقد اختلف «هسون تسو» عن كونفوشيوس في التمييز بين الخير والعقل، وفي التأكيد على الشر الفعلي، الماثل في الطّبيعة. ومن إضافة مثاليّة «منشيوس» وواقعية «هسوتسو» معًا إلى فلسفة كونفوشيوس، تمّ إكتمال الكونفوشيّة.

مهما يكن من كلام، يبقى للضّوابط الداخليّة والخارجيّة والقواعد الاجتماعية والضّمير مرتبة لا تضاهى في الكونفوشيّة.

التّاويّة: الطريق الطّبيعيّ إلى الحرية

نستشف من التّاويّة التّشديد على الأسس الميتافيزيقيّة للطّبيعة، وهكذا يظهر الخلاف بينها وبين الكونفوشيّة التي اعتنت إلى أقصى الحدود بالإنسانيّة ووقرت الإنسان خير توقير.

من الممكن النظر إلى التّاويّة من خلال فلسفتين: فلسفة «لاوتسو Lao tzu وفلسفة «شوانج تسو Chung tzu».

لاوتسو «Lao tzu»

بما أنّ عصر «لاوتسو» هو نفسه عصر كونفوشيوس، فمن الضروري أن يكون في فلسفة «لاوتسو» نقد ورفض للوضع السائد آنذاك، فبحث «لاوتسو» في سبب البؤس والسعادة، معلنًا أن الرغبات في الثروة والسلطة تسبب البؤس، أمّا الرّضا بنظام الكون (تاو) ولجم الرغبات يؤديان إلى السعادة، فحذار من الطمع والجشع اللذين يوصلان إلى الحروب والمجازر، وهنيئًا لمن اقتنع أن الحياة البسيطة والمتناسقة هي الحياة المثالية، وهنا يظهر التّناقض بين الكونفوشيّة وبين فلسفة «لاوتسو» إذا كان كونفوشيوس قد دعا إلى الطّقوس والموسيقى حيث تعلو الرغبات والانفعالات وتنتظم، فإننا نجد «لاوتسو» يناشد الإنسان بأن يسمح للأشياء كافة بالتّحوّل على نحو تلقائي. فالتّباين الأساسي بين كونفوشيوس و«لاوتسو» لا يتمثّل بالتّباين بين الفعل واللافعل بل بالاعتقاد بأنّ البشر هم معيار كلّ الأشياء ومصدرها.

من وجهة نظر «لاوتسو»، لا تمييز بين الإنسانيّة والطّبيعة بحسبانهما وحدة

واحدة، وعليه إذا بحثنا في مسألة المعرفة الإنسانيّة، وجدناها بالعودة للتّاويّة، مباشرة لا تفرّق بين الذات والموضوع، تتجاوز حدود المدركات والتّصورات.

والمبادئ التي تنظم الحياة هي مبادئ الطّبيعة، فالمجتمع بأسره يتعيّن عليه أن يتوافق مع الكون، ومن توخّى أن يعيش الحياة بصورة طيّبة ليس عليه إلا التّوافق مع الكون بأسره.

تعوّل التّاويّة على الفلسفة كثيرًا، فالفلسفة هي التي تقود البشر إلى الوحدة مع الكون، و(تاو) تعني نظام الطّبيعة، ومن توحّد (تاو) الإنسانيّة مع (تاو) الكون، يدرك الإنسان طبيعته اللامتناهية ويسود بذلك السّلام والتّناسق.

بإمكاننا القاء الضّوء على تعاليم لاوتسو Lao tzu» المتعلّقة بـ (تاو) الحياة الإنسانيّة في المجتمع من خلال المبادئ التالية:

١. يتحرّك الناس بصفة عامة لتحقيق رغباتهم.

٢. ينتج عن محاولات الأفراد العديدة لإشباع رغباتهم حدوث التّنافس والصّراع.

لإقرار السّلام والتناسق بين الأفراد الذين يكافحون لاشباع رغباتهم، يتم التوصل إلى معايير للاستقامة والأخلاق الإنسانيّة.

٤. من الواضح أن وضع المعايير الأخلاقيّة لا يحلّ المشكلات، ذلك أنّ التّنافس والصّراع يبقيان على حالهما، والقواعد تنتهك ويتم إقرار قواعد جديدة لحماية القواعد القديمة، ولكن القواعد القديمة والجديدة تنتهك وتظل الرّغبات دونما اشباع بينما يتدعّم الشّر واقتراف الخطأ.

٥. بما أنّ التّوصّل إلى معايير أخلاقيّة لا يحل المشكلة، فإنّ الحلّ يكمن في التّخلّي عن هذه المعايير.

٦. لا يمكن التّخلي عن الأفعال الصادرة عن الرّغبات الا عندما يتبنى النّاس «الطّريق السهل» للفعل.

٧. «الطّريق السهل» في الفعل يفترض مقدمًا التّناغم مع الكون والتّصرف وفقًا للتاو الكوني الشّامل.

ينبغي أن يكون تنظيم وحكم النّاس وفقًا للطّريق الطّبيعيّ السهل، كما ينبغي أن يدعم الطّريق الطّبيعيّ في نفوس النّاس.

ومن أجل القضاء على الشّرور الماثلة في المجتمع، إرتأى «لاوتسو» وجوب تنظيم أفعال النّاس لكي يحققوا الحدّ الأقصى من رغباتهم، إذ بالانقياد للقواعد الأخلاقيّة والمؤسسات الاجتماعية يتم حماية النّاس من ألوان الشّر الكثيرة كالصّراع واستخدام القوة والبطش. وما إن

يسود (التاو) العظيم حتى يزول النّزاع والتّنافس، ويضيف (لاوتسو) الكلام الآتي: «عندما تدهور (التاو) العظيم نشأت مذاهب عن الإنسانيّة والاستقامة ومبادئ الإنسانيّة (الجين) والاستقامة (يي) هي أساس الأخلاق الكونفوشيّة، وموضوعها هو التّنظيم المقبول لكل الأفعال الإنسانيّة والمؤسسات الاجتماعية». غير أنّ ملاحظة (لاوتسو) تكشف عن أنّه يعدّ الأخلاق حلاً غير مناسب، لأنّها تأتي كنتيجة لتدهور الطّريق العظيم للطّبيعة.

أوجب لاوتسو لجم الرّغبات واتباع طريق (التاو) ولكن عندما يدعو مرارًا إلى التّخلّي عن الرّغبات كمصادر للفعل، فكيف يتعين على النّاس إذا أن يسلكوا؟

أجاب (لاوتسو) أنّه ينبغي أن يسلك الإنسان طريق (التاو السهل)، وان تنشأ حكومة للشّعب مع الطّريق السّهل والطّبيعيّ للتاو.

التاو وتجلياته

الدّور المهم الذي لعبه (التاو) في التّاويّة، حثنا على إماطة اللثام عن تصوّر «لاوتسو» (التّاو وتجلياته (تي Te). قبل (لاوتسو) ساد الاعتقاد أن (اليين واليانج) المتعارضين: كالنّور والظّلام، والبرد والدّفء، والوجود والعدم.. الخ هما سبب وجود الأشياء في العالم. لكن (لاوتسو) لم يقبل بهذا الأمر إذ أكد أنّ (التاو) هو مبدأ الوجود أو مصدره، نافيًا وجود صفات محددة له، فهو بغير سمات أو خواص على الاطلاق. وبمعنى آخر هو العدم لكنه ليس «لا شيء» وكأنّ فكرة (لاوتسو) تقترب من فكرة هيغل في «الوجود الخالص» الذي يخلو من كل سمة أو تعين، ولذلك فهو «العدم» ذلك لأن كل ما يمكن أن يقال عن «العدم» العام الذي لا سمة له ولا تحديد (فهو ليس انعدام الشجرة أو المنزل أو الإنسان فذلك عدم محدّد) إنّه موجود فحسب. ويقول (لاوتسو) «ان (التاو) الذي يمكن الحديث عنه ليس التاو الأزلي، والإسم الذي يمكن أن يسمى ليس الاسم الأزلي، والمجرد من الاسم هو أصل السماء والأرض، أمّا المسمّى فهو أمّ كل الأشياء».

إن (التاو) خارج عن التسمية، لأنّ كلّ الأسماء والأوصاف تنبثق منه، إنه يهب الأشياء وجودها ويعدمها. على الرّغم من أنّ التّاو لا يمكن الإشارة إليه إلا أنّه يتجلّى في أعمال الطّبيعة، و(التاو) لا يتدخّل في أفعال الطّبيعة وهذا ما يستفاد من كلام (لاوتسو): «لا يقوم التاو في كلّ الأحوال بأي فعل» أي أنّ (التاو) يترك الأشياء تنجز نفسها بطريقة طبيعيّة وتلقائيّة.

ومن الآراء التي يتبناها (لاوتسو) في الحكم، نذكر أنّه قدر صعوبة حكم النّاس، وحذّر من استعمال العنف في حكم النّاس

كما أوجب إعطاء النّاس ما يرغبون أو النّزول عند رغباتهم وعدم إكراههم على الخضوع لإرادة الحاكم.

في الفصل الرّابع من كتاب «تاوتي كنج» يفصح (لاوتسو) عن طبيعة (التاو)، وكيفية أدائه لوظيفته، فقال إنّه من دون خصائص وهو المصدر غير المتناهي للأشياء، ومبدأ التّضاد في الطّبيعة، كما أنذه غير متعالٍ على الطّبيعة، كما أكّد أزلية (التاو)، وهذا واضح في قول (لاوتسو):

«التاو خاو (كالوعاء).

قد يتم استخدامه، لكن طاقته لا تستنفد

إنّه بلا قاع، وربما كان الجد الأوّل لكل الأشياء.

إنّه يثلم حدتها.

ويفكك تشابكاتها

ويخفت نورها،

ويتوحّد مع العالم التّرابي

وهو في عمقه، وسكونه، يبدو أنه موجود إلى الأبد»[1].

ان خلو (التاو) من السمات والخصائص، أي كونه خاويًا جعله الأكثر نفعًا، إذ أنّ الأمر يؤدي به إلى أن يكون عنده طاقة لا نهاية لها، وبذلك يكون المصدر غير المتناهي لكل الأشياء.

إنّ تشبيه التاو بثلم الحدة وحل التشابكات وجعل النور خافتًا يشير إلى النصيحة التي أراد (لاوتسو) أن يسديها للبشر، وهي تجنب استخدام القوة والعنف، مؤكدًا أن معرفة الانعكاسات أو الانقلابات التي تشكل عمل التاو، وتحقق التوافق مع التحركات ليس إلا الطريق إلى السلام والرضا. فليس على المرء الا ان يجعل تصرفه متوافقًا مع طريق (التاو العظيم)

لقد انبثق في فلسفة (لاوتسو) حلّ صوفيّ بصورة أساسية، وكان متمثلاً بالتخلّي عن الرّغبات ومن تسليم النّفس للتاو ومن انطلاق كلّ الأنشطة من (التاو)، ومن توحّد الإنسانيّة مع العالم.

(١) المصدر السابق، ص٣٨٢.

الشرق الأوسط: الرقعة الجغرافية، الحدود والمساحة إشكالية التعريف

د. علي الصمد/د. عماد هاشم

١ - إشكالية التعريف:

منذ بداية القرن العشرين، برز في الأوساط العلمية والسياسية والإعلامية الغربية استخدام مصطلحين جديدين، هما: الشرق الأوسط (Orient/ – Moyen Middle East)، والشرق الأدنى (Proche Orient/Near-East –).

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، عرف هذان المصطلحان شهرة واسعة، نظرًا للأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لهذه المنطقة من جهة، بالإضافة إلى الحروب والنزاعات المتعددة التي شهدتها المنطقة من جهة أخرى، وما لذلك من تداعيات وانعكاسات طالت سائر مناطق ودول العالم.

تعددت الآراء واختلفت في تعريف هذين المصطلحين: الشرق الأوسط والشرق الأدنى، فالكل يراهما من وجهة نظره، وحسب اختصاصه. ولذلك فقد بقيا ولفترة طويلة يستعملان بشكل غير دقيق، بحيث أنه غالبًا ما يتم الخلط بين منطقة الشرق الأوسط من جهة، ومنطقة الشرق الأدنى من جهة أخرى، من دون تحديد الإطار الجغرافي لكل من هاتين المنطقتين.

ولكن وبصورة عامة، فإن منطقتي الشرق الأوسط والأدنى كانتا تستعملان للإشارة إلى المنطقة الجغرافية الواقعة شرق البحر المتوسط والممتدة نحو الشرق وصولاً حتى الحدود الهندية.

اعتمد الجغرافيون الغربيون الذين لطالما اهتموا بدراسة هذه المنطقة هذين المصطلحين، غير أنهم حاولوا، وبخلاف سواهم من العسكريين والسياسيين، أن يضعوا تعريفًا دقيقًا لهما وذلك عبر تحديد الإطار الجغرافي لكل منهما.

ولكن بالنتيجة، قدم العديد منهم تعريفه الخاص، وغالبًا من دون حجة واضحة، فأضحى هنالك العشرات من التعريفات التي

أوقعت القراء في الحيرة، حتى أنه، وقبل الشروع بقراءة أي كتاب عن الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط، بتنا نتساءل عن ماهية الدول التي سيتناولها هذا الكتاب.

الجدول التالي يظهر الاختلاف بين الجغرافيين من جهة تحديد الإطار الجغرافي لكل من الشرق الأدنى والشرق الأوسط:

Références	Proche-Orient (Near-East)	Moyen-Orient (Middle-East)
J. Weulersse, Paysans de Syrie et du Proche-Orient (1946).	Syrie, Liban, Palestine, Iraq	
D. Warriner, Land and Poverly in the Middle East (1946).		Egypte, Palestine, Jordanie, Syrie, Liban, Iraq.
W. B. Fisher, The Middle East (1950).		Iran, Turquie, Iraq, Liban, Israël, Chypre, Syrie, Arabie, Egypte, Cyrénaïque
Sir Percy Loraine (Point de vue exposé devant ''the Royal Geographical Society'', de Londres; cité par WÁ B. Fisher, 1950).	Etats des Balkans, Egypte, zones littorales de la Méditerranée orientale et de la Mer Noire	
The Middle East, a political and economic Survey Royal Institute of International Affairs, (1950).		Arabie, Chypre, Iran, Iraq, Palestine et Israël, Soudan, Syrie, Liban, Trans-Jordanie, Turquie.
J. Beaujeu-Garnier, L'Economie du Moyen-Orient (1951).		Turquie, Egypte, Syrie, Liban, Israël, Jordanie, Arabie, Iraq, Iran.

ولعل خير دليل على استمرار التخبط والخلط بين المصطلحين، هو ما ظهر في عدد حديث نسبيًا من مجلة إيرودوت «Hérodote» العريقة والتي تعنى بالدراسات الجيوسياسية.

ففي عددها الصادر عام ٢٠٠٧ بعنوان «الشرق الأدنى: جيوبوليتيك الأزمة»(*)، كتب الجغرافي البارز إيف لاكوست افتتاحية تحت عنوان «الشرق الأوسط: أزمات تتفاقم ولا تتغير»(١)(**).

من هنا الحاجة للتعمق في دراسة مفهوم كل من المصطلحين، وتطور استخداماتهما ومدلول كل منهما.

٢ - الشرق الأوسط والشرق الأدنى: مصطلحان بدلالات متعددة

كما ورد سابقًا، فإن «الشرق الأوسط» و«الشرق الأدنى» هما مصطلحان غربيان، وقد ارتبط هذان المفهومان ارتباطًا وثيقًا بتطورالوجود العسكري البريطاني والأمريكي في هذه المنطقة من جهة،

وبنظرتهم لجيوبوليتيك المنطقة من جهة أخرى.

إلى ذلك، فإن الدبلوماسية الفرنسية اعتمدت هذين المصطلحين وطورتهما ليتلاءَما مع النظرة الفرنسية وتطلعاتها تجاه المنطقة، من هنا يجب التفريق ما بين النظرة الأنجلوسكسونية أو المدرسة الأنجلوسكسونية من جهة، والنظرة أو المدرسة الفرنسية من جهة ثانية.

٢ - ١ المدرسة الانجلوسكسونية:

كان للأحداث التي شهدتها المناطق الخاضعة للإمبراطورية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تداعيات كبيرة على التوازنات السياسية والاستراتيجية العالمية. فقد أدت الحروب التي شهدتها منطقة البلقان (١٩١٣ – ١٩١٢) إلى انسحاب العثمانيين من أوروبا وتراجع نفوذهم فيها، ثم ما لبثت أن انهارت سلطنتهم نتيجة للحرب العالمية الأولى مما أدى إلى ظهور مجموعة من الدول العربية على أنقاض السلطنة العثمانية.

خريطة رقم ١: الشرق الأدنى والشرق الأوسط بحسب وزراة الحربية في المملكة المتحدة ١٩٤١

المصدر: مكتبة الكونجرس الأميركي.

في تلك الأثناء، ارتبط مفهوم الشرق الأدنى (Near-East) ارتباطًا وثيقًا «بقضية البلقان» التي كان الغرب بشكل عام، والمملكة المتحدة بشكل خاص، يوليانها اهتمامًا كبيرًا.

فمنذ نهاية القرن التاسع عشر، بدأت الاضطرابات في منطقة البلقان الخاضعة لسيطرة السلطان العثماني، والمتعددة القوميات الدينية والعرقية، تأخذ منحىً استقلاليًا. وقد حظيت شعوب هذه المنطقة بدعم الدول الاستعمارية في الغرب وبرعاية كل من الامبراطورية الروسية والامبراطورية النمساوية – المجرية. ونتيجة لذلك، فقدت السلطنة العثمانية سيطرتها على أراض واسعة من البلقان وكان أن نالت كل من صربيا، بلغاريا وألبانيا استقلالها.

وسرعان ما تلا ذلك هزيمة السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وإقرار الانتداب البريطاني على بلاد ما بين النهرين

وفلسطين، فبدأت هذه المنطقة تستحوذ أكثر فأكثر على اهتمام صناع القرار الإنكليز، ما أدى إلى تراجع مصطلح الشرق الأدنى من التداول في أوساط الدبلوماسية الانكليزية، وذلك لصالح مصطلح الشرق الأوسط (Middle-East) الذي بات الأكثر استعمالاً.

في العشرينيات من القرن العشرين، قام ونستون تشرشل، الذي كان يشغل منصب وزير الدولة لشؤون المستعمرات، بإنشاء «قسم الشرق الأوسط» وذلك بهدف الإشراف على كل من فلسطين، شرق الأردن والعراق. وقد أبدى تشرشل حرصه على الوقوف عند رأي الجمعية الجغرافية الملكية الإنكليزية، التي رأت أن مصطلح «الشرق الأدنى» تُعنى به منطقة البلقان حصرًا، أما الأراضي التي تمتد من مضيق البوسفور وتصل إلى الحدود الشرقية للهند فينبغي أن يطلق عليها تسمية منطقة الشرق الأوسط.

بالتوازي مع النظرة الجديدة للمنطقة قام كل من الجيش البريطاني وسلاح الجو الملكي بضم مركز قيادة الشرق الأدنى إلى مركز قيادة الشرق الأوسط، وجعلوا من القاهرة مقرًا لقيادة العمليات وبات يخضع له كلٌ من مصر، السودان، فلسطين، شرق الأردن، قبرص، العراق، عدن، والخليج الفارسي.

غير أن هذه النظرة لمنطقة الشرق الأوسط التي برزت وتوسعت على حساب الشرق الأدنى لم ترض ونستون تشرشل الذي كتب في مذكراته (١٩٥٠)، أنه لطالما اعتبر بأن الدبلوماسية الانكليزية لم توفق حين استخدمت مصطلح «الشرق الأوسط»، للإشارة إلى كل من مصر، المشرق العربي وتركيا. ولقد كان من الأجدى، بحسب تشرشل، أن تسمى هذه المنطقة بالشرق الأدنى (Near-East)، على أن تكون منطقة الشرق الأوسط (Middle-East)، مؤلفة من بلاد فارس والعراق معًا. أما المنطقة التي تضم كلاً من الهند وبورما وماليزيا، فيجب أن يطلق عليها تسمية الشرق (The East)، في حين أن الصين واليابان تشكلان معًا منطقة الشرق الأقصى (Far-East).

خريطة رقم ٢: الملاحة الجوية لمنطقة الشرق الأوسط (١٩٤٦)

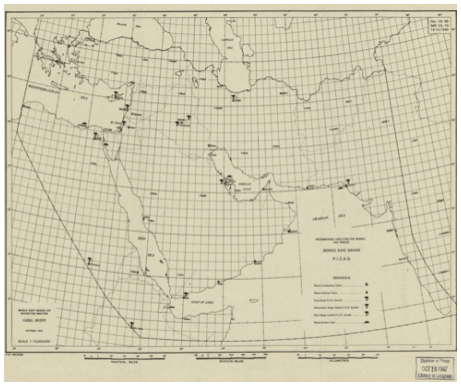

المصدر: مكتبة الكونجرس الأميركي.

٢ - ٢ النظرة الأميركية

أما على الضفة الثانية للأطلسي، تحديدًا من جهة الولايات المتحدة الأمريكية، فلقد بدأت الإشكالية التي طرحها مصطلح الشرق الأوسط تبرز في الأوساط السياسية والدبلوماسية في بداية الأربعينيات من القرن الماضي. قبل ذلك الوقت، وحتى بداية الحرب العالمية الثانية، كان اهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الشرق الأوسط محدودًا جدًا.

مع انتهاء الحرب الثانية، وبروز كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي كقطبين وحيدين على الساحة الدولية، ازداد اهتمام الأمريكيين بمنطقة الشرق الأوسط، وتجلى ذلك بدايةً من خلال الاتفاق الذي عقده الرئيس فرانكلين روزفيلت مع الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية والذي يظهر اهتمام الأمريكيين بتوطيد العلاقات مع المملكة لما تمثله من أهمية كبرى على صعيد إنتاج النفط. وتجلّى لاحقًا، من خلال عقيدة وزير الخارجية دوايت أيزنهاور، الذي أطلق عام ١٩٥٧، برنامجًا لتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لدول منطقة الشرق الأوسط عرف باسم «عقيدة أيزنهاور»،[٢](*) وذلك بهدف منع الشيوعية من التمدد نحو المنطقة.

خريطة رقم ٣: الشرق الأدنى بحسب الجيش الأمريكي (١٩٥٠)

المصدر: مكتبة الكونجرس الأميركي.

غير أن اهتمامات الولايات المتحدة بالمنطقة نابعة أيضًا من تطورات الصراع العربي – الإسرائيلي الذي فرض على الإدارة والنخب الأمريكية متابعة ترددات التي كانت تطال معظم دول المنطقة. وقد لعبت الإدارة الأمريكية دورًا كبيرا في مواكبة هذا الصراع، تتوج بنجاح الدبلوماسية الأمريكية في جمع كل من مصر وإسرائيل حول طاولة المفاوضات، نتج عنها توقيع اتفاق سلام في كامب دايفيد.

في ما بعد عدة أحداث أدت إلى ترسيخ مفهوم الشرق الأوسط لدى الأمريكيين:

- أولها، انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وتحول النظام الإيراني من حليف للولايات المتحدة، إلى خصم رئيسي

لها، بعد أن كان الشاه، وخلال فترة طويلة، الحليف الأساسي للولايات المتحدة في المنطقة. وقد استدعى ذلك اهتمامًا أكبر من قبل الولايات المتحدة بمنطقة الخليج العربي، بهدف الحفاظ على الاستقرار الأمني والسياسي من جهة، وتأمين مصادر النفط وطرق وصوله إلى الأسواق العالمية من جهة أخرى.

- ثانيها، حرب الخليج الأولى بين كل من العراق وإيران، ودخول الولايات المتحدة على خط الأزمة.
- ثالثها، حرب الخليج الثانية التي دفعت الولايات الأمريكية لإنشاء تحالف دولي لإخراج العراق من الأراضي الكويتية. وقد أدى ذلك إلى إنشاء قواعد عسكرية أمريكية ثابتة في منطقة الخليج.
- رابعها، وبعد أحداث ١١ أيلول، تكرست بالنسبة للأمريكيين نظرتهم لمنطقة الشرق الأوسط التي تمتد شرقًا وصولاً حتى أفغانستان، وذلك بفعل نظرة «الديموقراطيين الجدد، والحرب الأمريكية على الإرهاب.
- أخيرًا كان «للربيع العربي» دور أساسي في توسع المنطقة غربًا بحسب النظرة الأمريكية، لا سيما بعد الحراك الذي شهدته كل من تونس وليبيا.

خريطة رقم ٤: آبار البترول والغاز في منطقة الشرق الأوسط (٢٠٠٧)

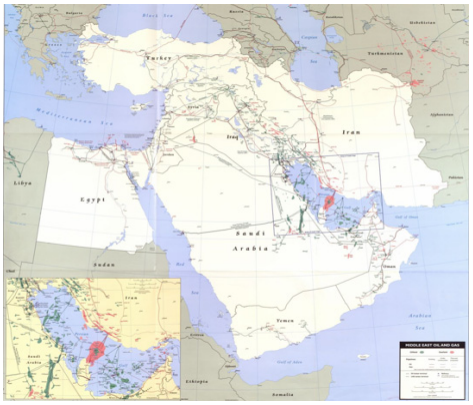

المصدر: مكتبة الكونجرس الأميركي.

٢ - ٣ النظرة/المدرسة الفرنسية:

أول ظهور لمصطلح الشرق الأدنى «Proche-Orient» في الكتابات الفرنسية يعود لفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة. ففي أيلول ١٩١٩، صدرت مجلة تحمل عنوان «الشرق الأدنى» «Proche-Orient». صدر للمجلة عدة أعداد كان آخرها عام ١٩٢٢، وهي تعنى بنشر دراسات ومقالات متخصصة في الشؤون الاقتصادية والمالية،، للمنطقة العربية التي تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

غير أن مصطلح «الشرق الأدنى» بقي محدود الانتشار، فقد دأبت معظم الأوساط الدبلوماسية والعلمية الفرنسية، ومنذ القرن السادس عشر، على استخدام مصطلح «المشرق» (Le Levant) في المعاملات التجارية والمراسلات الدبلوماسية. وقد

انتشر هذا المصطلح أكثر فأكثر عقب الحرب العالمية الأولى، مع إقرار الانتداب الفرنسي على دول المشرق «les ètats du Levant»، أي على كل من لبنان وسوريا.

بعد الحرب العالمية الثانية، بدأ مصطلح الشرق الأوسط «Moyen-Orient» يثير اهتمام الأوساط السياسية والدبلوماسية الفرنسية، وأخذ ينتشر بوتيرة سريعة جدًا. ويظهر ذلك في العديد من الكتب والمنشورات التي اهتمت بدراسة هذه المنطقة من العالم في فترة الخمسينيات من القرن الماضي.

ويعود الفضل الأكبر في ذلك، إلى الحرب الباردة التي جعلت منطقة الشرق الأوسط محط أنظار القوى العالمية المتصارعة، بفعل موقعها الاستراتيجي وأهميتها الجيوسياسية. ولكن ذلك لم يؤد إلى اندثار مصطلح الشرق الأدنى بشكل نهائي، فلقد كان من نتيجة تأزم الصراع العربي – الإسرائيلي وتحديدًا الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، أن استمر الاهتمام الأوروبي عامةً، والفرنسي خاصةً، في هذه المنطقة. وفي هذا الإطار، فإن مفهوم الشرق الأدنى بات يُعنى به المنطقة التي تشكل مسرحًا للصراع العربي – الإسرائيلي، والتي تعتبر جزءًا لا يتجزأ من منطقة الشرق الأوسط.

في مطلع التسعينيات من القرن العشرين، برز من جديد استعمال مصطلح الشرق الأوسط بوتيرة عالية جدًا ما أدى إلى تراجع كبير لمفهوم الشرق الأدنى. غير أنه وبحسب المفهوم الفرنسي، فإن منطقة الشرق الأدنى، كما الشرق الأوسط، ظلت لا تشمل أيًا من دول المغرب العربي. والسبب في ذلك يعود أولاً، إلى أن هذه الدول، من ليبيا شرقًا وحتى المملكة المغربية غربًا، تقع جغرافيًا شمال أفريقيا، على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط وعلى مقربة من فرنسا. وثانيًا، لأن جزءا كبيرا من هذه المنطقة بقي خلال فترة طويلة يخضع للاستعمار الفرنسي، والعلاقات والمصالح التي تربطها بفرنسا بقيت إلى حد بعيد منفصلة عن مسار العلاقات التي تجمع فرنسا بدول المشرق العربي، علمًا أن دول المغرب العربي ما زالت تربطها علاقات وثيقة جدًا بفرنسا.

٢ - ٤ الخلاصة

لا يخفى على أحد أن هناك حالة من الارتباك لدى المفكرين الأوروبيين والأمريكيين المهتمين بدراسة منطقتي الشرق الأدنى والأوسط. فهناك إشكالية في استعمال المصطلحات، وصعوبة في التفريق بينهما، حتى أن المصطلحين باتا وكأنهما مترادفان. وللتمييز بين المفهومين يمكننا اعتماد الآتي:

- إن مصطلحي الشرق الأدنى والشرق الأوسط هما مصطلحان يعبران عن نظرة أوروبية وأمريكية لجغرافية العالم وللنظام العالمي.
- إن تعبير الشرق الأوسط هو تعبير أمريكي بامتياز، يقصد به مجموعة الدول الممتدة من إيران غربًا وحتى مصر شرقًا. وغالبًا ما يتسع إطار هذه المنطقة شرقًا ليضاف إليها كل من أفغانستان وباكستان، كما أنه يتسع غربًا ليشمل كل من ليبيا، تونس، الجزائر والمملكة المغربية.
- في حين أن الشرق الأدنى هو مصطلح فرنسي، يعبر عن النظرة الفرنسية لهذه المنطقة الجغرافية القريبة من أوروبا والتي تجمعها مع الدول الأوروبية عامة، ومع فرنسا خاصة، تبادلات تجارية وعلاقات ثقافية، وتفاعلات حضارية، سببها تقاربهما الجغرافي من جهة، ووقوعهما على البحر المتوسط من جهة أخرى. بمعنى آخر، إن تعبير الشرق الأدنى بالنسبة إلى الفرنسيين هو تعبير مرادف للمشرق المجاور لها. تضم منطقة الشرق الأدنى دول المشرق العربي: لبنان، سوريا وفلسطين العراق، الأردن، بالإضافة إلى مصر. علمًا أن المنطقة المركزية في الشرق الأدنى تتألف من لبنان،سوريا، فلسطين.
- منطقة الشرق الأوسط، بحسب النظرة الفرنسية، تشمل منطقة الشرق الأدنى، ويضاف إليها كل من دول الخليج العربي، اليمن وإيران. وتعد دول الخليج العربي مركز الشرق الأوسط. أما من حيث التأطير والمساحة، فإن مساحة الشرق الأدنى هي مساحة ضيقة نسبيًا مقارنةً بمساحة الشرق الأوسط الذي تمتد رقعته من الحدود الليبية – المصرية وصولاً إلى الحدود الإيرانية مع كل من أفغانستان وباكستان.
- يستخدم الفرنسيون مصطلح الشرق الأدنى في الدراسات التي تهتم بالتاريخ الحديث لهذه المنطقة (حتى نهاية القرن التاسع عشر)، أما مصطلح الشرق الأوسط فيستخدم في الدراسات المعاصرة التي تتعلق بهذه المنطقة.

خريطة رقم ٥: الشرق الأوسط حسب النظرتين الأوروبية والأميركية.

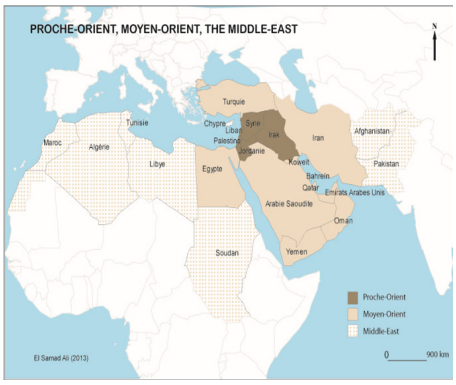

المصدر: مكتبة الكونجرس الأميركي.

٣ - التحديد الطبيعي لمنطقة الشرق الأوسط

لم يرد في الكتابات ودوائر المعارف الجغرافية تحديد طبيعي موحد لمنطقة الشرق الأوسط، وإنما تتسع وتضيق هذه المنطقة وفق اعتبارات من يستخدمه، ففي الإنجليزية والفرنسية والأمم المتحدة يتردد اسم الشرق الأوسط على أنه الإقليم الممتد بين إيران إلى مصر ومن تركيا إلى اليمن، والبعض يرى بأن الشرق الأوسط يمتد من غرب مصر إلى شرق إيران. أما السياسي الاسرائيلي شمعون بيرس في كتابه شرق أوسط جديد فيرى بأنه يمتد من حدود مصر غربا إلى حدود باكستان شرقا، ومن تركيا شمالا حتى المحيط الهندي وشمال السودان جنوبا، وتمثل كل من (سوريا، لبنان، الأردن، العراق، فلسطين، مصر، إسرائيل) قلب منطقة الشرق الأوسط، وهناك الحلقة الخارجية والتي تشمل (إيران، السعودية، تركيا، ليبيا، السودان) أما الدول الهامشية فهي (اليمن، الكويت، قطر، الإمارات، عمان) ويرى المفكر العربي الدكتور يوسف صايغ بأن الشرق الأوسط يمتد في تاريخه إلى الحركة الصهيونية، هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الاقتصادية فيشمل مصطلح الشرق الأوسط أيضا دول الخليج، ومن الناحية الاستراتيجية يشمل ليبيا، إيران، تركيا، باكستان، وبالتالي تحديد هذه المنطقة يكون حسب المصلحة.[٣].

إذًا، ينظر إلى جغرافية الشرق الأوسط وفقًا للتعريف السياسي وليس الطبيعي. طبيعيًا تمتد المنطقة الجغرافية بين الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط: حوض المشرق، إلى الغرب، وبين الخط الذي يرسم الحدود بين إيران من جهة وباكستان وأفغانستان من ناحية أخرى، إلى الشرق؛ الحدود التركية – الإيرانية مع بلدان القوقاز، والحدود التركية مع بلغاريا واليونان إلى الشمال الغربي؛ والحدود البرية لمصر والحدود البحرية لليمن وسلطنة عمان من الجنوب؛ وتشمل هذه المنطقة الجغرافية ستة عشر بلدًا إجمالاً بمساحة إجمالية تبلغ ٩٩٩ ٩٩٧ ٦ كيلومترًا مربعًا.

٣ - ١ دول الشرق الأوسط

تختلف التّصنيفات الدوليّة لقائمة الدول التي تَشملها منطقة الشرط، وذلك لأنّ المصطلح واسعٌ ولا يُحدّد دُولاً أو مَناطق بعينها، ولكن تتّفق أغلبها على أنّ دول الشرق الأوسط هي:

الدولة	العاصمة
الأردن	عمّان
الإمارات العربية المتحدة	أبو ظبي
البحرين	المنامة
السعودية	الرياض
العراق	بغداد
الكويت	الكويت
اليمن	صنعاء
إيران	طهران
سوريا	دمشق
عُمان	مسقط
فلسطين	القدس
قطر	الدوحة
لبنان	بيروت
مصر	القاهرة
قبرص	نيقوسيا
تركيا	أنقرة

كما توجد عدّةُ دولٍ عادةً ما يوجد خلاف حول ضمّها في قائمة دول الشرق الأوسط، وهي:

الدولة	العاصمة
ليبيا	طرابلس
المغرب	الرّباط
الجزائر	الجزائر
تونس	تونس

في بعض الأحيان، يمتدّ مُصطلح الشرق الأوسط ليَشمل دولاً أُخرى تُحيط بالدّول المذكورة أعلاه، أو بسبب اللبس في التفريق بين منطقة الشرق الأوسط، والعالم الإسلامي، والعالم العربي، ومن الدول التي يختلط أحيانًا تصنيفها كدول الشرق الأوسط أفغانستان،، وباكستان، اللتان ارتبطتا بأحداثٍ سياسيّة لها علاقة بالإسلام، ودول آسيوية وهي: أوزباكستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجاكستان، وتركمستان، ودول أذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا بسبب موقعها القريب في البحر الأسود وبحر قزوين، كما يُختلف عادةً في ضمّ قبرص إلى القائمة، وذلك بسبب مَوقعها القريب من تركيا، ووجود أقليّة من الأتراك يعيشون فيها، وأخيرًا دولة السودان، التي ترتبط ارتِباطًا وثيقًا بدولة مصر(٤).

خريطة رقم: ٦ الشرق الاوسط حسب التعريف التقليدي والتعريف البريطاني والمناطق المرتبطة به أحياناً

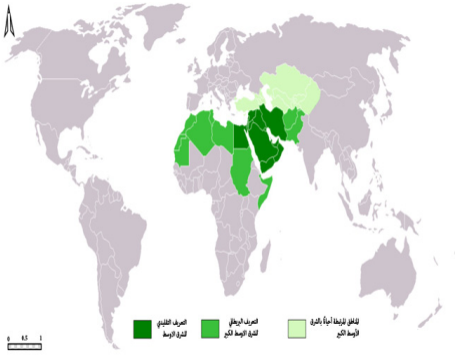

٣ - ٢ جغرافيّة الشرق الاوسط

تقع مُعظم دول الشرق الأوسط في قارة آسيا، وتمتدّ لتشمل دولاً في شمال أفريقيا، وعند استِخدام المُصطلح الأكثر شمولية لمنطقة الشرق الأوسط، فإن مساحتها

الإجمالية تُقارب ٩,٩ مليون كم، وتضُمّ المنطقة عدة دول توصف بامتلاكها مساحةً كبيرةً نسبيًا، من أبرزها المملكة العربية السعودية، وإيران، ومصر، وباكستان، بينما أصغر دول المنطقة تشمل البحرين، وقبرص، ولبنان، وقطر.

تشترك دول الشرق الأوسط بمُناخ عام يُوصف بالجفاف وارتفاع الحرارة، أقرب ما يكون للمُناخ الصحراوي؛ حيث يتميّز فصل الصيف بدرجات حرارةٍ عاليةٍ جدًا، بينما يتميز فصل الشتاء بالاعتدال، وتضمّ مَنطقة الشرق الأوسط عدّة صحارٍ تنتشر في مَناطق عديدة، من أبرزها صحراء الربع الخالي التي تَقع في وسط شبه الجزيرة العربية، والصحراء العربية، وصحراء سوريا التي تمتدّ على عددٍ من البلاد وهي الأردن والعراق وسوريا، وتصل إلى منطقة شمال السعودية، والصحراء الغربية التي تقع في المغرب العربي، وتمتدّ على مساحةٍ واسعةٍ من أراضيها[٥].

على الرّغم من البيئة الصحراويّة القاسية التي تتمتع بها منطقة الشرق الأوسط، إلا أنها تضمّ عددًا كبيرًا من المسطّحات المائية والمضائق والبحار ذات الأهميّة الاستراتيجية، والعسكرية، والتجارية الكبيرة. من أبرز المضائق المائيّة التي تَقع في منطقة الشرق الأوسط مضيق هرمز في شمال سلطنة عُمان، ومَضيق باب المندب في جنوب اليمن، ومَضيق جبل طارق في المغرب، ومَضيق تيران في مصر، كما تمرّ في مَنطقة الشرق الأوسط أنهار عديدة ذات أهميّة كبيرة، من أبرزها: نهرا دجلة والفرات في العراق، ونهر النيل في مصر، ونهر العاصي الذي يمرّ في لبنان وسوريا، أمّا بالنسبة للبحار فتطُلّ دول الشرق الأوسط على عدد من البحار والمحيطات، من أبرزها البحر الأحمر، وبحر العرب، والبحر الأبيض المتوسط، والخليج العربي، والمحيط الأطلسي، والمحيط الهندي، بالإضافة إلى وجود البحر الميّت الذي يقع بين الأردن وفلسطين، وهو البقعة الأشد انخفاضا في العالم[٦].

٣ - ٣ سكان الشرق الأوسط

يبلُغ مجموع سكّان دول الشرق الأوسط بمفهومه الأشمل والأوسع ما يُقارب ٦٩٠ مليون نسمة[٧]، وتضُمّ المنطقة عدّة دول تمتلك تعدادًا سكانيًّا مرتفعًا، من أبرزها باكستان، ومصر، وإيران، وتركيا، بينما تتمتّع دولٌ عدّة بتعداد سكاني قليل، من أبرزها قبرص، والبحرين، وقطر، وأرمينيا. تَنتَشر اللغة العربيّة ولَهجاتها المُختلفة بشكلٍ واسع بين سُكان الشرق الأوسط، لكنّها لَيست اللغة الوَحيدة ولا اللغة المُشتركة بين جميع الدول.

تأتي بعد اللغة العربيّة اللغة الفارسية كثاني أكثر لغة انتشارًا في المنطقة، تتبعها اللغة التركية، وتنتشر عدّة لغات أُخرى، منها الإنجليزية، والأوردو، والعبرية، والفرنسية، والهندية، والبربرية، والشركسية، أمّا بالنسبة للديانة، فتنتشر الديانات السماوية الثلاث في المنطقة، ولكن يغلُب على سكانها الطابع الديني الإسلامي، بمذاهبه السنية والشيعية، حيث يعتنقها العدد الأكبر من السكان، وهي الديانة الرسميّة لعدد من دول الشرق الأوسط، وتُعدّ الديانة المسيحيّة من الديانات المُنتشرة في المنطقة أيضًا، ويتبع الأغلبية المذهب الأورثودوكسي. كما توجد دولٌ تنتشر فيها أقليات تتبع الديانة اليهودية.

المراجع والمصادر

- Dalia Mogahed, John Sides --east mid teach, "What is the Middle East" ?31/3/ 2017.
- Britannica Encyclopædia, "Middle East" Page 66, 2017.
- Gunderson Cory Gideon, Daughters & ABDO:USA, 2003, Countries of the Middle East Page 4.
- Atlas World, "Middle East", 2015.
- com, Quickgs, "list of major straits of world" 6/4/2017.
- BESSON Yves, 1990, Identités et conflits au Proche-Orient, Paris, L'Harmattan.
- CORM Georges, 2010, le Proche-Orient éclaté 1956-2010, Paris, Gallimard.
- CHAGNOLLAUD Jean-Paul, 2008, Quelques idées simples sur l'Orient compliqué, Pari.

على طريق الحرير، لغات وثقافات

د. ليال مرعي[1]

منذ عقود، أصبحت العولمة جزءًا لا يتجزّأ من حياتنا اليوميّة التي باتت تشهد عمليّات تطوّر وتبادل مختلفة حتّى نكاد في بعض الأحيان، نغضّ الطّرف عن تاريخنا وجذورنا، بغية الانخراط في الشّبكات الدّوليّة المترابطة. وسط هذا العالم الجديد، لا تزال مدن مثال سمرقند وبخارى تسحر العقول بغنى تاريخها، شأنها شأن مواقع كثيرة على طريق الحرير، تشهد على الأوجه الأولى للعولمة التي طالت عمليّة التّواصل بين الشّعوب وتستحضر شخصيّات أسطوريّة مثال الإسكندر الكبير، وماركو بولو، وجنكيز خان أو حتى أعمالاً أدبيّة لا تفنى على غرار «ألف ليلة وليلة» أو «كتاب العجائب».

عودة في الماضي

لطالما كان طريق الحرير صلة الوصل الوحيدة بين حوض البحر الأبيض المتوسّط والصّين، وبين الشّرق والغرب والفاعل الأكبر في تقدّم البشريّة. فقد أسهم في تلاقي الثقافات وتبادل المعرفة كما أدّى إلى تقارب الأديان والمعتقدات وتداخل الجينات. وكان هذا الطّريق، على مرّ خمسة عشر قرنًا، ممرًّا للتجّار، والبعثات الدّبلوماسيّة، والمحاربين، وأسرى الحرب، ورجال الدين، والمغامرين، والفنّانين، والعلماء، وغيرهم ممّن عبروه في رحلاتهم التي كانت تستمرّ أشهرًا عدّة. وكان هؤلاء في أغلب الأحيان يتحدّثون أكثر من لغة، ويعرفون جيّدًا المناطق التي يمرّون بها. ذلك أنّ جزءًا من عملهم كان يقضي بنقل الرسائل وإعداد الاتفاقيّات، شأنهم شأن الوسطاء والمفاوضين. لكنّ طريق الحرير هذا لم يكن ليحظى بالأهميّة لو لم يسهم في تحقيق هذا التبادل وسدّ شرخ الاختلافات. وقد عبره الرحّالة لينقلوا أفكارهم وقيمهم التي كان لها أثر في تحوّل الثقافات، من خلال نشر المعتقد أو نقل المعرفة.

(١) الجامعة اللبنانيّة - مركز اللغات والتّرجمة. Layal.merhy@ul.edu.lb

في هذا الصدد، يقول المؤرّخون (أمثال ل. بولنوا ٢٠١٠، ج. لوتن وآخرون ١٩٩٧) إنّ العرب بسطوا سيطرتهم في القرن الثامن على آسيا الوسطى تحت راية الإسلام. ومكثوا هناك على مدى ٢٠٠ سنة حيث نشروا هذا الدين والكتابة العربية. فأصبح الإسلام «دين التجّار» في آسيا الوسطى، واعتنقه عدد من الصّينيين وانتشر بشكلٍ واسع في تركستان الصّينيّة. كذلك، ساهم العرب في إثراء هذا الطريق ثقافيًّا وعلميًّا من خلال ترجمة الكتب ونشر المعرفة، لا سيّما في مجال العلوم والطبّ والفلك. ومع ذلك، شكّلت الصعوبات اللغويّة معضلة حقيقيّة، خفّف من حدّتها فنّ التّمثيل الإيمائي الذي كان يؤدّيه بعض الفنّانين، والذي ساعد في التغلّب جزئيًّا على «عدم الفهم» الناجم عن هذه الصعوبات. أمّا الرحّالة فكان يتعيّن عليهم إتقان عدّة لغات أو الاستعانة بمترجمٍ لعبور ذلك الطّريق حيث ترافقت سبع عشرة لغة مختلفة. ومن بين هذه اللغات، اللغة الصّينيّة، والتيبتيّة، والأيغوريّة، والمنغوليّة، والتركيّة، والفارسيّة، والعربيّة. ففي القصص التاريخية الصّينيّة التي تعود إلى الألفيّة الأولى، «كانت المسافة بين الصّين والمجتمعات النائية تُحتسب بعدد المترجمين اللازم تواجدهم للتواصل. وهكذا، كان ثمّة شعوب تعيش على بعد ترجمتين، أو ٤ أو ٩ ترجمات» (لوتن وآخرون، ١٩٩٧، ترجمتنا). إذًا، كانت الترجمة تخدم أغراضًا تجاريّة ودبلوماسيّة، كما كانت تضمن التّواصل بين الشّعوب وتشارك في التّنمية الثقافيّة.

اليوم، إذا ما عدنا في الزّمن أدركنا التّرابط القائم بين الثّقافات، الأمر الذي يسهم في تعزيز مواقف الانفتاح اللازمة للمضي قدمًا. وإذا بحثنا في الماضي، وجدنا أنّ الحاضر ما هو فعليًّا سوى امتداد منطقيّ لما قد بدأ سابقًا. وها هو طريق الحرير يعود من جديد كما كان، ليربط بين الشّبكات الاقتصاديّة المختلفة عبر الصّين والعالم العربيّ وأوروبا (تجارة النّفط والصادرات الصّينيّة، الخ.)، ويعزّز العلاقات السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والاجتماعيّة في ما بينها. ومن الطبيعيّ أن يستدعي هذا الانفتاح على الآخر التواصل معه، ما يبرّر الحاجة إلى تعلّم اللغات والترجمة. في هذا الإطار، تقوم عدّة مؤسسات تعليميّة في الصّين بتدريس اللغة العربيّة، كما يؤثِر الصّينيّون الإقامة في بعض الدول العربيّة بهدف تعلّم اللغة والتمكّن من الترجمة. أمّا العرب فيزورون الصّين مرارًا وتكرارًا بهدف السّياحة أو التّجارة. هذا وتوجد معاهد كونفوشيوس في أكبر المدن العربيّة، فضلاً عن أنّ الجامعات العربيّة تضمّ اختصاصات في

التّجارة الدوليّة يعزّزها تعلّم الصّينيّة، لغةً أجنبيّة (كما في مصر، وتونس، ولبنان). هذا هو حال التّبادل اليوم، ولا بدّ من الالتفات إليه ودراسته، فنتحدّث عن التّبادلات اللغويّة والثقافيّة بين الصّين والعالم العربيّ، وخصوصًا لبنان الذي يستقبل الصّينيين الراغبين في تعلّم اللغة العربيّة، ويتيح للعرب في الوقت نفسه، تعلّم اللّغة الصّينيّة كجزء من المقرّرات الجامعيّة.

اللغة العربيّة واللغة الصّينيّة، على تواصل دائم

على طريق الحرير، التقت اللغة العربيّة واللغة الصّينيّة للمرّة الأولى. وأسهمت الحضارتان في إغناء العالم في العصور الوسطى. فكان للصّين تأثير في دول الجوار وقدّمت عدّة اختراعات مفيدة نقلها العرب إلى الغرب، مثل صناعة الورق أو البارود. كذلك، عرف العرب عصرًا ذهبيًّا، فنقلوا الطبّ والعلوم والهندسة المعماريّة وغيرها إلى الشّعوب الأخرى، فتحدّثت بلاد الشّرق باللغتين الأكثر انتشارًا في ذلك الزّمان. وقد قامت العلاقات بين الصّين والعالم العربيّ على التّبادلات الاقتصاديّة والتجاريّة، وجاءت نتيجة سياسة الانفتاح والتعاون التي اعتمدها كلا الجانبين. في هذا السياق، أدّت اللغة العربيّة دورًا رئيسًا في نقل المعرفة والتقنيّات؛ فكانت جسر عبور بين الصّين والعالم العربيّ والعالم الغربيّ. ناهيك عن دور العرب الذين بقوا في الصّين عقب الغزوات والحروب واعتمدوا اللغة العربيّة للصلاة والتواصل في ما بينهم، فيما تحدّثوا بالصّينيّة مع الآخرين. كان من الطبيعي إذًا أن يؤدّي التداخل بين هاتين الحضارتين الشّرقيّتين إلى تقاربٍ على مستوى القيم الأخلاقيّة والإنسانيّة، سيّما أنّهما شهدتا ظروفًا مماثلة.

واليوم، قد تكون هذه العلاقة التي نشأت منذ القدم هي السبيل إلى تحقيق التنمية البشريّة والاقتصاديّة والفكريّة. وتبقى الترجمة الطريق الأضمن لتحقيق ديمقراطيّة المعرفة وإغناء التراث وفهم التنوّع. لذلك، تحافظ الصّين على دور اللغة باعتبارها أداة للانفتاح على الآخر، وذلك من خلال وسائل الإعلام الصّينيّة التي تبثّ باللغة العربيّة. وفي أوائل القرن العشرين، أخذ العرب يهتمّون بالثقافة الصّينيّة والأدب الصّينيّ، رغبةً منهم في الهروب من قوى الاستعمار والتقرّب من الثقافات الأخرى. وكانت قراءة الأعمال الصّينيّة باللغة العربيّة متاحةً بفضل الترجمات التي أنجزها الصّينيّون. في ما بعد، قام العرب بترجمة بعض الأعمال الشهيرة لكتّاب معروفين مثال لو شيون[1]

(١) كان الكاتب الصيني لو شيون (Lu Xun، ١٨٨١-١٩٣٦)، واسمه الحقيقي تشو شورن (Zhou Shuren)، أحد روّاد =

(Lu Xun)، وبـا جـيـن[١] (Ba Jin) ولاو شه[٢] (Lao She) حتّى بات القرّاء العرب يستمتعون بقراءة الأعمال الصّينيّة المترجمة أو مشاهدة أفلام مستوحاة من الثقافة الصّينيّة. وفي العقدين الماضيين، أصبحت ترجمة الأعمال الصّينيّة أكثر تنظيمًا، ومع الوقت، استحالت الجهود الفرديّة جهودًا جماعيّة[٣]. هذا وعُقدت في الصّين والدول العربيّة عدّة اتفاقيّات بين مؤسّسات تعليميّة ودور نشر مختلفة، بهدف ترجمة مئات الأعمال الأدبيّة العربيّة والصّينيّة[٤].

ولا يَخفى أنّ الصّينيّين أبدوا منذ زمن طويل، اهتمامهم بالأدب العربيّ والثقافة العربيّة. ومرّت ترجمة الأدب العربيّ في الصّين بثلاث مراحل. في البداية، أي قبل تأسيس جمهوريّة الصّين الشعبيّة، كانت التّرجمة وسيلة لنقل النصوص الدينيّة الإسلاميّة. وكانت النصوص الأدبيّة المترجمة مرتبطة بطبيعة الحال بسياقات دينيّة. على سبيل المثال، في العام ١٨٦٦، تُرجمت قصيدة شهيرة معروفة في الأوساط الشعبيّة بـ «قصيدة البُردة»، وكان شرف الدين محمد البوصيري قد كتبها تكريمًا للنبيّ محمد – عليه الصلاة والسلام. في وقت لاحق، توسّعت الترجمة لتطال الأعمال الشعبيّة. وشهدت بداية

= الأدب الصيني المعاصر. ويعدّ في جميع أنحاء العالم «عملاق» الأدب الصينيّ من فترة ما قبل الثورة، حتّى أنّ نصوصه ترجمت في أماكن كثيرة، منها فرنسا وانجلترا ومصر. في العام ١٩١٨، شهدت روايته القصيرة «مذكّرات مجنون» المكتوبة باللغة العاميّة (الصينية المحكيّة)، نجاحًا باهرًا وطبعت بذلك بداية الأدب الصينيّ المعاصر. وفي الخمسينيّات، تُرجمت هذه الرواية القصيرة إلى جانب مجموعة من النصوص المختارة إلى اللغة العربيّة.

(١) عرف الكاتب الصينيّ لي ياوتنغ (Li Yaotang، ١٩٠٤-٢٠٠٥)، أحد رموز الرواية الصينيّة، واسمه المستعار با جين (Ba Jin)، كيف يثير اهتمام العالم بكتاباته. وعكست الرومانسيّة الموجودة في شخصيّاته، الممزوجة بالاندفاع إلى الثورة، وضع الشباب في تلك الحقبة. وقد تُرجمت بعض نصوصه إلى العربيّة على غرار ثلاثيّته الشهيرة «الوابل» التي تضمّ روايات عن الأسرة والربيع والخريف. وقد تكون كتاباته مشابهة لمؤلّفات الكاتب نجيب محفوظ (واسيني الأعرج، ٢٠١٥).

(٢) شو كنشون (Shu Qingchuñ ١٨٩٩-١٩٦٦)، واسمه المستعار لاو شه (Lao She)، هو كاتب صينيّ من العصر الحديث ومؤلّف روايات ومسرحيّات. لغته قريبة من العاميّة المحكيّة في بكين. تُرجم عدد كبير من مسرحيّاته إلى العربيّة مثل «الجمل شيانغ تسه» (Xiangzi) والمسرحيّة المؤلفة من ثلاثة فصول «المقهى». حظيت أعماله بتقدير العرب ما أدّى في مصر إلى تكريس عدد كبير من الأعمال الأكاديمية لدراسة نصوصه.

(٣) انخرط عدد من الجمعيّات والمؤسّسات في أعمال الترجمة مثل «مشروع الترجمة الصينيّة» لمؤسّسة الفكر العربي (www.arabthought.org)، أو مشروع «كلمة» بمبادرة من هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (www.kalima.ae).

(٤) على سبيل المثال، نذكر «مشروع الترجمة المتبادلة والنشر للمؤلّفات الكلاسيكيّة الصينيّة والعربيّة» الذي أُطلق في خلال المنتدى الاقتصادي والتجاري الثاني بين الصين والدول العربيّة في سبتمبر ٢٠١١. وحضره ممثّلون عن دور نشر من عشرين دولة عربيّة وعشر مقاطعات صينيّة أبدوا تعاونهم الكامل.

الجمهوريّة (١٩٤٩ – ١٩٦٦) حركةً في ترجمة الأعمال ذات التوجّه السياسي، عزّزها شعور التعاطف مع الشعوب العربيّة. فكانت الصّين تتفهّم تمامًا حركات التحرير التي يقوم بها العرب، وتسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسيّة مع مصر وسوريا ودول عربيّة أخرى، سيّما أنّها عانت من آثار النظام الإمبرياليّ الاستعماريّ. في ذلك الوقت، كانت العلاقات بين الصّين وروسيا تسير بشكل جيّد وكان عدد كبير من المترجمين يتقنون اللغة الروسيّة، الأمر الذي ساهم في نقل الأعمال العربيّة من اللغة الروسيّة التي كانت بمثابة لغة وسيطة. بعد ذلك، بدأت الثورة الثقافيّة في البلاد التي شهدت نوعًا من الركود فتوقّفت أعمال الترجمة بانتظار الإصلاح والانفتاح. واتّسمت نهاية الثورة في الصّين بالعصر الذهبيّ لترجمة الأدب العربيّ (في الثمانينيّات). فأصبح اختيار النصوص غنيًّا ومتنوّعًا، إلاّ أنّ الصّينيّين ركّزوا على منشورات بعض الدول كمصر وسوريا ولبنان قبل أن يدركوا أهميّة الأعمال الأدبيّة والفكريّة في مناطق أخرى مثل الخليج العربيّ. ولوحظ تفضيل للأدب المعاصر، فرضه مستوى الكفاية اللغوية، علمًا أنّ اللغة العربيّة هي لغة أجنبيّة بالنسبة إلى الصّينيّين وأنّ الأعمال الكلاسيكيّة العربيّة لم تُكتب باللغة المعياريّة المعاصرة.

لم يكتفِ الصّينيّون بترجمة معاني القرآن[١] والكتب العلميّة إلى اللغة الصّينيّة، بل اهتمّوا بالأدب العربيّ أيضًا. فترجموا قصائد جبران خليل جبران في عشرينيّات القرن الماضي، ثمّ «النبي» في العام ١٩٣٢،[٢] تبعه «ألف ليلة وليلة» في العام ١٩٤١، وعدد من الأعمال والمقتطفات الأخرى لأدباء عرب أمثال نجيب محفوظ وطه حسين. ويرى اختصاصيّو اللغة أمثال تشونغ جي كون (Zhong Ji Kun، ٢٠١٣)[٣] أنّ الاستعراب انطلق من الصّين

(١) إحدى أفضل الترجمات هي تلك التي أنجزها محمد ماكين (Muhammad Ma Jian) (أنظر شوي تشينغ قوه، ٢٠٠٦، وتشونغ جي كون، ٢٠١٣)، وهو أحد الصينيين الأوائل الذين درسوا في جامعة الأزهر في مصر. شارك أيضًا في تعديل القاموس العربيّ الصينيّ وترجم تعاليم كونفوشيوس إلى اللغة العربيّة. في العام ١٩٤٦، أسّس قسم اللغة العربيّة في جامعة بكين، وأدخل اللغة العربيّة إلى الجامعات الصينيّة بعدما كانت تدرّس في المساجد أو المراكز الدينيّة من دون سواها.

(٢) ترجمت قصائد جبران على يد ماو تون (Mao Dun) أمّا «النبي» فترجمته الكاتبة الصينية بن شين (Bing Xin).

(٣) مستعرب ومترجم صينيّ. اسمه العربي «صاعد». حاز جائزة الشيخ زايد للكتاب في العام ٢٠١١ (شخصية العام الثقافية) لمساهمته في نشر الأدب العربيّ في الصين. ألّف كتاب «تاريخ الأدب العربي الحديث» باللغة الصينيّة، ونشره في العام ٢٠٠٤ (Kunlun Press Pub).

في بداية الثمانينيّات في زمن الإصلاح والانفتاح، فقامت عدّة ترجمات وازداد عدد متعلّمي اللغة العربيّة. وتعود كثافة هذه الأنشطة أوّلاً إلى غياب الرّقابة على حقوق التّأليف والنّشر، وثانيًا إلى رغبة الصّينيّين في التعرّف إلى الثّقافة العربيّة وقراءة لغتها. يبدو إذًا من خلال ما قرأنا، أنّ المستعربين الذين يسعون إلى نقل الثقافة العربيّة إنّما يُظهرون بعض التّعاطف مع القضايا التي تطرحها الشّعوب العربيّة. هذا الشّعور ليس مجرّد تعبير عن التّشابه الذي تمّ تسليط الضوء عليه بين الحضارتين، بل هو أيضًا نتاج جمال اللغة التي تسهم في تقارب القيم والأفكار.

لكن، وعلى الرغم من التّفاعل التاريخيّ بين هاتين اللغتين، والتبادل المستمرّ على المستوى الاقتصاديّ والإنتاج العلميّ والأدبيّ، وما قدّمته الصّين والدول العربية في هذا المجال، يبقى عدد الأعمال المترجمة غير كافٍ، إذ لا تتخطّى الأعمال المترجمة إلى اللغة الصّينيّة بضع مئات، في حين أنّ التّرجمة إلى العربيّة أقلّ بكثير[1]. وكانت هذه التّرجمات في أغلب الأحيان تتمّ بشكل غير مباشر أي من خلال لغة أجنبيّة وسيطة، كالروسيّة، أو الإنجليزيّة أو الفرنسيّة، ما يؤثّر بشكل كبير في جودة الترجمة. ولكنّ هذا المرور عبر لغة ثالثة بدأ ينحسر بفضل التوسّع في تدريس اللغتين في البلدان المعنيّة.

وما لا شكّ فيه أنّ الترجمة هي أكثر الأدوات فاعليّة في تقارب الثقافات. ذلك أنّها تبني جسورًا بين الشعوب، لا سيّما في زمن تختصر فيه العولمة المسافات وتلغي الحدود[2]. وهكذا، تبرز أهميّة نقل معنى النص المصدر بشكل صحيح وسليم بهدف تفعيل التّواصل، وتعزيز التّبادلات وإثراء العقول. ولا يمكننا أن ننسى أنّ التّرجمة تخدم ثقافة المصدر وثقافة الهدف على حدّ سواء. فهي تزوّد المُتلقّي بمصدر جديد للمعرفة وتضعه أمام رؤية مختلفة للعالم، فضلاً عن أنّها تنفح في النص شكلاً جديدًا وروحًا جديدة. في الواقع، يدرك الصّينيّون والعرب أهميّة هذا التبادل الثقافيّ، ولكنّهم يصطدمون بالقيود اللغويّة وبعقبات خاصّة

(١) في دليل الكتب المترجمة Translationum، ٢٧ كتابًا مترجمًا من اللغة الصينيّة إلى العربيّة و١٤٩ عملًا مترجمًا في الاتجاه الآخر. هذه القائمة من الكتب المترجمة في العالم، والتي يعتمدها اليونسكو، تعدّ المرجع الدولي الوحيد للترجمات، وتضمّ الأعمال المنشورة بين العامين ١٩٧٩ و٢٠٠٩ (www.unesco.org/xtrans).

(٢) يقول تشونغ جي كون (٢٠١٣) إنّه يختار أحيانًا ترجمة أعمال عربيّة تسلّط الضوء على بعض المشاكل الاجتماعيّة أو الفساد بهدف مقارنة هذه المشاكل بأخرى مشابهة لها في الصين والدعوة إلى الإصلاح.

بالترجمة عند إنجاز المشاريع المخطّط لها. في هذا الإطار، يرى الصّينيّون أنّ المستعربين الصّينيّين تحوجهم المهارات[1] وأنّ التمكّن من اللغة العربيّة يتطلّب وقتًا طويلاً؛ كذلك، يهرب العرب من صعوبات تعلّم اللغة الصّينيّة ويلجأون إلى النصوص المترجمة إلى اللغة الإنجليزيّة أو إلى لغة أجنبيّة أخرى. لكن منذ العام ٢٠١٠، لوحظت زيادة طفيفة في عدد الترجمات من اللغة الصّينيّة إلى اللغة العربيّة، في حين لا يزال عدد المترجمين ضئيلاً جدًّا. في هذا السياق، يوضح تشونغ جي كون (٢٠١٣) أنّه من الصعب معالجة مسألة ترجمة الكتب إلى اللغة العربيّة، إذ يختلف «الذوق» الأدبيّ واللغويّ بين الثقافة المصدر والثقافة الهدف، كما يرى أنّه من المستحيل ترجمة النصوص على أكمل وجه. ذلك أنّه يمكن ترجمة معنى النصّ، ولكن يستحيل التنبؤ بردّ فعل القارئ العربي لدى تلقّيه. وهو محقّ تمامًا، لأنّ متذوّق الثقافتين والملمّ بأمور القرّاء العرب سيكون وحده قادرًا على إنجاز هذا العمل. علاوة على ذلك، يندرج نشاط الترجمة ضمن إطار الوساطة اللغويّة ويتطلّب بالتالي معرفة وافية وكافية باللغات والثقافات المعنيّة، كما بالاستخدامات المختلفة وفئات المتلقّين المتعدّدة.

ني هاو ومرحبًا، التّعلّم ومشاكله

غالبًا ما تلتقي اللغتان، الصّينيّة والعربيّة، في مختلف الميادين الثقافيّة والتجاريّة والسياحيّة. وتؤكّد مراجع عدّة أنّ تعليم اللغة العربيّة في الصّين بدأ بطريقة طبيعيّة قبل انتشار الإسلام، من خلال التفاعلات اليوميّة بين التجّار العرب والصّينيّين. وما لبث أن أصبح مدروسًا ومنظّمًا، فانتشر في المساجد والمدارس الإسلاميّة وأخذ طابعًا دينيًّا. ولكنّ عودة المستعربين الصّينيين الذين درسوا في

(١) يقول شوي تشينغ قوه (٢٠٠٦) إنّه بالرغم من نجاح الصين في إدخال تعلّم اللغة العربيّة إلى نظامها التعليميّ وتمكنّ المؤسّسات التعليميّة الصينيّة من تخريج عدد كبير من الطلّاب في قسم اللغة العربيّة، تقع على عاتقهم مسؤوليّة إنجاز عدّة مهام بهدف خدمة الوطن، يبقى عدد الباحثين المستعربين ضئيلًا مقارنة بالباحثين المستعربين الغربيين. كذلك، لم تصل الأعمال البحثيّة التي أجريت في الصين إلى العمق والترابط اللذين بلغتهما الأعمال عينها في الغرب. ويُعزى هذا التأخّر إلى عدّة أسباب منها: تأخّر اللغة العربيّة ودراساتها في الدخول إلى الجامعات الصينيّة (حوالى العام ١٩٤٦)؛ مرور جمهوريّة الصين الشعبيّة بفترات من الاضطرابات الأيديولوجيّة (الثورة الثقافية) التي استمرّت أكثر من عشر سنوات؛ اهتمام المستعربين والباحثين في الجانب اللغويّ من الثقافة العربيّة، بسبب تعلّمهم اللغة، واستحالة التعمّق في أبحاثهم في غياب المعرفة المستفيضة؛ تماشي اقتصاد السوق الصينيّ مع متطلّبات العولمة ما جعل الاختصاصيّين في اللغة يسعون إلى تحقيق مكاسب ماليّة على حساب الأبحاث.

جامعة الأزهر في مصر (١٩٤٥)، أسهمت في إضفاء الطابع المؤسّساتي على تعليم هذه اللغة التي دخلت المنهاج الجامعيّ، ما أدّى إلى ازدياد عدد المتعلّمين منذ ذلك الحين.

أمّا تعليم اللغة الصّينيّة في العالم العربيّ فلم يشهد تاريخًا مماثلاً. كانت عين شمس في مصر، أولى الجامعات التي درّست اللغة الصّينيّة في العام ١٩٥٦. غير أنّ تعليم الصّينيّة فيها توقّف بعد بضع سنوات، ليعود ويُستأنف في العام ١٩٧٧. وفي العام ٢٠٠١، افتتحت جامعة الأزهر قسمًا لتعليم اللغة الصّينيّة في كليّة اللغات والترجمة. وقد لاحظنا منذ حوالي عشر سنوات، أنّ تعليم اللغة الصّينيّة يتزايد، لا سيّما مع إنشاء جمهوريّة الصّين الشعبيّة معاهد كونفوشيوس في الدول العربيّة بهدف تعليم اللغة الصّينيّة، ودعم أنشطة التعليم المحليّة، ومنح شهادات في اللغة الصّينيّة (اختبار الكفاية باللغة الصّينيّة HSK) بالإضافة إلى المشاركة في نشر الثقافة الصّينيّة.

ونظرًا إلى أنّ إتقان اللغات الأجنبيّة غير ممكن فعليًّا إلاّ بعد الانغماس في بيئتها الطبيعيّة، يقصد الطلاّب الدول الناطقة بهذه اللغات بهدف تعزيز معرفتهم ومهاراتهم. وتتعدّد أهداف التّعلّم وتتنوّع بين دينيّة وثقافيّة ومهنيّة وسياسيّة وسياحيّة. وتشمل الأهداف المهنيّة من بين أمور أخرى، الترجمة أو الوساطة التي تجذب عددًا كبيرًا من المتعلّمين الراغبين في العمل في هذا المجال الغنيّ. وفي ما يلي، سنتطرّق إلى لغتين هما من الأكثر تعقيدًا في العالم، ويصنّفهما معهد وزارة الخارجيّة الأميركيّة (FSI) بين اللغات الخمس الأكثر صعوبة بالنسبة إلى الناطقين بالإنجليزيّة. ويرتبط هذا التعقيد ببعد المسافة بين اللغات. فبالنسبة إلى الأوروبيين مثلاً، كلّما ابتعدوا عن لغتهم الأم وعن اللغات الهنديّة الأوروبيّة، شحّت أوجه التشابه وزادت الصعوبة. لهذا السبب، تُعدّ اللغات الآسيويّة والشّرق أوسطيّة والسلافيّة صعبة على الغربيين في معظم الأحيان. ولكن، ما هي يا تُرى الصعوبات التي تواجه المتعلّمين الشّرقيّين، سواء كانوا من الصّين أو من لبنان، في تعلّمهم لغة الآخَر؟ وما هو حجم قدراتهم في مجال الترجمة؟

أ - ثقافة تعلّم اللغات في الصّين ولبنان

من الطبيعيّ أن تؤثّر عادات التّعلّم لدى الصّينيّين واللبنانيّين في مواقفهم من اللغة الأجنبيّة. وقد أتاح لنا العمل مع أفراد من المجتمَعَين، التعرّف إلى بعض أوجه التشابه والاختلاف بين ثقافتي التّعلّم في كلا

البلدين[1]. فنظرنا في الأنشطة التي يفضّلها المتعلّمون، واستراتيجيات التدريب والحفظ، وحيويّة التفاعل في الصفّ، إلخ. وجرت الملاحظة والتحليل انطلاقًا ممّا قاله العالِم بالحضارة الصّينيّة فرانسوا جوليان (ريتشارد بيورانسكي وبيل غيتير، ١٩٩٨) حول وجود فجوة ثقافيّة كبيرة بين الفكر الصّينيّ والفكر الغربيّ. فبرأيه، وحدها الثقافة الصّينيّة، مقارنة بثقافات أخرى (العربيّة، والهنديّة والإفريقيّة)، مختلفة تمامًا عن الثقافة الغربيّة. أمّا الفجوة بينها وبين ثقافة اللبنانيّين فليست بالكبيرة أبدًا. ذلك أنّ المجتمعَين يوليان أهميّة للتناغم داخل المجموعة واحترام التسلسل الهرمي، في حين قد يرى الفكر الغربي في ذلك خضوعًا أو نقصًا في الشجاعة أو حتى نفاقًا في بعض الأحيان. غير أنّنا نرى في تجنّب الصراع ومراعاة المجموعة أوجهًا ثقافيّة تقرّب بين المجتمعَين. هذا التقارب في أجواء الصفّ قد يكون غاية في الإفادة، سيّما وأنّه يتيح للمتعلّمين الخروج من الإطار المؤسّساتيّ التعليميّ بهدف الاندماج أو الاكتشاف.

في الصّين، يقوم تعليم اللغة في معظم الأحيان على تدريس القواعد والترجمة بهدف بناء كفاية لغويّة متينة. لتأكيد ذلك، قدّمت مجموعة من الطلاّب الصّينيّين في الجامعة اللبنانيّة وصفًا مفصّلاً لدروس اللغة العربيّة التي تلقّوها في الصّين (استبيان مُنجز في العام ٢٠١٦)، جاء فيه ما يلي: يقرأ المدرّس بصوت عالٍ، ثمّ يردّد المتعلّمون بعده لاكتساب النطق الصحيح. يحفظون المفردات الجديدة وينجزون عدّة تمارين في الفهم والحفظ والتطبيق (مثال تمارين ملء الفراغ، وإعادة الصياغة، وإعادة الترتيب، وما إلى ذلك)، كما يدرسون القواعد من خلال النصوص التي يناقشونها ثمّ يترجمونها. في هذا الوصف، نلاحظ غيابًا للمهام والنشاطات التواصليّة. ويُعزى ذلك إلى المنهجيّة المُتّبعة التي تعطي أولويّة للتراكيب على حساب المهارات التواصليّة. وهذا ما أكّدته أيضًا كلود كورتييه (٢٠٠٥) عندما كتبت أنّ الصّين تعتمد منهجيّة تقليديّة في التعليم تركّز على اكتساب المعرفة، وأنّ الكتب التعليميّة فيها هي التي تحدّد المحتويات ومنهجيّة التدريس[2]. ذلك أنّ الكتاب التعليميّ يشكّل ركيزة تعليم

(١) نقصد بثقافة التعلّم سلوكيّات المتعلّمين في خلال تعلّمهم اللغة. وهي تعكس مواقفهم في الصف، والقيم المشتركة، وتصورّهم للتعلّم، وتوقّعاتهم، والمنهجيّة المعتمدة في التعلّم، والاستراتيجيّات التي اعتادوا استعمالها، والأهداف المرجوّة، إلخ.

(٢) «المدرّس ملزم باتّباع الكتاب التعليميّ لنقل المعلومات اللغويّة المعدّة لكلّ درس. فهو ينظّم الأنشطة من خلال الاعتماد المستمرّ على الكتاب، وبالتالي يتمتّع بهامش صغير جدًّا من الحريّة لتطوير الأنشطة التعليميّة الخاصّة به» (كورتييه ٢٠٠٥: ٤٨٠، ترجمتنا).

أساسيّة في الصّين. في هذا الصدد، يشير الطلّاب الصّينيّون الذين يدرسون في لبنان إلى أنّهم يفضّلون اعتماد كتاب لتعلّم اللغة العربيّة على متابعة الدروس التي يتمّ تصميمها تدريجيًّا والتي تعتمد على موادّ تعليميّة متفرّقة، مأخوذة من مصادر مختلفة. إذًا، يرتبط البرنامج التعليميّ مباشرة بمحتوى الكتاب المعتمد. فالمدرّس يبحث عن أسئلته في الكتاب وكذا الطلّاب يبحثون عن إجاباتهم فيه. وهكذا، يكون التفاعل بهدف اكتساب اللغة، لا أكثر. على ما يبدو، إنّ التاريخ التربوي في الصّين مرتبط بمدرسة كونفوشيوس حيث الكتاب رمز للمعرفة. وبالتالي يمكن تصوّر المثلّث التعليمي المؤلّف من الكتاب، والمعرفة، والمدرّس الذي يتمتّع بالسلطة باعتباره ناقلاً للعِلم.

تشير كورتييه (٢٠٠٥: ٤٨١) أيضًا إلى العلاقة التربويّة في صفوف تعليم اللغات في الصّين انطلاقًا من المثل الصّيني القائل: «من علّم يومًا هو أب المتعلّمين أبدًا»، في محاولة لتسليط الضوء على شدّة احترام المعلّم. يبيّن هذا المثل صورة الأب في المجتمع الصّينيّ ومدى «التحفّظ الذي يتحلّى به الطلّاب الصّينيّون الذين يكتفون بتلبية مطالب المعلّم»[1]. في هذا السياق، أكّد الطلّاب الصّينيّون في الجامعة اللبنانيّة أنّهم لا يحبّون مقاطعة المعلّم أو التحدّث في الصف خوفًا من تعطيله؛ هم يفضّلون الانتظار حتّى يبادر إلى طلب الكلام منهم.

أمّا في لبنان، فثمّة فارق بسيط. يتعلّم اللبنانيون لغات عدّة، ما يجعلهم عرضة لمنهجيّات تعليم مختلفة، فلا يشكّل غياب الكتاب عائقًا أمام تعلّمهم لغة جديدة، خصوصًا أنّ الكتاب التعليميّ يفقد أهميّته ما إن ينهي الطالب دراسته الثانويّة. في الجامعة، نادرًا ما يتبع الطلّاب دروس الكتاب، لا سيّما عند تعلّم اللغات الأجنبيّة، علمًا أنّ الجامعات تقترح كتبًا تعليميّة مختلفة يستعين بها المدرّس لإعداد صفّه إذا ما رغب بذلك، من دون أن يكون مضطرًا للتقيّد بها حرفيًا.

في الماضي، كانت العلاقة بين المعلّم والطالب مشابهة لتلك التي في الصّين. ولكن في السنوات الأخيرة حدث تغيير؛ فقد أصبح الطلّاب أكثر انفتاحًا على التفاعل في الصفّ وأقلّ حرصًا على حفظ ماء الوجه وباتوا يفضّلون المهام المشتركة والعمل التعاونيّ. وقد يكون هذا التغيير ناتجًا عن

(١) «أن يطرح الطالب سؤالًا على المدرّس يعني في آنٍ معًا أنّه يشكّك في نوعيّة تفسيراته السابقة التي من المفترض أن تكون كافية، وأنّه غير قادر على فهم كلام الأستاذ البليغ. فبطرح السؤال قد يفقد الطالب ماء الوجه» (كورتييه ٢٠٠٥: ٤٨١، ترجمتنا).

طرائق التدريس التي اعتمدتها المؤسّسات التعليميّة. فمنذ نشر الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للّغات في العام ٢٠٠١، والجامعات اللبنانيّة تسعى إلى تطبيق هذا النهج ومواءمته مع اللغة والسياق العربيين. ولم تعد الأهداف موجّهة نحو اكتساب اللغة فحسب وإنّما أيضًا نحو تحقيق التكامل الثقافي والتواصل.

بالرغم من هذا الاختلاف، لم تشكّل ثقافة التّعلّم الصّينيّة عائقًا أساسيًّا عند تعلّم اللغة العربيّة. ولبناء هذا التصوّر، ارتكزت الدراسة إلى شهادات المتعلّمين وإلى ملاحظة سلوكهم التّعلّمي في غرفة الصف، مع العلم أنّ ضمن المجموعة الواحدة، قد تكون أوجه التشابه موازية لأوجه الاختلاف. في البداية، ظهر بعض التحفّظ لدى الطلاّب الصّينيين (يتمثّل بالانضباط، والخجل، والانتباه، والهدوء في الصفّ، والمشاركة البسيطة، ورفض التواصل، وتفضيل العمل الفردي)، ولكن سرعان ما تبدّد التوتّر لتحلّ محلّه الحركة. قد يبدو للوهلة الأولى أنّ النهج التواصليّ المعتمد غالبًا لتعليم اللغات الأجنبيّة في لبنان، لا يناسب ثقافة التّعلّم الصّينيّة،[١] ولكن ما يلبث أن يتغيّر السلوك، ليعكس تطوّرًا في العادات والثقافة.

باختصار، عندما سُئل الطلاّب الصّينيّون واللبنانيّون عن رأيهم بصفوف اللغة، كان ثمّة إجماع على عدّة نقاط. فكلا الجانبين يحبّذ الأنشطة الشفهيّة ويفضّل أن يختار هو موضوع النقاش. كذلك، يتجنّبون الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها المدرّس إلاّ إذا كانوا متأكّدين من الإجابة. هذا ويتّبعون استراتيجيّات خاصّة بهم لحفظ المفردات (ملاحظة أوجه الشبه بين الكلمات، والبحث عن الجذر، وربط الكلمة بصورة، وما إلى ذلك)،[٢] أو يقومون بالتكرار وإنجاز تمارين كتابيّة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ ثقافة التّعلّم[٣] تنتقل في المجتمع بطريقة ضمنيّة

(١) اعتاد الطلاّب الصينيون العمل كتابيًّا أكثر منه شفويًّا. ومن الواضح أنّهم لا يرتاحون في المواقف التي تتطلّب أن يعبّروا عن أنفسهم شفويًّا في الصفّ.

(٢) يرى الطلاّب الصينيون أنّ الجمع بين الحفظ والفهم أمر طبيعيّ. فهم يعتقدون أنّ فهمهم المادّة التعليميّة، سيحدث انطباعًا قويًّا لديهم من شأنه أن يحثّ العمليّة المعرفيّة، ما يمكّنهم من الحفظ بدون أيّ مجهود (مارتون، ديل ألبا، تسي ١٩٩٦: ٦٩-٨٣، كما ورد في ماريانى، ٢٠٠٧).

(٣) «يمكن تعريف ثقافة التعلّم على أنّها مجموعة توقّعات ومعتقدات وقيم، يتناقلها المجتمع وتتناول ركائز التعلّم السليم ومقوّمات المعلّم الصالح والتلميذ النجيب، إلى جانب دورهم والعلاقات التي تربطهم. كذلك تشمل ثقافة التعلّم أساليب التعليم والنهج التعليميّ والطرائق التعليميّة فضلًا عن التفاعل والأنشطة الصفيّة والكتب التي يجب استخدامها بالإضافة إلى مكوّنات العمل الصحيح» (كورتازي، بِن، ١٩٩٧: ٣٨-٣٩ - ترجمتنا).

وغالبًا ما تشكّل معيارًا تعليميًّا ينمو ويتطوّر باستمرار ردًّا على التّبادلات التعليميّة بين المجتمعات المختلفة. وقد تأثّرت هذه الثقافة في الصّين بموجات التغيير التي طالت القطاع التربويّ والتي تعاقبت على الجمهوريّة منذ تأسيسها في العام ١٩٤٩. وشكّلت هذه التغييرات في معايير التعليم جزءًا من الحركة الإصلاحيّة التي جرت عقب التحرّكات السياسيّة والاجتماعيّة. في العام ١٩٩٩، أي في الفترة التي شهدت تحوّلاً للأنظمة الاقتصاديّة والسياسيّة في الصّين، جرى إصلاح كبير نتج عنه تغيير كبير وعميق أدّى إلى تنمية الطلّاب على الصعيد الشخصيّ وأثّر في النظام التعليميّ بأكمله (لجهة الأهداف والأساليب والمحتوى). ويمكن تلخيص أهدافه بما يلي:[١] تعلّم كيفيّة التّعلّم، وبناء مناهج دراسيّة تركّز على احتياجات التعليم والتّعلّم، وإدخال مفهوم حلّ المشاكل على عمليّة التّعلّم للحدّ من الحفظ، وتقويم تقدّم الطلّاب وملاءمة البرامج مع الحالات. وهكذا، يتبيّن لنا أنّ الإصلاح سعى إلى تغيير وضع الطالب وتحويله من متلقٍّ للمعلومات إلى عنصر فاعل في عمليّة التّعلّم من خلال الأنشطة العمليّة والتجريبيّة التي تتطلّب استعمال تكنولوجيا المعلومات. كذلك، جرى إصلاح كبير آخر في العام ٢٠١٠ تحت عنوان «المخطط الوطنيّ لتطوير التعليم وإصلاحه على المدى المتوسّط والبعيد (٢٠١٠ – ٢٠٢٠)»،[٢] أدّى إلى وضع خطّة الإصلاح الأولى في القرن الواحد والعشرين التي هدفت إلى تعزيز النماذج التعليميّة القائمة وإقامة نظام تعليم حديث. وهكذا، تمّ تعزيز التعليم في المناطق الريفيّة وتحسين تدريب المعلّمين. ومع ذلك، تواجه الصّين تحدّيًا كبيرًا يتمثّل في الحدّ من الفروقات التعليميّة بين المدن الكبرى والضواحي التي لا تزال تتبع الأساليب التقليديّة. وإذا كانت آثار هذه الأساليب لا تزال بادية على بعض الطلّاب الصّينيين، فذلك يعود إلى التزام الأجيال القديمة بالتقاليد وبثقافة التّعلّم المتجذّرة في المجتمع الصّيني، حيث «تطغى الطريقة التقليديّة القائمة على القواعد والترجمة،[٣]

(١) للمزيد، أنظر Yunhuo Cui & Yan Zhu (2014)

(٢) للمزيد، أنظر Xuying Yue & al. (2010)

(٣) ظهرت القواعد الأولى للّغة الصينيّة في العام ١٨٩٨ . قبل ذلك، كان الصينيّون يكتسبون القواعد بالفطرة. وفي الصين القديمة، كانوا يستندون في تعليم اللغات الأجنبيّة إلى الدراسة المعجميّة. وكانت الترجمة توضح معنى الكلمات الأجنبيّة، في حين كان يُعلَّم اللفظ من خلال كتابة الأصوات بالأحرف الصينيّة. أمّا تركيب الجمل فكان يتمّ تعلّمه بمقارنة النصوص. وبالتالي، ليس من الدقيق وصف المنهجيّة الصينيّة التقليديّة كطريقة قائمة على القواعد والترجمة، بل يجب تحديد مفهوم المنهجيّة التقليديّة (وي تشو، ٢٠١١).

بالرغم من إدراج بعض العناصر الجديدة إلى مناهج التعليم مثال التمارين البنيويّة التي تقترحها الطريقة السمعيّة – الشفهيّة، بالإضافة إلى الاهتمام بالمواد الأصيلة، والثقافة، والكفاية التواصليّة، وهي مفاهيم متأتيّة عن النهج التواصلي...» (بو تشي هونغ، ٢٠١١: ٤٣). لكن، لا يمكن الإنكار أنّ الأمور تسير إلى الأمام وأنّ الصّين تخطو خطوات كبيرة نحو تحديث التعليم. ففي العام ٢٠٠٨[١]، صدرت النسخة الصّينيّة من الإطار المرجعيّ الأوروبيّ المشترك للّغات؛ ولمّا كان من المهمّ مراعاة السياق الصّينيّ، ورد تعليق مفصّل مع الترجمة بهدف تسهيل فهم المرجع وتطبيق توصياته.

ب - اللغة الصّينيّة في عيون الطلّاب اللبنانيّين: تعلّم سهل ممتنع

في مركز اللغات والترجمة في الجامعة اللبنانية، يدرس الطلّاب اللبنانيّون الماندرين أي اللغة الصّينيّة المعياريّة المعاصرة، وهي لغة وسائل الإعلام الوطنيّة ويتحدّث بها أكثر من ٩٠٪ من السكّان بلهجاتها المختلفة. ويرجع تاريخ هذه اللغة، إلى أكثر من أربعة آلاف عام، ولكنّها شهدت تطوّرًا في أواخر الخمسينيّات، تزامن مع تبسيط كتابتها، وإعادة النظر في ترتيب كلماتها، وتنظيم كتابتها بالحروف اللاتينيّة. غير أنّ عددًا من الميزات اللغويّة بقي على حاله، إذ تمّ الحفاظ على نظام الكتابة غير الأبجدي والنغمات الخمس والشبكة الدلاليّة والمنطقيّة التي تؤثّر في ترتيب الكلمات الممكن تصويرها بأشكال مختلفة. وللتعرّف إلى الصعوبات اللغويّة الرئيسة التي يعاني منها الطلّاب اللبنانيّون، تعتمد هذه الدراسة بشكل أساسيّ على تقارير الملاحظة وملفّات الإنجاز التي قدّمها الطلّاب.

● في الكتابة واللفظ

يجمع المتعلّمون على مدى تعقيد كتابة اللغة الصّينيّة[٢] والنطق بها. ولا يسعنا هنا تفصيل المشاكل اللغويّة أو المقارنة بدقّة بين اللغتين، الصّينيّة والعربيّة. جلّ ما نستطيع فعله هو الإشارة إلى بعض هذه الصعوبات. فالصّينيّة لغة مميّزة: الكتابة فيها لا تعكس الصوت وإنّما تشير مباشرةً إلى المعنى؛ نظامها أحادي المقطع في معظمه، يتوافق فيه المقطع مع المرفيم (الوحدة الأصغر المؤلّفة من الصوت والمعنى). والجدير ذكره أنّه تمّ إدخال ثلاث

(١) منشورات تعليم اللغة الأجنبيّة وبحوثها (fltrp)، بكين (٢٠٠٨).

(٢) بخلاف اللغة العربيّة، تُكتب اللغة الصينيّة من اليسار إلى اليمين وفاقًا للتبسيط الذي أُحدث في العام ١٩٥٦. في وقت سابق كانت تُكتب من اليمين إلى اليسار ومن الأعلى إلى الأسفل. ولا يشكّل اتّجاه الكتابة مشكلة بالنسبة إلى الطلّاب اللبنانيين.

مجموعات من الحروف الصّينيّة في دروس اللغة: (١) الرموز التصويريّة التي تمثّل نوعًا من الرسوم تتيح فهم المعنى من خلال ربط الرؤية بالمعرفة؛ (٢) والمفاتيح الصوتيّة وهي رموز تصويريّة أُخذت للدلالة على المفاهيم المجرّدة من خلال الأصوات لأنّ الرسوم ليست خاصّة بها وحدها؛ (٣) والمقاطع الصوتيّة – التصويريّة التي تجمع بين النوعين السابقين من الحروف أي بين الرموز التصويريّة والمفاتيح الصوتيّة، وهي تشكّل ٨٠٪ من الحروف المستعملة يوميًّا. إلى جانب عدد الحروف[١] وصعوبة فكّ رموز معانيها، تتميّز اللغة الصّينيّة بالنبر حيث يشير طول المقطع إلى معنى الكلمة. أمّا النبر فهو زيادة في واحد أو أكثر من عناصر المقطع أثناء التلفّظ به، فيكتب بأشكال مختلفة وبالتالي يعبّر عن دلالات مختلفة؛ ما يفسّر وجود عدد كبير من الألفاظ شبه المتجانسة في اللغة الصّينيّة. صحيح أنّ الوضع معقّد ولكنّ التّعلّم ليس مستحيلاً، إذ يكفي إيجاد الدافع والوقت والجهد للمضي قدمًا. في الواقع، يتعيّن على كلّ من يرغب في تعلّم لغة أجنبيّة أن يتحلّى بهذه العناصر الثلاثة. فالدراسات تظهر أنّه مع التقدّم في السنّ، يصبح المرء أقلّ قدرة على إدراك الأصوات وتمييزها بشكل صحيح. لذلك، غالبًا ما يعتمد المتعلّمون استراتيجيّات تقليد الأصوات وتكرارها مستعينين بموارد مرئيّة ومسموعة. في المستوى المبتدئ مثلاً، نلاحظ أنّ مشكلة تمييز الأصوات وإصدارها تعيق المتعلّم وتؤخّر تطوير الكفايات اللغويّة لديه. فاكتساب اللغة يعتمد على إتقان الكتابة والأصوات في آن معًا، علمًا أنّ اللهجات الصّينيّة ليست دائمًا مفهومة بالنسبة إلى المتحدّثين باللغة الصّينيّة ولكنّهم يكتبونها بالشكل نفسه. أمّا مشاكل اللفظ فيُعوّض عنها بالتوازن والاستقرار في الكتابة، إذ تُفيد هذه الأخيرة التواصل عندما يستحال شفهيًّا، وتسهّل اكتساب المفردات من خلال ربط الصورة بالمعنى والصوت. ولكنّ تعلّم الكتابة يستغرق وقتًا طويلاً، وبالتالي من الأفضل فصل الشفهيّ عن الكتابيّ والسعي إلى تحقيق التقدّم في كلتا المهارتين بشكل متفاوت.

هذا وإنّ تعلّم الكتابة الصّينيّة يصطدم اليوم بالممارسات الرقميّة. فقد أصبح من الممكن الكتابة باللغة الصّينيّة بدون اتقان رسم الحروف، إذ يكفي تمييزها من بين

(١) يعرف الصينيّ ما معدّله ٦٠٠٠ حرف. أمّا الطالب الأجنبيّ فيجب أن يكون قد اكتسب حوالي ٥٠٠٠ حرف في نهاية تعلّمه. ويبلغ المعدّل الفعليّ للأحرف الصينيّة التي يكتسبها الأجانب حوالى ٣٠٠٠ حرف.

تلك التي يقترحها جهاز الكمبيوتر أو الهاتف المحمول انطلاقًا من بحث بواسطة لغة البينيين (المكتوبة بالحروف اللاتينيّة).

● **في القواعد**

تختلف آراء الطلاّب اللبنانيّين حول درجة صعوبة قواعد اللغة الصّينيّة. فالبعض يجدها مرنة وقريبة من قواعد اللهجة اللبنانيّة، فيما يراها البعض الآخر معقّدة. في ما يلي ملخّص عن أبرز التعليقات:

– في التركيب: تتمتّع اللغة الصّينيّة بمرونة تسهّل استعمالها، فتتألّف جملها من فاعل + فعل + مفعول، أو فعل + مفعول + فاعل، أو فاعل + فعل + مفعول + فعل، وما إلى ذلك، ما يقرّبها من تراكيب اللهجة اللبنانيّة (فاعل + فعل + مفعول/فعل + فاعل + مفعول/مفعول + فعل + فاعل). غير أنّ بعض الطلاّب يرتبكون أمام الخيارات المتاحة في اللغة الصّينيّة، عند مقارنتها باللغة العربيّة الفصحى.

– في التصريف والإعراب: يغيب الإعراب عن اللغة الصّينيّة ما يسهّل الأمر على اللبنانيّين، كما يعبّرون عن الزمن بواسطة المفردات (ظروف الزمان) والسياق (اللغويّ والظرفيّ).

– في الاستفهام: لا يخلو الاستفهام في اللغة الصّينيّة من المشاكل. ففي اللغة العربيّة، توضع أداة الاستفهام في بداية الجملة مع الحفاظ على ترتيب الكلمات. أمّا في اللغة الصّينيّة، فيجب وضع أداة الاستفهام مكان الكلمة التي يُسأل عنها (أي عنصر الإجابة) مع الإبقاء على ترتيب الكلمات. وبالتالي، يتطلّب الاستفهام أن يكون المتعلّم قادرًا على التحكّم بعناصر الجملة ومضمونها (تركيب جملة ثابتة في ترتيب سليم، وفهم وظيفة عناصر الجملة بهدف تحديد مكان أداة الاستفهام فيها، وإيجاد النبرة الصحيحة، إلخ.).

– في النفي: صحيح أنّ النفي معقّد في اللغة الصّينيّة ولكنّه مشابه بعض الشيء لقواعد اللغة العربيّة، ذلك أنّه يتمّ اختيار أدوات النفي وفقًا لزمن الحدث وطبيعته، وارتباطه بأفعال أخرى. أمّا في اللغة العربيّة، فيعتمد النفي على زمن الحدث الذي يفرض تغييرات صرفيّة ونحويّة معيّنة.

في هذه الدراسة، لسنا بصدد التوسّع في الصعوبات النحويّة، ولكنّنا نكتفي بتسليط الضوء على استراتيجيّة يعتمدها الطلاّب للتعويض عن ضعفهم في القواعد. فهم يلجأون إلى الحفظ ويحاولون رصف الكلمات لجعل كلامهم مفهومًا، فيربطون تدريجيًّا التراكيب لتكوين الجمل. إنّ هذه الطريقة في التدبّر تُبيّن أنّ الطلاّب يجدون بعض الصعوبة في جمع عناصر اللغة المختلفة واستعمالها بشكل متجانس.

● **في الصفّ (البيئة التعليميّة)**

في مركز اللغات والترجمة، يقوم مدرّسون صينيّون بتعليم اللغة الصّينيّة، لكن غالبًا ما تكون اللغة الإنجليزيّة هي لغة التواصل في الصفّ. ويجري الإعداد للحصص بعناية فائقة، حيث تُستخدم الوسائل المرئيّة والمسموعة لشرح الدروس. كذلك يساهم الإيماء في حلّ المشاكل الناجمة عن عدم الفهم والتفاهم. وتُعتمد كتابة البينيين كأساس للقراءة والمحادثة. في بداية الحصّة، يردّد الطلاّب بصوت عالٍ ما حفظوه عن ظهر قلب بهدف تسهيل استيعاب النطق. ثمّ يعرض المدرّس قائمة بالمفردات ويقوم بتفسيرها من خلال الإيماءات والصور، في حين يردّد الطلاّب بصوت عالٍ، وهم نادرًا ما يستمعون إلى حوار حقيقيّ. وقد تكون هذه الاستراتيجيّة متّبعة عادةً في المستويات المبتدئة في المدارس، إلاّ أنّ المدرّسين الصّينيّين مقتنعون بفاعليّتها ويعتمدونها على المستوى الجامعيّ. ومن الاستراتيجيات المتّبعة أيضًا، تجزئة حوارات قصيرة وتفصيلها، والعمل على المفردات والقواعد في كلّ جملة، ثمّ اقتراح تمارين بنيويّة لترسيخ المدخلات، كما يعمد المدرّسون إلى تقطيع الكلمات بهدف تسهيل لفظها ويُطلب من الطلاّب أن يردّدوها ثلاث مرّات على الأقلّ. وللثقافة مكان في البرنامج باللغة الإنجليزيّة، من خلال الأفلام الوثائقيّة والأفلام القصيرة. غير أنّ أهداف الدرس تسجّل على مستوى المفردات والقواعد، ذلك أنّه لا تتمّ ممارسة الفهم والتعبير الشفوي في كلّ حصّة، إنّما تؤدَّى لعبة الأدوار أحيانًا كجزء من التقييم التكوينيّ.

نلاحظ إذًا أنّ مدرّس اللغة الصّينيّة يحاول خلق مساحة للتواصل والتفاعل في الصفّ. ولكنّ الطابع التقليدي للتعليم يترك بصمته من خلال استراتيجيّات الحفظ والتكرار التي تُمارس بشكل جماعيّ، والاهتمام بالمفردات والقواعد باعتبارها أولوية، في حين أنّ الترجمة إلى اللغة الإنجليزيّة ليست سوى وسيلة لنقل المعرفة. لم تنفّذ أيّ مهمّة تعلّميّة داخل الصف أو خارجه كما أنّ التعبير الشفهيّ العفويّ لم يخصّص له مكان.

ج - اللغة العربيّة في عيون الطلاّب الصّينيين: تحدّيات ومثابرة

في بلد أجنبي – كما هي حال لبنان بالنسبة إلى الطلاب الصّينيّين، يعدّ التواصل ضرورة حتميّة. فبالتواصل يتعلّم الطلاّب اللغة الجديدة، وبالتواصل يتفاعلون في المجتمع المضيف. غير أنّ التواصل والتّعلّم يتأثّران بعوامل ثقافيّة متعدّدة، يسعى المدرّس إلى تحديدها لضمان حسن سير الدرس من خلال توفير بيئة ملائمة لتطوير

التفاعل البيثقافي. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى عدّة أنواع من الثقافات التي توجّه صفّ اللغة الأجنبيّة والتي قد تشكّل صعوبة في التّعلّم، مثال الثقافة الأكاديميّة وثقافة التّعلّم وثقافة التواصل[١].

● دور الثقافة والتواصل في التّعلّم

يتجلّى التفاعل بين الثقافة والتواصل والتّعلّم في مواقف الطلاّب والمفاهيم الثقافيّة التي يضيفونها إلى صفّ اللغة، ولكن أيضًا في تفسيرهم لسلوك الآخرين، وردّهم على الكلام أو الفعل الذي يصدر عن المدرّس أو عن متعلّمين من ثقافات أخرى. في هذا السياق، يعتمد المتعلّمون طرقًا مختلفة في التواصل حتى وإن بلغوا مستوى متقدّمًا في اللغة الأجنبيّة. فطريقتهم في التعبير عن أنفسهم بلغتهم الأم تؤثّر بشكل كبير في تعبيرهم باللغة الأجنبيّة (النغم، والوقفة، والاتصال البصري، ولغة الجسد، وعرض المعلومات، وما إلى ذلك)، حتّى أنّ أفعالهم أو ردود فعلهم قد تُفهم أحيانًا بشكل خاطئ في اللغة المضيفة. والجدير بالذكر أنّ المدرّسين اللبنانيين ليسوا على دراية عميقة بالثقافة الصّينيّة، وبالتالي لا يمكنهم التنبؤ بتأثير هذه الثقافة في طريقة تعليمهم. لذلك، يبدأون بتوعية المتعلّمين حول الثقافة العربيّة، وشرح توقّعاتهم، وطريقة عملهم، وأهميّة التبادل. هذا ويعمدون إلى إظهار الاختلافات الثقافيّة في الصفّ، فلا يتردّدون في طرح أسئلة حول الثقافة الصّينيّة. وهكذا يتمكّنون في صفوف تدريس اللغة العربيّة من إرساء مناخ ملائم للتعلّم والتبادل الثقافي.

في هذا الإطار، خضع متعلّمون صينيّون للمتابعة والمراقبة بين العامين ٢٠١٣ و٢٠١٧، في جامعتين في لبنان[٢]. كانوا نادرًا ما يجيبون بـ «نعم» أو «لا»، بل يتردّدون في التعبير عن الإيجاب والنفي، كما لو أنّهم يرفضون الإجابة. على سبيل المثال، عندما يشرح المدرّس مفهومًا جديدًا، يصمتون لعدّة لحظات بدون أي مبرّر. وبالتالي، لا يمكن تقدير نسبة فهمهم

(١) نقصد بالثقافة الأكاديميّة، الممارسات والمعايير الثقافيّة التي يتمّ العمل بها في مؤسّسة تعليميّة إلى جانب التوقّعات المنتظرة من النشاط الأكاديميّ. أمّا ثقافة التعلّم فهي، كما رأينا، مرتبطة بالمعتقدات والقيم الثقافيّة التي تدخل في عمليّة التعليم والتعلّم، في حين أنّ ثقافة التواصل تشمل وسائل التواصل المستخدمة بشكل طبيعيّ في المجتمع، وطريقة تلقّي الرسائل من جماعة ثقافيّة أخرى.

(٢) تمّت متابعة المجموعتين بمساعدة مدرّسين من مركز اللغات والترجمة في الجامعة اللبنانيّة وجامعة الجنان في طرابلس، ومن خلال وسائل معرفيّة وإحصائية شتّى (مقابلات واستبيانات، وتقييمات، ومقاطع تعليميّة مصوّرة، وملفّات الإنجاز الالكترونيّة).

لمضمون الدرس. فيباشر المدرّس في إعادة الشرح بهدف تثبيت اكتساب المعلومات الجديدة وتبديد شكوكه، ولكنّهم يغرقون في صمتهم في أغلب الأحيان، ما يدفع المدرّس إلى التوجّه إليهم مباشرة للتأكّد من استيعابهم للمعلومات. عندئذ يكرّر الطلاّب تلقائيًّا ما شُرح. في البداية، كانت هذه المواقف تربك المدرّسين فيلجأون إلى التقييم التكوينيّ للتأكّد من فهم المتعلّمين للمادّة. إلاّ أنّهم، في وقت لاحق، صاروا يدركون أنّ هؤلاء الطلاّب نادرًا ما يعبّرون بشكل واضح. فهم مثلاً يردّدون كلمة «نعم» طيلة فترة المحادثة، وهم يقصدون بها أنّهم يصغون ليس إلاّ، كما أنّهم نادرًا ما يستعملون صيغ النفي. عوضًا عن ذلك، يفضّلون عدم حسم الإجابة وطرح الاحتمالات (استعمال «ربّما»). لذلك، وبغية تسهيل التفاهم، يفسّر المدرّسون اللبنانيّون لطلاّبهم أنّهم يفضّلون الإجابات المباشرة، وأنّ النفي بالنسبة إليهم يشير إلى صعوبة القيام بالفعل (أو إلى غيابه)، ولا يعني أبدًا رفض أفكار الآخر أو التعرّض لاحترامه. انطلاقًا من ثقافة التّعلّم الصّينيّة واحترام مكانة المعلّم، يمكن فهم لحظات الصمت التي تسود بعد الشرح وتفسيرها على أنّها خوف من الإساءة إلى المدرّس. قد تكون هذه وسيلة لتجنّب إحراجه بالأسئلة أو لحفظ ماء الوجه أمام الآخرين في حال بيّن سؤال الطالب عن عدم الفهم.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ الطالب الصّينيّ عندما يُسأل، يميل إلى التمهيد للإجابة، فيقدّم الحجج ويبرّر إجابته قبل صياغة الفكرة الرئيسة لقوله. وليس هذا بالأمر الغريب عن العرب. غير أنّ الطلاّب اللبنانيين بشكل عامّ يتقنون لغتَين أو أكثر، وقد درسوا وفاقًا لمناهج تتبع النماذج الغربيّة، وبالتالي يتصرّفون بشكل مختلف، فيجيبون مباشرة ثمّ يبرّرون. وهكذا، عند تصحيح نصّ لطالب صينيّ، ينظر المدرّس أوّلاً إلى النصف الثاني منه بهدف استخراج الفكرة الرئيسة، ثمّ يعود لقراءة النصّ من بدايته ويتبع تسلسل الأفكار. لتغيير هذه العادة في عرض المعلومات وتقديمها، يفسّر المدرّسون لطلاّبهم أنّه من المفضّل في سياق التواصل، تحديد موضوع الكلام بدايةً ثمّ تقديم الحجج.

كذلك، يبادر الصّينيّون إلى التحدّث مع المدرّس في نهاية كلّ حصّة على انفراد. قد يكون ذلك تعبيرًا عن الشكر، أو لنقد أمر ما، أو حتّى للسؤال عن مرجع. فهُم نادرًا ما يشاركون في المناقشات الصفيّة، وبالتالي لا يعبّرون عن ميولهم واهتماماتهم أو الصعوبات التي تواجههم. ولمّا رأى المدرّسون أنّ الطلاّب يعبّرون دائمًا عن أفكارهم ورغباتهم على انفراد، ارتأى

بعضهم استبدال حصص المناقشة الجماعيّة باستبيانات مكتوبة لتمكينهم من التعبير عن آرائهم في إطار رسميّ.

وفي السياق عينه، نودّ الإشارة إلى نقطة أخيرة ألا وهي استخدام الأسماء الصّينيّة والعربيّة. أوّلاً، وخلافًا للعرب، يعرّف الطلاّب الصّينيّون عن أنفسهم بالشهرة ثمّ بالاِسم. ويحاولون أحيانًا اتّباع العادات العربيّة فيذكرون الاسم أوّلاً، وهو أمر مربك بالنسبة إلى اللبنانيين الذين لا يستطيعون التمييز بين الاسم والشهرة في اللغة الصّينيّة. وهكذا، تتمّ مناداتهم تارة بأسمائهم وطورًا بأسماء عائلاتهم. ثانيًا، يتميّز الصّينيّون باختيار أسماء عربيّة لهم على عكس اللبنانيين الذين لا يستعيرون أسماء تنتمي إلى الثقافة الأجنبيّة متى رغبوا في تعلّم لغة جديدة. لذلك، يسأل المدرّسون طلاّبهم عن الأسماء التي يرغبون في اعتمادها لمناداتهم. فيرى الصّينيّون أنّ الاسم العربي يقرّب المتعلّم من الثقافة العربيّة، ويخلق بيئة تعلّم عربيّة، كما يشدّ الأواصر بين المتعلّم وثقافة البلد المضيف. وغالبًا ما تكون هذه الأسماء سهلة ومعناها قريب من الاسم الأصليّ في اللغة الصّينيّة (حوار مفتوح، قناة الجزيرة، ٢٠٠٦).

● بعض القيود اللغويّة

كما لكلّ لغة، كذلك للّغة العربيّة خصائص قد تعقّد عمليّة التّعلّم. وتكمن المشكلة الأبرز التي تواجه المتعلّمين الصّينيّين في الكتابة. فهُم لا يجدون أي مرجع في ثقافتهم يستندون إليه لحفظ أشكال الحروف العربيّة، ويشعرون أنّ الكتابة الصّينيّة أسهل بكثير لأنّها تعتمد على رسوم بيانيّة (رسوم تشير إلى المدلول). علاوةً على ذلك، إنّ إتقان الكتابة يتطلّب وقتًا أطول لدى المتعلّمين الصّينيّين مقارنة بالأوروبيّين.

أمّا المشكلة الثانية، فتتمثّل في نطق الأصوات العربيّة ولفظها. في الواقع، إذا كانت هذه المشكلة أقلّ أهميّة من مشكلة الكتابة، فذلك لأنّ الصّينيّين يعتمدون على لغتهم الأمّ وعلى اللغة الإنجليزيّة لإيجاد أوجه تقارب وتقليد الأصوات العربيّة. كما أنّهم يخصّصون وقتًا أطول للكتابة، إدراكًا منهم لصعوبتها، فيهملون الجانب الشفويّ الذي يغدو بالتالي مشكلة حقيقيّة. مع العلم أنّ اللفظ الخاطئ يؤثّر في تعلّم المفردات والنحو، ويحول دون استقلاليّة المتعلّمين الذين إذا فشلوا في تمييز الأصوات والكلمات، توقّفوا عن التقدّم في تعلّمهم.

وفي ما يتعلّق باللفظ، لا يعاني الصّينيّون جميعهم المشاكل نفسها، ويرتبط الأمر باللهجة الصّينيّة التي يتحدّثونها. فنرى بعضهم يخلط بين مخارج الحروف المتقاربة مثل السين (س) والشين

(ش)، أو الزاي (ز) والجيم (ج)[1]. فيما يخلط البعض الآخر بين اللام (ل) والنون (ن) كما أنّهم لا يميّزون بين الهاء (ه) والحاء (ح). والجدير ذكره أنّ بعض الأصوات غير موجودة في اللغة الصّينيّة، لذلك لا يشعر الصّينيّون بأنّهم يعيشون تجربة حسيّة، ما يشكّل صعوبة في تدريبهم على اللفظ لأنّهم لا يتحكّمون بالعضو المسؤول عن نطق هذه الأصوات. كذلك ثمّة صعوبة في نطق الغين (غ) والراء (ر) خصوصًا أنّ إعادة الصوت (التكرار) غير موجودة في اللغة الصّينيّة. وبالتالي، ليس لدى المتعلّمين أدنى فكرة عن طريقة نطق الأصوات أو قياس لفظها. نتيجةً لذلك، يُعدّ تفخيم الأصوات وتضخيمها أمرًا جديدًا بالنسبة إليهم، فهم لا يميّزون بين الأصوات الصادرة من الحنجرة وتلك التي تخرج من البلعوم. هذا ويجب ألاّ ننسى تأثير لغتهم الأمّ الذي يجعلهم يلفظون الأحرف المتشابهة مع الأحرف الصّينيّة، على الطريقة الصّينيّة.

كذلك، يعاني الجانب الشفويّ مشاكل أخرى تتمثّل في عدم إتقان الإيقاع والتنغيم. في الواقع، يجد المتعلّمون صعوبة في تمييز المقاطع القصيرة والمقاطع الطويلة (الحركات والصوائت)، ويتجاهلون التضعيف (الإدغام بالشدّة)، كما يخلطون بين الحروف الشمسيّة والقمرية (لفظ «أل» التعريف)، ولا يدركون الفرق بين أنواع الهمزة (همزة الوصل وهمزة القطع)، إضافة إلى أنّهم يتكلّمون بسرعة ما يخفّف من التنغيم والإيقاع عند التحدّث.

وبهدف معالجة مشاكل الكتابة واللفظ، يلجأ المدرّسون إلى تنويع تمارين الكتابة وتلك التي تعتمد على تمييز الرسومات. كما يعطون أولويّة للإملاء والإملاء الذاتيّ، ويعرّفون بنظام الأصوات العربيّة، ويدلّون الطلاّب على مخارج الحروف الخاصّة بكلّ صوت ويفسّرون عمليّة تدفّق الهواء ووضعيّة اللسان، إلى جانب أهميّة التنفّس في اللفظ الصحيح. لتحقيق هذه الغاية، يعتمدون الرسوم البيانيّة ويكثرون من أنشطة القراءة الجهريّة للنصوص غير المضبوطة بالحركات. أمّا تقويم الأصوات وتصويبها فيتمّان من خلال تسجيلات فرديّة ينجزها المتعلّمون. هذا ويستمعون في كلّ حصّة إلى مواد سمعيّة أصيلة تدرّب حواسّهم على التقاط الأصوات والإيقاعات والتنغيمات العربيّة وتمييزها.

أمّا النّحو، فيراه الصّينيّون معقّدًا جدًّا.

(١) نادرًا ما يُستخدم حرفا السين (س) والزاي (ز) في اللهجة التي يتحدّثها أهالي مقاطعة لياونينغ في حين أنّ السين (س) والجيم (ج) غير موجودين في لهجة السيشوان (هو يو شيانغ ٢٠١١).

ذلك أنّ اللغة الصّينيّة لا تميّز بين المؤنّث والمذكّر ما خلا العاقل، أمّا غير العاقل فلا مكان للجنس فيه. كذلك، يصعب على المتعلّمين إجراء التّغييرات المتعلّقة بالعدد (المفرد والمثنّى والجمع)، ويتطلّب أسلوب المعرفة والنّكرة وقتًا لاكتسابه، كما تغيب أدوات العطف والوصل عن كتاباتهم. أمّا الجزء الأصعب فيتمثّل في التصريف والاشتقاق ومعرفة التغيّرات الصرفيّة المختلفة جدًّا عن النظام الصّينيّ القائم على روابط دلاليّة ومنطقيّة. وفي محاولة لتسهيل اكتساب النحو، يبدأ المدرّس بتحديد قواعد اللغة في السّياقات التواصليّة، ليبيّن أنّ القواعد أداة أساسيّة في صياغة الكلام وتنظيمه، علمًا أنّ تبسيط القواعد النّحويّة وتوزيعها وفقًا لأهداف كلّ درس من شأنه تمكين الطلاّب من اكتساب المفاهيم بشكل أفضل.

ولا يَخفى أنّ تأثير اللّغة الأمّ في اكتساب اللغة العربيّة يشكّل لا محالة عاملاً تخريبيًّا. فهي لا تؤثّر في نطق الأصوات العربيّة وحسب وإنّما أيضًا في صياغة الكلام وتركيب الجمل. في الواقع، يصعب على الصّينيّين تركيب جمل عربيّة طويلة ومترابطة في ما بينها. قد يعود ذلك ببساطة إلى عدم الإلمام والتمرّس باللغة العربيّة، إلاّ أنّهم وعلى الرغم من إدراكهم أهميّة الربط والتماسك في النصّ، يستمرّون في تركيب جمل قصيرة وأساسيّة. يبدو الأمر وكأنّهم ينسخون مخزونهم المعرفيّ من لغتهم الأمّ إلى اللغة الجديدة، فيقيمون معادلات بين اللغتين ويختارون الأنسب برأيهم.

● التّعلّم عبر التّواصل

يصف عدد من المؤلّفين (أمثال بو تشي هونغ، ٢٠١١) ثقافة التّعلّم الصّينيّة بأنّها تخلو من الحركة، لا بل تقوم على الحفظ وتتمسّك بالتقاليد، ما يحول دون مواكبتها سير التطوّر على الصعيد الدوليّ. ولكنّ تجربتنا في لبنان تبيّن أنّ المتعلّمين الصّينيين لا يرفضون التّغيير قطعيًّا، كما لا يعارضون فكرة التّعلّم المبني على الحركة والاستقلاليّة. وعلى الرغم من بعض نقاط الاختلاف بين عادات التدريس الصّينيّة وطريقة العمل التفاعليّة التي تفرضها المعايير الدوليّة، لا ينفكّ الصّينيّون يبذلون جهدًا كبيرًا في التكيّف بهدف التّعلّم. في لبنان، يقوم تعلّم اللغات الأجنبيّة عامّة على اكتساب المهارات. على سبيل المثال، في مركز اللغات والترجمة (الجامعة اللبنانيّة)، يهدف التّعليم إلى إعداد المتعلّم للانخراط في المجتمع وأداء مهام مختلفة في ظروف معيّنة. والطلاّب الصّينيّون لا يدرسون العربيّة بهدف التواصل في رحلة سياحيّة أو إقامة لغويّة فحسب، إنّما ينظرون إلى اكتسابهم اللغة كوسيلة للتقدّم مهنيًّا والانخراط في مؤسّسات دوليّة. لذلك، نولي

أهميّة كبيرة للكفاية الثقافيّة التي هي أساس كلّ عمل مرتبط بالوساطة أو الترجمة.

الترجمة إلى اللغة الأجنبيّة: الكفاية الثقافيّة والوساطة

ورد بوضوح في الإطار المرجعيّ الأوروبيّ المشترك للّغات (٢٠٠١:١١) أنّه «يمكن لشخص ذي معرفة لغويّة – حتى وإن كانت محدودة – أن يستخدم معرفته لمساعدة آخرين ممّن لا يتمتّعون بأي قدر من المعرفة اللغويّة وذلك بأن يتّخذ موقع الوسيط النشط بين أطراف الحديث من دون وجود لغة مشتركة بينهما». يبدو إذًا أنّ الوساطة لا تتطلّب مستوى عاليًا من الكفاية اللغويّة، غير أنّه وبهدف التواصل لا يكفي اكتساب المعرفة على مستوى النحو والمفردات، بل يجب أن نكون قادرين على نقل هذه «الرؤية» الجديدة التي تتمثّل في اللغة إلى العالم. وعليه يتعيّن على الوسيط أن يختار كلماته لا بل أيضًا «المواقف والحركات والإيماءات، والتنغيم، وسرعة النطق، والإيقاع، والفروق العاطفيّة ونوعيّة الصوت ومستوى التواصل وكلّ ما تتطلّبه الحالة التي وُضع فيها في هذا الوقت المحدّد، علمًا أنّ هذه العوامل كلّها قد تتغيّر باستمرار بسبب أحداث غير متوقّعة» (جاك كورتيس ٢٠١٣:١٥، ترجمتنا). تفترض الوساطة إذًا سياقًا تفاعليًّا متعدّد اللغات ولا يمكنها أن تقتصر على مجرّد تبادل للّغة يسهّله طرف ثالث. فمتحدّث اللغة الذي يرغب في أن يصبح وسيطًا ثقافيًّا، يدرك أوجه الشبه والاختلاف بين الثقافتين المعنيّتين، ويحلّل عمليّة بناء المعرفة في هاتين اللغتين، ويفهم القيم الثّقافيّة في كلا المجتمعَين.

بتعلّمه اللغة، يحتكّ المتعلّم بالثّقافة الأجنبيّة، ولكن لا بدّ من ربط مهاراته التّواصليّة بكفاياته الثقافيّة ليصبح وسيطًا. وهكذا، إذا رغب الطّلاّب اللبنانيّون والصّينيّون، في نهاية مشوارهم التّعلّمي، أن يخوضوا مجال التّرجمة لإغناء الثقافتَين، لا بدّ لهم من أن ينفتح بعضهم على البعض الآخر، ويطوّروا مهاراتهم الثقافيّة والتداوليّة. فأفعال الكلام التي يجيدونها في المستوى المتقدّم إنّما تحمل الثقافة بكلّ تمثّلاتها. ومن الواضح أنّ نظرتهم إلى العالم تتبلور عند الاتصال بالثقافة الجديدة التي تصوغ طرق تفكيرهم. لذلك من المهمّ تعزيز الكفاية البيثقافيّة منذ بداية تعلّم اللغة الأجنبيّة، نظرًا إلى كونها عنصرًا أساسيًّا في التواصل والتفاعل. ولهذه الغاية، يوجّه المدرّس المتعلّمين في تعرّفهم إلى الدلائل اللغويّة والثقافيّة بهدف تحديد القصد التداولي في الرسائل المتبادلة، والتمكّن بالتالي من نقل المعلومات بفاعليّة. غير أنّ فهم المفاد والقصد من الكلام يعدّ من أصعب الأمور التي تواجه الطالب الأجنبيّ،

نظرًا إلى معرفته الحديثة بثقافة البلد المضيف، والمسافة التي تفصل بين هذه الأخيرة وبين ثقافته الأمّ، فضلاً عن الغرض من الوساطة التي يقوم بها.

والوساطة، كما وردت في الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للّغات (٢٠٠١)، تشمل أنشطة الترجمة التحريريّة والترجمة الفوريّة، أي الجانبين الكتابيّ والشفويّ. وهي تهدف إلى إعادة صياغة نصّ مصدر لا يفهمه جمهور غير ناطق باللغة المصدر. فمن خلال تعلّم لغة جديدة، يصبح الوسيط متعدّد اللغات من دون أن يفقد مهاراته في لغته الأمّ، بل يكتسب قيمًا جديدة ويكتشف تنوّع الثقافات واختلافها. وتعزّز الأنشطة الفنيّة والأدبيّة مثال الغناء، والشعر، وكتابة القصص، والرسوم الفكاهيّة، والمسرح وقراءة النصوص الأدبيّة هذه المهارات. غير أنّ تعلّم لغة أجنبيّة لا يحلّ محلّ التخصّص في الترجمة، حتى لو تمّ دمج استراتيجيّات الوساطة في برنامج تعليم اللغة وأصبح المتعلّمون قادرين على نقل المعرفة بين اللغتين. وهذه هي النقطة التي يجب أن يستنير بها المتعلّمون. فنشاط الوساطة الذي يكمّل تعلّم اللغة ويتيح للمتعلّم التعبير عن فهمه لثقافة البلد المضيف، لا يمكنه وحده أن يوفّر الأدوات اللازمة لترجمة نصّ أدبيّ أو متخصّص. من هنا تبرز الحاجة إلى توجيه الطلاّب الراغبين في الترجمة نحو التخصّص في هذا المجال.

في مركز اللغات والتّرجمة، تحتلّ الوساطة الثّقافيّة مكانة مهمّة في صفّ تعليم اللغة العربيّة لغة أجنبيّة. فمنذ مراحل التّعلّم الأولى، يسعى المدرّسون إلى توعية المتعلّمين على أهميّة اختلاف الثقافات. في هذا الإطار، لا يلجأون إلى الترجمة إلاّ بهدف تقويم المكتسبات، كما يعتمدون استراتيجيّات مختلفة لإعداد الطلاّب وتحضيرهم ليصبحوا وسطاء ثقافيين. فيجري العمل من عدّة زوايا على محاور ثقافيّة مختارة لتمكينهم من تكوين آرائهم، وتسمح المقارنة بين مختلف الثقافات بإثراء النقاش وتحفيز التفكير. كذلك، يتمّ التعبير شفويًّا وكتابيًّا في إطار صفّي يحاكي الواقع، فينشأ رابط بين هذه الأنشطة المقترحة في الصفّ والواقع الذي يفرضه المجتمع؛ هذا فضلاً عن حصّة الأنشطة الترفيهيّة أو الإنشائيّة التي تحثّ المتعلّمين على استخدام اللغة الجديدة بشكل ناشط وخلاّق.

الخلاصة

في هذه الدراسة، كان طريق الحرير نقطة انطلاق للعلاقات التي تجمع بين الصّينيّين والعرب، بخاصّة على مستوى الاتّصال اللغوي بين الحضارتَين. وكان الهدف تسليط الضوء على تطوّر هذا الاتصال في عالم جديد ترتسم فيه طرق الحرير الجديدة حيث تمتزج اللغات والثقافات ويتفعّل دور الوسطاء. وما لا شكّ فيه أنّ تعلّم اللغتَين يحتلّ مكانةً خاصّة، لها أهميّة مضاعفة في السياق العربيّ الصّينيّ. لذلك لا يمكن تجاهل التحدّيات التي تواجه متعلّمي اللغات الأجنبيّة الراغبين في أن يصبحوا وسطاء ويساعدوا في انفتاح المجتمعَين، أو حتّى التقليل من شأنها. وعسى أن يكون هذا العمل خطوة في الألف ميل من مشوار دراسات مستقبليّة أكثر عمقًا وتعمّقًا تحلّل بشكل أفضل عمليّات التبادل اللغويّ والثقافيّ في السياق العربيّ الصّينيّ.

المراجع

- Boulnois L. (2010): La route de la soie. Dieux, guerriers et marchands. Genève, Olizane.
- Conseil de l'Europe (2001): Cadre européen commun de référence pour les langues. Paris, Didier.
- Cortazzi M., Jin L. (1997): Expectations and Questions In Intercultural Classrooms. *Intercultural Communication Studies*, vol.7, no.2, p. 37 - 58.
- Cortès J. (2013): Culture, comparatisme et enseignement-apprentissage des langues-cultures étrangères. *Gerflint, Synergies Chine*, no.8, p. 15-23.
- Cortier C. (2005): Cultures d'enseignement/ cultures d'apprentissage: contact, confrontation et co-construction entre langues-cultures. *Ela. ètudes de linguistique appliquée, vol.* 4, n° 140, p. 475-489.
- Kong Dejun, Ma Liangyue (2013): The history of the Arabic language in the People's Republic of China. *Interdisciplinary Journal of Contemporary Research in Business*, vol.5, no.7, p. 219-225.
- Lawton J. et al. (1997): ètude intégrale des routes de la soie, routes de dialogue. Un projet interculturel de l'Unesco, Paris, UNESCO.
- Ma Zhen (1994): Petite grammaire pratique du chinois. trad. B. Niederer, Paris, Editions Peeters, Selaf, no. 348.
- Mariani L. (2007): Learning styles across cultures. *Perspectives: A Journal of TESOL*, Italy vol.34, no.2, www.learningpaths.org
- Nazet M. (2014): La nouvelle route de la soie ou la résurrection d'un mythe. *La revue géopolitique*, www.diploweb.com
- Piorunski R., Gater B. (1998): Le détour d'un grec par la Chine. Entretien avec Fran5ois Jullien, www.berlol.net

- Pu Zhihong (2011): La perspective actionnelle par tâches et la culture d'apprentissage chinoise. *Gerflint, Synergies Chine*, no.6, p.37-45.
- Wei Zhou (2011): L'enseignement des langues étrangères en Chine ancienne. *Gerflint, Synergies Chine*, no.6, p. 189-194.
- Xuying Yue, Zhang Zongtang et al. (2010): A Blueprint for Educational Modernization. Xinhua News Agency, Pékin, www.moe.edu.cn
- Yunhuo Cui, Yan Zhu (2014): Les réformes curriculaires en Chine, hier et aujourd'hui. *Revue internationale d'éducation de Sèvres*, Actes du colloque L'éducation en Asie en 2014: Quels enjeux mondiaux?, www.ries.revues.org

- أعرج (ال) واسيني (٢٠١٥): التوجه نحو الشّرق الثقافي ترجمة الأدب الصّيني. القدس العربي، www.alquds.co.uk
- بن جدو غسان (٢٠٠٦): العرب بعيون صينية. حلقة تلفزيونية مسجّلة من برنامج «حوار مفتوح»، www.aljazeera.net
- تشونغ جي كون (٢٠١٣): عاشق صيني للغة الضاد تعلمت العربية مع هتاف... عاشت مصر ويسقط الاستعمار. حوار أجراه عادل صبري، موقع الصّين اليوم، www.chinatoday.com.cn
- شوي تشينغ قوه (٢٠٠٦): اللغة العربية في الصّين الحديثة. مجلة حوار العرب، العدد ١٦.
- فرانس ٢٤ (٢٠١٣): تعليم اللغة العربية في الصّين. تقرير مصوّر، قناة يوتيوب.
- هو يو شيانغ (٢٠١١): مشكلات تعليم الأصوات العربية للطلبة الصّينيين ومعالجتها: المرحلة الجامعية المبدئية نموذجًا. أعمال المؤتمر الدولي لتعليم اللغة العربية – آفاق وتحديات ماليزيا والصّين، بكين، www.ukm.my

المنهج التاريخي: شأنه وتطوره

عبلا أبو رجيلي

مقدّمة:

من المعروف أنّ هناك مناهج عديدة ومتنوّعة، منها: النفسي، الأسلوبي، التكاملي وغيرها... ولكن في بحثنا الصغير هذا، سوف نتناول المنهج التاريخي فقط، متكلّمين عن شأنه وتطوّره، ذاكرين بعض أتباعه عبر الزمن.

إن لفرنسا الفضل الأكبر على جميع الحركات الأدبية. ولولاها لم يكن لآداب الأمم هذا الذيوع العظيم في مشارق الأرض ومغاربها.

وممّا لا نزاع فيه أن الوضوح من المزايا الثمينة التي اتّصف بها الفكر الفرنسي.

ولكن كيف تمّ الاتّصال بين العرب والفرنجة؟

أنكر الدكتور «برنارد لويس»، في كُتيِّب صدر أخيرًا عن «تاريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية»، على جمهرة العلماء اعتقادهم مدة طويلة من الزمن، أن أوّل اتصال هام بين الثقافة العربيّة وثقافة الفرنجة كان نتيجة الحروب الصليبيّة، إذ قال:

«وفي الحقيقة إن الحروب الصليبيّة كانت الفرصة الأولى التي سمحت بالاتصال الوثيق بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي. ولا شك في أنه حصل إثر ذاك تبادل ثقافي بين الفريقين. غير أن البحوث التاريخية أثبتت أن هذا التبادل الثقافي كان محدود المدى والأثر، وأن وصول حركة الفكر والعلوم العربية إلى الغرب كان عن طريق آخر»[1].

والواقع أن الحركة الصليبية نشأت في فرنسا ونمت ثمّ تدفّقت وطغت على حدودها. إلاّ أن نفوذ فرنسا الأدبي عاش على مرّ الزمن ولم تغب له شعلة في أيّ عصر.

ولكن، وإن يكن الفرنسيون قد حقّقوا

(١) **أبو شبكة، الياس**: روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، منشورات، ص٢١.

هنا أعمالاً مجيدة، فقد استفادت فرنسا هي كذلك من الاتصال الوثيق بينها وبين الشرقيين. ذلك أن التبادل الفكري رافق التبادل التجاري بين الفريقين، وإذا بالشرق ينفذ إلى فرنسا بمعارف أطبائه وشارعيه وفلاسفته ورياضييه وسائر فنونه.

ومعلوم أن المدنية التي أنشأها العرب في اسبانيا وانتشرت في سائر بقاع أوروبا، ما لبثت أن «زالت بزوال العرب. أمّا المدنية التي نشأت من التقاليد الصليبية في الشرق فقد نمت، وامتدت عروقها وطوت القرون إلى ايامنا هذه».

وفي أواخر القرن الثاني عشر، استولى الملك الفرنسي «في ده لوزيبيان» «Guy de Lusignan» على جزيرة قبرص، وسرعان ما أصبحت قبرص الصلة الوحيدة بين الشرق والغرب.

«وكما استولى الفرنسيون على قبرص استولوا على جزيرة رودس مدّة قرنين، وحكموا جزيرة مالطة إلى العام ١٧٩٨. وهكذا بقيت فرنسا طوال قرون عديدة حامية الحضارة الغربية في الشرق. وقد قال أحد المؤرّخين: «إن فرنسا هي الفرن الذي يخبز فيه خبز الإنسانية الثقافي»[١].

وما إن انتصف القرن السابع عشر حتى بدأت الأهداف السياسية تشرف على إدارة الدروس الشرقية في «كوليج ده فرانس». وكان مندوبو الملك آنذاك، يعدّون العدّة لهذه الدروس. وكان «أنطوان غالان» الذي نقل ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية من مندوبي الملك في الشرق[٢].

وكما أن العرب خلقوا بـ «ألف ليلة وليلة» فن القصة وأخذه عنهم الأوروبيون. هكذا خلقوا بـ «أهل الكهف» فن الأسطورة وأخذه عنهم الأوروبيون أيضًا.

لكنْ ثمّة حقيقة لا بدّ! من تسجيلها، وهي أن الأوروبيين كانوا أحذق منّا في ترتيب هذه الأساطير والقصص. وقد هيّأ مندوبو المكتبة الملكية عهد الاستشراق الفرنسي في زمن حملة مصر وفي مفتتح القرن التاسع عشر، تحت إشراف العالم الكبير «سيلفستره ساسي (١٧٥٨ – ١٨٣٨). فقد بقي هذا العالم ثلاثين سنة يحث على تنشيط الدروس العربية في أوروبا حتى يستطاع القول بكل تأكيد إن أساتذة الاستشراق الأوّل كانوا من تلامذة ده ساسي»[٣].

«ففي حين كانت الكتب العربية المطبوعة نادرة كان ده سياسي منصرفًا إلى جمع

(١) أبو شبكة، الياس: روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، ص٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٤٢.

مختارات من الأدب العربي شعرًا ونثرًا. وفي ترجمة هذه المختارات وشرحها دليل ناصع على علو كعب هذا المستشرق الذي أصدر طبعة ممتازة لمقامات الحريري مع تفسير ضاف لها. وكان ده ساسي قد نوّه في مختاراته بأهمية ابن خلدون وسواه من المؤرّخين العرب، فحذا العلماء الأوروبيون حذوه بأن أكبّوا على دراسة هؤلاء المؤرّخين قبل أن يقبل عليها الشرقيون أنفسهم[١].

ولا نزاع اتصال الفرنسيين اتصالاً مباشرًا بالبلاد العربية، بدأ منذ احتلال جيش نابوليون لِمصر، بعد أن مرّ على انقطاع الفرنج عن العرب قرون عديدة.

حمل نابوليون معه ثلاثة عصور فسح فيها المجال النمو في الفن والعِلم والفلسفة. ذلك الفن الذي هو وسيلة بشرية من وسائل الإفصاح «عن حالة الوعي وهي موقف معرفي هام، ينطلق من التجربة الإنسانية، ويهدف إلى مصير إنساني، وهو بمثابة شاقول عن التركيز، سامي الدفع، بعيد المرمى، ينتشل الحياة ممّا تتردّى فيه، إلى مناخ أكثر ملاءمة، ذلك هو مجال الحريّة، والغبطة، والاقتراب من الكامل»[٢].

وما كان عصر نابوليون أقل انطلاقًا في ميدان العبقرية الفكرية من عصر من تقدّمه من الفاتحين: فقد اجتاز أوروبا إلى الشرق مع مونتين وديكارت، مع كورناي، راسين وموليير، مع فولتير وروسو، الذين دعوا إلى سيطرة العقل. «وقد بدأ سلطان العقل يقوى منذ إخراج مونتيني (١٥٣٣ – ١٥٩٢)[٣]».

وفيها دعوة صريحة لحل المشاكل الإنسانية كلها بالعقل. ومنذ مطلع القرن السابع عشر أخذ «ديميه» يدعو إلى سيادة العقل في الإبداع الأدبي. ومع ديكارت أصبح العقل هو المبدأ الأول في الفنون الأدبية، ولرقابته تخضع المبادئ الأخرى، فباسم العقل كان نقدة الأدب يفاضلون بين ثمرات القرائح، وتحت لوائه كان يسير جميع الذين ينافحون عن الأدبي الجديد، فهو الذي يوجّه المبادئ الأخرى ويفلسفها.

فالأدب الفرنسي في القرن السابع عشر، هو متعة عقلية قبل كل شيء وسلطان العقل ظاهر في ذلك المبدأ الاجتماعي الذي دعا إليه روّاد الصالات الأدبية، ثم نشر نفوذه في فرنسا كلها، وهو مبدأ الذوق السليم، وإن شئت فهو مبدأ

(١) المرجع نفسه، ص٤٣.
(٢) د. شلق، علي: الفن والجمال، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص١٦.
(٣) حاوي، إيليا: الكلاسيكية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٤.

الاعتدال والحكمة العملية. فأنت تحسه في أمثال لافونتين وملاهي موليير، وفي مسرح كل من كورني وراسين، حيث يفسح المجال لزمام العواطف أن تتكلم، لكنها تبقى دائمًا في قبضة العقل»[١].

وبالإضافة إلى تقليد القدماء والطبيعة وسيطرة العقل، تأتي الموضوعية والتجدّد.

ونتيجة الاحتكاك الجديد بين الشرق والغرب، نشأ في نفوس أدباء فرنسا وشعرائها، شوق مُلحّ إلى زيارة الشرق، الذي على أثره نشطت حركة الرسالات التي كان لها الفضل الأكبر في تحويل الشرقيين إلى منابع الثقافة الفرنسية.

ولا نزاع في أن مبادئ الثورة الفرنسية التي حملها بونابرت إلى مصر، كانت أبلغ ما تأثّر به الشرقيّون العرب عند أوّل إحتكاك لهم بالحضارة الغربية، واتساع آفاقهم العلمية والأدبية. مبادئ هذه الثورة التي تميّزت ممّا تقدّمها من المبادئ، بأنها لم تميّز بين الخلق إلاّ بمقدار ما يتميزون بفضائلهم ومواهبهم. لقد قامت الثورة الفرنسية على الفلسفة الصحيحة وهي اكتشاف شريعة الله في المجتمع وتطبيق قوانين الشارع عليها ثمّ توجيه الأعقاب البشرية من مجتمع إلى آخر فلم تثر على الطبيعة فتسحق هذه الأعقاب تحت أنقاض قوانين ناقصة. فمن روح الله، من الشعب والعدل والإنسانية استمدت الثورة الفرنسية عناصر دستورها فكان دستور الحرية والمحبة والعقل».

وما يجعل تلك الثورة عظيمة حتى في عواطفها وأهوائها، أنها كانت فكرة وكانت تعاليمها من النقاوة بحيث لو أزلنا عنها خيال اليد الدامية التي وقّعتها، لخيّل إليها أنها صادرة عن عبقرية سقراط أو رأفة أفلاطون، اللذين تتصل بهما «جذور المدارس الأدبية اتصالها بالجمال والفن»[٢].

«فسقراط كان المُبشّر بمجيء الإله القيم على الجمال، وهذا الجمال كان أفلاطون يطلبه لذاته ويرى فيه مبدأ ارتقائيًا بالنسبة للأنا والعالم، وذلك لأنه متجسّد في «الانسجام والقياس» في حين كان أرسطو يراه رمزًا ملتصقًا بالفكر البشري، يستمد موضوعاته من نفوسنا وهو تجسّد عنده في «النسق والمقدار»، وهذا ما يجعل التقارب واضحًا بين فهمَي أفلاطون وأرسطو لعلم الجمال[٣].

---

(١) **تيغيم، فيليب جان**: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٣، ص١١٧.

(٢) **عاصي، ميشال**: الفن والأدب، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠، ص١٨٥.

(٣) **عباس، إحسان**: فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩، ص١٤١.

أمّا الفن فهو عند أفلاطون اكتشاف ناجم عن تذكر الخبرات الماضية المكتسبة بفعل مشاركتنا للممثل، وهو عند أرسطو نتاج مبدع لصورة جديدة لم تكن أجزاؤها معروفة قبل خلقها وإبداعها. فأرسطو كان أفلاطونيًا أكثر من أفلاطون نفسه»[١].

ومن الإنصاف أن نعترف بأن الفرنسيين أبناء الثورة الكبرى، مشوا على سنن آبائهم، فلم يخلقوا عبيدًا في أي بلد من البلدان.

معلوم أن الجيل الفرنسي في أواخر الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر، طالب بسلوك سياسي أوسع فناء على منوال السياسة الإنكليزية وبمقتضى تقاليد الثورة الكبرى والإمبراطورية وبديهي أن تجد هذه السياسة مسرح توسعها في الشرق، ولا سيما في مصر إذ كان محمد علي، وارث خطط بونابرت ومجده، لا ينشد إلاّ التعاون الفرنسي.

ومعلوم أن مصر، كانت تفتقر آنذاك إلى أمثال الأدباء والشعراء الذين كانوا يبنون النهضة الأدبية في لبنان، على رأسهم «أحمد فارس الشدياق» و«ناصيف اليازجي» و«بطرس البستاني» و«يوسف الأسير» و«مارون النقاش».

وفي تلك الحقبة، كانت حركة الرومانتزم قد توطدت في فرنسا، غير أن أدباء الشرق لم يتأثروا بهذه الحركة تأثرًا محسوسًا إلاّ حين انتشرت الحركة الصحافية في أقطار الشرق[٢].

استهدفت هذه الحركة في مستهلها هدم المذهب الكلاسيكي «فأسرفت في تحقير من يمثّله من رجال الأدب والعلم، وفي طليعة هؤلاء الممثلين أعضاء الأكاديمية الفرنسية ورجال «الكوميدي فرانسين» التي كانت متمسكة بمسرحيات كورناي وراسين وموليير.

وكانت سنت بوف وغروستاف بلانش من أشدّ النقاد المتحمسين للرومانتزم فكانا يقولان بضرورة إحلال مسرحيات فيكتور هيغو وألفرد ده فينيي واسكندر ديماس محل مسرحيات كورناي وراسين وموليير، ويحملان على الاكاديمية لإقفال بابها في وجه ممثّل الفن الجديد كبير انحه ونوديه وهيغو»[٣].

ولكن ما كاد هؤلاء النقاد يحرزون الفوز حتى ألقوا سلاحهم وأعلنوا عدولهم عن النقد التقريظي إلى النقد المستقيم.

والواقع أن الناقدين «سنت بوف»

(١) تيغيم، فيليب جان: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ص٩.
(٢) أبو شبكة، الياس: روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، ص٧٩-٨٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٨١-٨٢.

و«غوستاف بلانش» أنزلا «فيكتور هيغو» عن عرشه، وجعلاه من أبناء الأرض فيما بعد.

«وكان الشرقيون الذين عاشوا عهودًا كثيرة من الاضطرابات على مثال الفرنسيين، فما انتهى إليهم التمدّن الحديث وحصل ذلك إلاّ بالاحتكاك المباشر بينهم وبين الحركة الأدبية في الغرب حتى كانت الرومنطيقية أوّل جرعة شربوها فاصطبغ بها أدبهم ولا تزال متغلّبة عليه حتى يومنا هذا»[١].

أمّا مبادئ الرومنطيقية فهي: «الفرد وعلاقته بالمجتمع والدين: تغيّرت بواعث الأدب الكلاسيكيّ، فبعد أن كانت تحاكي القدماء، وتعتمد الموضوعية والعقل، أصبحت في أدب الرومنسيين تعبّر عن الانفعال العاطفي، وتدعو إلى أدب حرّ من القيود، بعد ثورات حرّرت الفرد واعترفت له بحريته. كما عبّرت عن الذات التي جنحت إلى التبرّم والشكوى من الواقع.

«وحلّقت في عالم خيالي خلقه الرومنسي لنفسه ليشفى فيه وينعم في ذلك الشقاء»[٢].

ثار الرومنسي على النظام الاجتماعي لأنه خاطئ وظالم في آن.

«ونتيجة لعلاقة الرومنسيين بمجتمعهم نشأت علاقتهم بالدين، فآمنوا بوجود إله، لكنهم تمرّدوا على سلطانه، الأمر الذي جعلهم يشعرون أنهم بحاجة إلى عقيدة دينية فبنوها على أساس عاطفي»[٣].

«الإحساس بالغربة والألم والتعاطف مع البؤساء: أحس الرومنسي بالقلق وشعر بالحزن، ممّا حدا به إلى الهروب إلى الطبيعة أو إلى إله عاطفي أو إلى داخل نفسه»[٤].

فعاش في غربة نفسية داخل عالمه الخاص. ونتيجة لإحساس الرومنسي بالغربة والألم، أحسّ بالمعاناة وتعاطف مع المقهورين.

«عالم الخيال والأحلام: ونتيجة لألم الرومنسي وشعوره بالحزن والغربة والانطواء على الذات، انطلق في عالم الخيال الذي يمثّل له عالمًا مثاليًا خاصًا غير محدّد بزمان أو مكان»[٥].

«الطبيعة: ضاق الرومنسيون ذرعًا

(١) المرجع نفسه، ص ٨٧.
(٢) حاوي، إيليا: الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص٦٦.
(٣) عباس، إحسان: فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥، ص٦٠.
(٤) تيغيم، فيليب جان: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ص١١٧.
(٥) هاوزر، أرنولد: الفن والمجتمع عبر التاريخ، ج ١، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، لا تاريخ، ص٢٠٣.

بالحزن والألم، فتركوا المُدن، والتمسوا العراء والسلوى في الطبيعة التي تمثّل في نظرهم العالم الذي لم تفسده المدينة والقوانين»[١].

«الحب: اتفق الرومنسيون جميعًا على تقديس عاطفة الحب التي اعتبروها وسيلة للتسامي، وفضيلة من أسمى الفضائل. والحب الرومنسي يغلب عليه الحزن والشكوى[٢].

أمّا بالنسبة إلى النقل، فإنّ الأدباء المقلدون كانوا يبصقون آخر أسنانهم حين احتلّ مكانهم أدباء أقوى شخصية وأسلم بيانًا وأمتن لغة وأرقى ثقافة، ولكنهم ناقلون أو مقتبسون.

وكان من عادات ذلك العصر أن الناقل لا يذكر اسم المنقول عنه. ويكفيه أن يبدّل الاسم ليملك الجسم. وقد يكون أوّل من اتّبع هذه القاعدة الأديب مارون نقاش مؤسس فن التمثيل في اللغة العربية. فقد نقل مسرحية «البخيل» لِموليير – وهي أول مسرحية كُتبت باللسان العربي – ولم يذكر أنها لِمؤلف «ترتوف و«الميزانتروب».

ولا شك في أن مارون النقاش، رحمه الله، أراد أن ينتقم للشاعر الروماني بلوت الذي أخذ عنه موليير مسرحية «البخيل» – وهي تقليد موفق لمسرحية «الاولولير» للشاعر الروماني الهزلي – فلم يذكر اسمه ولا آية له»[٣].

وقد كتب المرحوم جرجي زيدان في «مشاهير الشرق». أن «مارون النقاش ضم إليه جماعة من أصدقائه الشبان النجباء الأدباء وأخذ يعلّمهم التمثيل وألّف لهم رواية «البخيل» فعلّمهم أدوارها حتى أتقنوها ومثّلوها في بيته بِبيروت سنة ١٨٤٨ في ليلة حضرها قناصل المدينة وأعيانها فأعجبوا بما شاهدوه من دقة التمثيل وإتقان التأليف مع حداثة هذا الفن، فشاع خبر ذلك حتى تناقلته الصحف الإفرنجية»[٤].

والواقع أن النقل والتأليف كانا واحدًا في ذلك العهد، فكما كان راسين منصرفًا إلى نهب هوميروس... وكورناي جادًا في اقتباسه «السيد» من اللغة الاسبانية، وموليير يجاهر بقوله أنه يأخذ ملكه حيثما يجده، هكذا رجال النهضة الأدبية في القطر العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد كانوا منصرفين إلى النقل والاقتباس.

(١) حاوي، إيليا: الرومنسية في الشعر الغربي والعربي، ص١٢٢.
(٢) تيغيم، فيليب جان: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ص١٥١.
(٣) أبو شبكة، الياس: روابط الفكر والروح بين العرب والغرب، ص٩.
(٤) أبو شبكة، الياس: روابط الفكر والروح بين العرب والغرب، ص٩٤.

وكما أن أحدًا لم يلقب راسين وموليير وكورناي بحفّاري القبور، فلم يحضر لأحد أن يأخذ على نجيب الحداد مثلاً نقله مسرحية «غرام وانتقام» عن «السيد» لِكورناي... فـ «راسين وموليير وكورناي ولافونتين من جهة، وأبطال الرومانتزم كهيغو ولامرتين واسكندر ديماس من جهة أخرى، كانوا سهولاً واسعة الأرجاء يحق لأي أديب أن يطأها ويصطاد فيها»[١].

ولكن إذا حق لنا أن نقول أن كورناي وراسين وموليير ولافونتين ابتدعوا في ما أتبعوا، وخلقوا في ما سرقوا، وأنه لولا منقولهم لبقي الأصل مجهولاً، فلا يحق لنا أن نطبّق هذه القاعدة على أدبائنا الذين نقلوا المنقول إلى اللسان العربي على أننا لا نستطيع أن ننكر ما كان لنشاطهم الأدبي من الفضل على النهضة في ذلك العصر. فإقدام نجيب الحداد على ترجمة «روائع الغرب بأرقى أسلوب كتابي عرف يومئذ، وقيام أديب اسحق الذي ابتدع طريقة في الإنشاء بليغة احسن فيها التطبيق بين الأسلوبين الفرنجي والعربي بمشاركة سليم النقاش في نقل المسرحيات الفرنجية الراقية وتمثيلها ونشرها، أحدثا حركة أدبية لم يسبق مثلها في العالم العربي وكانت فاتحة عهد خصب بالنقل والاقتباس نشأ عنه عهد خصب بالتفكير والتأليف»[٢].

ولا نزاع في أنه من الضرورة الاطلاع على أدب الأجانب للاستفادة من كنوزه. ولكن الاستفادة من هذه الكنوز لا تفضي إلى التخلّي التدريجي عن السجايا الوطنية «فاقتداء الأدباء العرب في تلك الحقبة من الزمن بأدباء فرنسا، لم يفقدهم طابعهم العربي. وما كان تأثر شوقي بِفيكتور هيغو مثلاً لينسيه ديباجه المثنيء»[٣].

والمعلوم أن معظم كتّاب العربية ينزعون في «نهضتهم الحديثة إلى قراءة التليد من أدمغة الغربيين واقتباس ما يرونه حسنًا وملائمًا البيئة التي يعيشون فيها، في حين أن أدباء الغرب يحيطون علمًا بالكثير مما ولدته عقول الأقدمين من اليونان إلى العبرانيين إلى اللاتين إلى الفرس إلى العرب، ونرى في ثقافتهم آثارًا من تلك الثقافات مطبوعة بطابع نفوسهم الخاص»[٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٢.

(٤) أبو شبكة، الياس: روابط الفكر والروح بين العرب والغرب، ص١٠٤.

أدب الأطفال
(قصص مجلّة فتى الأمن[1] نموذجًا)

إعداد الباحثة: رئيفه محمّد الرّزّوق

مقدّمة

للقصّة تأثير على الأطفال لا تمتلكه الأجناس الأدبيّة الأخرى. هي تعمل على تغذية الطّفل القارئ فكريًّا وقيميًّا ولغويًّا وتسهم في تكوين شخصيّته ليكون أكثر قدرة على صناعة الغد، بخلاف الطّفل غير القارئ.

وتعدّ القصص المنشورة في مجلّات الأطفال عاملاً مهمًّا في عمليّة التّنشئة الاجتماعيّة، ويعود مصدر هذه الأهمّيّة إلى أنّ القصّة تلبّي حاجة الأطفال ورغبتهم في معرفة ما يحيط حولهم، واكتشاف العالم، وتعكس أسلوب الجماعة السّائد في المجتمع، ليصبح الطّفل مهيّأً للدّخول إلى عالم الكبار.

ولمجلّة «فتى الأمن» ميزة خاصّة، فهي ملحق لبناني شهري يوزّع مع مجلة الأمن الشّهريّة الصادرة عن قوى الأمن الداخلي في لبنان. تُعنى المجلة بالتّربية الوطنيّة للجيل الجديد وتعتمد على الصّور أكثر منها على الرسوم، وتهتمّ بالمعلوماتيّة والتّسالي، وهناك مسابقات مدفوعة الجوائز وتنشر حلول العدد الأسبق، وسنقوم في هذا المقال بدراسة القصص المنشورة في العدد الصّادر في شهر تشرين الأوّل من عام ٢٠١٩.

والسّؤال المطروح هنا، هل تؤدّي القصص المنشورة في مجلّة «فتيالأمن» دورها في التّنشئة الاجتماعيّة والوطنيّة والثّقافيّة للطّفل؟

ولا بدّ من التّطرّق إلى بعض التّعريفات المساعدة على فهم مفاتيح هذا البحث، قبل الولوج إلى مضامين القصص في مجلّة فتى الأمن:

(١) العدد ٣١٠ - تشرين الأوّل ٢٠١٩.

١ - أدب الأطفال:

إنّ مصطلح أدب الأطفال، «يشير إلى الموادّ التي تُكتب لكي يقرأها الأطفال والشّباب، وينشرها ناشرو كتب الأطفال، وتعرض وتخزّن في الأقسام الخاصّة بكتب الأطفال و/أو اليافعين بالمكتبات العامّة ومتاجر بيع الكتب»[١]. ولأدب الأطفال أثر بالغ على الفئات العمريّة الصّغيرة واليافعة، فهو «يؤثّر بطريقة مباشرة وغير مباشرة في عقل الطّفل ووجدانه، ومثل هذا التّأثير الذي يستجيب له الطّفل بسهولة يحقّق أهدافه المبتغاة منه، ولا سيّما أنّ عقل الطّفل في هذه المرحلة خامة ليّنة يمكن تشكيلها بالصّورة التي نريد، ولأنّ نفسيّة الطّفل – أيضًا – كالصّفحة البيضاء يمكن أن نخطّ عليها ما نشاء»[٢]. من هنا، يمكن القول إنّ أدب الأطفال أداة تثقيفيّة وعمل إبداعيّ يتطلّب تقنيّة خاصّة، والخوض في غماره ليس بسهل إذ يحتاج تفهّمًا كاملاً لنفسيّة الطّفل وعقليّته، وتوافقًا مع حاجات النّموّ السّليم.

٢ - المجلّة:

«المجلّة هي وسط بين الكتّاب والصّحيفة تسجّل كلّ إبداع وابتكار، وهي وسيلة جادّة للثّقافة ونشر الوعي والمعرفة»[٣]. تتميّز مجلّة الطّفل بأنّها تتناول موضوعات متعدّدة متنوّعة بهدف توسيع مدارك الأطفال وتنمية معارفهم والارتفاع بمستوى تذوّقهم للفنون، فهي «من المؤثّرات الثّقافيّة الكبرى لأنّها تسهم في توجيههم وإعلامهم وتعليمهم، وتعمل على إشباع خيالهم وتنمية ميولهم نحو القراءة وإثراء لغتهم»[٤].

٣ - أهمّيّة القصّة عند الطّفل:

القصّة حكاية قصيرة، وهي لون من ألوان أدب الأطفال، لها هدف معرفيّ أو قيميّ... تتلخّص عناصرها في وجود بيئة زمانيّة ومكانيّة وموضوع وشخصيّات وحبكة وأسلوب، ويبدأ استمتاع الطّفل بالقصّة «منذ أن يتمكّن من فهم ما يحيط به من حوادث وما يذكر أمامه من أخبار، وذلك في أواخر السّنة الثّالثة من عمره، فهو على صغر سنّه ينصت للقصّة التي تناسبه ويشغف بها ويطلب المزيد منها»[٥].

لا ريب في أنّ القصّة أسلوب فعّال في

(١) كيمبرلي رينولدز: **أدب الأطفال**. ترجمة ياسر حسن، مصر، هنداوي للنّشر، ط١، ٢٠١٤م، ص١١.
(٢) محمّد حسن بريفش: **أدب الأطفال أهدافه وسماته**. بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٤٣.
(٣) بهاء الدّين الزّهوري: **ثقافة الطّفل في الوطن العربيّ**. بيروت، مجلّة الباحث، العدد ٦٢، ١٩٩٤م، ص١٠٤.
(٤) عبد الرّزّاق جعفر: **صحافة الأطفال، أنواعها، طبيعتها، توجيهها**. منشورات طلائع البعث، لا ط، ١٩٨٠م، ص٦٠- ٦١.
(٥) عبد الرّزّاق جعفر: **أدب الأطفال**. دمشق، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ١٩٧٩م، ص٤٣.

تثقيف الطّفل وتنشئته، فـ «عندما يصبح الطّفل قادرًا على القراءة يتعرّض للكثير من القصص التي تزوّده بالأفكار، وتساعده على زيادة حصيلته اللّغويّة، وتنمّي خياله، وقدرته على الابتكار»[١]. كما تأتي أهمّيّة قصص الأطفال في أنّها «تعطيهم شعورًا واضحًا بالعلاقة بين هذه الخبرات وخبرات الإنسانيّة كلّها»[٢].

● تحليل مضمون القصص في مجلّة فتى الأمن

من الملاحَظ أنّ مجلّة فتى الأمن الموجّهة للأطفال واليافعين لنشر الحسّ الوطنيّ، وتوعية الطّفل اللّبنانيّ، متعدّدة الأبواب ومنوّعة الإفادة، وقد حوت في عددها ٣١٠ الصّادر في تشرين الأوّل ٢٠١٩ على ٥١ صفحة، تضمّنت قصّتين هما: «إرث الأخوة» للكاتبة ديانا جورج حنون و«سرّ السّعادة» للدّكتور بيار شلالا.

أ - البيئة المكانيّة والزّمانيّة:

● المكان:

يعدّ المكان عنصرًا حكائيًّا، له دلالته الواقعيّة والرّمزيّة التي ينهض بها داخل السّرد، وهو يساهم في معرفة أحداث القصّة ووقائعها ودلالاتها، ويلاحظ أنّ عيِّنة القصص المنشورة في مجلّة «فتى الأمن» قد جرت حوادثها تارةً في الرّيف، وتارةً في المدينة، وعكست الحياة الاقتصاديّة والطّبيعيّة التي تحيط بالطّفل اللّبنانيّ، إذ إنّ معظم الأطفال في لبنان يعيش في أحياء متوسّطة أو فقيرة. من هنا فإنّ مكان حدوث الوقائع في قصّة إرث الأخوة كان في دارة تاجر وزّع ما يملكه من مال على ابنيه بالتّساوي تاركًا الدّار والأرض المحيطة به للابن الثّالث، وقد ارتكزت الأحداث على هذه الدّارة والأرض، بحيث عادتا بالكثير من الأرباح على الابن جراء المحافظة عليهما، وكانتا نقطة عودة لالتقاء جميع الأبناء وتوحّدهم مع بعض من جديد، وقد عكست أجواء الفلاحة والعناية بالأرض الطّابع الرّيفيّ، واللافت أنّ الأخوين ياسر وسعيد لم يُوَفّقا بعيدًا عن أرضهما ودارهما، ممّا دفعهما للعودة إليهما، وكأنّ التّوفيق يكمن سرّه في الالتحام بالأرض وعدم مفارقتها، فالوطن مركز سعادة جميع أبنائه.

أمّا في قصّة سرّ السّعادة فقد جرت أحداثها في طابعٍ مدنيّ، غلبت عليه أمكنة العمل وعالم الشّركات، فمن شركة التّأمين إلى شركة كمبيوتر فالمصرف... في البداية

---

(١) أمل حمدي دكّاك: **القصّة في مجلّات الأطفال ودورها في تنشئة الأطفال اجتماعيًّا**. دمشق، وزارة الثّقافة- الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، ٢٠١٢م، ص٣٩.

(٢) علي الحديدي: **الأدب وبناء الإنسان**. طرابلس الغرب- ليبيا، منشورات الجامعة اللّيبيّة، لا ط، ١٩٧٣م، ص١٣٣.

كانت الانطلاقة من منزل الأسرة المتواضع الضّاجّ بطموحات الابن السّاخط على وضعه المعيشيّ، ثمّ انتقل إلى البحر ليشكو له همّه – لجوء الشّخصيّة في القصّة إلى مظاهر الطّبيعة يساعدها على إيجاد مأمن وملجأ يقلّل من حزنها، للوصول إلى السّكينة والطّمأنينة – وبالفعل كان البحر عاملاً مهمًّا في هذه القصّة، إذ نقل الشّخصيّة الرّئيسة (سامر) من المكان الضّيّق الذي افتتحت فيه الأحداث إلى أمكنة عديدة جال فيها في خياله بمساعدة الحوريّة (شركة كمبيوتر، مصرف، قصر) ليجول أخيرًا في مكان مفتوح (الشّارع) عبر سيّارته الفخمة، ليصل أخيرًا إلى أنّ سرّ السّعادة يكمن في المكان الأوّل الذي انطلق منه، فحضن الأسرة المحترمة الدّافئ خير من القصور والشّركات.

إنّ هذه النّتائج تدلّ على الاهتمام بتنشئة الطّفل في لبنان في الرّيف والمدينة على السّواء، والاهتمام بأطفال الطّبقات المتوسّطة والفقيرة، والعمل على تعليمهم وتنشئتهم وتزويدهم بالزّاد الثّقافيّ المناسب لبيئتهم المحلّيّة.

● **الزّمان:**

الملاحظ أنّ زمن حدوث القصّتين اختلف من قصّة إلى أخرى، فالقصّة الأولى «إرث الأخوة» حدثت في الزّمن الغابر، حيث افتتحتها الكاتبة قائلة: «في قديم الزّمان»، ولعلّ لجوءها إلى هذه الفترة الزّمنيّة فرصة لتجسيد قيمها ومقوّماتها في قصص الأطفال في فترة نحتاج فيها لإطلاع الطّفل على تجارب السّالفين، وإلى قاعدة متينة تتفاعل فيها القيم والمعايير الأصيلة مع الجديدة في عالم متطوّر. لم تدر أحداث القصّة في فترة زمنيّة محدودة، إذ إنّ القصّة امتدّت زمنيًّا من وفاة الوالد إلى نجاح الابن «طاهر» في عمله وزواجه، وإنجابه ولدين، لذا كثرت الرّوابط الدّالّة على الزّمن، لتسهيل تسارع الأحداث، نذكر منها: «بعد أسبوع على وفاة أبيهم»، «بعد سنوات وفي ليلة ماطرة»... ليرد في نهاية القصّة روابط زمنيّة، مثل: «الآن»، «بدءًا من هذه اللّحظة»، فبدا هذان الرّابطان وكأنّهما بداية جديدة سطّرها الأبناء لإلغاء ماضي التّفكّك والانعزال لتبدأ حياة الألفة والتّعاون والمحبّة.

أمّا قصّة سرّ السّعادة، فنراها مغايرة تمامًا للقصّة السّابقة، إذ إنّ زمن وقوع الأحداث جرى في الزّمن المعاصر، ولعلّ هذا يدلّ على اهتمام الكاتب بالحرص على الوصول إلى الطّفل ضمن واقعه المعاصر وزمنه، وكتابة قصص تتلاءم مع الزّمن الذي يعيش فيه، ليتمكّن الطّفل من خلال مضامين هذه القصّة أن يربط بين ما يجري في حياته الواقعيّة ليستفيد منها.

في هذه القصّة لم تكثر الرّوابط الدّالّة على الزّمن، إذ نجد في بدايتها عبارة «ليل

نهار»، وجاءت للدّلالة على شعور سامر الدّائم بالانزعاج والسّخط على واقعه، وهنا تكمن أهمّيّة هذا الرّابط، فهذا الشّعور المستمرّ هو الذي نغّص على سامر عيشه وجعله يثور على ما تعلّمه من أهله من ضرورة الرّضى بقدر الله والقناعة به. ثمّ يتغيّر مجرى الأحداث مع استخدام كلمة «يومًا»، حيث انتقل الكاتب من وضعيّة الاستقرار السّلبيّ إلى حدث أراد معه أن تتغيّر مفاهيم سامر كلّها، ليقوده إلى الاقتناع بحاله ووضعه.

إذًا، فهذا التّنقّل في القصص بين ما هو قديم وما هو معاصر، يفتح الأبواب أمام الطّفل لمحاكاة الواقع والاستفادة من تجارب الأقدمين في آنٍ معًا، وذلك لغرس أفكار ستتحوّل من خلال تأثّره بأحداث القصّة وشخصيّاتها إلى سلوك يسلكه في مستقبله القادم.

ب - الشّخصيّات:

ورد في معجم المصطلحات الأدبيّة: «تشير الشّخصيّة إلى الصّفات الخلقيّة والجسميّة والمعايير والمبادئ الأخلاقيّة، ولها في الأدب معاني نوعيّة أخرى، وعلى الأخصّ ما يتعلّق بشخص تمثّله رواية أو قصّة»[1]، وسواء أكانت الشّخصيّة إيجابيّة أم سلبيّة «فهي تقوم بتحريك وتطوير الأحداث في الرّواية».

لقد تنوّعت الشّخصيّات في قصّتي مجلّة فتى الأمن بين تاجر وفلّاح وموظّف تأمين وأبوين... وحملت كلّ منها دلالات معيّنة، لتنقل إرهاصات فكريّة تزرع الأخلاق الحسنة وحبّ الأرض في نفوس الأطفال اللّبنانيّين. انقسمت الشّخصيّات بين رئيسة وثانويّة، تعالقت بها كافّة مكوّنات القصّة الأخرى.

● **الشّخصيّات الرّئيسة:**

«هي التي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام»، كما تحظى بقدر من التّميّز حيث يمنحها حضورًا طاغيًا»[2].

شخصيّة طاهر: أولَتْ ديانا حنّون شخصيّة طاهر عناية كبرى، فكان محافظًا على إرث والده، اعتنى بأرضه وفلحها فأعطته من خيراتها الكثير، إنسان راشد ذو وعي ومسؤوليّة، تمكّن من بناء أسرة ناجحة مؤلّفة من زوج وولدين، كما كانت له يد في تأمين مستقبل ابنيه. الأهمّ من هذا

(١) إبراهيم فتحي: **معجم المصطلحات الأدبيّة**. صفاقس- تونس، دار محمّد علي الحامي للنّشر، ١٩٨٨م، لا ط، ص١٩٥.

(٢) مجدي وهبة وكامل المهندس: **معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب**. بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢٠٨.

كلّه أنّه حفظ عهد أبيه «كونوا عونًا لبعضكم»، فتوسّع في دارة أبيه ليضيف فوقها طابقين اثنين لأخويه، ساعيًا إلى توحيد الجميع وربطهما بأرض والدهم، وهذا كلّه دليل على إيمانه بالأرض والأسرة وتشبّثه بهما وطيبة قلبه. لعلّ اسم هذه الشّخصيّة جاء ليتناسب مع طهارة صفاته ونقاء تفكيره.

شخصيّة سامر: شابٌّ ينتمي إلى أسرة صالحة عُنِيَت بتربيته على الأخلاق الحميدة، يعمل موظّفًا في شركة تأمين، ذو دخل محدود، لكنّ طموحاته كانت أكبر من إمكانيّاته، وهذا ما أرّق عليه عيشه، ودفعه للهرب إلى عالم الخيال بعيدًا عن الواقع. وهو على الرّغم من رغبته الكبيرة في ترؤّس المناصب العالية، إلاّ أنّه يُدرِك أنّها تحتاج لقدرات ومهارات لا يمتلكها، فيُفضِّل الانسحاب منها عوضًا عن الاستمرار في إدارتها، ممّا جعله يشعر بعِظَم وتثاقل المسؤوليّة التي تقع على عاتق المديرين. يرفض الحصول على المال بطرق مشبوهة، وتلويث سمعته، ويحرص على رضا والديه، لذلك قنع في النّهاية بما لديه، وعلم أنّ السّعادة الرّوحيّة هي الأهمّ.

● **الشّخصيّات الثّانويّة:**

ياسر وسعيد: شابّان طموحان، لكنّهما لم يُحسنا إدارة أموالهما، ممّا دفعهما للرّجوع خائبين إلى دارة والدهما حيث يقطن أخوهما «طاهر». فرّطا بوصيّة والدهما في أن يبقى الأخوة عصبة متعاونة، وشقّ كلّ منهما طريقه بعيدًا عن أخوته، فاعترض درب «سعيد» محتال استغلّ بُعده عن ذويه وسلبه نقوده، فيما كان الحظّ العاثر حليف «ياسر»، فغرقت السّفينة التي تحمل بضاعته، بعد ما حصل معهما عادا إلى رشدهما للبدء في حياة جديدة مركزها منزل الوالد.

والدا سامر: زوجان قنوعان، يحرصان على بناء أسرة قوامها حبّ الوطن والرّضى بما قسمه الله لهما، لذا ربّيا ابنهما تربية صالحة، إلاّ أنّ قدراتهما المادّيّة الضّئيلة منعتهما من تحقيق حلم ابنهما في أن يكون ثريًّا وقد وصفهما الكاتب بيار شلالا بقوله: «والد سامر» عطوف حكيم، ووالدته حنونة ورقيقة القلب. كلاهما كانا يصرّان على إرشاده نحو الفضائل الإنسانيّة: الصّدق والأمانة وحبّ الوطن، وخصوصًا القناعة بقَدَر كلّ إنسان». من هنا يمكن القول إنّ شخصيّة الوالدين مسطّحة «فهي تبنى حول فكرة واحدة لا تتغيّر طوال الرّواية»[1].

(١) إبراهيم فتحي: **معجم المصطلحات الأدبيّة**، مرجع سابق، ص٢١٢.

ج - موضوعات القصص وخاتمتها:

● موضوع القصّتين:

الكاتبان «حنون» و«شلالا» في هاتين القصّتين يعالجان موضوعًا اجتماعيًّا وإنسانيًّا، ففي قصّة «إرث الإخوة»، نجد عند تأمّل الفِكَر الفرعيّة أنّ القصّة تؤكّد على ضرورة تمسّك الأبناء بإرث أجدادهم، وأن يظلّ الإخوة عونًا بعضهم لبعض، فيشدّ الأخ عضد أخيه ويؤازره عند الشّدائد.

فحين قرّر «ياسر» و«سعيد» أن يتخلّيا عن أخيهما، ليذهب كلّ منهما في طريقه، بعيدًا عن الآخر، نجد أنّ الصّعوبات اعترضتهما، ولم يجدا أنيسًا أو مرشدًا ينصحهما ويرشدهما إلى عواقب ما كانا يخوضان فيه؛ فسعيد وقع في شباك أحد المحتالين فنصب عليه كلّ ماله وتركه عاجزًا عن متابعة مسيرته، فيما لم يجد ياسر أيّ معين ينقذه من ضياع تجارته بسبب غرق السّفينة التي كانت مُحمّلة بالأقمشة النّادرة التي اشتراها بثمن باهظ.

أمّا «طاهر»، فحفظ عهد أبيه، وكان خير راعٍ لأرضه وبيته، وعرف بفطنته أنّ كلّ امرئ مردّه إلى دياره مهما طالت غربته، فبنى لكلّ أخٍ طابقًا فوق بيته، وبذاك استطاع أن ينتشلهما ممّا كانا فيه، ويُعيد جمع شمل العائلة.

وفي قصّة «سرّ السّعادة» أيضًا، نجد أنّ المنحى الاجتماعيّ الإنسانيّ هو الطّاغي، إذ تعمّد الكاتب أن ينقل صورة الأسرة التي نشأ فيها «سامر» بقيمها الإنسانيّة الخيّرة والسّامية، وأنّ هذه القيم هي التي أيقظته من أوهامه ودفعته إلى تقبّل واقعه، فـ «شلالا» تطرّق إلى موضوع يشغل بال كلّ إنسان، فالصّغير والكبير يُعاني أحيانًا من عدم رضى وتقبّل للحالة الاجتماعيّة التي نشأ فيها، ممّا ينغّص عليه حياته كلّها، لكنّه استطاع عبر رحلة خياليّة صغيرة أن يُعيد «سامر» إلى رشده ليكتشف أنّ السّعادة الرّوحيّة، والعيش بكرامة واحترام، أثمن من السّعادة المجتباة بالقصور والسّيّارات والخدم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكاتبين استطاعا بشكل غير مباشر أن ينشرا القيم الوطنيّة ويغرسا في نفس الطّفل القارئ ضرورة تماسك أواصر العائلة الواحدة، وحبّ الأرض والوطن، والتّمسّك بهما: «كونوا عونًا لبعضكم»، «سنعود عائلة واحدة كما أرادنا والدنا»، «كانا يصرّان على إرشاده نحو الفضائل الإنسانيّة: الصّدق والأمانة وحبّ الوطن»، «ابن عائلة محترمة تسودها المحبّة»...

● خاتمة القصّتين:

انتهت القصّتان المنشورتان في مجلّة فتى الأمن نهاية سعيدة، كمعظم النّهايات

التي تُختتم بها القصص في مجلّة فتى الأمن، وهذا يعكس الطّابع الإيجابيّ عند الطّفل، ويعزّز طموحاته المستقبليّة. وهذه النّهايات السّعيدة محبّبة للأطفال، كما في «إرث الأخوة»، حيث نهت الكاتبة القصّة، باجتماع أفراد العائلة من جديد، والتّعاهد على التّعاون والتّمسّك بأرضهم.

وقد عمد الكاتب «شلالا» إلى إيضاح المغزى من قصّته في خاتمتها، حيث وضعها بشكل غير مباشر ليضيء للطّفل أنّ القيم الإنسانيّة والرّوحيّة هي التي ستقوده نحو السّعادة: «كان حلمًا! وعاد إلى واقعه! موظّف عاديّ ابن عائلة محترمة تسودها المحبّة، وتظلّلها السّعادة، السّعادة النّفسيّة والرّوحيّة... لا المادّيّة.

د - اللّغة والأسلوب:

● **الأسلوب:**

يمكن القول إنّ الأسلوب المستَخدَم كان بسيطًا واضحًا، اعتمد الواقعيّة في عرض الأحداث، إذ أراد الكاتبان من خلال قصّتيهما أن يعالجا المشكلات بصورة واضحة، ليزداد القارئ فهمًا لعالم الواقع، فالطّفل «يبحث عن القيم وينفتح على العالم فيهتمّ بمشكلاته، لذلك فهو في حاجة إلى أدب يساعده على عقد صلة بين القراءة والأحداث الجارية، وتزوّده بفرص لمناقشة أهمّيّة الكتب للفرد والجماعة»[1]. كما لاحظنا استخدام الدّكتور شلالا للأسلوب الخياليّ من خلال تخيّل سامر لحوريّة تستجيب لرغباته، فقادت هذه التّخيّلات الشّخصيّة للوصول إلى الحلّ المناسب، دون أن يُفقد القصّة واقعيّتها، وبذلك يكون قد حاكى أكبر عدد ممكن من الفئات العمريّة، فمن المعلوم أنّ أصحاب الفئات العمريّة الصّغيرة «يجنحون إلى بيئة الخيال الحرّ، والتي تظهر فيها الجنّيّات العجيبة والأقزام والسّاحرات والملائكة الحور وغيرها من الشّخصيّات التي تحتويها قصص الشّعوب وقصص ألف ليلة وليلة»[2].

من اللافت أنّ المجلّة تطرّقت إلى أسلوب المغامرة بشكل غير مباشر وعرضيّ، وكانت مغامرة سلبيّة لم تُؤتِ ثمارها: «أقبل لأنّ المرض هدّني ولم يعد بي رغبة لأيّ مغامرة جديدة»؛ مع أنّ هذا الأسلوب يجذب مختلف الأعمار، ويغذّي عقولهم، وروح المنافسة لديهم.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ الكاتبَيْن توجّها لقرّائهما الصّغار بأسلوب غير

(١) نجلاء شهوان: **أدب الأطفال القصصيّ**. القدس، منشورات اتّحاد الكتّاب والصّحفيّين، ط١، ١٩٩١م، ص٢٥.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد: **القصّة في التّربية أصولها النّفسيّة، تطوّرها، مادّتها وطريقة سردها**. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٧٦م، ص١٧.

مباشر لإيصال ما يريدانه، وهذا يتماشى مع أسلوب التّربية الحديثة التي تسعى إلى جعل الطّفل يكتسب السّلوك القويم من خلال الاقتداء بشخصيّات القصّة، لا عبر تلقين المعلومات، ففي نهاية قصّة إرث الأخوة نجد أنّ الطّفل سيكتسب ما توصّل إليه الأخوة من ضرورة التّعاون والمحافظة على إرث الآباء والتّمسّك بالأرض التي تعطي بسخاء من يهتمّ بها: «لم يخطئ أبي لمّا أوصى لك بالبيت وجعله من نصيبك. لقد حافظت عليه ووسّعته، وبنيت لكلّ واحدٍ منّا طابقًا». أما في قصّة سرّ السّعادة فسيكتشف الطّفل تلقائيًّا أنّ السّعادة الحقيقيّة هي السّعادة الرّوحيّة لا المادّيّة، دون اللّجوء للأسلوب المباشر: «كان حلمًا! وعاد إلى واقعه! موظّف عاديّ ابن عائلة محترمة تسودها المحبّة، وتظلّلها السّعادة، السّعادة النّفسيّة والرّوحيّة... لا المادّيّة». والأسلوب غير المباشر في إيصال الهدف إلى الطّفل أيسر في الاكتساب بشكل سليم، فـ «النّصيحة المباشرة عائدها قليل، إذ سيربط الطّفل بينها وبين الأوامر والنّواهي التي يضيق بها أثناء خضوعه لعمليّة التّنشئة الاجتماعيّة»[1].

● **اللّغة:**

اللّغة مادّة الأدب، ولا بدّ في أدب الأطفال من مراعاة اللّغة القصصيّة المقدّمة للطّفل، وهذا يفرض مسؤوليّة أكبر على الأديب، في معرفة الخلفيّات الثّقافيّة والتّجارب الحياتيّة للطّفل، وما يشدّ انتباهه ويؤثّر فيه، كما عليه «أن يحاول دراسة اهتماماتهم وميولهم ورغباتهم واحتياجاتهم، فضلاً عن معرفة قاموسهم اللّغويّ حتّى لا يكتب لهم ما هو فوق مستواهم، فيصعب عليهم فهمه واستيعابه، أو ما هو أقلّ من مستواهم فينصرفون عنه لعدم ملاءمته لأعمارهم»[2].

نتبيّن من خلال القصّتين الموجودتين في المجلّة أنّ اللّغة المستخدمة في الكتابة هي اللّغة الفصحى، وهذا يدلّ على حرص كتّاب مجلّة فتى الأمن على اللّغة العربيّة والتّأكيد على أصالتها فهي الهويّة القوميّة، ممّا يساعد الأطفال على تقوية لغتهم واكتساب ألفاظ جديدة، مثل: «إرث، الحضيض، أنكرها عليّ، المرض هدّني، مكدّسة، تظلّلها...».

في قصّة «سرّ السّعادة» استخدم الكاتب

(١) عفاف عويس: **خيال الطّفل المصري (تحليل مضمون ٣٦٥ قصّة من خيال الأطفال)**. القاهرة، المركز القوميّ لشخصيّة الطّفل، ١٩٩٢م، المجلّد الثّامن، ص١٩٧.

(٢) يوسف عبد التّوّاب: **حول أدب الأطفال في الخليج العربيّ**. رسالة الخليج العربيّ، المملكة العربيّة السّعوديّة- الرّياض، العدد التّاسع عشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

بعض المفردات التّقنيّة المتعلّقة بمجالات العمل الحديثة: «البرامج المعلوماتيّة، مترتّباته القانونيّة، معاملات ماليّة...، وهذه الألفاظ تغذّي المعجم اللّغويّ عند الطّفل، وتوسّع آفاق مداركه، وتُطلِعه على المهن المهمّة في سوق العمل.

كما عمد إلى استخدام الأمثلة الشّعبيّة: «القناعة كنزٌ لا يفنى»، أثناء إقناع الأمّ ابنها سامر بأن يقنع بواقعه، ويرضى بما قسمه الله له، ولاستخدام الأمثال في التّربية والوعظ أهمّيّة بالغة لما فيها من مخاطبة للنّفس، وإثارة لكوامن الوجدان، وإقامة الحجّة لإقناع الطّفل بالهدف الذي يرمي إليه الكاتب.

● **صيغة الخطاب في القصّتين**

الصّيغة هي «اسم يطلق على أشكال الفعل المختلفة التي تستعمل لتأكيد الأمر المقصود، وللتّعبير عن وجهات النّظر المختلفة التي ينظر منها إلى الوجود أو العمل.»[١] والصّيغة هي عبارة عن الطّريقة التي بواسطتها يقوّم لنا الرّاوي القصّة.»[٢]

وأنواع الصّيغ متعدّدة، وسنتطرّق إلى دراستها في قصّتي «إرث الأخوة» و«سرّ السّعادة».

١ – صيغة الخطاب المسرود.

تستخدم هذه الصّيغة من الخطابات في حال كون المتكلّم يرسلها على بعد مسافة منه، متحدّثًا إلى متلقّ مباشر أو غير مباشر فتكون الصّيغة هنا ذات خطاب مسرود مباشر أو غير مباشر، وتكثر هذه الصّيغة في بدايات السّرد[٣]. وهو الخطاب الذي يرسله المتكلّم/السّارد إلى المتلقّي، مباشرًا كان أو غير مباشر، ويكون على مسافة ممّا يسرده[٤]:

«سامرٌ في مأزق. إنّه إنسان فاشل. وها هي الحوريّة تنقذه: اطلب أمنية أخيرة»، «ماذا حصل للنّاس؟ لمَ يتجنّبونه؟».

٢ – صيغة الخطاب المعروض المباشر.

تظهر صيغة الخطاب المعروض في الحوارات حيث يسكت الرّاوي فيها عن السّرد، تاركًا المجال للشّخصيّات لتتحدّث

(١) جيرار جنيت: **خطاب الحكاية، بحث في المنهج**. ترجمة محمّد معتصم وآخرون، القاهرة، المشروع القوميّ للتّرجمة، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٧م، ص١٩٨.

(٢) سعيد يقطين: **تحليل الخطاب الرّوائيّ (الزّمن، السّرد، التّبئير)**. بيروت، المركز الثّقافيّ العربيّ، ١٩٨٩م، ص١٩٤.

(٣) سعيد يقطين: **تحليل الخطاب الرّوائيّ (الزّمن، السّرد، التّبئير)**. ص١٩٧.

(٤) حميدي خضرة: **الخطاب الرّوائي في رواية رجوع الموجة لمي زيادة**. إشراف هزرشي عطية، الجزائر، جامعة زيان عاشور، ٢٠١٦-٢٠١٧م، ص٣٦.

بنفسها، وتتحاور فيما بينها، وهذه الحوارات قد تطول وقد تقصر حسب الموقف[1]. وهنا يتّكئ هذا الخطاب على ذلك الحوار المباشر بين شخصيّتين أي بين متكلّم مباشر ومتلقّ مباشر[2].

ولا ريب في أنّ الخطاب المعروض المباشر قد ظهر في قصّة «إرث الأخوة» بشكل جليّ:

– لا تحزن يا أخي، فأنت تملك دارًا؟

– أيّ دار؟

– لقد شيّدتُ لك طابقًا فوق دارة أبي.

– لماذا؟

– لأنك أخي وأنفّذ وصيّة أبي «كونوا عونًا لبعضكم»..»

إلاّ أنّ «شلالا» لم يستعن به في قصّته، ولم يترك مجالاً لأيّ شخصيّة كي تتحدّث بحرّيّة، ولعلّ ذلك يعود إلى إظهار شخصيّة سامر بصورة مقيّدة، تأسرها الهموم والأحزان التي حبس نفسه في إطارها، ولم يعرف مقدار النّعم التي ينعم بها إلاّ في نهاية القصّة.

٣ – صيغة الخطاب المعروض غير المباشر.

إذا كان المعروض المباشر يخلو من تدخّل الرّاوي وتعليقه بين الحين والآخر، فإنّ حضوره في صيغة الخطاب غير المباشر يأتي بدراسة المشهد أثناء الحوار أو في نهايته، وهذا التّعليق المصاحب للحوار يعطي دلالات ووظائف فنّيّة للنّصّ لأنّه قد يلقي الضّوء على واقع الشّخصيّة أو صفاتها[3].

وكما ظهر الخطاب المعروض المباشر في قصّة «إرث الأخوة»، نجدأنّ الكاتبة قد لجأت أيضًا إلى استعمال المعروض غير المباشر، فيما سيطر هذا النّوع من الخطاب في قصّة «سرّ السّعادة»، فكان يقطع الكلام أثناء حوار الشّخصيّات، حتّى يساعد القارئ على الإلمام بالمشهد ليبدو أكثر واقعيّة:

«نظر طاهر إلى سعيد وسأله:

– وأنت يا أخي، أتوافق أن تعيش في دارك؟

ردّ سعيد بغصّة:

– لم يخطئ أبي لمّا أوصى لك بالبيت وجعله من نصيبك. لقد حافظت عليه ووسّعته، وبنيت لكلّ واحدٍ منّا طابقًا».

«وبلغت تخيّلاته حدّ تصوّره حوريّة تسأله: ما بك حزينًا أيّها الشّاب؟ أجابها: أشكو من سوء أحوالي.

---

(١) المرجع نفسه، ص٩٨.

(٢) سعيد يقطين: **تحليل الخطاب الرّوائيّ** (الزّمن، السّرد، التّبئير). ص١٩٧.

(٣) **المرجع السابق نفسه.**

٤ – صيغة الخطاب المنقول المباشر.

يقع هذا النّوع من الخطاب في دائرة الوسط بين المسرود بنوعيه والمعروض بأنواعه الثّلاث، وهو ما أطلق عليه بـ «المنقول» أي أنّ المتحدّث هنا لا يقتصر دوره في الإخبار أو العرض للحدث، بل إنّ دوره يتمثّل أثناء الحوار حيث ينقل كلامًا لغيره من الشّخصيّات وينقله بعلامتَي تنصيص وبحرفيّته، دونما تصرّف منه في الصّياغة والنّقل[١]. أي أنّه لا يقمع الشّخصيّة كلّيًّا، ولا يعطيها مجالاً للحديث عن نفسها بنفسها[٢].

ولم يظهر هذا النّوع من الخطاب في قصّة «إرث الأخوة»، لكنّ شلالا أكثر من استخدامه في قصّة «سرّ السّعادة».

«أليس هذا سامر جارنا؟»، استغرب أحدهم. و«هل المال يبدّل جوهر الإنسان؟»، تساءل آخر»، «هتف مقهقهًا: «أنا ثريّ.. وسأشتري السّعادة.».

٥ – صيغة الخطاب المنقول غير المباشر.

وهنا ينقل المتكلّم الكلام عن الآخرين بتصرّف في النّقل، وتدخل في الصّياغة فيقدّمه بشكل خطاب مسرود غير مباشر، لكن بطريقة النّقل للحديث غير المباشر[٣].. ولم يظهر هذا النّوع من الخطاب إلاّ مرّة واحدة في قصّة «سرّ السّعاد»:

«وطالما ردّدت على مسامعه المثل الشّعبيّ: القناعة كنز لا يفنى».

٦ – المونولوج (مناجاة الذّات)

هو مصطلح يستعمل بمعان عدّة، بيد أنّ المعنى الأساسيّ له هو الحديث المنفرد الذي تقوم به الشّخصيّة في وجود أو غياب مستمعين. والمونولوج «كلمة مطوّلة يلقيها الممثّل منفردًا على المسرح لا يشترط فيها ن تكون مناجاة لنفسه، وقد يكون بجواره غيره من شخصيّات المسرحيّة ينصتون إلى ما يلقي»[٤]. وقد ظهر هذا النّوع من الخطاب في قصّة «سرّ السّعادة» فقط، وذلك حينما اختلى بنفسه على شاطئ البحر، ليشكو له قسوة حياته: «يتساءل بمرارة: «لِمَ إمكاناتي محدودة؟ لمَ لستُ غنيًّا؟»».

خاتمة:

(١) سعيد يقطين: **تحليل الخطاب الرّوائيّ (الزّمن، السّرد، التّبئير)**. ص١٩٨.
(٢) حميدي خضرة: **الخطاب الرّوائي في رواية رجوع الموجة لمي زيادة**. ص٤٠.
(٣) سعيد يقطين: **تحليل الخطاب الرّوائيّ (الزّمن، السّرد، التّبئير)**. ص١٩٧.
(٤) مجدي وهبة وكامل المهندس: **معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب**. بيروت، مكتبة لبنان، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٤م، ص٣٩٨.

يمكن التّوصّل في النّهاية إلى أنّ تنشئة الطّفل يجب أن تُولى أهمّيّة كبيرة من خلال الجهات المعنيّة بالتّنشئة، فالأطفال هم عماد المستقبل ودعائمه؛ وإزاء كلّ ما تقدّم، يتّضح لنا أنّ القصص المنشورة في مجلّة «فتى الأمن» تأخذ هذا الموضوع بعين الاعتبار، وتسهم بشكل جليّ في تعزيز النّموّ الفكريّ السّليم والقويم للطّفل اللّبنانيّ.

وقد تبيّن لنا ذلك من خلال دراسة مضمون قصّتي «إرث الأخوة» و«سرّ السّعادة» المنشورتين في العدد ٣١٠ في شهر تشرين الأوّل ٢٠١٩، أنّ الشّخصيّات الأساسيّة هي شخصيّات إنسانيّة، أبطالها من البشر، وقد دارت الأحداث تارة في الزّمن القديم، وتارة في عصرنا الحاضر، في طابع قرويّ ومدنيّ، وذلك لتنويع الزّاد الثّقافيّ لدى الطّفل، ومحاكاة أكبر شريحة ممكنة من الأطفال، ولتلبية احتياجاتهم ورغباتهم التي تتلاءم مع بيئتهم المحلّيّة، وتناسب ذوقهم العامّ.

لقد طغى الأسلوب الواقعيّ على القصّتين، ليزداد القارئ فهمًا لعالم الواقع، وقد تمّ اعتماد صيغة التّوجيه غير المباشر لما له من أثر في اكتساب السّلوك القويم وتقليده أكثر من تلقينه. واللّافت اعتماد اللّغة الفصحى البسيطة والواضحة، سليمة الصّياغة والتّركيب، ممّا يجعل هذا حافزًا للتّشجيع على قراءة القصص في مجلّة «فتى الأمن»، فهي تدعم الطّفل لغويًّا وتُغذّي قاموس مفرداته، وتعينه على حبّ لغته الأمّ، والتّشديد على هويّته العربيّة، إلى جانب تحفيزه على الحفاظ على القيم الإنسانيّة، والتّمسّك بالأرض وحبّ الوطن والدّيار، من خلال الموضوعات التي تعالجها.

التّوصيات:

- نظرًا لأهمّيّة القصّة، وما لها من أثر بالغ على الأطفال، يُفضّل لو تزيد المجلّة من عدد القصص في زواياها.
- إنّ مجلّة فتى الأمن على الرّغم من تنوّعها الثّقافيّ الغزير في أبوابها، إلاّ أنّها تفتقر للقصص المصوّرة التي تحمل فوائد جمّة للطّفل.
- التّنويع أكثر في مواضيع القصص، داخل العدد، لتحيط بكلّ الأذواق، وتشمل أكبر عدد من الأطفال.

المصادر والمراجع

- **أدب الأطفال:** كيمبرلي رينولدز. ترجمة ياسر حسن، مصر، هنداوي للنّشر، ط١، ٢٠١٤م.
- **أدب الأطفال:** عبد الرّزّاق جعفر. دمشق، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، ١٩٧٩م.
- **أدب الأطفال القصصيّ:** نجلاء شهوان. القدس،منشورات اتّحاد الكتّاب والصّحفيّين، ط١، ١٩٩١م.
- **أدب الأطفال أهدافه وسماته:** محمّد حسن بريفش. بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- **الأدب وبناء الإنسان:** علي الحديدي. طرابلس الغرب – ليبيا، منشورات الجامعة اللّيبيّة، لا ط، ١٩٧٣م.
- **ثقافة الطّفل في الوطن العربيّ:** بهاء الدّين الزّهوري. بيروت، مجلّة الباحث، العدد ٦٢، ١٩٩٤م.
- **حول أدب الأطفال في الخليج العربيّ:** يوسف عبد التّوّاب. رسالة الخليج العربيّ، المملكة العربيّة السّعوديّة – الرّياض، العدد التّاسع عشر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **خيال الطّفل المصري (تحليل مضمون ٣٦٥ قصّة من خيال الأطفال):** عفاف عويس: القاهرة، المركز القوميّ لشخصيّة الطّفل، المجلّد الثّامن، ١٩٩٢م.
- **صحافة الأطفال، أنواعها، طبيعتها، توجيهها:** عبد الرّزّاق جعفر. منشورات طلائع البعث، لا ط، ١٩٨٠م.
- **القصّة في التّربية أصولها النّفسيّة، تطوّرها، مادّتها وطريقة سردها:** عبد العزيز عبد المجيد. القاهرة، دار المعارف، ط ٥، ١٩٧٦م.
- **القصّة في مجلّات الأطفال ودورها في تنشئة الأطفال اجتماعيًّا:** أمل حمدي دكّاك. دمشق، وزارة الثّقافة – الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، ٢٠١٢م.
- **مجلة فتى الأمن** – العدد ٣١٠ – تشرين الأوّل ٢٠١٩.
- **معجم المصطلحات الأدبيّة:** إبراهيم فتحي. صفاقس – تونس، دار محمّد علي الحامي للنّشر، لا.ط. ١٩٨٨م.
- **معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب:** مجدي وهبة وكامل المهندس. بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.
- * جنيت، جيرار: **خطاب الحكاية، بحث في المنهج**. ترجمة محمّد معتصم وآخرون، القاهرة، المشروع القوميّ للتّرجمة، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٧م.
- * يقطين، سعيد: **تحليل الخطاب الرّوائيّ (الزّمن، السّرد، التّبئير)**. بيروت، المركز الثّقافيّ العربيّ، ١٩٨٩م.
- * خضرة، حميدي: **الخطاب الرّوائي في رواية رجوع الموجة لمي زيادة**.إشراف هزرشي عطية، الجزائر، جامعة زيان عاشور، ٢٠١٦ – ٢٠١٧م.
- * وهبة، مجدي والمهندس، كامل: **معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب**. بيروت، مكتبة لبنان، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٤م.

السّياسة البريطانيّة تجاه أكراد العراق
بين عاميّ (١٩٢٦ - ١٩٤٥)

د. أنور فاضل صبي

ملخص البحث بالعربي

الأكراد هم القوميّة الثّانية في العراق بعد القوميّة العربيّة، ومكون مهم من مكوّنات الدّولة العراقيّة، وتتركّز مناطق توزيعهم الدّيموغرافي في شمال العراق وتحدّها إيران من الشرق وتركيا من الشمال، وسوريا من الغرب وبقية مناطق العراق من الجنوب.

بعد التّطورات الكبرى التي شهدها العراق على الصّعيد السّياسيّ – ثورة العشرين وتتويج الملك فيصل الأوّل ملكا على العراق – برزت القضية الكرديّة كقضية محوريّة لا سيما أنّ بريطانيا لم يكن لديها – حتى نهاية الحرب العالمية الثّانية ١٩٤٥ – أيّ خطط لجعل الأكراد دولة موحدة، ولم تتّخذ أية مبادرة في أي مشروع سياسي يتعلّق بالأكراد، حتى لا تثير نفور الحكومة العراقيّة تجاهها.

ويتّضح أنّ بريطانيا – كورقة ضغط على الحكومة العراقيّة، وكسلاح في حال معارضتها لوجودها جعلت من الأكراد من مسؤوليتها وضمن أولوياتها لأنّها تريد استخدام الأكراد كسلاح ضدّ المطالبات برحليها النّهائي عن العراق وكذلك لضمان مصالحها النّفطية في شمال العراق خصوصًا بعد أن تأكدت من وجود النفط فيها، وما يشير إلى استمرار استخدام القضية الكرديّة كحجة لتمرير مشاريعها وهيمنتها الاقتصاديّة لأنّها تخلّت عنهم بعد توقيع العراق على معاهدة ١٩٣٠، وكذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثّانية ١٩٤٥.

وختامًا، يتبين لنا من معطيات هذا البحث، تدرج بريطانيا في سياساتها اتجاه القضية الكرديّة حسب المرحلة إذ أَنها أخضعت الأكراد أثناء احتلالها المباشر للعراق وتحوّلت في عهد الانتداب إلى سياسة أكثر ليونة واستخدمتهم كورقة ضغط على الحكومة العراقيّة في أثناء

مفاوضات معاهدة ١٩٢٦، وانتقلت بعد ذلك في عام ١٩٤٥، إلى الحسم العسكري الدّاعم للجيش العراقي لإنهاء التمرد في المناطق الكرديّة. ويظهر أنّ بريطانيا كانت تنتهج سياسة الموازنة بين الحكومة العراقيّة ومطالب الأكراد وأنّها لا تستطيع أن تترك تحالفها الاستراتيجي الخاص مع الحكومة العراقيّة الذي يضمن مصالحها عن طريق التّعاون مع الحكومة المركزيّة في بغداد.

Research Summary

Kurds are the second nationality of Iraq which comes after Arabic and it is one of the most important components distributionÁ It occur in the north port of Iraq and borders Iran from the East, Turkey form the north, Syria from west and the rest of Iraqi areas from the south. After the huge development that was witnessed by political issues of Iraq and the 20Threvolutioñ The first King Fasal was crowned az- King of Iraq. Kurdish issue was raised as the pivot of iť while Britain as a united State and it did not make any lead-in any related political project to Kurds to not irritate- Iraqi Government revulsion against it.

As a pressure on Iraqi Government and as a weapon if the Iraqi Government might object on the British existencẽ It is clear That Britain made the Kards as a priority and- responsibility because they wanted to use the Kurds as a weapon against the claims Of departure from Iraq and also to ensure their oil interests in the north of Iraq especially when they became sure of the existence of oil there, the evidence of using the kardish issue as an excuse to pass their economic projects and dominance, that they gave up the Kurds when they signed a treaty with Iraq in 1930 and also after the end of the second world war in 194

5, at last, Britain graded their policy towards the Kurdish issue according to the stage, so they subjected the Kurds during their occupation of Iraq directly and then in the period of mandate, their policy was more flexible, then they Pressurised the Iraqi government using the kurds during the negotiation of 1926 Treaty and at the last state of 1945, the Britain turned into the military support- to the Iraqi army to put an end- to Kurdish issue.

تقديم الدراسة والمنهج

ارتسم الموقفان البريطانيّ والعراقيّ من الحركة الكرديّة بين عاميّ «١٩٢٠ – ١٩٤٥» أي منذ إعلان الاحتلال البريطانيّ للعراق ١٩٢٠، وحتى الحصول على الاستقلال، والجلاء النّهائيّ عن أراضيه بعد الحرب العالميّة الثّانية، من زوايا ثلاثٍ أساسيّة:

الأولى: زاوية السّيطرة البريطانيّة المحكومة لمشروع استعماريٍّ احتلاليّ بريطانيٍّ مغلَّفٍ بيافطة الحفاظ على الحكومة العراقيّة موحّدة ولكن مع إبقائها

خاضعة للنّفوذ البريطانيّ وإيجاد أوراق ضغط تمنعها من الابتعاد عن التّحكم البريطانيّ ومنها الورقة الكرديّة.

الثّانية: زاوية منع إقامة أي كيان كرديّ سياسي عبر منع تجزئة العراق واصطناع حدود جديدة تؤدّي إلى سلسلةٍ من الجغرافيات السّياسيّة الضّارة بالنّفوذ التّقليديّ البريطانيّ بعد أن أمّن البريطانيّيون مصالحهم الاقتصاديّة في العراق بعدد من المعاهدات طوال فترة الانتداب وما بعدها.

الثّالثة: زاوية العلاقات الكرديّة – العراقيّة، والمسار الذي عرفته هذه العلاقات في تطوّرها العام، إذا كانت هذه العلاقات قد اتّسمت في جانبٍ منها، بين التّوتر والتّقارب حسب التّفاهم مع الحكومة المركزيّة في بغداد، مع تكريس بريطانيا لمبدأي التفكيك السّياسيّ من جهة في العراق، والتوحيد الاقتصاديّ بما يخدم مصلحة الرأسماليّة البريطانيّة في المراكمة من جهة أخرى.

الإشكاليّة: يدور هذا البحث حول إشكالية مركزيّةٍ مفادها استخدام القضيّة الكرديّة كورقة ضغط بيد بريطانيا ضدّ الطّموحات العراقيّة للتّخلّص من الاستحواذ البريطانيّ على السّياسات العراقيّة إبّان الحقبة بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٤٥.

أبرز ثلاث فرضيات أساسية يطرحها هذا البحث هي:

الأولى، السّياسة البريطانيّة في العراق قامت على مبدأين متناقضين هما: الحفاظ على وحدة العراق، وفي الوقت نفسه البقاء على القضية الكرديّة متذبذبة بين الوعود بالحكم الذّاتي والحسم.

الثّانية، لما كان الرّأسمال البريطانيّ (رأسمال الشركات والمصارف وكبار التجار) رأسمالاً تراكميًّا، واستثماريًّا قائمًا على تحقيق الأرباح في العراق، فقد دفع هذا الواقع الاقتصاديّ إلى محاولة السّيطرة البريطانيّة على القرارات السّياسيّة والحفاظ على الوضع القائم كما هو خصوصا خلال فترة الحرب العالمية الثّانية التي كانت تنشط فيها الدعاية الالمانية لإثارة القضية الكرديّة في محاولة تشتيت النفوذ البريطانيّ في العراق.

الثالثة، انبثقت الطّموحات الكرديّة بالاستقلال واستغلال الاحتلال البريطانيّ الثّاني للعراق عام ١٩٤١ لإيجاد واقع انفصاليّ جديد لقضيتهم وتوحيد جهودهم مع باقي المناطق الكرديّة في سوريا وتركيا وإيران.

المنهج، يعتمد هذا البحث المنهج البيني (Interdicipliaire)، وهو منهجٌ يقوم على التّشبيك بين عدة مناهج، تجمع مقارباتٍ لمعالجة القضية المطروحة في البحث من زاوية التّاريخ الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسّياسيّ، والجغرافيّة الاقتصاديّة.

الأكراد في المعاهدات العراقيّة - البريطانيّة

يتميّز العراق بموقع جيو استراتيجي مهم، جعل العديد من الدول الاستعماريّة تدخله في حساباتها، وتتطلّع إلى السّيطرة عليه. مع البدايات الأولى لعهد الانتداب بدأت تنكشف الدّوافع الخفيّة للسّياسة البريطانيّة بشأن انتدابها للعراق. فالانتداب لم يكن في الواقع سوى مصطلحٍ إعلاميّ ابتدعه الفكر الاستعماريّ لتبرير سياساته في التمدد إلى مستعمراتٍ جديدةٍ بهدف تحقيق المزيد من التّراكمات الرّأسماليّة.

ومن هنا، وعلى قاعدة تحقيق الأرباح الاقتصاديّة البريطانيّة اتّبعت أسلوب السّيطرة الاقتصاديّة وتأسيس نفوذ للتّجارة البريطانيّة في مناطق العراق كافة وكسب جميع الأطراف. لذلك هيّأت سلطات الانتداب بوصفها سلطاتٍ مرجعيّة حاكمة لمناطق العراق الشّروط الملائمة لتوسع الرّأسمال والشّركات البريطانيّة من أجل الإمساك بمصادر الثروات العراقيّة، وقد كان الأكراد ضمن المشروع البريطانيّ لسببين: الأول امتداد الأكراد في شمال العراق وهو منطقة نفطيّة حصلت فيها شركة النّفط الإنكليزيّة التّركيّة على امتيازات في خانقين قرب الحدود الإيرانية وفي كركوك[1]. ثانيًا كانت بريطانيا تبحث عن ورقة ضغط على الحكومة العراقيّة في حال حاولت الابتعاد عن النّفوذ البريطانيّ.

حظي الأكراد باهتمام كبير بعد أن انتهت قضية تثبيت الحدود العراقيّة – التّركيّة، وصارت منطقة بارزان[2] ضمن الحدود العراقيّة، جدّدت الحكومة العراقيّة محاولاتها لتأسيس الإدارة المدنيّة، فقاومها الشّيخ أحمد البارزاني الذي استطاع ولمدة أربع سنوات من تدعيم نفوذه ومقاومة السلطات الحكوميّة المركزيّة، لذلك ساندت القوّات البريطانيّة وسلاح الجو البريطانيّ الحكومة العراقيّة بإخضاع المناطق الكرديّة. وبعد قرار عصبة الأمم بإبقاء ولاية الموصل ضمن الأراضي العراقيّة فقد ارتبط ذلك بتوقيع معاهدة جديدة بين العراق وبريطانيا إذ كانت بريطانيا تسعى إلى إلغاء بروتوكول ١٩٢٣ الذي حدّد عمر معاهدة عام ١٩٢٢ بأربع سنوات، واستغلال ورقة الموصل لضمان المعاهدة الجديدة باستمرار الانتداب على العراق مدة خمس وعشرين عامًا أخرى مقابل دعم بريطانيا للعراق في ضم الموصل. وجاء قرار مجلس العصبة مصحوبًا بضمانات للأكراد العراقيين ممّا استوجب تضمين ذلك في نصوص معاهدة ١٩٢٦، وقبل أن يبادر تشرشل وزير المستعمرات بوضع المقترحات اللازمة لتنفيذ قرار مجلس العصبة اقترح الوزير مفاتحة وكيل المندوب السّامي في العراق حول الوضع في المناطق الكرديّة وما يحصلون عليه من

مقاييس الحكم الذّاتي وما هي الإجراءات المتّخذة بصدد ذلك. إذ كانت الحكومة البريطانيّة تريد الاطلاع على مدى استعداد الحكومة العراقيّة على ادخال ضوابط وإجراءات جديدة لإعطاء حقٍ أكبر من الحكم الذّاتي في مناطقهم[٣].

أرسلت الحكومة البريطانيّة في ٢ آذار (مارس) ١٩٢٦، إلى سكرتير عصبة الأمم المتحدة تقدم فيه للمعاهدة العراقيّة – البريطانيّة لعام ١٩٢٦[٤]، بمذكرة تناولت إدارة المناطق الكرديّة في العراق وقد استشهدت المذكرة البريطانيّة بخطاب ألقاه عبد المحسن السعدون (رئيس الوزراء) في مجلس النواب في ٢١ كانون الثّاني (يناير) قال فيه «إنه يجب على الحكومة العراقيّة أن تمنح الأكراد حقوقهم وأن يكون موظفوهم من بينهم» أبرمت الحكومة العراقيّة معاهدة ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٠، مع الحكومة البريطانيّة والتي لم تتضمّن إشارة صريحة خاصة بالأكراد وذلك تسهيلا لمرور هذه المعاهدة في مجلس النواب العراقي، لذلك احتج الأكراد ونظمّوا عرائض وبرقيات احتجاجيّة على المعاهدة وأرسلوها إلى عصبة الأمم والمعتمد السّامي البريطانيّ في بغداد والملك فيصل الأول. أعقب هذه العرائض مقاطعة أكراد السّلمانيّة لانتخابات مجلس النواب، فحذّر أي. اس البان». (المستشار السّياسيّ للمنطقة الكرديّة) قادة الأكراد بعقوبات قاسيّة إذا ما قاموا بمحاولة إرهاب الناخبين[٥]. وبالإمكان إدراك تغير السّياسة البريطانيّة باستمرار اتجاه الأكراد فما إن اطمأنت بريطانيا إلى تثبيت مصالحها في معاهدة ١٩٣٠ بين العراق – وبريطانيا والاتفاقات الجانبيّة الأخرى حتى بدت سلطات الانتداب مصممة على وجوب اندماج أكراد الموصل في الدولة العراقيّة اندماجًا تامًا من دون امتياز أو حقوق واضحة[٦]. ويتبين أيضا أنّ السّياسة البريطانيّة إزاء الأكراد بشكل عام لم تثبت على نهج معين ولا اتّخذت مسارًا واضحًا في معالجة مصيرهم ويمكن إدراك ذلك من خلال تقلّب سياستها ولا أبالغ إذا قلت إن الدّعم البريطانيّ للأكراد ارتبط بشكل وثيق في مراحل سعيها في ميدان الصّراع العالميّ على النّفط في العراق. نظم الأكراد عرائض وبرقيات احتجاجيّة على المعاهدة وأرسلوها إلى كلّ من عصبة الأمم والمعتمد السّامي البريطانيّ في بغداد والملك فيصل الأول «وقد سرت إشاعة أنّ الموظفين البريطانيّين هم الذين حرضوا الأكراد على القيام بهذه الحركة ليعرقلوا مشروع الاستقلال العراقيّ» فاتّخذ مجلس الوزراء في آب ١٩٣٠ قرارًا، ليقوم وفد من الحكومة ومن المعتمد السّامي بزيارة المناطق الشّماليّة وشرح خطط الحكومة لتشجيع اللّغة الكرديّة وغير ذلك مما يسهم

في التّعاون مع الأكراد. أمّا التّركمان في كركوك فلم يستحسنوا خطاب الحكومة في الاجتماع بكركوك حول تشجيع اللّغة الكرديّة في هذه المدينة.

أمّا الاحتجاجات الكرديّة التي أرسلت إلى عصبة الأمم، فجاء الرّد عليها «بأنّها لم تجد عصبة الأمم قرارًا يسوّغ طلب أصحاب العريضة في إنشاء حكومة كرديّة تحت إشراف العصبة، ولمّا لم يكن لهذا الطّلب من مستند في أعمال مجلس العصبة فلا يمكن تفسير المقرّرات التي توصل إليها مجلس عصبة الأمم في ١٦ كانون الأول ١٩٢٥ تفسيرًا خاطئًا، لأنّ تلك القرارات تقضي بمعاملة الأكراد معاملة خاصة...»[٧].

حركات التّمرّد البارزانيّة ضدّ الحكومة العراقيّة في عام ١٩٣١

عندما فرضت الحكومة العراقيّة على الشّيخ أحمد البارزان ضريبة على الأغنام كما هو متبع في بقية أنحاء العراق، وأنّها تنوي إقامة مخافر لحفظ الأمن في المنطقة، وافق الشّيخ أحمد على دفع الضّرائب والرّسوم ولكنه رفض السّماح للحكومة بأن تبني مخافر للشّرطة في المنطقة، مما جعل الحكومة تعدّ هذا الرّفض تمرّدًا على السّلطة. ولقيام تمرّد آخر في السّلمانيّة بقيادة الشّيخ محمود في تشرين الأول ١٩٣١، اضّطرت الحكومة العراقيّة إلى تأجيل اتّخاذ إجراء ضد الشّيخ أحمد البارزان. ولكنّ الشّيخ أحمد البارزان باغت قائممقام الزّيبار، وبعض أفراد الشّرطة وأسرهم، فاستأنفت الحكومة الإجراءات التّأديبيّة ضدّ البرزانييّن في تشرين الثّاني ١٩٣١، وأصدرت الحكومة بلاغًا رسميًّا جاء فيه «كان أتباع الشّيخ أحمد بارزان قد أخذوا في الأونة الأخيرة يعتدون على القرى المجاورة لذلك فقد أوعزنا إلى أحد الأفواج العسكرية للقيام ببعض الإجراءات الأمنية فحدثت مصادمات بين المفرزة وأتباع الشّيخ أحمد أدت إلى وقوع ١٣ قتيلا مع ضابط و٩ جرحى من الجيش والشرطة وما يقارب ٢٠ قتيلا و٣٠ جريحا من الأكراد[٨].

إزاء ذلك قرر مجلس الوزراء في ١٢ كانون الثّاني ١٩٣٢ إجراء الحركات العسكريّة في منطقة بارزان لتوطيد الأمن فيها، ورافق ذلك تحرّكات عسكريّة سريعة للتّأثير على معنويات العشائر التّابعة للشّيخ أحمد البارزان وبعد أن فقد سيطرته على العشائر اضّطر الشّيخ أحمد البارزاني بعد تدهور موقفه أمام القوات الحكوميّة إلى العبور نحو تركيا وتسليم نفسه إلى سلطاتها في ٢٢ حزيران ١٩٣٢، وبذلك انتهت الحركة البارزانية الأولى[٩].

الانقلاب العسكريّ في العراق في عام ١٩٣٦

قام الجيش العراقي بالقضاء على الفتن والاضطرابات التي حدثت في مناطق

مختلفة من العراق خلال مدة (١٩٣٥ – ١٩٣٧) كقمع حركة الشّيخ محمود في السّلمانيّة، وحركات الفرات الأوسط، وتمرّد الأيزيديين في جبل سنجار، وأدّى ذلك إلى استياء بعض الضّباط الذين ظهرت لديهم نزعة لإحداث تغيرات في نظام الحكم في العراق وإسقاط الحكومة وهذا ما حصل بانقلاب الفريق بكر صدقي وحكمت سليمان ضد وزارة ياسين الهاشمي في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٦، وعُزلت الوزارة، وتشكلت حكومة انقلابيّة، وقد طلب نوري السّعيد تدخل بريطانيا وقواتها، لإنقاذ الموقف، فردّ عليه السّفير أنّ الحركة داخليّة، وأنّها لا تستهدف الملك ونظام الحكم الملكيّ، ولو أنّها استهدفت شيئًا من ذلك لأسرعت حكومته إلى أداء رسالتها[١٠]. وقد بدأ بعض الأكراد بالتّحرك على بعض الشّخصيات من الفرات الأوسط لتقسيم العراق، وحثّهم على الموافقة على مشروع «جنوبهم لهم، وشمالكم لكم»، للقيام بتحرّكات بتنسيق بين الأكراد مع الفراتيين، وقد رفضت المناطق الجنوبيّة والفرات الأوسط هذا المشروع، وقد ردّ السيد محسن أبو طبيخ على المقترحات الكرديّة «أعلم أيها الصديق الغالي، أنّ الفراتيين لا يكرهون الحكومة، وإنّما يكرهون الموظفين منها، الذين أساؤوا في الإدارة والتّصرفات المخالفة للأنظمة والقوانين، وإذا ثاروا فلا يثورون إلا على أولئك الأمراء والمأمورين الطائشين الذين أساؤوا للبلاد وأكثروا فيها الفساد»[١١].

وهكذا، ظهرت بعض النّزعات من قادة الانقلاب بالابتعاد عن الاتّجاهات القوميّة، والسّبب أنّ بكر صدقي كان من الأكراد وحكمت سليمان تركماني الأصل كان يميل إلى الحركة الطورانية ومصطفى كمال أتاتورك، ولهذا في ١٩٣٧/٦/١٩ استقال أربعة وزراء من وزارة حكمت سليمان وهم كمال الجادرجي ويوسف إبراهيم وصالح جبر وجعفر أبو التمن[١٢].

ويتبين أن بريطانيا لم تقف ضد هذا الانقلاب لأنها كانت تريد إبعاد العراق عن الحركات القوميّة، وخصوصًا بعد تصاعد المدّ القومي بالعراق الدّاعي إلى إبعاد النّفوذ البريطانيّ، والاعتماد على الدّعم الألماني في تحرير العراق من السّيطرة البريطانيّة. وكذلك نجح حكمت سليمان بالتّقرب من بريطانيا بعدم التّدخل بمصالح بريطانيا النّفطية لذلك لم يوافق على مذكرة كامل الجادرجي وزير الاقتصاد والاتّصالات حول مشروع تعديل وضع امتيازات النفط والعقود الخاصة بشركة نفط العراق البريطانيّة، والذي دعا إلى حلول عملية لسد الثّغرات التي كانت تستعملها الشّركات الأجنبيّة على حساب مصلحة العراق، إلاّ أنّ هذه المذكرة ظلّت مجمّدة في مكتب رئيس الوزراء من دون جواب[١٣].

الأكراد وثورة مايس في العراق ١٩٤١

تصاعدت الأزمة السّياسيّة التي نشبت بين الحكومتين العراقيّة والبريطانيّة بسبب موقف العراق من الحرب العالمية الثّانية، ومحاولة بريطانيا الاستفادة من المعاهدة العراقيّة البريطانيّة، إذ كان على العراق أن يقدّم لبريطانيا جميع التّسهيلات مثل استخدام بريطانيا للأراضي العراقيّة في عملياتها العسكريّة واستعمال وسائل النّقل وغير ذلك، وقد تفاقمت الأوضاع مع تحرّك العقداء الأربعة ويونس السبعاوي ومفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني للقبض على الوصي عبد الإله، ولكنّه تمكّن بمساعدة المفوضيّة الأمريكيّة في بغداد والجيش البريطانيّ في قاعدة الحبانيّة، من الهروب خارج العراق والتحق به، بعد ذلك عدد من رؤساء الوزرات السّابقين وهم نوري السّعيد والمدفعي والأيوبي. حين تأزّم الوضع بين العراق وبريطانيا، وألّف الكيلاني ما سمّي حكومة الدّفاع الوطني، أجمعت الأطراف الوطنيّة كافة على تأييد الحكومة العراقيّة في موقفها تجاه المطالب البريطانيّة التي تمسّ السيادة الوطنيّة. وساند بعض قادة العشائر الكرديّة حكومة الدّفاع الوطني التي شكّلها رشيد علي الكيلاني مع العقداء الأربعة في نيسان عام ١٩٤١ من خلال البرقيات التي أرسلها عبد الله الدّوسكي ورئيس الشّرفان وسعيد أغا رئيس عشائر الدّوسكي جاء فيها «رؤساء الأكراد وعشائرهم في الموصل يؤيدون حكومة الدّفاع الوطني ويساندونها بأرواحهم ودمائهم، يحيا الجيش الباسل»[١٤] كما أعلن كل من طالب شيخ قادر الطّالباني وعبد القادر الطّالباني... وغيرهم تأييدهم لحكومة الدّفاع المدني وبدأت وفود العشائر الكرديّة تصل إلى بغداد تباعًا لعرض ولائها لحكومة الدفاع الوطني، ومع اندلاع المواجهة العسكريّة بين العراق وبريطانيا في ٢ مايس ١٩٤١ أبرق محمود صالح بك أحد رؤساء عشيرة برادوست إلى الكيلاني ببرقية أعلن فيها رغبة رؤساء عشائر برادوست في الجهاد ضد الاعتداء البريطانيّ[١٥].

وكان إخفاق ثورة مايس وعودة الوصي عبد الاله إلى مقاليد السّلطة من جديد في الأوّل من حزيران ١٩٤١، قد دفع العديد من رؤساء العشائر الكرديّة إلى التّرحيب بهذا الحدث وتغيير البعض موقفه إزاء مساندة حكومة الدّفاع الوطني. بعد إحباط حركة مايس ١٩٤١، وعودة نفوذ البلاط الملكي والسّيطرة البريطانيّة المباشرة، أرسلت بريطانيا للعراق عددًا من المثقفين البريطانيّين من أجل التّغلّب على الدّعاية النّازية والفاشستيّة التي طغت على الأوساط العراقيّة في عهد العقداء الأربعة ومن جانب آخر، كان الملحقون في السّفارة

البريطانيّة يتصلّون مع الشّخصيات العراقيّة في الجنوب والشّمال للتّرويج لسياستها العسكريّة[١٦].

حركة الشّيخ محمود الثّاني ١٩٤١

تجدّدت آمال الأكراد في «الحكم الذاتي» بعد نشوب الحرب العالمية الثّانية نتيجة لتنامي الرّوح القوميّة في صفوف العناصر المثقفة من الأكراد، وظهور الجمعيات الكرديّة ومنها حزب هيوا (الأمل)[١٧] الذي حاول استغلال الخلاف بين الحكومة العراقيّة في عهد الكيلاني والحكومة البريطانيّة للقيام بحركة مسلّحة، إلا أنّ الشّيخ محمود تخلّى عن خطته بعد إخفاق ثورة مايس وعودة الوصي عبدالاله في ظل الحماية البريطانيّة[١٨]. وقد حشدت الحكومة العراقيّة قواتها في أطراف السّلمانيّة وأعلنت الأحكام العرفيّة فيها في محاولة لردع الشّيخ محمود الثّاني عن تحركاته العسكرية وخصوصًا مع حصولها على مساندة القوّات العسكرية البريطانيّة التى وصلت للعراق للقضاء على ثورة مايس ١٩٤١[١٩].

وقد حثّ أدموندز (مستشار وزارة الداخلية العراقيّة) الحكومة العراقيّة للتّفاوض مع الشّيخ محمود الثّاني، وكانت مطالب الشّيخ محمود الثّاني تتضمّن ممارسة الأشراف والسّيطرة الكرديّة على قضايا الأمن والنظام في إربيل ودهوك والسّلمانيّة، وإدارة هذه المنطقة من قبل لجان تضم مواطنين أكراد، وتشكيل قوّة متطوّعة منهم للقيام بواجبات الحراسة في المناطق الحدودية. فرفضت حكومة المدفعي آنذاك مطالب الشّيخ وعدّتها خطوة باتّجاه الحكم الذاتيّ. ولاشك أنّ الظّروف التي كانت سائدة آنذاك حملت الشّيخ محمود الثّاني عن التّخلّي عن فكرة الاصطدام مع القوّات العراقيّة التي تدعمها القوات البريطانيّة. وقد علّق كورنواليس على موقف الحكومة العراقيّة بقوله: «لم تقبل الحكومة العراقيّة هذه المقترحات التي رأت فيها خطوة نحو الحكم الذّاتي، كما أنّ الشّيخ محمود بنظرته القبليّة وطبيعته المراوغة لم يكن من الطّراز الذي يجري معه عقد أي اتفاق[٢٠].

وقد اتّخذ كورنواليس السّفير البريطانيّ في بغداد من الشّيخ محمود الثّاني موقفًا متشدّدًا، وقد برز هذا الموقف من خلال رسائله إلى الخارجيّة البريطانيّة التي أشار فيها أنّ «كره الشّيخ محمود للعرب» وتعاطفه مع «الحكم الذاتي» تصاعد إلى حدّ الهوس، وقد أرسل الشّيخ محمود الثّاني رسولاً موثقًا إلى كورنواليس إلا أنّ هذا الأخير أرجع الرّسول بتحذير الشّيخ محمود الثّاني من أي نشاطات تضرّ باستقرار المنطقة[٢١].

اعتمدت سياسة بريطانيا على عدم حدوث تغيرات حدوديّة قد تؤثّر على المجهود الحربي البريطانيّ في الحرب العالمية الثّانية، واستغلت بريطانيا إخفاق ثورة مايس ١٩٤١، واتّخذتها ذريعة لاحتلال العراق احتلالاً ثانيًا ولتحكم قبضتها على جميع الشؤون السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والإداريّة والفكريّة في العراق وذلك عن طريق سفارتها ودوائر العلاقات العامة التابعة لها وضباط الارتباط البريطانيّين وعملائها المنتشرين في أنحاء العراق كافة[٢٢]، كما عمدت سلطات الاحتلال البريطانيّ إلى احتواء وتحجيم قدرة وفاعلية الجيش العراقيّ طيلة المدة المتبقية من الحرب العالمية الثّانية؛ بل وحتى نهاية الحرب العالمية الثّانية، فإن بريطانيا وجهّت شؤون العراق بما يخدم مصالحها العسكرية [٢٣].

ومن الأهمية بمكان القول، إنّ البريطانيّين كانوا يتجولّون في المناطق الكرديّة لتنفيذ مخططاتهم، فأخذ ضباط الارتباط يتجولّون في القرى ويحاولون الاتصال ببعض أفراد العشائر الكرديّة. كما كان البريطانيّون العاملون في شركة نفط العراق في كركوك يوثقون علاقاتهم بعدد من رؤساء العشائر الكرديّة فكان جبمن «Gibman» ضابط ارتباط لشركة النفط المذكروة يتصل شخصيًّا أو بالواسطة ببعض رؤساء العشائر لبثّ الدّعاية الإيجابية لبريطانيا في مناطقهم عن طريق الثّناء على مواقفها كما نشط في هذا المجال أيضا القنصل البريطانيّ في منطقة ديانا[٢٤] كما مارس شوتر «Shutar» ضابط الارتباط البريطانيّ في السّلمانيّة الأسلوب نفسه لجبمن «Gibman»[٢٥].

انعكس تأثير الحرب العالمية الثّانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) على المناطق الكرديّة اقتصاديًّا وسياسيًّا اذ لم تنل اكتراث الجهات المسؤولة فضلاً عن قلة المخصّصات الحكوميّة التي كانت للعائلة البارزانيّة، ومنهم الشّيخ أحمد البارزاني وأخوه الملا مصطفى[٢٦] والمقيم في السّلمانيّة[٢٧]، ودفعت هذه العوامل الملا مصطفى مع ثلاثة من أتباعه إلى مغادرة السّلمانيّة خفية في تموز ١٩٤٣، متنكرًا بزي عالم دينيّ قاصدًا بارزان بعد أن ترك مقر إقامته الجبرية في السّلمانيّة[٢٨]، وبمساعدة حزب هيوا (الأمل)[٢٩]. وقد أشارت بعض المصادر أنّ ضباط الارتباط البريطانيّين تساهلوا مع انتقال الملا مصطفى؛ بل حتى ساعدوه في الحصول على بعض السلاح[٣٠]، كانت بريطانيا تقوم بدور مزدوج بين الحركة الكرديّة والحكومة العراقيّة. طالب السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس إزاء هذه الحركة الحكومة العراقيّة بتبني سياسة متعاطفة تجاه

الأكراد والعمل على حل مشاكلهم كافة بالوسائل السّلميّة، كما أشار بضرورة تطوير الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والإداريّة في المنطقة الكرديّة، والنّظر في الشّكاوى والمظالم التي رفعها الملا مصطفى البارزاني وأتباعه كما نبه كينهان كورنواليس حكومة العراقيّة إلى أن بريطانيا لن تساعد الجيش العراقي في أعماله ضد الأكراد ما دامت الحكومة العراقيّة متورطة في المناطق الكرديّة، ودعا إلى تسوية المسألة مع الأكراد بصورة دبلوماسية لأنّ الأمن على حد قوله قضية تهم الحكومتين العراقيّة والبريطانيّة معا[٣١].

واقترح كورنواليس على أن يقوم ادموندز (مستشار وزارة الداخلية) بالكتابة للملا مصطفى بارزاني ونصحه بقبول عرض الحكومة العراقيّة للسلام[٣٢]، واستجاب الملا مصطفى بارزاني لنصيحة ادموندز وهو من أشار إليه كينهان كورنواليس في تقريره المؤرخ في ٣ تشرين الثّاني ١٩٤٣ بقوله: «خلافًا لما كان متوقعًا في الأسبوع الماضي يظهر الملا رغبة في قبول عروض الحكومة العراقيّة بالعفو والنظر في شكواه»[٣٣].

ويظهر أنّ موقف كينهان كورنواليس هذا لم يكن نابعًا من عطفه على الأكراد ومع قضيتهم بقدر ما كانت بريطانيا تهتم بمصالحها بإبقاء الأوضاع متوازنة بين طرفي النّزاع الحكومة العراقيّة – والأكراد وعدم حسم الصّراع لصالح أحدهما بشكل نهائيّ من جانب، ومن جانب آخر كانت ترغب في توظيف القدرات الاقتصاديّة والعسكريّة العراقيّة لدعم المجهود الحربيّ البريطانيّ في الحرب العالميّة الثّانية.

وإزاء ذلك هيمنت على رئيس الوزراء نوري السّعيد الهواجس بأن هناك دورًا بريطانيًا غامضًا في الحركة الكرديّة التي يقودها الملا مصطفى البارزاني، الأمر الذي دفعه إلى إظهارمخاوفه هذه إلى ادموندز الذي نقل هذه الأفكار التي طرحها رئيس الوزراء نوري السّعيد بدوره إلى كينهان كورنواليس، إلاّ أنّ الأخير كتب إلى الخارجية البريطانيّة قائلاً: يميل رئيس الوزراء نوري سعيد – إلى الاعتقاد بأنّ هناك مؤامرة كرديّة كبيرة وراء كل هذا، وقد أعرب لادموندز بأنّ الحكومة البريطانيّة قد تكون لديها سياسة غير معلنة فيما يتعلّق بأكراد العراق... ولقد كلّمته بصورة جدية بأن التّفكير بمثل هذه الشّكوك غير صحيح[٣٤].

وأقدم رئيس الوزراء نوري السّعيد على القيام بجولة في عدد من الألوية الشّماليّة، وكان تحرّكه هذا بناء على نصيحة بريطانيّة لإيجاد تسوية سلميّة لهذه الحركة بالتّفاوض مع الملا مصطفى بارزاني لمنحه موقفًا متميزًا في أوساط الأكراد[٣٥]. كما

طلب السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس شخصيا من نوري السّعيد والوصي عبد الاله أن يحاولا معالجة المشكلات بسرعة وبالطّرق السّلميّة، وذلك تحسّبًا لمضاعفتها بسبب أوضاع المنطقة الكرديّة المضطربة[٣٦]. وفي ٢١ كانون الأول ١٩٤٣، أرسل السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس تحذيرًا للملا مصطفى بارزاني يدعوه فيه إلى التزام الهدوء والسّكينة، ويأمره بالكف عن مهاجمة المراكز الحكوميّة في المناطق الشماليّة لأنّ تلك التّصرّفات حسب قوله تثير لبريطانيا اضطرابات هي في غنى عنها ومما جاء في تلك الرّسالة: «إنّك تجاوزت الحدود باستعمالك السّلاح ضد قوّات الجيش والشّرطة، وإن عليك إيقاف القتال فورًا وطلب العفو والتّفاهم مع الحكومة العراقيّة، وإنّ عدم إيقافك القتال يعني وقوفك ضد بريطانيا». وبعد ستة أيام من استلام الملا مصطفى بارزاني الرّسالة، أرسل ردا إلى السّفير تعهد فيه بالحفاظ على السّلام واستعداده لفعل ما يؤمر به إذا ما حصل على عفو عام وأفرج عن أتباعه، وبحث المطالب التي شكا بأنّ الحكومة العراقيّة لم تأخذها بنظر الاعتبار[٣٧]. أدركت بريطانيا بأنّ تأثير الحركة قد امتد ليشمل المنطقة الواقعة بين العماديّة وعقرة وراوندوز والحدود الإيرانية والتّركيّة، وإنّ عدم التّوصل إلى حلّ لها بين الحكومة والملا مصطفى بارزاني قد يؤدي إلى انتشارها في إيران وتركيا ومن الممكن أن يحصلوا على دعم السوفيت الذين كانوا يحتلون شمال إيران وبالألمان الذين يرغبون في إضعاف النفوذ البريطانيّ في العراق[٣٨].

وفي ٢٥ كانون الأول اجتمع مجلس الوزراء العراقي وقرر إرسال وزير الدولة ماجد مصطفى (وهو ذو أصول كرديّة) للمنطقة الكرديّة للتفاوض مع الملا مصطفى بارزاني ومعرفة أهم مطالب الحركة الكرديّة. ولقد توالت المناقشات حتى توصل الطرفان إلى عقد صلح تعهدت فيه الحكومة العراقيّة بتنفيذ مطالب الملا مصطفى البارزاني والقاضية بالسماح للشيخ أحمد البارزاني بالعودة إلى بارزان وتجهيز المنطقة الكرديّة بكافة المواد الغذائية والملابس بناء على نصيحة بريطانية في محاولة لإعطاء الملا وأتباعه أهمية كبرى في المنطقة كوسطاء في نقل ما يمكن نقله من مواد التموين إلى المناطق الكرديّة المختلفة. وبالمقابل تعهد الملا مصطفى البارزاني بتسليم كافة أفراد الشرطة والجيش الذين بحوزته، وأن يعيد كافة الأسلحة التي غنمها في أثناء مهاجمته المخافر الحكومية[٣٩] .

هذا، وقد قام ماجد مصطفى في جولة في الألويّة الشّماليّة والتقى بالمستشار

السّياسيّ البريطانيّ في كركوك لاين «Line» وتباحث معه حول القضية الكرديّة بتوجيه من السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس، اتفق الطّرفان على التّحرّك في أوساط العشائر الكرديّة لتقديم مطالبهم باسم الشّعب الكرديّ للحكومة العراقيّة[٤٠].

ومن هنا، وعلى قاعدة السّيطرة الاستعماريّة، راحت بريطانيا تحوّل القضية الكرديّة إلى ورقة للمساومة مع الحكومة العراقيّة، فقد هيأت سلطات بريطانيا بوصفها سلطاتٍ مرجعيةً قادرة على حل المشكلات التي تواجهها الحكومة العراقيّة، ولما كان الهدف الأعلى لبريطانيا المحافظة على مصالحها الاقتصاديّة في العراق وجني الفائض المالي من الثّروات النّفطيّة والزّراعيّة وتسخير الموارد العراقيّة لدعم مجهودها الحربي في الحرب العالمية الثّانية في محور الشرق الأوسط.

وعلى ما يظهر أنّ النّفوذ البريطانيّ كان له تأثير كبير، ففي ٢٢ شباط وصل الملا مصطفى بارزاني مع بعض مرافقيه إلى بغداد والتقى بالوصي عبد الاله، وقدّم له فروض الولاء، واتّفق على أن يسكن البارزاني بعيدا عن منطقة بارزان[٤١].

وفي ٢٦ شباط زار الملا مصطفى البارزاني السّفارة البريطانيّة مع عدد من الشّيوخ الذين قدموا معه إلى بغداد بموجب توجيه من ماجد مصطفى. وبخصوص هذه الزّيارة كتب السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس تقريرًا للخارجيّة البريطانيّة شرح فيه تفاصيل زيارة البارزاني للوصي وتعهدات الحكومة العراقيّة بتحسين الإدارة في المناطق الكرديّة ثم ختم رسالته بالقول «إنّ الشّروط التي تمت بموجبها تسوية المسألة بين الحكومة والملا مصطفى البارزاني كانت بطبيعة الحال توحي بضعف الحكومة[٤٢].

ومن جهتة أبلغ السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس الملا مصطفى بارزاني بأنّ الحكومة العراقيّة الجديدة التي ستُشكّل عن قريب[٤٣] سوف تعمل على تحسين الأوضاع الاقتصاديّة والمعيشية في المنطقة الكرديّة وبالمقابل فقد تعهّد الملا مصطفى البارزاني للسّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس بأنّه سوف يحافظ على الهدوء والاستقرار والالتزام بكافة شروط الصّلح التي عقدها مع ماجد مصطفى[٤٤].

هذا، وإنّ الخلافات تجدّدت بين الطّرفين بعد مغادرة الملا مصطفى بارزاني بغداد متوجها إلى بارزان في آذار ١٩٤٤، بحجة جمع الأسلحة وتسليمها للسّلطة. ومن هناك أرسل الملا مصطفى بارزاني رسالة خطيّة إلى السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس يشكو فيها عدم إيفاء الحكومة العراقيّة بجميع الوعود التي قطعتها له. كما انتقد الملا في رسالته الإجراءات التي تقوم بها

القوّات العسكريّة الحكوميّة العراقيّة في المنطقة الكرديّة أيضًا مشيرًا إلى وجهة نظر الحكومة البريطانيّة وعدم معارضتها لتلك الإجراءات، وختم الرسالة قائلاً: بأنّه سوف يتهيأ هو وأتباعه لكي يستردوا حقوقهم بأيديهم إذا تطلب الأمر ذلك[٤٥].

وفي ضوء هذه التطورات اضطر نوري السّعيد وماجد مصطفى إلى السّفر إلى المناطق الكرديّة واجتمعا هناك بالأكراد الذين أيدوا بدورهم مطالب الملا مصطفى بارزاني ومنها مطالبتهم للحكومة بالقيام بالإصلاحات الاجتماعيّة في المنطقة الكرديّة[٤٦]. فوعد السّعيد بتنفيذ هذه المطالب، إلاّ أنّه جوبه بمعارضة واسعة من قبل الوصي وبعض الوزراء فكان ذلك من الأسباب التي أدّت لاستقالته[٤٧].

لم يلبث السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس أن قدّم مذكرة للحكومة العراقيّة الجديدة برئاسة حمدي الباجه جي ومن خلالها نصحهم بضرورة اتّباع سياسة تعاطف إزاء الأكراد، وعلى استئناف الإصلاح من النّقطة التي توقّف عندها نوري السّعيد، كما أكّد السّفير أيضًا بأنّه وأعضاء سفارته مساند للحكومة العراقيّة للقيام ببرنامج متطوّر في التّعليم والخدمات الاجتماعيّة في المناطق الكرديّة، ووجوب إعطاء الأكراد فرصة مؤاتية لإشغال مقاعد حكوميّة. وأضاف السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس في مذكرته هذه بأنّ السّياسة البريطانيّة تجاه الأكراد تنسجم مع مصالح المملكة العراقيّة[٤٨].

هذا، وقد صعد الملا مصطفى البارزاني من نشاطه لتوسيع دائرة حركته فبدأ بجولات واسعة في المناطق الكرديّة، واتّصل في جولاته هذه بجميع رؤساء القبائل القوية وقد أسفرت هذه الجولات بحصوله على تأييد بعض زعماء العشائر، في حين فشل في مساعيه لإقناع رؤساء آخرين للانضمام إلى جانبه فقد أصر هؤلاء على بقائهم موالين للحكومة ورفضوا التوقيع على أي حلف معه، ومنهم كلحي اغا (رئيس قبيلة الريكان) ومحمد اغا ولاش (رئيس قبيلة بالك) والشّيخ رشيد لولان ورؤساء قبائل السورجية والهركية وبعض رؤساء الزيبارين[٤٩]. أدّت تلك التّحركات إلى تصاعد التّوتر في المنطقة الكرديّة في كانون الأول ١٩٤٤، عندما طالب الملا بتنفيذ الوعود التي وعدهم بها نوري السّعيد والإفراج عن المعتقلين الأكراد، وتعيين وزير كرديّ في بغداد مع منحه صلاحيات واسعة[٥٠]. توالت الاضطرابات في المنطقة الكرديّة مع إصرار الملا مصطفى البارزاني على التّمسك بهذه المطالب وهنا، حاول السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس إيقاع اللوم على الملا ونعته بنعوت قاسية ومنها أنّه «لا يهمه

انتعاش الأكراد بقدر ما يهمه الحفاظ على نفوذه الإقطاعي». كما حذّر الملا مصطفى إنّه اذا استمر في «أن يكون مصدرًا للإزعاج « فلن يكون هناك مسوّغ لمنع الحكومة العراقيّة من اتّخاذ إجراء عسكريّ ضده بشرط أن تتّخذ الإجراءات العسكريّة بعد أن تقرّرها البعثة العسكريّة البريطانيّة[٥١] كما حذّره من عدم توقع أي مساندة بريطانية بشأنه[٥٢].

ومن الأهمية بمكان القول إنّ عام ١٩٤٥، شهد تحوّلاً في الموقف البريطانيّ من الحركة الكرديّة المسلحة، إذ بدأ المسؤولون البريطانيّون يقابلون مطالب الملا مصطفى البارزاني ومراسلاته بالفتور، وعدم الاهتمام وخصوصًا بالنسبة إلى السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس[٥٣]. وفي سياق هذا الموقف أرسل إلى السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس معاون المشاور السّياسيّ الكابتن استوكس إلى بارزان لإيصال رسالة منه إلى الملا مصطفى بارزاني قبل مغادرته بغداد بعد انتهاء مهام عمله كسفير لبلاده في العراق ٢٠ اذار ١٩٤٥، فوصل الكابتن استوكس يوم ٢٥ اذار ١٩٤٥، قرية هادويان إذ التقى الملا مصطفى البارزاني هناك وسلّمه الرّسالة التي تضمّنت إشارة إلى أنّ الجيش العراقي والبريطانيّون سيقومون بتدريبات عسكريّة قرب منطقة بارزان وليس في التدريبات، أي صبغة سياسيّة تستدعي قلق أو شك البارزانيين، كما نصحه بوجوب عرض الطّاعة وتنفيذ الأوامر الحكوميّة ولزوم عودة الضّباط[٥٤] إلى وحداتهم. وختم السّفير البريطانيّ كينهان كورنواليس رسالته إلى الملا مصطفى بارزاني بقوله: نصيحتي الأخيرة لك أن عليك أن تدرك بأنّ أيام الاضطرابات أصبحت ماضية فأنت وشعبك لديك أصدقاء لكنّهم سوف يساعدونك فقط بوسائل سلميّة. ويجب أن تعلم أنّنا في الوقت الحاضر في حالة حرب، فكل من يساعدنا في هذا العمل يكون صديقنا وكل من يعيقنا يكون عدونًا[٥٥].

انطلاقًا مما ذكر سابقًا، نجد مع اقتراب نهاية الحرب العالمية في ١٩٤٥ وتحقيق بريطانيا انتصارات مهمة على ألمانيا في الجبهات كافة، بدأت تكون أكثر حزمًا مع الأكراد. وفي نيسان ١٩٤٥، استبدل السّفير البريطانيّ في العراق كينهان كورنواليس بآخر وهو ستونو هير بيرد «S. Bird» وأكد الأخير أنّ موقف سلطات الاحتلال البريطانيّ من الحركة الكرديّة هو ذاته وأنّه سيستمر عليه[٥٦].

وانسجامًا مع هذا الموقف عقد الميجر مور معاون المشاور السّياسيّ في كركوك لقاءً مع الشّيخ أحمد والملا مصطفى البارزاني في منطقة بارزان في ٢٥ نيسان

١٩٤٥، وفي هذا اللقاء استهل مور حديثه مع الشّيخ أحمد بعبارة «باسم سفير بريطانيا أطلب إليكم إلقاء السّلاح والالتزام بأوامر الحكومة» وكان رد الشّيخ أحمد يفصح عن شدة تأثرة إذ قال «إنّنا لا نستلم الأوامر من سفير بريطانيا ومتى ما رأينا العشائر المجاورة لنا تلقي سلاحها عندئذ سنحذو حذوها ولن نتردّد[٥٧].

تحوَّلت سياسة الملا مصطفى بعد هذا اللقاء إلى عدّ العدّة لمواجهة مسلّحة ضدّ الحكومة العراقيّة من خلال تحركاته في المناطق الكرديّة[٥٨]، وقد أشار السّفير البريطانيّ ستونو هير بيرد لحركات مصطفى البارزاني وعدّها خطة مدبّرة لإيقاد حماس الأكراد على نطاق واسع[٥٩]. تزامنًا مع هذه التحركات قامت بعض الاضطرابات كالإغارة على المخافر الحكوميّة في كاني رش ومركه سور فضلاً عن تعرّضه إلى بعض القبائل الكرديّة الموالية للحكومة مثل البسفكية والميزورية مستعينًا بخبرة بعض الضباط الأكراد الذين انضموا تحت لوائه[٦٠].

كما شرع حزب هيوا «الأمل» في الاتّصال ببعض الضّباط الأكراد في الجيش العراقيّ من أجل دفعهم للانضمام للحركة الكرديّة المسلحة فكان ممن اتّصل بهم الرّئيس عزيز عبد الشمريني ومير حاج أحمد والمقدم أمين راوندوزي وضباط الارتباط الأربعة وهم كل من مصطفى خوشناو وعزت عبد العزيز وخيرالله عبد الكريم ومحمد القدسي[٦١].

ويبدو أنّ هذه التّطورات أزعجت بريطانيا فعمدت إلى توجيه رسائل الإنذار والتهديد للملا مصطفى البارزاني. ففي ٢٩ تموز ١٩٤٥، كتب المشاور السّياسيّ للقوّات البريطانيّة للملا قائلاً: «لقد أمرني فخامة السّفير البريطانيّ أن أعلمك بأنّ تصرفاتك قد أصبحت متعبة. ويجب أن تبرّ بوعودك وتكفّ عن حركاتك التي ستؤدي أخيرًا إلى اتّخاذ الإجراءات ضدك من قبل الحكومة العراقيّة. إنّي أرغب أن أبين لك بوضوح تام أنّ هذه هي المرة الأخيرة التي تنوي السّفارة البريطانيّة إنذارك»[٦١].

وهكذا، تقاربت وجهات النّظر العراقيّة والبريطانيّة في ضرورة احتواء الحركة الكرديّة بالمفاوضات والمناورات الدبلوماسية ما أمكن، ولكن في حالة فشل الحلول السّلميّة يجب قمع الحركة بالقوة العسكرية. وفي ٨ آب ١٩٤٥، وضعت الحكومة العراقيّة الخطة التي أشار لهم بها رئيس البعثة العسكرية البريطانيّة والمفتش العام للجيش العراقي الجنرال رنتون «Rinton» لاحتلال منطقة بارزان موضع التنفيذ وشرعت إثرها القوّات الحكوميّة بعملياتها الحربيّة لضرب الحركة الكرديّة[٦٢]. بمساعدة القوّة الجويّة

البريطانيّة[٦٣] بعد أن كانت قد أكملت تحشداتها في عقرة وراوندوز وايبديا ورانية وميركة سور، ثم ما لبثت القوّات الحكوميّة أن سيطرت على مناطق عقرة وراوندوز والعمادية بعد خوضها معارك مع قوات الحركة الكرديّة. وفي ٥ تشرين الأول ١٩٤٥، سيطرت القوّات الحكوميّة على منطقة بارزان[٦٤] وفي ١٣ تشرين الأول ١٩٤٥، أعلن سيطرة القوّات العراقيّة منطقة شيروان مازن وجامة بعد إخراج البارزانيين من آخر معقل وانسحابهم بقيادة الملا مصطفى بارزاني وأخيه أحمد في ١٤ تشرين الأول ١٩٤٥، إلى داخل الحدود الإيرانية وعدّ ذلك بمثابة نهاية الحركات العسكريّة[٦٥].

الخاتمة:

تلازمت الاهتمامات الأوروبيّة بالسّيطرة على العراق مع التّحوّلات والتّطورات التي عرفها الاقتصاد السّلعي في أوروبا، والذي راح يسجّل بعد القرن التاسع عشر قفزات متسارعة في سلم الرّأسماليّة، بفضل التّراكمات الإنتاجية، الأمر الذي تسبّب ببدء السّباق الاستعماري البريطانيّ – الألماني للفوز بالعراق وجعله سوقًا لبضائعهما، ومع ظهور النّفط في شمال العراق سعت كل من الدّولتين ترافقهما الطّموحات الفرنسيّة والتّركيّة في الموصل للدخول في سباق محموم للهيمنة على هذا البلد الغني.

تناول هذ البحث أحداث التّدخلات البريطانيّة في الشؤون العراقيّة بين عامي (١٩٢٤ – ١٩٤٥)؛ إذ أوضحت المعلومات أن مواقف بريطانيا كانت متساهلة تجاه القضية الكرديّة في العراق، فمن النّاحية السّياسيّة لم يقتصر هذا التّساهل على عهد الانتداب، فقد استمر في عهد الاستقلال، لا سيما أنّه انتهج سياسة، هدفت إلى إضعاف الطّرفين الأكراد والجيش العراقي فمن جهة لم تكن لدى بريطانيا حتى انتفاضة الشّيخ محمود الثّاني – أي خطط تسهم في إيجاد حل للقضية الكرديّة؛ بل عارضت العديد من المقترحات العراقيّة التي تدعو إلى ذلك وتجاهلتها، ومن جهة أخرى لم تتّخذ أيه مبادرة فعلّيًا في مشروع سياسي يتعلّق بمعالجة القضية الكرديّة.

ويتّضح أنّ بريطانيا – كورقة ضغط على الحكومة العراقيّة، – كانت تريد استعمال المشكلة الكرديّة كسلاح في المفاوضات بينها وبين الحكومة العراقيّة، وما يشير إلى استمرار المساومات البريطانيّة في القضية الكرديّة، إبقاء ضباط ارتباط بريطانيين في شمال العراق، وهذا ما حدا ببريطانيا إلى زيادة الاهتمام بتمتين الروابط مع الملا مصطفى البارزاني وبين السّفير البريطانيّ في بغداد. وهذا يعني السّماح لنشاطها في التّزايد بحسبان بريطانيا تقف مع الأكراد. إنّ نشوء المملكة

العراقيّة الحديثة ووقوعها تحت الانتداب البريطانيّ وانتقالها من الانتداب إلى الاستقلال له العديد من التداعيات التي فرضت نفسها في داخل العراق والتي أثرت في بناء المؤسّسات السّياسيّة والاجتماعيّة والإدارية فيما بعد وكانت الحركة الكرديّة من أبرز إن لم تكن من أهم ما رافق الدّولة العراقيّة من صعوبات منذ تحوّلها من الانتداب إلى الدّولة وخاصة مع التّدخل البريطانيّ في المشكلات الكرديّة وتحكمها ببعض زعماء الأكراد عن طريق تقديم الدعم الماليّ لهم.

هذا، وقد كانت المعاهدات العراقيّة – البريطانيّة تهدف في صيغتها إلى إيجاد ثغرات تستطيع بريطانيا من خلالها السّيطرة على الاقتصاد العراقي وعلى قاعدة الاقتصاد عمود السّياسة سعت بريطانيا إلى ربط القضية الكرديّة ببريطانيا وجعلت نفسها الماسك بزمام الأمور والمتحكّم بهذه المسألة – وعلى أي حال – لم يكن بوسع العراق التّخلّص من التّبعيّة الاقتصاديّة السّياسيّة البريطانيّة خوفًا من مساندة بريطانيا لحركات التّمرد الكرديّة المسلّحة والتي كانت بريطانيا تلقي اللوم على الحكومة العراقيّة والجيش العراقي مدعية استخدامهم الشدة في إخماد تلك الحركات.

في الواقع، انّ بريطانيا كانت تبحث عن نوع من الموازنة بين الحكومة العراقيّة ومطالب الأكراد وأنّها لا تستطيع أن تترك تحالفها الاستراتيجي الخاص مع الحكومة العراقيّة لأنّها تخضع في الأولوية مصالحها الخاصة التي يمكن ضمانها أكثر عن طريق التّعاون مع الحكومة المركزيّة في بغداد مع وجود ورقة ضغط كرديّة تحركها وقت اللزوم إذا حاولت الحكومة العراقيّة التّخلّص من الهيمنة البريطانيّة.

ومن الجدير بالذكر، إنّ شمال العراق مجاور لتركيا التي كانت ألمانيا تحاول أن تبث الدّعاية فيها وكانت بريطانيا تقوم بتموين تركيا بالوسائل المطلوبة وحمايتها ضد التّجاوز المحتمل الذي تقوم به ألمانيا ولذلك كانت بريطانيا تسعى إلى الحفاظ على علاقات متوازنة مع الأكراد تسهل لها حرية الحركة والتّنقل في المنطقة.

الواقع، أنّ بريطانيا سيطرت على العراق في أثناء الحرب العالميّة الثّانية بين (١٩٣٩ – ١٩٤٥) فأصبحت البلاد تحت ظلّ الاحتلال العسكري وكلّ ذلك كان مسوغًا بضرورات الحرب والضّرورة الاستراتيجيّة، التي كانت بريطانيا تستخدمها حجة للاستحواذ على القرار العراقي.

مصادر ومراجع البحث

١ – السويدي، توفيق: مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١١.

٢ – بارزان: وهي قرية صغيرة تقع في سفوح جبل شيروان الجنوبية وهي من قرى قضاء الزيبار بلواء الموصل تجاه اربيل وتحيط بها هضاب وتلول من جميع اطرافها وفيها بيوت بعضها من الطين والاخر من الحجر المنحوت. ويعلو هذه البيوت بيت شامخ يتكون من ثلاثة طوابق من الحجر المنحوت ويشرف على حضن القرية وهو بيت الزعيم الكرديّ «الشّيخ أحمر بارزان» الذي اتخذ من مناعة ووعورة منطقتهم مركز نشط. للمزيد من التفاصيل راجع. الظاهر، جواد: الوجيز في تأريخ العراق السّياسيّ الحديث، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠١١.

٣ – الخالدي، أنور فاضل: موقف القوى الوطنية العراقيّة من الاحتلال والنفوذ البريطانيّ، الرشاد، بيروت، ص١٦٣.

٤ – الحسني، عبد الرزاق:تاريخ الوزارات العراقيّة، ج٢، لا.ن، بغداد، ١٩٨٨، ص١٢٠.

٥ – العكيدي، عمار يوسف: السياسة البريطانيّة تجاه عشائر العراق ١٩١٤ – ١٩٤٥، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص٣٢٩.

٦ – المصدر نفسه، ص٣٣٠.

٧ – الظاهر، جواد: الوجيز، المرجع السابق، ص٤٢٠.

٨ – المرجع نفسه، ص٤٤٣.

٩ – الخالدي، أنور فاضل: موقف القوى، المرجع السابق، ص١٦٣.

١٠ – أبو طبيخ،جميل: مذكرات السيد محسن أبو طبيخ ١٩١٠ – ١٩٦٠، دار الفارس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص٣٥٣ ١١,

١١ – – زكي، مأمون أمين: ازدهار العراق تحت الحكم الملكي ١٩٢١ – ١٩٥٨، دار الحكمة، لندن، ص١٣٦ – ١٣٧.

١٢ – د.ك.و، البلاط الملكي، المسألة الكرديّة، الملفة ١١٤٣/ ٣١١.

١٣ – حديد، محمد: مذكراتي الصراع من أجل الديمقراطية في العراق، دار الساقي، بيروت، ص١٦٨.

أحمد، كمال مظهر: حول دور الشعب الكرديّ في انتفاضة مايس ١٩٤١ صفحة مجهولة من نضال الشّيخ محمود، صحيفة العراق، القسم الثّاني، العدد٤٠٥٠، ١٠ ايار ١٩٨٩.

١٤ – المرجع نفسه، القسم الثّاني.

١٥ – العكيدي، عمار يوسف:السياسة البريطانيّة، المرجع السابق، ص٣٣٢ – ٣٣٣.

١٦ – حديد، محمد: مذكراتي، المرجع السابق، ١٧٨.

١٧ – حزب هيو «الأمل»: وهو حزب تأسس كركوك عام ١٩٣٩، على أنقاض جمعية (داركه ر – الحطاب) التي قد تأسست سنة ١٩٣٦ في اربيل ومن ثم تحولت إلى حزب سياسي له مكانته البارزة في المجتمع الكرديّلمزيد من التفاصيل انظر العكيدي، عمار يوسف:السياسة البريطانيّة، المرجع السابق، ص٣٣٢ – ٣٣٣.

١٨ – الظاهر، جواد: الوجيز، المرجع السابق، ص٤٢١ – ٤٤٥.

١٩ – عمار يوسف:السياسة البريطانيّة، المرجع السابق، ص٣٣٨.

20 - F.O 371/270/78/E423/1/93, from k. corn wallis to Eedn, Baghdad, No, 185̃ 11/7/1941.

٢١ – عمار يوسف:السياسة البريطانيّة، المرجع السابق، ص٣٣٩.

٢٢ – زويد، عبد الرحيم ذو النون: العراق في

الحرب العالمية الثّانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥، كلية الاداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨، ص٢١٧.

٢٣ – البراك، فاضل: مصطفى البارازاني، الاسطورة والحقيقة، بغداد، ١٩٨٩، ص٩٥ – ٩٦.

٢٤ – الموسوعة العسكرية: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج١، بيروت، ١٩٧٧، ص١٨٠؛

AL - Haffou, M.Ghanim: L'Oppsition politique lrakienneet Les Mouvment-destribusaumoyen - Euphrate 1934-1936,Maitriseen Histoire contemporaine, Iraq. University de poitiers, France, 1979, p204.

٢٥ – شريف، عبد الستار طاهر: موجز تاريخ الحزب الثوري الكردستاني، بغداد، ١٩٧٧، ص٧.

٢٦ – الملا مصطفى: ولد عام ١٩٠٤ وتلقى في قريته بارزان ثم في السّلمانيّة تعليمًا بالدرجة الرئيسية وبالنتيجة حصل على اللقب الديني الملا وخلال دراسته واسفاره في أرجاء كردستان العراق حصل الملا على معرفة وثيقة بشعبه وبلاده للمزيد من التفاصيل انظر. العكيدي، عمار يوسف: السياسة البريطانيّة، المرجع السابق، ص٣٣٩.

٢٧ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع نفسه، ص٢٤٠.

٢٨ – الحسني، عبد الرزاق:تاريخ الوزارات العراقيّة، المرجع السابق، ص٢٩٠؛

Tim Niblock, (Editer), Iraq: The Contemporary State, (London 1982), P47.

٢٩ – كان ابرز الاعضاء المؤسسين للحزب رفيق حلمي واسماعيل حقي وتوفيق وهبي ومعروف جياوك.... وشيخ قادر شقيق الشّيخ محمود وكان الحزب يضم اتجاهين الأول يمثل (اليمين) وهو المسيطر والذي يؤمن بضرورة مهادنة بريطانيا واسترضائها لمساعدتهم في تحقيق مطالبهم والثّاني يمثل (اليسار) ويؤمن بالثورة والاشتراكية. حمدي، وليد: الكرد وكردستان في الوثائق البريطانيّة، لندن، ١٩٩١، ص٢٣٦.

٣٠ – البريفاكي، محمد: حقائق عن القضية البارزانية، شركة الطبع والنشر الاهلية المحدودة، بغداد، ١٩٧٣، ص١٧؛ كروم: حسين الأكراد، مجلة الهلال، ج٤، القاهرة، نيسان ١٩٧٠، ص١٢٩.

٣١ – البناء، هاشم: من يحرك البارزاني، مطبعة الازهر، بغداد، ١٩٦٢، ص٣٣.

٣٢ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٠.

٣٣ – المرجع نفسه، ص٢٤٠.

٣٤ – البراك، فاضل: مصطفى البارازاني، الاسطورة والحقيقة، المرجع السابق، ص١٠٨.

٣٥ – كوتشيرا، كريس: الحركة القومية الكرديّة، مركز التطوير الثقافي، بغداد، ١٩٨١، ص١٥٨.

٣٦ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٢.

٣٧ – المرجع نفسه، ص٢٤٢.

٣٨ – حيدر، طالب عبد الجبار: المسألة الكرديّة في الوثائق البريطانيّة، المشكلة – الحل – النتيجة، كلية القانون والسياسة، جامعة بغداد، ١٩٨٢، ص١٦٥.

٣٩ – لمزيد من التفاصيل عن المباحثات بين ماجد مصطفى والملا مصطفى وما تمخضت عنه انظر

HasanArfa: the Kurds,Anhhistorical and political Stndy, London, 1966, P121.

٤٠ – الحسني، عبد الرزاق:تاريخ الوزارات العراقيّة، المصدر السابق، ص٢٩٢.

٤١ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٣.

٤٢ – يقصد بها حكومة حمد الباجه جي الأولى ٣ حزيران ١٩٤٤ – ٢٨ اب ١٩٤٤.

٤٣ – الظاهر، جواد: الوجيز، المرجع السابق، ص٤٢١ – ٤٤٥.

٤٤ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٣.

٤٥ – زويد، عبد الرحيم ذو النون: العراق في الحرب العالمية الثّانية، كلية الاداب، القاهرة، ١٩٧٨، ص٢٧١.

٤٦ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٤.

47 - Yassin, Borhanedin.A: Vision or Reality the Kurds in policy of the great powers, Sweden, 1995, P129.

٤٨ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٥.

٤٩ – المرجع نفسه، ص٢٤٥.

٥٠ – المرجع نفسه، ص٢٤٥.

٥١ – المرجع نفسه، ص٢٤٥.

٥٢ – الظاهر، جواد: الوجيز، المرجع السابق، ص٤٢١ – ٤٤٥.

٥٣ – زويد، عبد الرحيم ذو النون: المرجع السابق، ص٦١.

٥٤ – يقصد بهم ضباط الارتباط بين الملا والحكومة العراقيّة وهم الرئيس مصطفى خوشناو والرئيس الأول عزت عبد العزيز والملازم اول خيرالله عبد الكريم والملازم محمد القدسي والذين انتدبهم ماجد مصطفى من وحداتهم العسكرية وعينهم في المناطق الثائرة. لمزيد من التفاصيل انظر:

٥٥ – جياووك، معروف: مأساة بارزان المظلومة، المطبعة العربية، بغداد، ١٩٥٤، ص١٧١ – ١٧٣.

٥٦ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٢٤٦.

٥٧ – البارزاني، مسعود: البارزانيون وحركة التحرر الكرديّة ثورة ١٩٤٣ – ١٩٤٥، كاوا للنشر والتوزيع، العراق، ١٩٩٧، ص٦٥.

٥٨ – العكيدي، عمار يوسف، المرجع السابق، ص٣٥٢.

٥٩ – المرجع نفسه، ص٣٥٢.

٦٠ – المرجع نفسه، ص٣٥٢.

٦١ – الحسني، عبد الرزاق:تاريخ الوزارات العراقيّة، المصدر السابق، ص٢٩٣.

٦٢ – البوتاني، غانم محمد الحفو: الكرد والأحداث الوطنية في العراق خلال الحكم الملكي ١٩٢١ – ١٩٥٨، دار الزمان، دمشق، ٢٠٠٨، ص٦٥ – ٦٧.

٦٣ – الونداوي، مؤيد ابراهيم: العراق في التقارير السنوية للسفارة البريطانيّة ١٩٤٤ – ١٩٥٨، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٢، ص٢١.

٦٤ – البوتاني، غانم محمد الحفو: الكرد والأحداث الوطنية في العراق خلال الحكم الملكي ١٩٢١ – ١٩٥٨، المرجع السابق، ص٦٥ – ٦٨.

٦٥ – زويد، عبد الرحيم ذو النون: المرجع السابق، ص٢٧٣ – ٢٧٤.

دور مدير المدرسة في مواءمة علاقة الطّالب بين المجتمع المحليّ والمدرسة المهنيّة الرّسميّة (المدارس المهنيّة الرّسميّة في قضاء بنت جبيل نموذجًا)

بثينة بيضون[1] وقاسم زين[2]

إنّ عملية التّواصل بين المدرسة والمجتمع المحليّ ضرورة حقيقيّة للإدارة التّربويّة، يكون محورها التّلميذ حيث إنّ مسؤولية الإعداد النّوعي للأجيال القادمة لم تعد تقتصر على المدرسة وحدها، فقد دخلت العلاقة بين المدرسة والمجتمع مرحلة جديدة يتعين على المدرسة فيها أن تدعم جسور التّواصل مع المجتمع المحيط، وأن تعزّز الجهود المشتركة لتحقيق الأهداف المنشودة، بل إنّ نجاح المدرسة في تحقيق أهدافها يعتمد أساسًا على مدى صلتها بمجتمعها، لذلك يجب على مدير المدرسة أن يقوم بمسؤولية كبرى في تفعيل أنشطة وممارسات متنوّعة لبناء أواصر وطيدة مع المجتمع.

من هنا تأتي الحاجة لتشجيع العلاقات الاجتماعيّة السّليمة للفرد مع بيئته ومجتمعه ولجعل التّلاميذ جسورًا للتّواصل المنشود.، خاصّة، أن هناك هوّة كبيرة بين التّلميذ في التّعليم المهنيّ وبين المجتمع الذي يعيش فيه حيث تتمثّل هذه الهوّة من خلال نقص في الثّقافة الاجتماعيّة للمتعلّمين، ضعف في تقدير دور المدرسة والمجتمع من قبل الطّلاّب، غياب دور الاهل بشكل لافت عن متابعة أبنائهم، غياب مجلس الاهل في التّعليم المهنيّ، ضعف مشاركة التّلاميذ في الأنشطة والمباريات والندوات التي يقيمها المجتمع وانعدام الخدمة الاجتماعيّة لدى الطّلاّب تجاه المجتمع.

مِن الملاحَظ أن المؤسّسات التّعليميّة

(١) طالبة دكتوراه في جامعة القديس يوسف.

(٢) طالبة دكتوراه في جامعة القديس يوسف.

وعلى رأسِها المدير التّربويّ لا يرقى في دوره الحقيقي والفاعِل لمواءمة وبِناء شخصيّة متوازنة للطّالب في علاقتِه بمجتمعِه المحليّ وبمدرستِه التي تُسهم في تحقيق الفائدة المرجوّة للتّعليم المهنيّ وللمجتمع المحليّ. كما أنّ هناك بعض الغموض الذي يشوب علاقة المدرسة المهنيّة بالمجتمع المحليّ بالإضافة إلى عدم اهتمام أفراد ومؤسّسات المجتمع المحليّ بهذه الشّراكة وبالدّور المطلوب منهم في تعزيز القيم لدى المتعلّم.

لذلك، تسعى هذه الدّراسة إلى تعرّف مدى فعاليّة الدّور الذي يؤدّيه المدير التّربويّ في مواءمة علاقة الطّالب بين المدرسة المهنيّة والمجتمع المحليّ.

إشكالية البحث:

– تكمُن مشكلة البحث في هذا السّؤال الإشكاليّ: هل يُعدّ مدير المدرسة أنّ التّلميذ هو محور عملية التّواصل بين المدرسة المهنيّة والمجتمع المحليّ؟ وماهي المسؤوليّة التي تقع على عاتق مدير المدرسة لتوطيد علاقة المدرسة بالمجتمع المحليّ؟

أهداف البحث

١ – تبيان مدى ممارسة المدير لدوره في تعزيز دور التّلميذ في التّفاعل مع المجتمع المحليّ.

٢ – تعرّف المعوّقات التي تعترض المدير والأهل في تعزيز دور المتعلّم نحو الخدمة الاجتماعيّة.

٣ – إبراز أهم السّبل التي تسهم في تعزيز الدّور الاجتماعيّ للمتعلّمين من وجهة نظر الأهل والمديرين.

٤ – تقديم التّوصيات والمقترحات التي تسهم في تعزيز دور المتعلّمين من خلال مؤسّسات الرّعاية الاجتماعيّة في منطقة بنت جبيل.

الدّراسات السّابقة

– أجرى (الرّشيدي، ٢٠٠٨) دراسة هدفت إلى تعرّف مستوى الإبداع الإداري لدى مديري المدارس في محافظة القريات من وجهة نظرهم، وقد تكوّنت عيّنة الدّراسة من ١٧٠ مديرًا ومديرة مدرسة، وبيّنت نتائج الدّراسة وجود مستوى مرتفع من الإبداع الإداري لدى أفراد العيّنة، وذلك في الإبداع الإداري ككل مثل حل المشكلات واتّخاذ القرار، ومجالات روح المجازفة وسعة الاتّصالات.

وفي دراسة عن **مشكلات التّربيّة في المملكة العربية السّعوديّة** (الحجي، ٢٠١٨) كشفت الحقيقة التي يجب أن توضع موضع اعتبار مهم وهي أنّ العائد التّربويّ من الإدارة المدرسيّة غير مرضٍ، والدّليل على ذلك النّتائج التي نلمسها ولا نراها،

وليس الجانب التّحصيليّ فقط بل ما حقّقته المدارس من تعديل في سلوك التّلاميذ..إلاّ أننا لا نجد أثرًا لهذه الجوانب كلها.

أوصت دراسة لـ (شلدان وآخرين، ٢٠١١) بعنوان: **واقع التّواصل بين المدرسة الثانوية والمجتمع المحليّ في محافظات غزة وسبل تحسينه**، بضرورة تفعيل آليّات التّواصل بين المدرسة ومؤسّسات المجتمع المحليّ بأشكالها كافة للارتقاء بالعلاقة بينهما، وبضرورة مشاركة أولياء الأمور في المناسبات التي تعقدها المدرسة والاستفادة من الخدمات التي تقدّمها مؤسّسات المجتمع المحليّ. ومن أهم توصيات هذه الدّراسة هو تشجيع مديري المدارس والمعلّمين على المشاركة في المؤتمرات والأيام الدراسيّة التي تعقدها الجامعات والمؤسّسات المجتمعيّة وتقديم الحوافز اللازمة لذلك.

دراسة (الخطيب، ٢٠٠٦) بعنوان: **المدرسة المجتمعيّة وتعليم المستقبل**. يهدف هذا البحث إلى تطوير نموذج لتفعيل العلاقة بين المدرسة والمجتمع المحليّ في منطقة أبو ظبي التّعليميّة، وذلك بالاعتماد على عدد من التّجارب الدّوليّة النّاجحة المتعلّقة بتفعيل العلاقة بين المدرسة والمجتمع، ويأتي هذا البحث في سياق جهود وزارة التّربيّة والتّعليم والشّباب من أجل تطوير التّعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة وانسجامًا مع مبادرة الوزارة بعنوان «رؤية التّعليم ٢٠٢٠» وقد اعتمدت منهجية الدّراسة على استطلاع آراء عينة (١٠) مدارس أخذت بطريقة عشوائيّة شملت مديري المدارس والمعلّمين وأولياء الأمور، وتم جمع بيانات الدّراسة من خلال استبانة خاصة، وتناول أحد مجالات الاستبانة التّواصل بين المدرسة والمجتمع المحليّ، وأشارت نتائج الدّراسة إلى أن هناك وعيًا واهتمامًا واضحًا من قبل الإدارات المدرسيّة والمعلّمين وأولياء الأمور في منطقة أبو ظبي التّعليميّة بأهميّة التّواصل والتّفاعل بين المدرسة والمجتمع المحليّ، ويتمثّل هذا الاهتمام بدرجة الموافقة الكبيرة على ضرورة قيام المدرسة بالممارسات المتضمنة في جميع مجالات وفقرات استبانة البحث.

كما جاءت دراسة (ماركس وآخرين، ١٩٩٥) لتأكيد **أهمية التّواصل بين المدرسة والمجتمع وعلاقته بالمستوى التّحصيليّ للطّلبة**، حيث طبّقت هذه الدّراسة على تسع مجموعات من الطّلبة، سبع مجموعات ضابطة ومجموعتين تجريبيتين، وكانت المجموعات الضّابطة تدرس عن طريق المحاضرة في القاعة الدّراسية بينما كانت المجموعتان التجريبيتان تتعلّمان من خلال التّواصل مع مؤسّسات المجتمع المحيط والمشاركة في

الخدمات المتنوّعة التي تقدّمها مراكز المجتمع مثل تحسين وضع المشردين والملاجئ، بالإضافة إلى العناية بمرافق البيئة وتطويرها.

ومن أهم النّتائج التي توصّل إليها الباحثون أن الطّلاّب الذين تعلموا من خلال التّواصل مع مؤسّسات المجتمع المحليّ وممارسة الخدمات المجتمعيّة كانوا أفضل من الطّلاّب الذين تعلّموا عن طريق التّدريس التّقليدي وذلك من حيث نتائج المستويات التّحصيليّة للمقررات الدّراسيّة.

وأعد (wright &rogers، ٢٠٠٦) دراسة تقييميه لدور التّكنولوجيا في تعزيز التّواصل بين المدرسة والأسرة، وقد هدفت الدّراسة إلى الكشف عن وجهة نظر كل من المدرسين وأولياء الأمور حول استخدام وسائل الاتّصال الحديثة في عملية تعزيز التّواصل بين المدرسة والأسرة والمجتمع، وهدفت الدّراسة كذلك إلى تعرّف المعوّقات التي تحدّ من عملية التّواصل بين المدرسة والأسرة.

وطُبّقت الدّراسة في بعض المدارس بالجزء الشّمالي من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وقد بلغت عينة الدّراسة (٢١٠) فردًا، (٤٨) مدرسًا، (١٦٢) ولي أمر.

وقد أكّدت الدّراسة أهمية التّواصل بين المدرسة والأسرة لتأثيره الإيجابي الواضح على تعزيز التّعاون والتّفاعل بينهما، وأكدت الدّراسة كذلك الفوائد العديدة لاستخدام التّكنولوجيا الحديثة التي من أهمها توسيع دائرة التّواصل وتقليل الفجوة بين المدرسة والأسرة حيث إن استخدام وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة في عملية التّواصل يساعد أولياء الأمور على متابعة جميع مجريات العملية التّعليميّة، أما أهم المعوقات المتعلقة بالتّواصل بين المدرسة والأسرة باستخدام التكنولوجيا الحديثة فقد كانت نقص الوعي لدى المدرسين وأولياء الأمور حول مدى الفوائد الناجمة عن التّواصل باستخدام التكنولوجيا..

فرضيات البحث

يطرح البحث الفرضيات الآتية:

١ – يعمَل مدير المدرسة على تعزيز دور المتعلّم تجاه المجتمع بالشّكل المطلوب.

٢ – يشكّل غياب دور الأهل وعدم تعاون مؤسّسات المجتمع المحليّ أبرز المعوّقات التي تعترض المدير في تعزيز دور التّلميذ تجاه المجتمع المحليّ.

٣ – يستطيع الأهل مساندة أبنائهم في مرحلة عمريّة صعبة للعمل في خدمة المجتمع وتخطّي مشكلاتهم من خلال التّعاون مع مدير المدرسة.

٤ – يساعد مجلس الأهل أولياء الأمور تشجيع أولادهم على الانخراط في المجتمع

المحليّ ضمن تخصّصهم المهنيّ وتحفيزهم على الانخراط في العمل التطوعي.

منهجية البحث

لدراسة مدى صلاحية الفرضيات اعتمدت الدّراسة **المنهج الوصفيّ التّحليليّ**، وذلك من أجل الحصول على نتائج علميّة، ثم تفسيرها بطريقة موضوعيّة، بما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظّاهرة. تمّ اختيار المقابلة كأداة استقصاء حول اختبار مدى صلاحيّة الفرضيات.

توجّهت المقابلات الى مدراء في التّعليم المهنيّ الرّسميّ في منطقة بنت جبيل وإلى مديرة الشؤون الاجتماعيّة في بنت جبيل الأستاذة ندى بزي. ولذلك أُعتمدت المقابلات الفرديّة و**تقنية التّحليل** لأسئلة المقابلة لإعطاء النّتائج القابلة للاستثمار. كما أُختيرت استمارات موجهة للمديرين للاطلاع على التّحصيل العلميّ والتّجربة العمليّة للمساعدة في تحليل النتائج بصورة أوضح.

نتائج الدّراسة

تحليل المقابلات

اسم المدير الاسئلة	**مدير مدرسة عيتا الشعب المهنيّة الأستاذ شربل إبراهيم**	**مدير مدرسة رميش المهنيّة الأستاذ طوني الحاج**
بالنسبة إلى الأدوار والمهمّات التي يقوم بها المدير	تتلخّص أدوار المدير في : ● الإشراف على إعداد السّجلات المدرسيّة بمختلف أنواعها . ● متابعة دوام الأساتذة والموظفين . ● توزيع المهام ومتابعة حسن سير العمل .	● يرشد المدير الطّلاّب والأساتذة ويتابع تصحيح أي خلل .
بالنسبة إلى التّواصل بين المدرسة والمجتمع المحليّ	● يوجد تواصل عبر الهاتف أو عبر الاجتماعات مع الأهل والبلدية كما ينسّق المدير هذه العلاقات مع الفعاليّات .	● يوجد تواصل مع الأنديّة والجمعيات والبلديّة ويقوم المدير بدعوتهم إلى مشاركة في الأنشطة .
بالنسبة إلى تحديد الخلفيات الثّقافيّة للطلاب في التّعليم المهنيّ وكيفية التّعامل معها من قبل المديرين	● يحمّل مدير المدرسة المسؤوليّة للأهل في هذا الصّدد بعدم وجود وعي عندهم حول التّعليم المهنيّ، كما أنّ للأحزاب الدور الأبرز في ذلك .	● من خلال متابعته لكلّ تلميذ من بداية العام الدّراسي ونيته لحصول عملية التّعلّم، يتعاطى المدير معه على هذا الأساس .
بالنسبة إلى تأثير خلفيات الطّلاّب الثّقافيّة في مساعدة المدير على مواءمة العلاقة بينه وبين المجتمع المحليّ	● تؤثر خلفيات الطّلاّب الثّقافيّة ووعيهم في إثراء العملية التّعليميّة واستنادًا عليها يتوقف نمو وازدهار العلاقة بين المدرسة والمجتمع .	● يعاني المدير في تحسين خلفية كل تلميذ من خلال صعوبة التّواصل مع الأهل، ويحاول قدر المستطاع مع الفئات المعنية في معالجة هذه الأمور .
بالنسبة إلى آليات التّواصل من وجهة نظر المدير لمواءمة علاقة الطّالب	أهم سبل التّواصل هي : ● وعي الطّالب وثقافته الاجتماعيّة وما يحمل من مسؤولية وإدراك ● دور الأهل في تنشئة الطّالب التنشئة الاجتماعيّة والتّربويّة والوطنية .	● لا يوجد للأهل دور في هذا المجال لذا يلجأ المدير إلى التّشدد في العقوبات المسلكيّة والتّربويّة مع العلم بأنّها ليست الطّريقة المرجوة في تصحيح أي خلل لدى الطّلاّب .
بالنسبة إلى الجمعيات والمؤسّسات الخيريّة التي تدعم المدير في مهماته لمواءمة العلاقة بين الطّالب ومجتمعه	● تحدث المدير عن دور كبير للجمعيات والمؤسّسات بالنسبة إلى المدير بتقديمها فقط الدّعم المعنوي للإدارة ومن خلال نشرها ثقافة التّعليم والابتعاد عن الأميّة بإقامة ورش العمل والنّدوات .	● لا يوجد دعم من قبل الجمعيات والمؤسّسات الخيرية التي تدعم المدير لمواءمة العلاقة بين الطّالب ومجتمعه .

بالنسبة إلى الدّور الذي تؤدّيه البلديات في هذا الصّدد	تعمل البلدية على : ● إقامة ورش عمل . ● لقاءات توعويّة للطّلاب والأهل على حد سواء ● إبراز دور التّعليم المهنيّ في المجتمع . .	● لا يوجد أي دور للبلديات من الناحية التّربويّة وإنّما يقتصر دورها فقط على تقديم الدّعم الماديّ .
بالنسبة إلى العلاقة بين التّحصيل المدرسيّ المتدني للتّلميذ واتجاه سلوكه نحو مجتمعه	● بعض الطّلاّب يخجلون من النّتيجة المدرسيّة في حال فشلهم وهنا يبرز دور المدير في توجيههم وتشجيعهم وتأكيد عدم فشلهم واعطائهم فرصة جديدة	● هناك علاقة وثيقة بين نتائج التّحصيل المدرسي للتّلميذ وبين سلوكه وتتم المعالجة من خلال حث التّلميذ ومتابعته لمعرفة أسباب التّدني إن وجد .
بالنسبة إلى الأشطة اللاصفيّة التي تقوم بها المدرسة لبناء شخصية التّلميذ وربطه بالمجتمع	تقوم الأنشطة اللاصفيّة على : ● تدريب الطّلاّب خارج المدرسة . ● زيارة المصانع والمعامل . ● زيارة الشّركات والمؤسّسات إن وجدت .	تقوم الأنشطة اللاصفيّة على : ● رحلات (ترفيهيّة - سياحيّة - تربويّة - ثقافيّة - معالم دينيّة) ● يؤدّي الوضع الامني في البلد دوره في تنفيذ الأنشطة . ● يتابع المدير هذه الأنشطة بشكل مباشر لأنّها على مسؤوليته الشّخصية .
بالنسبة إلى الحواجز التي تقف أمام المدير وتحول دون تنفيذ الأنشطة اللاصفيّة	الحواجز التي عدّدها المدير هي : ● المنهاج المعتمد من قبل وزارة التّربيّة والذي لا يتواءم مع أيامنا وهو موجود منذ ما يقارب الأربعة قرون ونحن لا نستطيع تجاوز المناهج المقررة ● اتّكال الاهل على ابنائهم الطّلاّب خلال مواسم الزراعة وخصوصا أنّ مجتمعنا مجتمع زراعي .	● الحاجز الوحيد الذي يحول دون تنفيذ الأنشطة اللاصفيّة هو الوضع الأمني بشكل مباشر فقط لا غير .
بالنسبة إلى الاقتراحات التي يوجهّها المدير من أجل مواءمة علاقة الطّالب بين المدرسة المهنيّة والمجتمع المحليّ	● اقامة ندوات توعية لإبراز اهمية التّعليم المهنيّ ● تأمين أماكن تدريب في المؤسّسات المحليّة ● تأمين فرص عمل إذا أمكن وخاصة للاختصاصات الصناعيّة ● اقتراح إنشاء لجان أهل في التّعليم المهنيّ أسوة بالتّعليم الأكاديميّ	● التّركيز على اختيار نوعيّة الطّلاّب للدّخول إلى التّعليم المهنيّ . ● العودة إلى الأنظمة القديمة في الدّخول إلى التّعليم المهنيّ من حيث السّماح فقط للنّاجحين في الامتحانات الرّسميّة . ● تفعيل التّواصل مع الأهل من خلال إنشاء مجلس للأهل في التّعليم المهنيّ . ● التّشدد في تنفيذ العقوبات المسلكيّة والتّربويّة .

تحليل المقابلات (تابع)

اسم المدير	**مدير مدرسة الشهيد راني بزي الفنية الأستاذ داني سلامة**	**مدير معهد بنت جبيل الفني الأستاذ إسماعيل مراد**	**مدير معهد تبنين الفني الأستاذ علي فواز**
بالنسبة إلى الأدوار والمهمّات التي يقوم بها المدير	الأدوار التي يقوم بها المدير: ● الإشراف والمتابعة مع الجهات المختصّة والمديريّة ووزارة التّربيّة.	● الإشراف والتوجيه ● تقويم العمل ● معالجة في بعض الأمور	● تنسيق العمل للهيئتين الإدارية والتّعليميّة ● إعداد البرامج ومتابعة شؤون الطّلّاب والموظفين
بالنسبة إلى التّواصل بين المدرسة والمجتمع المحليّ	التّواصل مع اتّحاد البلديات والبلدية والجمعيّات والأنديّة والهدف الرّئيسي من أجل الدّعم الماديّ والمشاركة في إقامة النّشاطات والاحتفالات.	التّواصل قائم مع المجتمع من خلال مدّ يد العون من قبل البلديات والجمعيات والأهالي.	التّواصل قائم مع الأنديّة والجمعيات والبلديّة من خلال المشاركة بغالبية الأنشطة التي تقام في المحافظة على الصّعيد الرّياضي والثقافي والتّربويّ والاجتماعيّ.
بالنسبة إلى التّعامل مع الخلفيّات الثّقافيّة للطلاب في التّعليم المهنيّ وكيفية التعامل معها من قبل المديرين	يستطيع المدير تحديد خلفيات وبيئات التّلاميذ أولّا من خلال الأستاذ في الصّف ومن ثم ناظر الطّابق والنّاظر العام. يستطيع تحديد خلفية الطّالب مباشرة من خلال بيته ومجتمعه.	يعاني المدير في بداية كل عام دراسيّ من تحديد بيئة وخلفية كل طالب ويلزمه شهرين او اكثر لدمج الطّالب في بيئة المدرسة والتّعليم وبناء التّواصل مع الأهل.	تختلف الخلفيّات الثّقافيّة للطلاب بين واحد وآخر وأبرز أسباب هذا الاختلاف التّربيّة المنزلية والمشاركة الحزبيّة والتي تؤثّر بشكل مباشر على سلوك وفكر الطّالب مما يتطلب من المدير التّعامل بمسؤولية وحذر وجزم أحيانًا.
بالنسبة إلى التّأثير خلفيات الطّلّاب الثّقافيّة في مساعدة المدير على مواءمة العلاقة بينه وبين المجتمع المحليّ	مبدئيا تبنى هذه المواءمة لعلاقة الطّالب بين المدرسة المهنيّة والمجتمع من خلال متابعته بكامل تفاصيل حياته اليومية ان كان من خلال الاحزاب التي ينتمي إليها أو من خلال أهله ومنزله ومجتمعه الذي يحيط به وفي أكثر الأحيان تكون عملية المعالجة من خلال العلاقة التي بناها الأستاذ أو المدير مع الطّالب	الدّور الأول والأخير للأهل في التّواصل والتّعاون مع المدير والمدرسة	يستطيع المدير أن ينسج علاقة طيبة مع الطّلّاب في مؤسسته من خلال التّعاطي والتّعامل المباشر مع جميع الطّلّاب عنده مما ينعكس حركة إيجابية مشتركة بين المجتمع المحليّ والجمعيات والإدارة المعنية بذلك.

بالنسبة إلى آليات التّواصل من وجهة نظر المدير لمواءمة علاقة الطّالب	المرجع الرئيسي والأساس في بناء جسور التّواصل والتّعاون على تعزيزها هم الأهل ومن ثم الأحزاب والبلديات والجمعيّات وهناك حالات يضطر المدير فيها إلى الرّجوع فيها لوزارة الشّؤون الاجتماعيّة لمتابعتها والعمل على معالجتها.	معاملة الطّالب باحترام ومنحه ثقته بنفسه لبناء شخصيته المستقلة (وخلق الاحترام المتبادل بين الطرفين) وخلق العلاقة الاخويّة الطيبة.	هناك تواصل وعلاقة مباشرة باللقاءات الدوريّة بين الطّلاب ومدير المدرسة المهنيّة واعطائهم دروس تحضيريّة وتوجيهيّة وحثّهم على الانخراط والتّفاعل والمشاركة بغالبية النّشاطات التي يقيمها المجتمع المحليّ في نطاق مدرستهم.
بالنسبة إلى الجمعيات والمؤسّسات الخيريّة التي تدعم المدير في مهماته لمواءمة العلاقة بين الطّالب ومجتمعه	هناك دور كبير للجمعيات والمؤسّسات في دعم المدير في مواءمة علاقة الطّالب مع مجتمعه من خلال إقامة النّدوات والنّشاطات التّوعويّة وورش العمل والعمل على التمييز بين التّفكير السّلبيّ والتّفكير الإيجابيّ لدى الطّلاب.	تستطيع هذه الجمعيات فقط تقديم الدّعم الماديّ وإقامة الندوات التوعوية أمّا الدّور الحقيقيّ في تقديم الدّعم يرتكز على الأحزاب التي تمارس سلطة الضّغط على التّلميذ لتصويب سلوكه.	للجمعيات والمؤسّسات الخيريّة فضل كبير في مؤازرة المدير ودعمه من خلال القيام بالنّشاطات التّثقيفية والتّربويّة والاجتماعيّة والتّنسيق بين المدير وطلابه مما ينعكس إيجابا على الطّلاب.
بالنسبة إلى الدّور الذي تؤدّيه البلديات في هذا الصّدد	أهم أدوار البلديات في هذا المجال: - إقامة ورش العمل المختصة بالتّربيّة وبالمجتمع - إقامة النّشاطات والنّدوات بالتعاون مع المدرسة والمجتمع المحليّ بما يخدم مصلحة الطّالب	تستطيع البلديات إقامة النّدوات وورش العمل لتوعية الطّلاب وإقامة بعض النّشاطات التّربويّة وبعض الإرشادات.	تستطيع البلديات من خلال لجنة التّربيّة التي تعمل ضمن البلديات حسب القانون والتّنسيق المباشر مع رئيس البلدية القيام بتأمين المنشآت الرياضيّة والأنديّة الثّقافيّة والتّربويّة والدعم التّربويّ للطّلاب بإجراء الدّورات التدريبيّة المتخصّصة بالتّنسيق المسبق مع الإدارة.
بالنسبة إل العلاقة بين التّحصيل المدرسي المتدني للتّلميذ واتجاه سلوكه نحو مجتمعه	هناك علاقة مباشرة بين التّحصيل المدرسيّ للطّالب وبين سلوكه والعكس صحيح وتتم المعالجة من خلال التّوعية والإرشاد من قبل الأساتذة والنّظار والأهم عملية اكتشاف المشكلة لدى الطّالب والقيام بمبادرات فردية للتّقرب من التّلميذ والعمل على المعالجة وخصوصا إذا كانت مشكلة نفسيّة (قلة ثقة بالنّفس أو نقص عاطفيّ أو مشاكل لدى الأهل...)	هناك حالات نادرة جدا تربط التحصيل المدرسي بسلوك التّلميذ لأن بالإمكان اعطاء عدة امثلة لتلاميذ يحصلون نتائج عالية وفي المقابل يعدون من أكثر التّلاميذ في إثارة الشّغب وللعلاج يضطر المدير إلى تقديم (النّصائح والمراقبة والمتابعة)	هناك العديد من المشاكل التي تواجه الطّلاب بالتّحصيل المدرسيّ والتي تنعكس على النّتائج النّهائيّة وتواصل المدير المباشر مع الطّلاب وذويهم للوقوف على حالته مما يساهم في تنشئة الطّالب التنشئة السليمة.

بالنّسبة إلى الأنشطة اللاصفيّة التي تقوم بها المدرسة لبناء شخصية التّلميذ وربطه بالمجتمع	هناك انشطة متعددة منها : دورات رياضيّة، رحلات ترفيهية، زيارة مصانع ومراكز تدريب وايضا التدريب خارج المدرسة لطلاب الاختصاصات الصناعيّة لدمجهم بسوق العمل وصقل شخصيتهم وإكسابهم المهارة.	الأنشطة محدودة جدا وتختصر بزيارات تدريبيّة لبعض الاختصاصات إلى المستشفيات والبنوك ومعارض الكتب وغيرها.	تدريب الطّلّاب داخل المختبرات والمصانع والمطابخ المختلفة كل ضمن اختصاصه بالإضافة إلى القيام برحلات ثقافيّة وتربويّة وترفيهيّه خارج المعهد كزيارة بعض المصانع والمستشفيات أو الدّوائر الحكوميّة ما يساهم في تنشئة الطّالب لكي يصبح فاعلًا في مجتمعه.
بالنسبة إلى الحواجز التي تقف أمام المدير وتحول دون تنفيذ الأنشطة اللاصفيّة	أهم الحواجز التي يواجِهها المدير هي : - طلب الأذن من الجهات المختصة ومن الادارات المباشرة حيث تواجهه بعض المماطلة - المشكلات الماديّة (الماليّة والبشريّة) الكادر البشريّ غير المتوفر في بعض النّشاطات او الاختصاصات.	هناك تقصير قصري فالوضع الأمني القائم ومسؤولية كل تلميذ تقع مباشرة على عاتق المدير لأنّه المسؤول الأول والأخير.	هناك العديد من الصّعوبات التي تواجه المدير على رأسها عدم تواصل غالبية أهالي الطّلّاب مع الإدارة بشكل كليّ بالإضافة إلى أن الدّور الذي تؤدّيه الأحزاب والجمعيات والأنديّة الثّقافيّة وعدم وجود برامج كافية توجيهية للمشاركة بالنّشاطات.
بالنسبة إلى الإقتراحات التي يوجهها المدير من اجل مواءمة علاقة الطّالب بين المدرسة المهنيّة والمجتمع المحليّ	● ضرورة وجود مرشد اجتماعي في المدرسة وخصوصًا في ظل وجود الآفات الاجتماعيّة المنتشرة (مخدرات وغيره). ● إيجاد معالج نفسي لمعالجة الحالات النفسيّة المنتشرة بكثرة بين الطّلّاب. ● ضرورة وجود مجلس أهل للعمل على تعزيز التّواصل بين الأهل والمدرسة والاضاءة على المشكلات والعمل على علاجها.	● العمل على تغيير فكرة الناس عن التّعليم المهنيّ بمساعدة وزارة التّربيّة ● العمل على إنشاء مجلس للأهل في التّعليم المهنيّ والتقني ● إيجاد أساتذة التّنسيق	● القيام بالعديد من الدورات على مستوى وزارة التّربيّة والمديريّة العامة للتّعليم المهنيّ والتقنيّ ● على البلديات أن تقوم بدورها بشكل فاعل أكثر في المجال التّربويّ من أجل اشراك الطّالب بمجتمعه أكثر. ● ضرورة وجود مجلس للأهل في مدارس التّعليم المهنيّ من أجل خلق علاقة التّواصل بين المدرسة والأهل.

تحليل النتائج:

– أظهرت الدّراسة أنّ تقديرات عيّنة الدّراسة من المديرين لمستوى فعالية دور مديري المدارس في مواءمة العلاقة بين الطّالب والمجتمع المحليّ كان فعالاً في المجالات الآتية: أدوار المدير – محاولة بناء علاقات ودية مع أولياء الأمور – الشّعور بالمشكلة وبأهمية وجود مجلس أهل في التّعليم المهنيّ – وغير فعال في المجالات الآتية: التّركيز عند الأغلبيّة على أمور التّنسيق والأمور الإداريّة – عدم وجود روابط بين مؤسّسات المجتمع المحليّ والمدرسة – محاولة إيجاد سبل لتحسين علاقة الطّالب بالمجتمع المحليّ باستثناء اجابة واحدة.

– لا يستطيع المدير في المدارس المهنيّة الرّسميّة في منطقة بنت جبيل أن يواءم العلاقة بين الطّالب ومجتمعه لأسباب عديدة وهي كالآتي:

– فقر في إعداد وتدريب مدراء فنيين بشكل مستمر وقلة العمل على تطوير الكادر التّعليمي والإداري من خلال دورات إرشاد تربوي لمساندة المدير في مهمته في مواءمة العلاقة بين الطّالب والمجتمع المحليّ.

– تقتصر علاقة المدير بالمديريّة العامة فقط على الشؤون الإداريّة ومتابعة حسن سير العمليّة التّعليميّة.

– المناهج وكثرة المادة النظريّة فيها مما يخفف من سبل تطبيق الأنشطة اللاصفيّة والانخراط في المجتمع المحليّ.

– سوء العلاقة بين المدرسة والأهل بحسبان التّعليم المهنيّ ثانويًّا مما يشكّل عبئًا على المدير في عملية التّواصل بحسبان التّعليم المهنيّ منفذًا للتّهرّب من المدرسة فقط من قبل الأهل.

– عدم اهتمام البلديات والمؤسّسات المحليّة بالتّعليم المهنيّ وبتقديم المساعدات الماديّة والمعنويّة.

– عدم وجود قانون يشرك الأهل ويعطيهم الدّور في تفعيل العلاقة بين الطّالب والمجتمع المحليّ من خلال المدرسة المهنيّة الرّسميّة لعدم وجود مجالس أهل في التّعليم المهنيّ الرّسميّ.

– قلّة الأنشطة التي تحفّز من عمل المدير ومهمته في مواءمة علاقة الطّالب بالمجتمع المحليّ وغياب هذه الأنشطة بشكل شبه تام عن مناهج التّعليم المهنيّ الرّسميّ.

– غياب قسم الإرشاد والتّوجيه كما أكّدت مديرة الشؤون الاجتماعيّة في بنت جبيل في مقابلة معها بضرورة وجود قسم الإرشاد والتّوجيه في المدرسة خصوصًا في التّعليم المهنيّ لخلق فرص عمل من جهة ولتحسين صورة التّعليم المهنيّ من جهة ثانية ولتوجيه الطّلاّب نحو

الاختصاص الذي يتناسب مع مؤهلاتهم وقدراتهم، وفي الوقت نفسه تعريف الطّلاّب بالاختصاصات المطلوبة في سوق العمل.

وبما أنّه لا وجود لوظيفة الإرشاد التّربويّ، تحاول التّعويض من خلال مركز بنت جبيل نفسيًّا وتربويًّا من خلال مشاريع وورش عمل وندوات لتوعية الأهل ولتعزيز العلاقة التّفاعليّة بينهم وبين المدرسة.

التّوصيات والاقتراحات:

في ضوء النّتائج التي توصّلت إليها الدّراسة الحالية لتعرّف واقع التّواصل بين المدرسة والمجتمع المحليّ، وبالاستفادة من المقابلات التي أجريت لعدد من المدراء التّربويّين يمكن سرد التّوصيات على النّحو التّالي:

١ – ضرورة تفعيل آليات التّواصل بين المدرسة ومؤسّسات المجتمع المحليّ بكافة أشكالها للارتقاء بالعلاقة بينهما من خلال أنشطة لاصفيّة وتفعيل دور المرشد التّربويّ والعمل على وجود مجلس أهل في التّعليم المهنيّ الرّسميّ.

٢ – ضرورة مشاركة أولياء الأمور في المناسبات التي تعقدها المدرسة واعتماد مجلس أهل في التّعليم المهنيّ على غرار مجلس الأهل في الثّانويات ومدارس التّعليم الأساسيّ.

٣ – الاستفادة من الخدمات التي تقدمها مؤسّسات المجتمع المحليّ كالأنشطة اللاصفيّة وتفعيل دور البلديات فيها من خلال تقديم المساعدات الماديّة والأمنيّة للمدرسة.

٤ – تشجيع مديري المدارس والمعلّمين على المشاركة في المؤتمرات والأيام الدّراسيّة التي تعقدها المدرسة وتقديم الحوافز اللازمة لذلك والعمل على المشاركة في دورات تدريب مستمرة للمديرين والكادر التّعليمي والإداريّ ككل.

٥ – التّنسيق مع وزارة الشّباب والرّياضة لتعزيز التّربيّة البدنيّة بين المعلّمين والطّلبة والعمل على اقتراح قانون بين الوزارة والمديريّة العامة للتّعليم المهنيّ بالعمل على قانون تفعيل مجلس الآباء أو مجلس الأهل ومباشرة العمل به.

٦ – ضرورة اطلاع الإعلام من صحف وتلفاز وراديو بالمستجدات التي تخص العمليات التّعليميّة والتحديات التي تواجهها والعمل على تحفيز وتشجيع المدارس التي تعمل على تطوير العلاقات مع الطّلاّب من خلال أنشطة لاصفية.

٧ – أهمية إشراك الطّلاّب والمعلّمين في الأعمال الخيريّة والتّطوعيّة بهدف زيادة درجة التّواصل مع المجتمع، ومن ثم دعم روح التّفاعل والتعاون.

٨ – ضرورة اعتماد المدرسة

التكنولوجيا الحديثة في عملية التّواصل رغم تكلفتها المادية، ويجب على المدرسة بدورها أن توفر وسائل التّكنولوجيا وتشجع الطّلبة وأولياء الأمور على التّفاعل معها، من خلال حملات الإرشاد والتّوعيّة.

المصادر والمراجع

- البدري، سيد (٢٠٠١). **مبادئ الإدارة المدرسيّة الحديثة**، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الاردن.
- الحجي، إبراهيم محمد(٢٠١٨). **الإدارة المدرسيّة وتعبئة قواها البشريّة في المملكة العربية السّعوديّة ووسائل علاجها**، مجلة التوثيق التّربويّ، العدد السّابع عشر، وزارة المعارف.
- الخطيب، أحمد (٢٠١٣)، **الإدارة والإشراف التّربويّ**، اتجاهات حديثة، دار الأمل، الطبعة الثالثة.
- الخواجا، عبدالفتاح (٢٠٠٤). **تطوير الإدارة المدرسيّة**، دار الثقافة، عمان.
- الرّشيدي، عيد عياش (٢٠٠٨)، **مستوى الإبداع الإداريّ لمديري المدارس في محافظة القريات من وجهة نظرهم**. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.
- الزّبيدي، سلمان عاشور (١٩٨٨). **اتّجاهات في تربية الطّفل**، دار أنس للنشر، عمان.
- الزّبيدي، سلمان عاشور (٢٠٠١). **الإدارة الصّفيّة الفعالة في ضوء الإدارة المدرسيّة الحديثة**، مطابع الثّورة العربيّة الليبيّة، طرابلس، ليبيا.
- العمايرة، محمد حسن (٢٠٠٢) **مبادىء الإدارة المدرسيّة**، ط ٣، دار المسيرة، عمان.
- الأغبري، عبد الصمد(٢٠٠٠) **الادارة المدرسيّة: البعد التّخطيطي والتّنظيمي**. بيروت، لبنان، دار النّهضة العربيّة.
- الفريجات، غالب (٢٠٠٠). **الإدارة والتخطيط التّربويّ: تجارب عربية متنوعة**، عمان.
- دويدري، رجاء، **البحث العلمي أساسياته النّظريّة وممارسته العملية**٢٠٠٨,، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- سلامة، ياسر (٢٠٠٣). **الإدارة المدرسيّة الحديثة**، دار عالم الثقافة، عمان.
- سورطي، عيسى (١٩٩٨) المجلة التّربويّة، بحث بعنوان: **السلطوية في التّربيّة العربية..المظاهر والأسباب والنتائج.** المجلد الثّاني عشر، العدد ٤٦.
- صالح، أمجد موسى (٢٠٠١) **أهمية دور مدير المدرسة الثّانوية في مواجهة الاحتياجات التّربويّة للمدرسة**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- صالح، هاني عبد الرحمن (٢٠٠٧)، **الإدارة التّربويّة**، بحوث ودراسات، عمان.
- عبيدات وآخرون(١٩٨٤)، البحث العلمي مفهومه، **أدواته، أساليبه**، لا تاريخ، دار مجدلاوي، عمان، الأردن.
- عريفج، سامي سلطي (٢٠٠١). **الإدارة التّربويّة المعاصرة**، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان.
- عطوي، جودت (٢٠٠١). **الإدارة التّعليميّة والإشراف التّربويّ: أصولها وتطبيقاتها**، الدار العلمية الدولية، عمان.
- قمبر، محمود (٢٠١٣) **التّجديد في الفكر التّربويّ تقييم ونقد**. عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع. عمان الأردن.
- محامدة، ندى عبد الرحيم (٢٠٠٥) **الجوانب السّلوكيّة في الإدارة المدرسيّة**، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

العادات والتقاليد اللبنانيّة في كتاب «شو حلو مبارح» للدكتور جورج زكي الحاج

زينة زغيب[1]

العادات هي «ما يعتاد الإنسان أن يعود إليه مراتٍ متكرّرة»[2]. وتعريف التقاليد «هو ما انتقل إلى الإنسان من آبائه ومعلّميه ومجتمعه من العقائد والعادات والعلوم والأعمال»[3]. فالعادات والتقاليد ممكن أن تكون على صعيد فرد أو أسرة أو منطقة أو بلد بأسره.

تهتمّ الشعوب عمومًا بالمحافظة على عادات تميّزها عن غيرها وتتّبع تقاليد تسم حضارتها بها، ولبنان خصوصًا أرض خصبة للعادات، وهو منبع التقاليد، ويمتاز الشعب اللبنانيّ بأنّه من الشعوب الّتي اهتمّت بهذه المعتقدات وتبنّتها عبر السنين، ناقلةً إيّاها من جيل إلى جيل، وقد ظلّت الحال على ما هي عليه إلى اليوم الّذي فيه مسّ التغيير المبادئ وضعضع هذه المسيرة الطويلة، بحيث صارت تنسحب التقاليد تترى فتترى حتّى بتنا نلاحظ غيابها عن المناهج التعليميّة لا بين الناس فحسب، فما بقي أيّ ذكر لهذه التقاليد، إلاّ ما هو مقتضب في بعض كتب التربية المدنيّة، إذ إنّها حبرٌ على ورق من دون تطبيق. فلقد التزم اللبنانيّون بالتقاليد لسنين عديدة، حتّى شعروا بالاختناق، فنفروا منها.

إبّان ذلك برز أمر خطر، ألا وهو فقدان الهويّة الّتي تميّز اللبنانيّ، ولا يعرف لهذا التغيّر مسؤول دون سواه، ربما لأنّنا كنا مسؤولين جميعًا عن ذلك، ومن دون استثناء: أهل التربية، الأدباء، الكتبة، الأهلون، رجالات الدولة، واللائحة تطول ولا تنتهي. ولسنا هنا في صدد المعاتبة أو اللوم أو توجيه إصبع الاتّهام على أحد، إنّما

(١) طالبة دكتوراه.

(٢) المنجد في اللغة والأعلام، بيروت: دار المشرق، ص٥٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٤٩.

لنرصد من خلال الكتاب الشعريّ «شو حلو مبارح» الحسرة الّتي يعيشها جيل «الأمس» اليوم والفراغ الّذي يعيشه جيل «اليوم». فإنّ ما رمى إليه الدكتور جورج زكي الحاج في كتابه الشعريّ «شو حلو مبارح»، هو إحياء اللغة المحكيّة والشعر العامّيّ بالإضافة إلى تقديم نبذة عن حياة اللبنانيّين في الفترة الغابرة والّتي تختلف عن الحياة في هذه المرحلة، في لفتة لنهضة التراث الشعبيّ. مع العلم أنّنا حين نتكلّم على العادات فنحن لا نجزم أنّها كلّها صحيحة وتماشي حياة اليوم، فالإنسان دائم الميل إلى التطوّر وهذا أمر صحّيّ، لأنّ الرتابة تقتل والتقوقع كذلك. لكنّ موجة التغيير هذه طالت الأصعدة كافّة من دون التفريق ما بين المفيد والسيّئ، ودخلنا في دوّامة ترك العادات والتحرّر إلى أقصى الدرجات، وكأنّ التقاليد تأتي دفعة دفعة وتولّي مرّة واحدة.

«شو حلو مبارح» حكاية ماضٍ مخر وأبحر بعيدًا، هجر وهاجر والأرجح أنّه لن يعود. بأسلوب حواريّ دار بين الشاعر وجدّته تارةً وبين الشاعر وجدّه طورًا، فالحفيد الهائم في حكايا جدّيه والملحّ في تلقّف المزيد عن الفرق بين أيّام الجدود وأيّامه، يسأل عن جماليّة الأمس وما تبقّى منه. وبذلك تصلنا الأخبار في أسلوب سلس، باللغة اللبنانيّة المحكيّة لتزيد من وضوح المعنى وواقعيّة الحكايا. هذه الأخيرة الّتي تسرد تفاصيل الحياة اليوميّة، من عادات أهل البيت داخل دارهم، وروابطهم العائليّة، وصولاً إلى علاقتهم بالجيران والأصحاب، صغارًا، وصبيةً، وراشدين، وعجزة، وذلك من دون غضّ الطرف عن أيّ شاردة أو واردة. فبعد تصفّح الكتاب وقراءته شطرًا شطرًا، استطعنا أن نجمع العادات والتقاليد الّتي نقلتها ريشة الشاعر، وكيف لا؟! فهو ابن بلدة «إيعات» البقاعيّة، بلدة يحترم أهلها كلّ ذرّة تراب فيها فتقلب بين أيديهم دررًا يتزيّن بها كلّ من كانت النخوة رفيقته والإيمان جوهره. إنّه ابن الجبل، ابن الأصالة، هو الّذي رضع العنفوان والعزّة والرجولة وترعرع على القيم والمبادئ، وشاب على عبارة «سلّم ديّاتك». هذه العبارة الّتي يجد الشاعر الدكتور جورج زكي الحاج أنّ غيابها قد سبّب تدهور الحياة الاجتماعيّة وضياع المفاهيم الإنسانيّة كالنخوة والألفة والمحبّة والعون... أمّا «سلّم ديّاتك» العامّيّة و«يسلمو» أو «سلّمُن» فتأتي من الفعل «سلم» وقولها بمثابة طلب إلى الله أن يبقي أيدي الناس سليمة حتّى تظلّ دائمة النشاط والحيويّة والصحّة. وقد وضع «إصبعه على الجرح» مفصحًا عن سبب ضياع هذا المبدأ قائلاً في كلمة ألقاها في قاعة مدرسة الرشيد – العين – بعلبك عام ١٩٩٥ إنّ

عبارة «سلّم ديّاتك» قد «أصابتها شظايا المدننة والعصرنة والحدثنة والتكنولوجيا الحديثة التي هي من مبتكرات «العلمانيّة»[١]، وصرعتها صرعات الأغارب والأجانب، وقنصتها بنادق الحرب الهمجيّة التي استهدفتها بهجومها، محاولة انتزاع جذور الأصالة منها»[٢]. كما أنّ الدكتور الحاج غاص في هذه المسألة منقّبًا عن التعابير الّتي احتلّت مكان سابقاتها ويقول: «هذه الـ «سلّم ديّاتك» استُبدلت بـ «شو بتأمر» أو «قدّيش بتأمر» أو «أمُرنا» أو «قدّيش بتريد؟»... وتحوّل التعامل من تعامل بخلفيّة بريئة عميقة بإيمانها وجذورها، إلى تعامل من نوع آخر بخلفيّة تجاريّة «مصلحيّة» وطُبّق، في الريف... في ريفنا، مثل اللوردات البريطانيّين: «Business is Business»[٣]. إذًا، كشّرت المادّة أنيابها والتهمت عقول البشر وسيّرتهم، ومحت عواطفهم وخطفت إنسانيّتهم وانتشر قول «ما في يا إمّي ارحميني».

الفكرة الأولى الّتي تصلنا عند رؤية أقسام الكتاب هي الاهتمام بقدسيّة البيت، إلى بركة البيت، إلى الجدّين اللّذين يجمعان شمل العائلة ويحافظان على استمراريّة الألفة فيها، فإنّهما منبع المعرفة والحكمة والصواب. وهكذا كان لكبير العائلة مكانة مرفّعة، لا يجرأ كبير أو صغير على مسّ هيبتها أو التقليل من شأنها. عندما يصدر «كبير البيت» حكمه، لا يجرؤ أحد بعدها على التشاور في القرار حتّى أو التعقيب عليه أو الاعتراض، وكأنّ مبدأ «نفّذ ثمّ اعترض» هو السائد، ولربّما التعبير عن الامتعاض غير مسموح به أيضًا، وذلك من مبدأ واجب الاحترام. وعلى حدّ قول الدكتورة جيمي عازار «عندما نقرأ «وصيّة ستّي» نعود بالذاكرة إلى دور الجدّة والمكانة الّتي تحتلّها في العائلة، فهي خير جليس لأفرادها، يتمتّعون بأخبارها ويخبّئون نصائحها لحين حاجة.»[٤] هذا المبدأ الّذي يعتبره جيل اليوم انصياعًا وترهيبًا وقتلاً لتفكير الآخر وحرّيته، فمن لا يزال من الجدود اليوم قادرًا على أن يبدي رأيه في زواج أحد الأحفاد أو الأولاد؟! فقضيّة طاعة الوالدين وسماع رأيهما والعمل بنصيحتهما لأنّهما أخبر وأنضج، ولّت مع الريح. ولربّما صار الكبير قديم الطراز، بعيدًا عن العصر وصار رأيه غير ذي بال. إذ إنّ الجدود بالمستوى التعليميّ

(١) يشرح الدكتور جورج زكي الحاج هذه الكلمة «العلماديّة» أنّها كلمة مركّبة من العلم والمادّة.
(٢) جورج زكي الحاج، الإبداعيّة بين الفصحى والعامّيّة، ١٩٩٩، ص١٦٥.
(٣) المرجع نفسه، ص١٦٦.
(٤) جيمي جان عازار، جماليّات الأمس في شعر جورج زكي الحاج، ٢٠١٢، ص٢٠١.

المتواضع ما عادوا قادرين على مواجهة الأحفاد الّذين هاموا في الدراسة، وظنّوا أنّ الحياة تكمن في الكتب، غافلين أنّ الكتب تأتي من صلب التجارب في الحياة، وأنّ الواقع لا يكتب إنّما يعاش! وتضيف الدكتور جيمي عازار «إنّ وصيّة الجدّة، تحوّلت لوحة من ألوان الطبيعة، لترصد عالمًا غفل عنه الجيل الجديد، لأنّه نسي معنى النصيحة والصداقة، وغاب تائهًا بين صفحات حضارة زائفة. لذلك كانت النصيحة «بجمل»، أمّا الآن فهي مجانيّة، ويرفضها أبناء جيلنا الّذين يسايرون ركب التطوّر والتكنولوجيا»[١].

بالإضافة إلى احترام الشاعر لجدّيه، تظهر حسرته على الأيّام الخوالي لمجرّد أنّه لجأ إليهما ليخبراه بها. كما نلاحظ «الإنسانيّة» عنده والّتي تمثّل روح أهل الضيعة وروح اللبنانيّ الأصيل. ونركّز على أمر حصل في حين كانت الجدّة توزّع أغراضها على الأحفاد، كما يحصل عند توزيع أيّ ميراث على أفراد الأسرة، فلقد كان الشاعر طوال الوقت شاخصًا أمامها رافضًا أن تفارقه، آخذًا منها القيم لا الأمور المادّيّة على غرار إخوته.

«(...) يوم اللّي ستّي وزّعِت من ورْتِتا.

(...) وحدي أنا ما حْكيت،

بِقْيوا عينيّي مْعَلّقين بْجبهتا،

لا عْرِفتْ شو هُوّي الزَّعَل، ولا بْكيت،

تطلّعِت سِتّي بِوجّي غْفيت،

آخد معي من ورتتا:

تطليعتا،

وحكايتا...!!»[٢]

وتقول الدكتورة جيمي عازار في كتاب «جماليّات الأمس في شعر جورج زكي الحاج»: «أمّا ردّة فعل الجدّة فقد عزّزت رحلة الشاعر، لأنّ لقاء النظرات ولّد هالة من الصمت المقدّس، (...) وقد اختار الشاعر حصّته من الغلّة المعنويّة (تطليعتا وحكايتا) محتفظًا بأسراره الخاصّة، فالنظرة الأخيرة طبعت في قلبه قيمة الذكريات، وقرّبت الحكاية من أفراد الأسرة الّذين اتّحدوا مجسّدين التظاهر الحسّيّ للفكرة.»[٣] هذا الأمر الّذي غاب في أيّامنا هذه، فالأحفاد ما عادوا قادرين على زيارة الجدّين، لما لديهم من مشاغل في الحياة أو أحيانًا بسبب الهجرة أو أحيانًا كثيرة بسبب فقدان هذا الحسّ وهذه العاطفة تجاههما. وبالتالي،

(١) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

(٢) جورج زكي الحاج، شو حلو مبارح، ٢٠١٠، لا ناشر، ص١٨-١٩.

(٣) جيمي جان عازار، المرجع السابق، ص١٠١.

فإنّ الجلسات العائليّة ندرت، حتّى لا نقول إنّها انعدمت، وتفرّقت الأسرة وتشرذم أهلها، وما يؤسف أنّهم يختلفون على حفنة مال أو ذرّة تراب. فضاع الدّم وتبدّدت الطفولة واستولت المصلحة على عقول الناس فسحقت الروابط العائليّة.

ونصل إلى عادة غادرت لبنان مرّة واحدة، ففي الأتراح كان أهل الميت لا يشغلون بالهم بأيّ تفصيل، وكانت الجثّة توضع في دار منزل الفقيد، فيأتي المعزّون لتقديم واجب العزاء. وكانت الجارات هنّ من يعاونّ أهل الفقيد في الضيافة والترتيبات، وحتّى أنّ الجيران كانوا يفتحون منازلهم لاستقبال الناس، في حال عدم اتّساع منزل الفقيد للحشود. كما أنّ الجيران يبقون حاضرين طوال أيّام العزاء، ويحدّون معهم، وكان الحداد لمدّة سنة كاملة، ترتدي في خلالها النساء الثياب السوداء، وتلغى الاحتفالات في الحيّ.

«وكنّا يَ جدّي
نْ مات شي ختار،
حتى ولوْ جوّات سبع بحورْ،
تحزن الضيعه،
كبارها وزغار،
(...)
لكنْ يَ جدّي نْ كانْ مَيِّتْ شَبْ
أو شي صَبيي بْعز طَلْعتها،
مَ يعود في للشبّ وقت يحب،
ولا للصبيّي تحطّ زينتها، (...)»[1]

اليوم ومع تبدّل الظروف وتغيّر المعتقدات، أنشئت الصالات في الرعايا لتحلّ مكان المنازل، حيث صار تقديم الضيافة في أثناء العزاء بعيدًا عن نخوة الجيران، وصار ندل يتولّون المهمّة ويتقاضون أجورهم مقابل ذلك. وصار أهل الفقيد مجبرين على الاهتمام مباشرةً بمراسم الدفن وتأمين «لقمة الرحمة» ليتقاسموها مع من بقي معهم في أيّام العزاء، هذا إن بقي معزّ في الصالة أكثر من نصف ساعة. كما أنّ لباس الأسود ما عاد مهمًّا، وصار مبدأ «لو الأسود بردّ الميّت، كنّا ما منقلعو». وفي حال كان محدّدًا موعد زفاف قبل الفاجعة تبقى الأمور على حالها، من دون تأجيل، تحت شعار «الفرح سابق».

كانت الألفة مسيّرة حياة الناس، كما في الأتراح كذلك في الأفراح. فما إن يعرف أبناء القرية برغبة أحدهم في الزواج، يهبّون ملتفّين حوله مقدّمين ما أمكنهم من المساعدة، بخاصّة عند تشييد البيت، فتصبح القضيّة قضيّة الجميع، يتهافتون

(١) جورج زكي الحاج، المصدر السابق، ص١٥٠، ١٥٢.

لمدّ أيدي العون في كلّ تفصيل. وهنا يتوجّه العمل بعبارات «الله يقوّيك»، «يعطيك العافية» «سلّم ديّاتك».

«وكنّا ي جدّي
يومة اللّي شبْ
ناوي عَ فعل الخير والجازي،
بدّو شي بيت بْدَرِوْتو ينْضبْ
ما كان يعرف إسمها العازي،
عند الفجر خمسين إيد تهبْ
ويرمي أبو سليمان عكّازي
والبيت يعمر...
والسطح ينصبْ (...)»[1]

أمّا اليوم فما عاد أحد يسأل عن أحد، كلّ يتّكل على نفسه في البناء، فيطلب إلى متعهّد أن يهتمّ بالورشة، ويدفع أتعاب كلّ عامل، مع فكرة أنّ العامل تقاضى أجرًا فمن واجبه أن يكدّ ويتعب. وبسبب الحالة الاقتصاديّة في لبنان، لم يعد الشابّ قادرًا على تشييد بيت له أو شراء قطعة أرض حتّى. فالاكتظاظ السكّانيّ شجّع أصحاب رؤوس المال على تشييد بنايات يشتري فيها الناس شققًا وفيها ينزوون فلا يزارون ولا يزورون.

وبالطبع قبل أن يقدر الشابّ على الزواج، هناك عدّة مراحل يجب أن يمرّ فيها، لعلّ أهمّها طلب يد الفتاة وقضيّة المهر.

«(...) وهيدي اللي مَهْرا أهلها غلّوا،
(...) وشو يومها،
حطّوا هك القَيْمي، تسعين كيلو
... وأكتر شويي،
وقَلْب العريس يصير عِتَّيْمي
وإمّ العروس تقول:
يا دلّي...!»[2]

المهر هو «الصداق وهو ما يُجعل للمرأة من المال تنتفع بهِ شرعًا وتنفقهُ معجَّلاً أو مُؤَجَّلاً.»[3] وهذه الطريقة في المحاولة على حفاظ حقّ المرأة في حال كان الرجل غير جدّيّ أو غير أمين، ما عادت تعتمد إلاّ في بعض المناطق النائية. كما أنّ في أيّامنا هذه، في ظلّ انخراط المرأة في ميدان العمل، صارت الفتاة تعاون الشّابّ في شراء أثاث البيت أو البيت حتّى، وفي مصاريف الزّفاف ومصروف البيت والأولاد، لأنّ الشباب ما عادوا قادرين بمفردهم على تحمّل أعباء الحياة كلّها.

وقد تطرّق الشاعر شعره إلى اللباس

(١) المصدر نفسه، ص١٣٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٢-١٤٣.
(٣) المنجد في اللغة والأعلام، ط. ٣٠، بيروت: دار المشرق، ص٧٧٧.

المعتمد في الأفراح في الزمن الماضي، فالنساء يرتدين فساتين مع كشاكش. والكشاكش مفردها الكشكش وهو «حاشية تضاف إلى ذيل الثوب أو أطرافه أو للزركشة والزخرف.»[١] أمّا الشروال فهو للرجال المتقدّمين في السنّ، بالمقابل يرتدي الأصغر منهم سروالاً.

«عليت ع برج الشمس
والغيم كشكش لفستانا (...)»[٢]

أمّا النساء فيخطن بأنفسهنّ الثياب الصوفيّة وغير الصوفيّة بحيث لم تكن المحالّ التجاريّة موجودة، وما كان متوفّرًا شراء ثياب جاهزة. فما خلا بيت في الماضي من مرأة تخيط أو تطرّز، أمّا اليوم فما عاد أحد من الجيل الجديد يعرف أن يمسك الإبرة في يده ليرتق قطعة ممزّقة حتّى قبل أن يبدأ بالخياطة، كما أنّ شراء الثياب الجاهزة صار أرخص وأوفر من خياطتها.

«وستّك يَ جدّي تغزل المغزال
بوقت الفراغ، تحيِّك بصوفاتها،
وتخلق ع إيدا شْكال خلف شكال
ويتفرّجوا النسوان ع شغلاتها،
مرّات كنزي ملوّني أو شال،
أو شي طاقيّي (...)»[٣]
«تياب الصبايا مْطرّزي عالإيد،
وتتغندر بفساتينها «زيني»،
وخلفا «مجيد»
بنطلون جديد،
وشروال بو حسني من «الدميني»
بليرا دهب... ومرّات نتفي يزيدْ (...)»[٤]

وجرّاء تزايد الهجرة وكثرة السياحة، استورد اللبنانيّون عادات من الغرب وحذوا حذوها، بما يليق بمجتمعنا وما لا يليق، وقد طال ذلك الاستيراد الزيّ النسائيّ، فما عدنا نرى النسوة ملزمات بالفستان أو بالتنّورة، إنّما صرن يرتدين السراويل، هذا الأمر الّذي لم يكن مألوفًا في القدم. زد على ذلك أنّ الرجال ما عادوا يرتدون الشروال بل صاروا يرتدون ما يسمّى بالـ «جينز». أمّا ارتداء البزّة والسراويل الرسميّة فاقتصرت على المناسبات الرسميّة واجتماعات العمل أو في الوظائف الّتي تفرض هذا اللباس. بالإضافة إلى أنّهم في المناسبات الرسميّة والأعراس تحديدًا، لجأوا إلى اللباس المريح والعصريّ وابتعدوا عن اللباس الّذي يقيّد ويأسر الراحة.

(١) أنيس فريحة، معجم الألفاظ اللغويّة، بيروت: مكتبة لبنان، ص١٥٣.
(٢) جورج زكي الحاج، المصدر السابق، ص١٠١.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٦.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣٦.

مع تغيّر المعتقدات والاختلاط الحاصل تغيّر دور المرأة، فهي الّتي كانت تحيك وتخيط وتحضّر الطعام وتعدّ السفرة وتحضّر «المونة» من كشك وزيتون وفاكهة مجفّفة، فلقد أورد الشاعر جورج زكي الحاج في شعره وصف لأنواع الطعام الشعبيّ.

«وغليون جدّي قبلنا قاعد معو
(...) سفرة ملك متزيّني بنتفة خَضار،
وعبطة خبز تنّور شقرا مقَمّرا،
ونعنع طري، وكم بصلتين كبار،
وزيتون أخضر حدّ جنطاس اللبن،
وعرّم ع راس الكِلّ
صحن مجدّرا.»[1]

«(...) يللاّ تعا، خلصت الصينيّي،
نتفة بصل أخضر من البستان،
زعتر طري... وبيضات مقليّي،
ومردكوش وخسّ من أبو سمعان،
وجنطاس من لبنات جوريّي (...)»[2]

هذا الطعام لا يزال يميّز السفرة اللبنانيّة، فيأتي المغتربون متلهّفين لتذوّق هذه الأطعمة. ولكنّ المطابخ العالميّة دخلت لبناننا وخالطت الأصناف مأكولاتنا التقليديّة. أمّا الخبز فما عاد خبز التنّور بل صار خبز الأفران وفي بعض الضيع خبز الصاج، ودخل إلى أفراننا ما يعرف بالخبز «الفرنجي» أي «السندويش» والـ «باغيت»...

«كنّا ي جدّي نحصد القمحات،
ونقشع ع بيدر حدّ حارتنا،
وندرس سبلهن، يتعبوا البقرات
ويشاركونا بنصّ غلّتنا...
وموسم دهب ينحط بكوارات (...)»[3]

«وبالجورعه، نقسم الغلاّت:
(...) القصلات للتنّور، والغنمات
إلهن تبن، هي رزقة الفلاّح»[4].

وفي هذه القصيدة، وصفٌ لموسم حصاد القمح بدءًا من العمل في البيدر لغاية درس السنابل وفصل الحبوب عن الزؤان، والقمح الذهبيّ اللون يخزّن من أجل استعماله في العجن أو الطهو في فصل الشتاء، وذلك حتّى يضمنوا قوتهم ويتّقوا الجوع طوال فترة البرد القارس. أمّا اليوم فما عاد أحد يخاف الجوع، إنّما صار الخوف من التخمة! والخبز متواجد دائمًا في الأفران بشكل يوميّ والقمح متوفّر في المتاجر، في أكياس محكمة الضبط تضمن جودته لمدّة من الزّمن.

«(...) ونمرق ع بو محروس عصريات

(١) المصدر نفسه، ص٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١-٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١١٥.

دكّانتو كانت على التلّه...!

وناخد حلو، وشويّة بزورات،

مجمع حلاوي ورطل نمّورا،

قناني عصير، (...)»[1]

كان أهل القرية يتّكلون على بضاعة «دكّان الضيعة» حتّى يشتروا ما يحتاجون إليه، مع أنّ البضاعة كانت محدودة وغير متنوّعة. واليوم ضاعت الدكاكين الصغيرة أمام المتاجر الكبيرة «السوبر ماركت»، وتنوّعت الأصناف والاختراعات لتبهر المستهلك حتّى بات لا يعرف ما يختار أو إلى ما يحتاج.

كانت القناعة باسطةً جناحها ويعاونها الأمان السائد في حينها، فما كان أحد يخاف شيئًا، لا سارقًا ولا حيوانًا ولا بردًا ولا تلوّثًا، يفرشون في الخارج في أيّام الصيف وينامون على الشرفات مشرّعين أبواب الدار، هذا الّذي يستحيل أن يحصل اليوم لعدّة أسباب أهمّها: التلوّث والسرقة.

«(...) بعزّ دين الصيف

نفرش الفرشات ع سطيحتنا

سهرات مجد وعزْ... بسط... وكَيف (...)»[2]

وفي أيّام الشتاء، يجلسون حول موقدة الحطب ليتدفّأوا، بما أنّها كانت الوسيلة الوحيدة لنشر الدفء، لذلك فإنّهم يستعدّون للفصل بجمع الحطب، فشهر تشرين هو الشهر المخصّص لجمع رزم الحطب، وقد عدّد الشاعر بعض أنواع الأشجار التي منها يقطع الحطب كالحور واللزاب والشربين. ولكنّ الحطب صار اليوم دليل رفاهية، إذ صار الناس يدفعون مقابل شرائه من أجل وقده في الداخون أو ما يقال لها «شومييني»، وبالتالي فوسائل التدفئة تنوّعت لتشمل «الصوبيا» والمدفئة الكهربائيّة أو تلك الّتي على الغاز وحديثًا المكيّف «هيتر».

«بالموقدي،

بعزّ الشتي،

كان الحطب عم يسرد القصّا (...)»[3]

«ونجمع الحطبات بتشارين

نحسب حساب البرد والصقعا،

شي حور، شي لزّاب، شي شربين...

شلوح الشجر شقعا ورا شقعا...

وختيار... لولا قطّع السبعين،

يفزع إذا بيتفركش بوقعا،

أو زكّم،

وصابو الرشح تخمين...

(١) المصدر نفسه، ص١١٥، ١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٤.

يتلفلف، ويغفى على السبعا،

في شباط ناطر تنتلي السلّه...»[1]

ولفصل الشتاء عمومًا تأثير في نفوس الناس، فهو كابوس على الجميع وبخاصّة على العجزة، لما في البرد من إزعاج لهم، ولشهر شباط خصوصًا كره فهو الشهر الممقوت والّذي يربكهم ويقلق أفئدتهم، يصلّون حتّى يولّي وهم على قيد الحياة، بسبب معتقد قديم سائد فيما بينهم ألا وهو أنّه يأخذ معه العجزة، لذا عندما ينجلي هذا الشهر يبادر من نجا إلى القول: «لبطّو قبل ما يلبطني».

هذه العادات وهذه التقاليد عاشتها الأسرة اللبنانيّة، هي الّتي كانت تعيش تحت سقف واحد من دون تذمّر أحد من الآخر، كانوا يتقاسمون اللقمة ويؤاثرون التأكّد من أنّ الغير اكتفى حتّى يأخذوا ما يريدون، لتصحّ العبارة «بيشيل اللقمة عن تمّو كرمال غيرو»، من دون الإفساح في المجال للحسد أو الطمع أن يتغلغلا بينهم.

«(...) وتحت السقف، في زْغارْ غِفْيانينْ

راس وْكَعب، كانوا حلا هالدار،

وستّك ي جدّي راكعا تصلّي...»[2]

لم يكن لكلّ ولد غرفة مخصّصة له، ينفرد فيها ويغلق على نفسه بابها لتزيد الشرخ الحاصل بين الإخوة. مع التنويه بأنّ عدد الأولاد في الأسرة كان نادرًا ما يقلّ عن السبعة، على خلاف الأسر في هذه الأيّام الّتي إن رأيناها مكوّنةً من أربعة أفراد قلنا إنّها أسرة كبيرة. ومع ذلك، فإنّ التعايش بين أفراد العائلة كان مهيمنًا، كذلك الوضع مع الجيران. فميزة اللبنانيّ هي كرم ضيافته واستقباله الضيوف وكلمة «ميّل» أو «حوّل». وإنّ أوّل ما يستقبلك في بيت اللبنانيّ، قبل أهل الدار، رائحة القهوة الّتي تعبق في الأرجاء لترحّب بالزائرين وتنادي المارّة، وقد ذكر الشاعر «المهباج» و«الجرن» وهما لصنع القهوة العربيّة و«الدلّة» وهي ما تعرفه بالركوة. فمن المعيب عدم تقديم القهوة وإلاّ فهم الضيف أنّه غير مرغوب في وجوده، زد على ذلك تقديم بعض الأطايب والّتي هي من حواضر البيت ومن يدي ربّة المنزل. والأهمّ أنّ الزّائر، ساعة يريد، يمكن أن ينزل دار المضيف من دون طلب موعد مسبق لتصحّ جمل الترحيب «أهلا وسهلا» «شرّفت» «نوّرت» «بتجي عبيتك».

«(...) وينقر إبن عازار مهباجو

بيت الضيافي مْعزّز... ومكفي،

قهوة عرب عا طول بالدّلّه»[3]

(١) المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٩.

أمّا اليوم فصارت الزيارات نادرة بسبب انشغال الناس الدائم، واقتناعهم بواجب أخذ الزائر موعدًا مسبقًا، وإلاّ فلا مانع من الاستئذان منه وعدم استقباله.

كما غابت السهرات في الأعياد، بعد أن كانت مقدّسة حيث يجتمع الجميع «يدًا واحدة» للتحضير لها، وتمتاز الجمعة بالرقص وتحديدًا رقص الدبكة، وقول الزجل بحيث ما خلا بيت لبنانيّ من قوّال، وكان العرق بدوره يجمع الناس حول الكركة في أثناء «شيل العرق». ونادرًا ما عدنا نجد هذه الجلسات إلاّ في بعض الضيع مع غياب تامّ لها مع أبناء المدينة.

«(...) العوني أساس العيش يا جدّي،
كنّا إذا جعنا بيكفّي رغيف،
نتقاسمو...
نتحمّل الشدّي،
نستقبل الجايي بقلب نضيف،
بالمرحبا والحوربي... وردّي (...)»[1]

«(...) ويتجمّعوا صبيان وبنيّات
رقص وغنا...
والكلّ إيد بإيد،
وعنّا يجوا الخوال والعمّات
وسكر وزجل... مع قلّك وقلّي...!
وشيل العرق ببيوتنا بركه
نوعى الصبح، بكّير،
نصلي النار،
ونبقى لنصّ الليل بالدبكه
والإرتجالي سيّد الأشعار
(...) وهون العرق ينشال بالكركه
وهونيك سلق القمح بالحلّه»[2]

أمّا الروح الوطنيّة فهي قوت اللبنانيّ، الّذي وفي سبيل صون أرضه وعرضه لا يساوم. فيجتمع المسلم مع المسيحيّ تحت شعار الوطنيّة، فلا يهتمّ الواحد لطائفة الآخر، جلّ ما يعرفان أنّ لبنانهما يجمعهما.

«(...) مسلم، مسيحي، تجمّعوا بنهار،
تَ يقاتلوا الفكّر بغزو حدود،
ما كان عنّا فرق الملّي...!»[3]

الرجل بصفاته يهزّ الدار، فأخلاقه تزنه والعنفوان سلاحه، وعمله بالأرض يزيده صلابة ورصانة، وهو وفي حال يريد الحلفان، ما له أعزّ من شاربيه، يمسك بأحدهما ويقطع وعده، وهذا دليل عزّة، فلا يجرؤ بعدها على نكس وعده لما يترتّب عليه من مذلّة جرّاء ذلك.

«يا رب
تحرس شاربو بين الرجال،

(١) المصدر نفسه، ص١٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢١-١٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٩.

ت يضل يجني لقمتو،

(...) وتحلا ع زندو غلال (...)»[1]

وقد اعتاد الرجل أن ينادى باسم ابنه البكر لا باسمه هو، وهذه بعض الألقاب الّتي وردت في شعر «شو حلو مبارح»: «أبو سمعان» (ص ٣١)، «بو أسعد» و«بو حنّا» (ص ٣٣). من هنا كانوا يفرحون لقدوم ولد، ويعدّون ذلك فخرًا واستمرارًا للنسل ولاسم العائلة، والمصيبة تحلّ عندما تولد بنت، لأنّ مصيرها مرتبط بشرفها، وهي لا تضمن استمرار العائلة، لأنّها ستتزوّج وتحسب على اسم أسرة أخرى. ولكنّ هذه الذهنيّة تبدّلت تمامًا اليوم، لا بل صارت الفتاة مصدر عطف وحنان بالنسبة إلى الأهل، وبخاصّة الوالد فإنّ «البنت حصّة بيّا». وفي هذه الحال، يمكننا أن نتأمّل خيرًا، وبالتالي فإمكاننا أن نقول هنا «شو حلو اليوم، صار أحلى من مبارح»!

وكان الرجال يتبارون في بعض الألعاب كالأولاد تمامًا، وقد ذكر الشاعر بعض تلك الألعاب مثل «لعب الورق» من طرنيب وليخا وباصرة ستّات (ص ١٢٤) و«سباق الخيل» (ص ١٤٤)، كما أنّ التباري في دقّ الجرس كان من أهمّ نشاطات يوم الأحد، بما أنّ أجراس الكنائس كان معلّقة بحبل، فيأتي أصحاب السواعد المفتولة لشدّها فيسمع صوتها أبناء القرية، وكان عرض المراجل في أثناء «التتليت» أو «التربيع» وعدم القدرة على ذلك مذلّة ما بعدها مذلّة ودليل ضعف وقلّة «رجولة» (ص ١٢٥). أمّا ألعاب الأولاد فهي لعبة «الكلّة» (ص ٢٠)، ولعبة العروس والعريس (ص ٤٣)، بالإضافة إلى لعبهم معًا في ساحة الحيّ ألعابًا أخرى متنوّعة (ص ٢١). وهذه الألعاب ندرت مع مرور السنين، نرى قلّة تلعب الورق وأكثر اللاعبين من الفئة العمريّة المتقدّمة. وفيما خصّ الأولاد فالكلّة اختفت من حياتهم ولا يعرف عنها أبناء اليوم شيئًا، واقتصرت ألعابهم على الألعاب الإلكترونيّة، وما عدنا نرى زمرة أولاد الحيّ يلعبون في الساحة، بل انعزل كلّ فرد في بيته، وأحد أسباب هذا الأمر انشغال الأهل عن أولادهم وقلّة الأمان.

إذًا، مع الانفتاح والتمدّن والهجرة تضعضعت القيم وصار الناس يطوّعون التقاليد على هواهم، كيفما تصبّ مصلحتهم. ومع مرور السنين، غابت هذه التقاليد وحلّت مكانها شريعة أن يفعل كلّ إنسان ما يحلو له، من دون أن يتأثّر بآراء أحد، مطلقين على العادات والتقاليد اسمًا جديدًا، ألا وهو، «التعقيد». وبالتالي فقد صار كلّ متمسّك بعادات وطنه «قديمًا» «معقّدًا»

(١) المصدر نفسه، ص٢٦.

«متحجّرًا» «منغلقًا» في نظر المتحرّرين، وبخاصّة الجيل الناشئ الّذي تربّى بعيدًا عن الأصول، بحيثُ وصلته المدنيّة والحضارة دفعة واحدة، غير متعلّم الصحّ من الخطأ، حتّى بتنا في زمان، صار فيه المحتشم «أبله»، والوقح «جريئًا» والوفيّ «غبيًّا» والوصوليّ «ذكيًّا»، وقد عاش مبدأ «الشاطر ما يموت».

في ظلّ هذه المعمعة، وصل كتاب الدكتور الشاعر جورج زكي الحاج «شو حلو مبارح» ليدقّ ناقوس الخطر، حتّى لا تسوء الحال من جيل إلى جيل، لعلّ المربّين يتنبّهون إلى ضياع أسس الحياة ويحثّون الجيل الناشئ ليرجع إلى الأصول، ويثيرون فضوله ليبحث في سير جدوده ويتشبّع منها نضجًا وحكمة و«إنسانيّة»، في عصر كثر في الإنسان وقلّت فيه الإنسانيّة! لقد لفظ حبر الشاعر الأنفاس الأخيرة لحياة الضيعة، ووضع إصبعه على الجرح، جرح التراث العميق، جرح الفلكلور الّذي ينزف بلا انقطاع، جرح بات ملتهبًا لا يلتئم إلاّ بالتئام نُتَف الحضارة المتبقّية في أذهان العجزة المتحسّرين على ماضيهم، هذه الذكريات المنطبعة في ذاكرة جيل ما قبل الحرب اللبنانيّة. وبالتالي، جاء الشعر مليئًا بالحسرة والحنين، مفعًا بالعاطفة بعيدًا عن الخيال، فالذاكرة هي الّتي تكلّمت على واقع كان يعيشه في طفولته أو أخبره به جدّاه عن حال الحياة في بلدات لبنان بأسره. وقد أفرغ الشاعر الذكريات من خلال شعره العامّيّ، كاسرًا التقاليد والعادات، فنحن لم نعهد كتابة تاريخ وأدب في أبيات إنّما في نثر ذات أسلوب علميّ بحت، ككتاب أنيس فريحة «حضارة في طريق الزوال»، أو كتاب لحد خاطر «العادات والتقاليد اللبنانيّة» وغيرها من الكتب. لكنّ الشاعر أضاف رونقًا على كلامه من خلال الحوار الّذي أوصل لنا وجهة نظره، الّتي لا يختلف عليها اثنان، ألا وهي تفضيله «الأمس» على «اليوم». وقد سافرنا معه على جناح طائر الزمن وعشنا في ذلك «الحلم» بضع لحظات بركة وخير وألفة، ما عدنا نعيشها في غربتنا الداخليّة اليوميّة، متحسّرين معه على ضياع جوهر الحياة، رافضين العودة إلى الواقع حيث المفاهيم البعيدة عمّا نرغب فيه. فكما يقال: «المكتوب يقرأ من عنوانه»، وهو باختياره لعنوان كتابه لا يعبّر عن رأيه وحسب إنّما ينقل صوت كلّ لبنانيّ قائلٍ: «شو حلو مبارح»!

نأمل أن يصل صدى هذه الصرخة وغيرها من الصرخات آذان المسؤولين، من أجل التحرّك والمضيّ في إيجاد حلول، بوضع خطّة جذريّة تطال المجتمع بأسره، بدءًا من الأطفال، لأنّهم المستقبل. وكلّ ذلك من أجل إعادة وضع هذه المفاهيم على السكّة فتسير على قدم وساق إلى أن

يتشرّبها الجيل الناشئ، من منطلق المثلين القائلين: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» و«من شبّ على شيء، شاب عليه». كما يطرح الدكتور بضعة حلول أبرزها تربية الأهل لأطفالهم وعدم تسليم هذه المهمّة للآخرين، والتخفيف من مشاهدة البرامج الّتي لا تحاكي مجتمعنا، وتعليم الأولاد مفاهيم الألفة والمحبّة والتعاون، وتعويدهم سماع الحكايا القديمة وحفظ الأزجال والأشعار القرويّة والأغاني، وإعادة التشجير لإعادة الطابع الريفيّ الطبيعيّ، وغيرها من الحلول.»[1] فإلى متى سنظلّ نفكّر في «ما في يوم بيروح وبيجي متلو»؟ هل سنتخلّص من التحسّر على الماضي وقول «شو حلو مبارح»؟ هل سنقدر في ظلّ هذا التطوّر أن نقحم بعضًا من تقاليدنا ثانيةً في مجتمعنا؟

(١) للتوسّع راجع كتاب الإبداعيّة بين الفصحى والعامّيّة، ص١٦٨-١٦٩.

التماون وتأثيره في الأدب الشعبي
بحث قصير

اعداد: سيمونا بردويل

مقدمة

يعد التماون من أهم المتطلبات الأساسية في حياة الشعوب، فالشعوب تُحوِّل بعض المواد الغذائية السريعة التلف، وخصوصًا الحليب وغيره، إلى مواد قابلة للحفظ، وبالتالي للاستهلاك في أي وقت.

إن تراكم الخبرات وتبدّلها لمئات السنين يشكل سلسلة لا تنتهي، تنعكس على حياة الأفراد، محرزة نمط عيشٍ يرزنمه أي يحققه ضمن روزنامة[١]، ولكي لا تضيع معادلتها ألّفت الأمثال الشّعبيّة المتناقلة بسهولة ويسر بين جيلٍ وآخر، بهدف حفظ الخبرات والمعارف المكتسبة.

هذه الأمثال المتناقلة هي جزء لا يتجزأ من حياة الشعوب وتاريخها «فالمثل في الكلام كالملح في الطعام» يعكس فكر جماعة داخل لغة، هذه اللغة التي تواكب العصور بدورها عاكسة تفاعل الإنسان مع بيئته مولدة دلالات اجتماعية متعارف عليها كونها «تنظيم اجتماعي»[٢] ينظم حياة الفرد من خلال تطبيق مصطلحاتها المرتبطة بحياته.

ومن خلال الطعام والأمثلة يمكن للقارىء أن يتفحص جزءًا من أخلاق الأمّة وعبقريتها.

هذه الدراسة التي تقوم بدراسة المتحوّل من الثابت داخل لغة حيّة، وتتبع هذا المتحول لمعرفة النمو الفكري والثقافي داخل المجتمع. وقد تأسست هذه الدراسة على ما استطاع الباحث جمعه من تاريخ الأطعمة وتطورها وتأثيرها في الأمثال والعادات المتداولة على مسامع المجتمع.

---

(١) وكلمة روزنامة من الفارسية: روز يعني يوم ونامة أي كتاب.
ادوار، القش: **روزنامة فلاحي فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر**، مقالة في مجلة الباحث، ١٩٨١.

(٢) توفيق شاهين، علم اللغة العام، ط٣، ١٩٩٣، ص٥٨.

تمهيد:

أصبحت روزنامة الذاكرة التي تخزن المعارف والخبرات للأجيال الماضية برنامجًا علميًا، واجه بها الناس صعوبات الحياة، في طبيعة متغيّرة بمواسمها، وأحيانًا قاسية بتحولاتها المناخية؛ فالإنسان بعلاقته معها خاضع لسيطرتها ومتقبل لنتائجها سلبًا أو إيجابًا: أراد الاستقرار في حياته من خلال تأمين المواد الغذائية الضرورية لذلك، ولتوفيرها لجأ إلى التحايل على الظروف الطبيعية، وكان معها في صراع طويل يفشل أحيانًا، ويتغلب عليها أحيانًا أخرى. فوصل بذلك إلى خلاصتين: التخزين والتدجين. أوصل التخزين إلى المؤونة أي «المونة» كما تقال في اللغة المحكية، وأوصل التدجين إلى القبض على مقدرات الطبيعة.

خرج الإنسان عن نطاق البدائية في تعاطيه مع الطبيعة بهذين المفهومين. أخذ يراكم اكتشافاته التموينية حتى باتت جزءًا من حضارته، تداخلت بعادات الشعوب ومعتقداتها. ولأهميتها المصيرية أعطتها الشعوب صفة القداسة، كما أخذت من أشكالها رسومًا تزيّن بها هياكلها ومعابدها: سنبلة القمح، سعف النخيل، الكرمة وغصن الزيتون، ورسومًا أخرى من الحيوانات والطيور، وأدخلتها أحيانًافي صلواتها وابتهالاتها الدينية، وبذلك تطور الإنسان من جامع للطعام إلى مطور له.

أولًا: أهمية الطعام في بعض الديانات:

شبّه المسيحيون الكنيسة بالكرمة: ففي العهد القديم قيل: «يا إله الجنود، ارجع واطلع من السماء انظر وتعهد هذه الكرمة أصلِحها وثبتها، هذه التي غرستها يمينك»[1]. وما زال حتى يومنا الحالي خلال القداس الإلهي، يتوجه رئيس الأساقفة إلى الله قائلاً: «يا رب يا رب اطلع من السماء وانظر وتعهّد هذه الكرمة وثبتها التي يمينُك غرستها». وبالتالي تخلّت الكرمة عن مفهومها الزراعي لتحمل مفهومًا جديدًا ألا وهو الكنيسة الجامعة أي الجماعة المؤمنة».

لهذه الجماعة في الذبيحة الإلهية للقداس الإلهي، يتخذ الخبز والخمر للمناولة رمزًا لجسد ودم المسيح، وتعد هذه الذبيحة أحد أسرار الكنيسة[2]. إن هذا الخبز تعرى من

(١) التوراة: سفر المزامير ١٤: ٨٠

(٢) سر الخبز والخمر: في كتاب ذكريات لمثلث الرحمات المغفور له المطران بولس خوري، مطران صور وصيدا وتوابعهما للروم الاورثوذكس، وتحت هذا العنوان، قال: «اقيم في بيروت من ١- ٤- ١٩٣٩، مؤتمر قرباني قيل انه الاول من نوعه في الشرق.

مفهوم القمح والغذاء ليشمل مفهومًا روحيًا يربط بين المسيحيين ليصبحوا كيانًا واحدًا. يقول بولس الرسول: «أنتم جسد واحد لأنكم تأكلون من الخبزة الواحدة»[1]. هذا القول أصبح فعلاً شعبيًّا مسيحيًّا.

أما القرآن الكريم فيقول في سورة النحل آية ٦٧: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ولماذا الكرمة؟ قال الله: «خلقت لكم كل شيء حتى العنب».

إنّ الله خلق جميع أنواع الفواكه والمأكولات ليأكل منها الإنسان ويستفيد منها قبل انتهاء موسمها.

«وقال عزَّ وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[2]. وقال أيضًا: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾[3]. فالعسل ليس بشراب، وإنما يُحوّل بالماء شرابًا. فسماه كما ترى شرابًا إذا كان مما يجيء منه الشراب».

ويزعم أهل الشراب أنهم لم يروا شرابًا قط، ألذَّ، وأحسن، وأجمع لما يريدون، من شراب العسل الذي يُنتبذ بمصر. وليس في الأرض تجارُ شرابٍ، ولا غير ذلك، أيسر منه. ما يميّزه أنّه ممزوجٌ بماء النيل، أكدر ما يكون، وكلما كان أكدر، كان أصفى. وقد يُلقى العسل على الزبيب، وعلى عصير الخمر، فيجوّدهما.

يحمل العسل قيمة تداولتها الشعوب ولأهميته ذكر في القرآن الكريم، مما جعل الناس تتهافت عليه: «يلي عايز العسل يتحمل قرص النحل».

وفي كتابه، ذكر الله عزّ وجلّ أنهار الجنة، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[4]. فكان هذا ضربٌ من التفضيل[5].

استعمل عندها الطعام والشراب لأمور

---

(١) الإنجيل المقدس: ١ كورنتس ١١: ١٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٩.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٥) التفضل: هذا النص منقول من كتاب الجاحظ في باب في النحل ص٢٣٣ - ٢٣٠ المجلد الخامس.
اما في المجلد الأول ص١١٦، وفي باب الترغيب في اصطناع الكتب: ... وكان عثمان ماش وجل وجزعان، يذكرون انهم عدّوا اربعين فتى من فتيان قريش وثقيف، إعذار يوم واحد، فاحصوا عشرين من قريش، وعشرين من ثقيف، وتوخّوا المتجاورين في المحلة، والمتقاربين في الدور، من المتوفرين على النبيذ، والمقصورين على التنادم، وانهم احصوا مثل ذلك العدد واشباه اولئك في السن. ممن لا يذوق الخمر ولا يعرف شرابًا إلا الماء، فذكروا انهم وجدوا بعد مرور دهرٍ، عامة من كان يشرب النبيذ حيًا، ومن لا يشربه قد مات عامته، وكانوا قد بلغوا في السن، أي للندماء.
ما أريد ان اقوله بعد قراءة هذا النص، ليس فقط المحصّلة العامة ما بين الذين يشربون الخمرة والذين يحجمون عنها، وانما الطريقة والذهنية العلمية التي اتبعت في ذلك العصر الذهبي من تاريخ امتنا للحصول على نتائج علمية صحيحة.

غير دنيوية، مرتفعة القيمة والأهمية من مأكل ومشرب إلى قوتٍ روحيٍّ ومغفرة من الرب في الجنة حيث لا حموضة للبن ولا تغيّر في رائحة الماء.

أما ما قاله الحسين بن منصور الحلاج[١]، وهو من أكبر متصوفي عصره، وصاحب الموقف من الشريعة في الحلول والاتحاد، بين الله والإنسان ومصطلح «فإذا أنت أنا». فقد رسم في بيتين من الشعر صورة رائعة لثنائية الروحين دون أن يبلغا الاتحاد مستعينًا بالخمرة والماء، لتفسير ذلك المفهوم:

«مزجت روحك في روحي كما
تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسّك شيء مسّني
فإذا أنت أنا في كل حال»[٢]

وكان للخبز مكانة أساسية، في عنصر الغذاء في ظل الدولة الإسلامية في العصور الإسلامية وهو لا يزال حتى يومنا هذا. فتناول سعد بن عمادة:

«من لحم ساعته وخبز نهاره
ويفوز طول حياته بدوامها»[٣]

حيث تعدى في ما بعد ليشمل الألوان والتباهي لدى الأغنياء وللدلالة على الفقر والبخل[٤]، ما ورد عن ابن قتيبة في (عيون الأخبار)[٥] إذ قال: «قلت لرجل كان يأكل مع أبي دلف» كيف كان طعامه؟»

قال: «كان على مائدته رغيفان بينهما نقرة جوزة» مبخلاً إيّاه لقلة خبزه.

الخبز دخل الأمثال الشعبية ليصبح رمزالحياة والأخوة: «بيناتنا خبز وملح».

«يلي بيخون الخبز والملح بيكون بلا أصل».

ومع أن الناس في عهد العباسيين، قد تحسنت أحوالهم وكانوا يفخرون بألوان الطعام والفواكه على موائدهم إلاّ أنّ الشعراء وباقي أفراد المجتمع يفتخرون دومًا بالخبز، وهذا ما تناقلته الأجيال.

«بكرا بيصير عنا طحين وبتسمع الجيران رقرقة العجين». ومن خلال هذا المثال يمكن للطفل الصغير أن يدرك بأن الخبز يُصنع من الطحين.

ويقال مثلاً في زراعة القمح: «في عيد

---

(١) الحلاج: كتاب الطواسين، ص١٢٤ (٢) مصدر نفسه، ص١٢٥.
(٣) محمد بن عبدوس أبو عبد الله، الجهشياري: الوزراء والكتاب،تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الابياري، مكتبة مصطفى البابي الخلبي، القاهرة ١٩٨٣، ص.
(٤) عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي: الأذكياء، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨.
(٥) مصدر سابق.

البرباره ضُب القمح بالكواره»، أي لا تزرع القمح بعد هذا التاريخ. «وفي عيد التجلي[١] بيقول للصيف ولي».

ومن هنا يصوّر المثل البيئة وطبيعتها، ويدرك الناس بأن للقمح وقت محدد يُزرع فيه. وهكذا توارثته الأجيال منذ القدم.

ولأهمية القمح في عملية التماون، تداخل في رواية عدنان بن عصفور في حكاية «بشتي فزدق وبندق»[٢] حكاية شعبية تحكي عن أب أعطى ابنته حبات قمح وقال لها «خلي جوزك يزرع هالقمحات». هذه الحكاية تسلط الضوء على أهمية زراعة القمح حتى لو كان الأمر متعبًا، لأن هذه الزراعة ذات مردودٍ مضاعف.

أما ما قبل الإسلام، فكان العرب يتوارثون قضبان العنب مع الذهب.

عندما توزّعت الأرض لأفخاذ قبيلة عدنان «... إما أن تُغَرِّبْ أو أشَرِّقْ، قال قصي، وهو من ثقيف: إنني أُغرِّب، وقال النخع، واسمه الجسر: فإني أُشرِق. فمضى النخع حتى نزل بيشة في اليمن. فلما كثر ولده، تحول إلى الدثينة، وهي منازلهم حتى اليوم. ومضى حتى وادي القرى، فنزل عند عجوز يهودية كبيرة لا ولد لها. فكان يعمل بالنهار ويأوي إليها بالليل، فاتخذها أمًا واتخذته ابنًا. فلما حضرتها الوفاة قالت له: يا هذا لا أحد لي غيرك، وقد أردت أن أكرمك لإلطافك إياي، وإنما كنت أعدك ابني. وقد حضرني الموت، فإذا أنت وريثي، خذ هذا الذهب وهذه القضبان من العنب. فإن أنت نزلت واديًا تقدر على الماء فيه، أغرسها، تنتفع بها، وماتت».... «أخذ الذهب والقضبانُ ثم أقبل، حتى إذا كان قريبًا من وج وهو الطائف»[٣]... ونفّذ الوصية. وهذا دلالة على أن العنب يوازي الذهب قيمة وأهمية.وهو من الشجيرات الأولى التي زرعها نوح بعد الطوفان بحسب ما ورد في سفر التكوين: «ابتدأ نوح كونه فلاحًا وغرس كرمًا» ليكون هو أول فلاح وأول كرمة تزرع. فالعنب ذات مكانة مهمّة عرفه

(١) عيد التجلي: يقع عيد التجلي في السادس من آب، وفي هذا التاريخ يُعْلَن انتهاء فترة الصيف. ظهر في الكنيسة خلال القرن الرابع وانتشر في المسكونة في القرنين الخامس والسادس واشار بطريرك القسطنطينية بروكلو إلى بعض المعلومات عن الاحتفال به في الغرب في مناطق محددة. ولكن بعد عام ١٤٥٦ عمم البابا كلستوس الثالث هذا العيد في الغرب علامة انتصار للمسيحيين على الاتراك.
حادثة التجلي وردت في انجيل متى (١: ١٣ - ١٧). وانجيل مرقس (٢: ٩ - ١٣). وانجيل لوقا (٢٨: ٩ - ٣٦). وانجيل يوحنا (٧: ١ - ٦). مجلة السراج الارثوذكسية. ٦ اكتوبر ٢٠٠٨.

(٢) محمد وهيب، الحكاية الشعبية في الأردن - الزرقاء، دار يافا الإلميا، ٢٠١١، ص٩٠.

(٣) حسن ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، . دار احياء التراث العربي بيروت، ص١٤.

الأطباء اليونان والإغريق والفراعنة وأطباء العرب والفرس إلى يومنا الحالي. فهو معروف في القدم كمنظف للقناة الهضمية وطارد للسموم. وبسبب هذه الأهمية انتشرت أقوال شعبية:

«يلي ما يطول العنب بيقول عنو حامض».

«إذا غاب عنك العنب والتين عليك بميّة كوانين».

ويلحظ أيضًا أن الطعام له علاقة بالمكان الذي أنتج فيه واستهلك فيه أو اتخذ من خلاله ارتباطًا قدسيًا دينيًّا، فالذبائح الدينيّة تقام تلبية لنذر، فتؤكل اللحوم وتتداول هذه النذور من جيل إلى آخر. أما علاقة الطعام بالزمان نسبة إلى الحقبة الزمنيّة التي تعطي للطعام صفة القدسية أو القيمة المتوارثة: كالكعك في الفصح المجيد، وشعير المولد في المولد النبوي الشريف.

يقال أيضًا: «اصبر على الحصرم تيصير عنب». فالعنب يمر خلال نضوجه بمرحلة الحصرم ليصبح ناضجًا، فشبهه الإنسان بحياته التي تمر بضيق ليصل إلى الفرج.هكذا يتعلم الإنسان الصبر.

ومن العنب تصنع الخمرة ففي الأندلس كان الخمر يصنع من التين أيضًا، ومما روي أن الخليفة الأندلسي الحاكم المستنصر «رام قطع الخمرة من الأندلس وتشدد في ذلك وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله، فقيل له إنهم يعملونها من التين وغيره، فتوقف عن ذلك»[١]. وإلا كان صحّر الأندلس. ولكن في مصر، قام أبو علي المنصور بن العزيز بالله الفاطمي والذي لقِّب (الحاكم بالله) بقطع الكروم ومَنع بيع العنب، كما أتلف ٥ آلاف جرة عسل خوفًا من صناعة النبيذ.

اشتهر اليهود بصناعة النبيذ. كان عندهم منه سبعة أنواع[٢]، دخل النوع السابع في الطقوس الدينية اليهودية وكان يسمى «جاجين». كان عند اليهود سبعة أنواع من النبيذ[٣].

جاجين: يشبه النبيذ العادي في ألمانيا، فعند شربه، يُسكر الإنسان، وهذا ما تبيّنه التوراة. فنوح وموسى سكرا لأنهما شربا جاجين. كما وردت في التوراة بعض

(١) الخمر في الأندلس: يذكر ابن حزم نفسه، كما يروي عنه الحميدي في، أن الخليفة. . . . (كتاب من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث. ص٣٥٠. جورج طرابيشي). أما في مصر. . . . (نقل عن الدرر السنية. موسوعة الفرق المبحث الثاني). جذوة المقتبس

(٢) التوراة، مصدر سابق.

(٣) http:/www.altawasul.com.

أضواء على إسرائيل، مركز الاعلام الاسرائيلي، أيار ١٩٩٨.

النواحي عن شرب جاجين: «وكان هناك ما يسمى» بشيكار خفيف، حلو، مسلوق مثل النبيذ اللبناني. يغلونه للمحافظة على حلاوته مدة أطول ولتجنب الحموضة. وهناك مثل شعبي يقول: «كل قديم منيح إلا التين وشيكار والسمك الصغير». وهذا المثل يعود إلى سنة ٦٠٠ بعد المسيح كانت وظيفة شيكار لا تقتصر على صناعة النبيذ، بل كان يؤتى ببقايا العنب، ويمزج معه التمر والعسل وغيره، ومن هذا المزيج يصنع النبيذ المحروق (الكونياك). هذا جاء في كتاب صمؤيل «يصنعون شيكار وجاجين».

إن هذا المثل الوارد عن التين والشيكار والسمك الصغير يحثّ الإنسان إلى الابتعاد من هذه المأكولات عندما تصبح قديمة لأنّها تصبح غير نافعة وتعمل على تسميم جسم الإنسان.

ثانيًا: الجهد الإنساني في تطوير عملية التماون:

أهم المواد الغذائية التي اشتغل عليها الإنسان واعتمدها قبل الآلة وبعدها في عملية التموين هي: العنب، الحليب، القمح (الشعير) والزيتون. ومرّت عملية الاهتمام بها بمرحلتين: التجفيف والطبخ. أضاف الجهد الإنساني المبذول في كلتي المرحلتين، أشياء جديدة ومهمة أدت إلى تغيير كبير في النمط المعيشي والحياتي للإنسان، وتأتي الكرمة في المرتبة الأولى في عملية التموين.

حصل الإنسان على النبيذ والجعة[١] بشكل طبيعي ودون عناء. فهو موجود منذ نشوءالبشرية التي امتلكته وفرحت به، وهو سهل المنال، ومن الكحول «النيّة» أي غير المطبوخة: أُعصر عنبًا واتركه فيتحول نبيذًا خلال أيام، تبعًا لدرجة حرارة الطقس. ثلاثة أيام كافية في الجزيرة العربية.

النبيذ رحيق الآلهة. دفأت الإنسانية به، فأنِست وسَبَحَتْ في عالم الخيال، وحَلِمت وإذا المنام، وحُمِلت بعيدًا بسرعة، كأن لا وجود للوقت والمسافات، وتبَصّرت فرأت أصدقاء وأحباء.

ولا ننسى الخل. فإذا ما سهَتْ عينك أو غَفَتْ عن نزل العصير في مرحلة التخمير، التي يجب أن تكون مستعدًا دائمًا لها، فيأتي الخل بدل النبيذ. كما يقول الأهالي: «لا

(١) الجعة: ففي الاسطورة البابلية، في العهد السابع قبل الميلاد، حيث كان الموت ليس بمرحلة نهائية، وفي عنوان الجحيم البابلي، وفي معرفة بعض عادات دفن الموتى: «عندما كان يوضع الميت في قبره توضع معه سبع جرار من الجعة، وأربعماية وعشرون رغيفًا من الخبز، ووزنتان من الحنطة، وعباءة ووسادة».
فراس، السواح: مغامرة العقل الأوّل: دراسة في الأسطورة، دار علاء الدين، ط١١، ١٩٩٦م، ص٢٩٦.

تعرف أَيمْتى بيجي العريس» أي «لا تعرف متى يأتي العريس»[١]. هذا ما جعل الإنسان متيقظًا في عمليّة التخمير متذكرًا قول الأجداد.

لا ننسى أن للخل دورا مهمًا إلى جانب الخضار، فقد أضاف إليها نكهتها وحفظها على مدار السنة.

إن ولوج الإنسان مرحلة التجفيف أحدث «الثورة التحويلية» الأولى: ويقال للتجفيف بالعامية «التأديد» أو «التقديد»، وهي ما تزال متّبعه حتى يومنا هذا في تموين بعض المواد الغذائية ومثالاً على ذلك الكرمة التي تعطي الزبيب، أول مادة تموينية طبيعية.

وهكذا يعد التجفيف وبخاصة التجفيف الشمسي التي اعتمده الإنسان لتجفيف الفواكه كالعنب المذكور سابقًا، إضافةً إلى اعتباره من أقدم الطرائق المتوارثة إلى يومنا الحالي.يحتاج هذا التجفيف الشمسي إلى مناطق معيّنة تتوفر فيها درجات الحرارة العالية والرطوبة المنخفضة والخالية من الأمطار مدّة التجفيف ومن أهم هذه البلدان: العراق.

يعطي الحليب المخمّر مع القمح «الكشك»، والحليب مع الروبة اللبن والجبنة. أما بالنسبة لعصير قصب المص: عصير قصب القند النيءالموجود في المنطقة الساحلية ويدعى قصب المص قديمًا، وقصب السكر حديثاَ، فنحصل على هذا العصير بعدة طرائق.

وأعطى الطين، الطوب أول لبنة لمأوى الإنسان والنار. أحرز الطبخ المرتبط باستخدام النار مرحلة متقدمة في تاريخ البشرية، ما سهّل عليها عملية التموين بتحويله المواد الطازجة إلى مواد أخرى جاهزة للحفظ والاستهلاك اللاحق. حيثأصبح بمقدور الإنسان تذوّق المأكولات والمشروبات كافة، دون استثناء ودون عناء. فأضاف متعة إلى حياته وهي متعة التذوق. («النار فاكهة الشتاء»).

اهتم العباسيون بالطبخ وصنوفه، فأنتجوا العديد من الكتب والموسوعات في هذا الفن[٢]. أما العرب وبخاصة في بدايات الدولة الإسلامية فكانوا يلجأون في المأكل إلى ما هو أسهل: «كخلط البر والشعير والدقيق والسويق والثريد... باللبن والحليب و... والسمن والتمر»[٣].

(١) متى يأتي العريس: استعار الأهالي مثلهم من الكتاب المقدس: مثل العذارى. خمس منهن جاهلات وخمس منهن عاقلات. وكلهنَّ ساهرات متى يأتي العريس... متى ٢٥: ٦.

(٢) حبيب زيات، فن الطبخ واصلاح الأطعمة،المشرق، مجلد ٤/ ١٩٧٤، ١٩٤١م.

(٣) مصدر نفسه.

وبتوفر الدست والحواره، الحوّاره: وتأتي من كلمة شجر الحور لبياض ورقه. وليس كل تراب أبيض حوّاره. تكتشف ذلك عند هطول الأمطار. التربة البيضاء التي «تُفوخِرْ» أي كالفخار تكون حوّاره، أما التي «تُلَبِدْ» فهي طينية. يُنتقى من الحوّاره الساطع البياض، ومن أماكن محددة ومعروفة من الأهالي بعد خبرة وتجربة. الحوّارة غنية بمادة كربونات الكلس المضادة للحموضة، وتحتوي على الصلصال. ولها استعمالات أخرى.

أولاً: تستعمل مادة إسمنتية طبيعية أولية، توضع بين الأحجار، اكتشفها الأقدمون، دُعِيَتْ بالميلاط.

ثانيًا: تليّس حيطان البيوت الترابية و«السفارات» أي ما بَرَزَ من السطح، بعد خلطها «بالقصل». القصل هو العقدة التي توصل ساق سنبلة القمح أو الشعير. وما بين العقدتين «التبن». نحصل عليه بعد عملية «الدرس»، أي فصل الحب عن السنبلة في البيدر. يتماسك القصل مع التراب ويمنع لبناته من التفتت. تُصَبْ أرض البيت منها، وتُنَعّم بواسطة «المَدْلَكي» أو المحدلة وهي كناية عن حجر أملس، تُدَلَكْ بعد ترطيبها بالماء فتصبح ملساء. دعيت في الكوره «حورور». تُمْزَج مع «ملح القاق»، حجر متعدد الألوان، أصفر، أحمرأو زهري. يطحن وينخل ثم يخلط مع الحورور، يطيّن به «الحرّون»، وهو جورة في وسط البيت تستعمل للتدفئة بدلاً من الموقد. يزيد حرارة النار كونه ممزوجًا بالملح.

«أما في منطقة عرسال، حتى القلمون الغربي في سوريا، تبنى الكوارة وتليّس بالحوارة، ويوضع لها التبن مع شعر الماعز لتتماسك، ولا تكون عرضة للتفتت. كذلك في صناعة التنور...»[1].

ثالثًا: تخلط الحوارة بالملح ويدهن بها جلد الخروف، بعد سلخه، حيث يثبت على الحائط بواسطة الخوابير الخشبية، مشدودًا جيدًا من كل جوانبه، بمكان مشمسٍ فتزول عنه «الزفرة من دهن وشحم» لينشف. ثم يصبح صالحًا للاستعمال.

رابعًا: تعتمد، الساطع منها أي النظيف، كمواد طبية. توضع لدى الأطفال المصابين «بالتسميط» وهو نوع من الالتهاب الجلدي حول الأعضاء التناسلية. تعالج «لسعة الدبابير والنحل والزراقط». تذوب الحوّارة بالماء وتدهن مكان اللسعة فتشفى.

خامساً: الحوّارة محببة لدى الفلاحين. تدعى في البقاع «الأرض المرضعة» وفي جهات صور «أرض الذَكَرْ».

(١) محمد علي غصن، حديث الأجداد، ١٩٧٨م.

«الأرض المرضعة»: كونها بيضاء، تعكس أشعة الشمس، فلا تختزن الحرارة، تمنع الرطوبة في داخلها من التبخر بسرعة نسبةً إلى الأرض الحمراء التي تتشبع بالحرارة فتخسر رطوبتها، وبالتالي تُرْضعُ مزروعاتها كالأم الحنون، تعبير فلاحي مميّز. زُرِعَتْ كروم العنب في البقاع في هذه الأرض الحاضنة وكذلك بساتين الكرز، ومن الزراعات البعلية في البقاع، القثاء أي المقتي والبطيخ...».

«الأرض الذَكَرْ»: أي الأرض المعطاء، التي تعطي محاصيل بعد «التدكير»، أي الأرض التي يوجد فيها الحجر وهو تعبير فلاحي جنوبي، وهي بعكس الأرض الطينية الجدباء. وتزرع فيها كروم الزيتون.

أما قصة الذكر والأنثى في الزراعة البعلية، فهي حكاية فلاحية تتوارث من جيل إلى جيل. يقسّم الشهر الهجري إلى فترات «مليانـي» و«فاضيي». ففي الفترات «المليانـي» تُزْهِر «الصحاري» وتعقد وتعطي ثمرًا، أي مليئة بالمحاصيل. أما في الأيام «الفاضيي»، تُزْهِر «الصحاري» ولا تعقد ولا تعطي ثمرًا، أي فارغة من المحاصيل. يلجأ الفلاحون لزراعة أرضهم في الأوقات «المليانـي».

يقسّم الشهر الهجري كالتالي: ٥ أيام مليانة، ٥ أيام فاضية. ٤ أيام مليانة، ٤ أيام فاضية، ٣ و٣. ٢ و٢. ١ و١. يكون المجموع ٣٠ يومًا.

يختلف الموضوع والمفهوم لدى «الطرّاشي» وهم مربو «الطرش» أي الماشية من الحيوانات. يعتمدون في أغلب الأوقات الأيام «الفاضيي» لأنه في مثل هذه الأوقات تنجب الماعز والأغنام والأبقار، التي تدر الحليب والتي تنجب وتزيد في عدد الولادات. ويعتبر مربو الماشية أن إنجاب الذكور موسمًا خاسرًا.

هذه الأمور كلّها انعكست إيجابًا على التموين فأصبح بإمكان الإنسان التحكم بالتربة بالمذاق إضافة إلى الطقس ليجعل من طعامه صالحًا ونافعًا للمؤنة.

قبل اكتشاف السكر لتحلية المشروبات والطعام، كان الدبس[1] مادة التحلية الرئيسية في بلادنا لمئات السنين قبل

(١) الدبس: هو عصير العنب بعد طبخه وتبخير المياه منه للتعقيد. توضع الحوّاره مع العصير، ويغلى على النار. عند بداية الغليان يرفع العصير عن النار، يترك ليرتاح، وهي عملية ترقيد لفضلات العنب وامتصاص الحموضة المتواجدة فيه بواسطة الحوّاره. يسمّى العصير «راووق». لمدة ٢٤ ساعة رياحة، يصفّى ثم يغلى مرة ثانية حتى «يُعَقَدْ» أي يصبح سميكًا. والدبسنوعان: العادي، والمضروب. يُضرب بقضيب من التين الذي يزيد من سماكته، ويغيّر لونه إلى بياض، يحافظ على شكله في أيام الشتاء، أي لا «يبرغل» كالدبس العادي في الجو البارد.

ظهور السكر، أي عصير قصب المص المطبوخ[1]. لم يكن السكر الأبيض سائدًا لأنّهم اعتبروه سمًا للجسم».

هذا الدبس الذي وجد بفضل الإنسان الذي حوّل عصير العنب بعد طبخه وتبخير المياه منه للتعقيد. توضع الحوّارة مع العصير، ويغلى على النار. عند بداية الغليان يرفع العصير عن النار، يترك ليرتاح، وهي عملية ترقيد لفضلات العنب وامتصاص الحموضة المتواجدة فيه بواسطة الحوّارة يسمّى العصير «راووق». يترك لمدة أربع وعشرين ساعة ومن ثَمَّ يصفّى، ومن بعدها يغلى مرة ثانية حتى «يُعَقدْ» أي يصبح سميكًا.ويمكن أن ننتج نوعين من الدبس: الدبس العادي، والمضروب. إن الدبس المضروب يُضرب بقضيب من التين الذي يزيد من سماكته، ويغيّر لونه إلى بياض، يحافظ على شكله في أيام الشتاء، أي لا «يبرغل» كالدبس العادي في الجو البارد.

وروى الرحالة البشاري المقدسي عام ١٣٩٧ أما المزروعات فأكثرها الأعناب، وأن بعلبك كانت معدنها، لذلك اشتهرت بصناعة الدبس والملبن والحلاوة...، وعدَّ يقول الفرزل من قرى بعلبك وقال: يُعمل بها الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها[2].

ولما مرَّ ابن بطوطة ببعلبك خلال رحلته كان الملبن لا يزال معروفًا بها، وصف الدبس بقوله: «بها يصنع الدبس المنسوب إليها وهو نوع من الرِبْ يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه...»[3].

مع ظهور «الجاروشة»[4] آلة الطحن:

---

(١) عصير قصب المص: عصير القصب القند النيء. المتواجد في المنطقة الساحلية ويدعى قصب المص قديمًا، وقصب السكر حديثاَ. نحصل على هذا العصير بعدة طرق.
أولًا: بضربه بالعصي الغليظة. ثانيًا: بطحنه بطاحونة تجر حجارتها الجواميس أو البغال، شبيه «بدرس» الزيتون. يترك هذا العصير ليَجْمَد أي يتكثف طبيعيًا، يُدْخَل إلى الماكولات والحلويات. الزبيب (أي العنب المجفف) ينتشر في المناطق الجبلية. ومن العنب يصنع الدبس، أما عصير قصب المص فينتشر في المناطق الساحلية.
يقول المؤرخ عمرعبد الرحمن التدمري إن: «مصدر قصب المص جنوب شرقي آسيا، كان ظهوره في المنطقة قبل ظهور الإسلام. وفي القرون الوسطى، أخذه الأوروبيون في الحملات الصليبية ١١٠٢م إلى جنوب إيطاليا تحديدًا إلى صقلية. ثم صُدِرَ إلينا سكرًا صناعيًا. وظلَ محصورًا في الساحل حتى فترة الستينات». عن كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب لشهاب الدين التنويري.

(٢) حبيب الزيات، الخزانة الشرقية، ١٩٣٧م، ص٦٩.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة، ١٨٦٧م-١٢٨٧هـ.

(٤) الجاروشة: آلة الطحن المنزلية، مصنوعة من حجرين من الـ Basalte الأسود بشكل دائري، لونه أسود مائل إلى الزرقة. توضع الحبوب المعدة للطحن في فوهة الحجر العلوي، تتساقط الحبوب بين الحجرين، يبدأ الدوران بالحجر العلوي بواسطة «مسكة» مقبض خشبي موضوع في تجويفة صُنعت خصيصًا له... ص٣٧٣.

كان الخبز من القمح وبعدها الزيت من الزيتون. وهكذا تدخل الإنسان وابتكر أمورا تساعده في خدمة مصلحته.

وظهر «الإنبيق» على يد جابر بن حيّان حوالي ٨٠٠م في بغداد، ومعه برزت مرحلة التقطير، التي أضافت إبداعات لا تعد ولا تحصى من المشروبات والعطورات.

وقد قدم «الإنبيق» للبشرية أولى تقطيراته: الروح، وهو «السبيرتو» بلغتنا اليوم، وأضاف متلذذو الخمر اليانسون إلى سبيرتو العنب، فإذا بهم يكتشفون العرق، وبالتالي يكون اليانسون والكرمة قد أضافا نكهتيهما.. ومكتشف الإنبيق جابر بن حيان. من أعظم علماء القرون الوسطى. أدخل العلم التجريبي في الكيمياء. عمل صيدلانيا لفترة طويلة. وعرف في أوروبا باسمه الأول جابر (Geber)[١].

وحصلت بغداد على عطْر ماء الورد الجوري، وزينت طبيعتها ببساتين الورود التي كحّلت ناظريها. وحلت بغداد جنة القرنين الثالث والرابع هجري[٢].حيث اشتهرت تجارة العطور وصناعتها عند العرب خلال القرنين الثالث والرابع هجري. أي التاسع والعاشر ميلادي.

يلحظ أن عدد البساتين في ذلك الوقت بلغ ٤٠ ألف بستان، هذه البيئة الخصبة ساعدتهم أكثر على زراعة الورود للاستخدامات الحياتية: للعطور وللشراب.

أما كلمة بغداد فأمست متداولة في التعابير الشعبية، ليس فقط في بغداد، وإنما في الأمصار العربية كافة وكل حسب لهجته. فيقال لشخص أو فرد أو جماعة، إذا ما أنعم الله عليهم بالنعيم، أي نعيم الجنة على الأرض: «عم تتبغدد، شو هل بغددي وتركو يتبغدد شوي». هذه أمثال عامية تدخل ضمن إطار الحياة اليومية مما يدرجها ضمن الأدب الشعبي المتوارث.

وأصبحت بغداد منارة العلم والثقافة في العهد العباسي. وسار فيها الترف المادي والعظمة السياسية جنبًا إلى جنب مع الازدهار الفكري وسناء الذوق الفني، لمزيج من الشعوب قلّ نظيره. مما دفع الفيلسوف الفرنسي الماركسي مكسيم رودنسن[٣]

---

(١) جابر بن حيان بن عبدالله الأزدي: عالم مسلم عربي، برع في علوم الكيمياء والفلك والهندسة وعلم المعادن والطب والصيدلة، ويعدّ أوّل من استخدم الكيمياء عمليًّا في التاريخ.

(٢) سليمان التاجر، عجائب الدنيا وقياس البلدان، ٨٥١م -٢٣٧هـ، تحقيق: سيف شاهين المريخي، دار البارودي، دولة الإمارات المتحدة، ٢٠٠٥م.

(٣) Maxime Rodinson

تمّ النقاش معه من قبل الدكتور نقولا ألوف للاستيضاح والتوسع بالفكرة. وكان ذلك عام ١٩٦٦ في باريس. وجرى اللقاء بعد ندوة لروبنسون في ذلك الوقت، يتناول فيها نظم الحكم الإسلامي..

Maxime Rodinson للقول: «إن الثورة العباسية التي قامت بها تلك الشعوب المنضوية في مدينة بغداد كافة، لهي أول ثورة أممية في التاريخ...». مما حدى بالمتوكل الخليفة العاشر القول، نقلاًعن ابن العمراني[1]: «كانت الخلفاء تتعصب على الرعية لتطيعها، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني»... «ولأول مرة في تاريخ هذه الخلافة، بل لأول مرة في المؤسسة الخلافية بعد أن آلت غبّ ثلاثة عقود من موت الرسول إلى مؤسسة وراثية، تجرأت العامة، القوية بتعدادها، على خلع خليفة، هو المأمون، وعلى مبايعة آخر مكانه هو إبراهيم بن المهدي...». وأصبحت العامة يُحسب حسابها في المعادلة السياسية، إيجابًا أو سلبًا. لهذا الحكم والسلوك العام انعكاس على الطعام والشراب وتداخل العادات في التحضير والتقديم داخل المجتمع. مما أدى إلى تنويع الطعام على الطاولة.

أما جرجي زيدان[2] فقد أضاف وصفًا دقيقًا بواسطة أقاصيصه لتلك الثورة التي لم تحكم وإنما صُودرت سلطتها من قبل الطبقة الوارثة مستندًا إلى الحق النَسَبي بين قرشي وهاشمي. ويقول: «... فترى منهم، العربي والفارسي والرومي والتركي والكردي والأرمني والعلوي والكرجي والسندي والهندي والصيني والزنجي والحبشي». وأقول: هذا المزيج من الألوان، في الفلسفة، يعطي حضارة بيضاء بلون العرق واللبن والكشك، مصنوعة على يد الإنسان ويعكس تفاصيلاً دقيقة للحياة الشعبية المختلطة مواكبا التطور اليوميّ، فهو ليس موضة قديمة بل يواكب الإنسان يوما بيوم: «الدست ما بيكربج إلاّ على تلاتي».

«يلي بيشرب من البير ما بيرمي في الحجر».

فتلاتي والبئر كناية عن جماعة والانتماء لهذه الجماعة أمرٌ حتمي يظهر الحياة الاجتماعية المختلفة بتنوّع شعوبها، فكان للطعام مكان مهم في الأمثال المتناقلة حتى يومنا الحاليّ: «يورّيك حنطة ويبيعك شعير». للدلالة على الغش والسلوك السائد في المجتمع.

ولا يخفى أن هذه الأمثال تحمل القيم وتحث الفرد دائمًا على التيقظ مع

(١) جورج طرابيشي. تحت عنوان الانقلاب المتوكلي. ص٤٨٣,

(٢) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة. رواية العبّاسية أخت الرشيد، المجلد السابع. ص٨,. وفي صفحة ٩٣ حسن ابراهيم:التاريخ السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث الغربي، بيروت، ١٩٩٦ م، ص١٨، ص٢٢.

الممارسات الاقتصادية داخل الجماعات المتنوعة ليس في الأصول (عربا كانوا أم كنعانيين.....) أو في اللغة فقط بل في الأفكار والأهداف.

أما الوصف للتحليل السياسي والاجتماعي لمدينة البصرة للكاتب حسين مروة[1]: «... يرجع الأمر إلى ظاهرتين تميزت بهما البصرة طوال العهد الأموي. الظاهرة الأولى، كونها المدينة التي احتشدت فيها مختلف القوى والأحزاب السياسية والتيارات الفكرية المعارضة للحكم الأموي، من الشيعة والخوارج والموالي المنحدرين من أصول مختلفة... يضاف إلى ذلك كون البصرة مركزًا رئيسًا لتجمع فئات واسعة من حرفيين وفلاحين وعبيد وصغار التجار الفقراء الوافدين من عدة أمصار طلبًا للعمل أو هربًا من اضطهاد مالكي الأرض... مما أدّى إلى اختلاف الأطباق وطريقة تخزين المأكولات بين كل فئة. وبسبب هذا الاختلاط الواسع الذي سمح بامتزاج بين طرائق تحضير الأطعمة وبين الفكر والفلسفة، فاختلطت القيم الاجتماعية كما اختلطت الأطعمة وانتشرت الأقوال لدى الشعب فقيرًا كان أم غنيّا: «الدواء في الغذاء».

- «الزيت مسامير الركب».
- «نص البطن بيغني عن ملاتو»
- «العز للرز والعدس شنق حاله»
- «إذا كان حبيبك عسل ما تلحسو كلو»

هذه الأمثال والعادات تناقلتها ألسنة المجتمع فحملت عبارات ومعاني وأدوات استخدمت إما لمعرفة كيفية التماون أو لذكر فائدة تماون الطعام.

خلاصة:

التماون والطعام يؤثران بشكلٍ أساسي على الأمثال والعادات الشعبية من ناحية الصياغة والتأليف والتداول. إنّها ذخيرة مشتركة، وفرع من فروع التراث والمأثورات الشعبية المنجزة بصورة تراكمية.

يعد هذا التراث الشفوي جزءا مهما من ثقافة المجتمعات المحليّة. فهو يشمل حاجات المجتمع ورغباته اليومية ويتضمن الممارسات وعادات الطبخ والمأكولات والثياب.

إن عمليّة التماون مرّت بالعديد من التقنيات التي نشط الإنسان في تحديثها وبلورتها لخدمته. فهي فرع من فروع التراث الشعبي المادي، غنيّ بإمكانات كلّ حركة من حركاته من لحظة تجهيزه إلى لحظة استهلاكه والتقنيات والعمليات

(١) حسين مروة: في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية. ص٥٩١.

اللاحقة المرتبطة بالاستهلاك، «تخضع لقوانين وقواعد وديانات وأعراف كلّها موروثة اجتماعيّا، يفهمها أبناء المجتمع ويستعملونها لتبادل المعتني ولتنظيم العلاقات الاجتماعيّة بينهم».

إن سيرورة الطعام وعملية التماون والانتشار التي تتميّز بها الأمثال ليست فولوكلورا بل هي أكبر عامل مؤثر، والأداة السهلة الاستعمال في أيدي الناس، تعكس حياتهم الاقتصادية والقدسية المرتبطة بديانتهم، وتظهر القيم الاجتماعية والمستوى الاجتماعي، إضافة إلى الدليل الصحي العلاجي أو الوقائي، وسلوك الأفراد داخل سياق لغوي فاعل باللغة المؤثرة في زوايا حياة الفرد. فاللغة والممارسة وجهان لعملة واحدة. فاللغة الأداة الكاشفة عن هذه الممارسة، تصورها داخل السياق الاجتماعي.

الخاتمة

تمتد معاني الأمثال وتتركب وتتكاثف... وأحيانًا أخرى تستطرد لتلحق في معاني المستحيل الزمني المطلق...تجسد واقعًا ملموسًا مستلهمة من الزمكانية وما أفرزته من علاقات اجتماعية تؤثر على الأدب الشعبي وتتأثر بما تفرّع عنه من أمثال.

فالمثال والقول هنا يستقيان شكليهما ومضمونيهما من الزمان، المكان والأرض المنتجة للطعام إلى جانب جهد الإنسان لتحصيل أكبر عدد من المؤن. فالطعام والأمثال يتأثران ببعضهما البعض.

أدّت العوامل الطبيعية والبيئة الحاضنة بمجتمعها إلى تشكيل صورة ذهنية عن التماون يتناقلها المجتمع الذي طورّها بدوره، فتتبعت هذه الدراسة المتحول ليصبح ثابتا، مشكّلةً تعبيرًا شفهيًّا، يُتناقل، فتخزنه مسامع الأجيال وتورثه داخل الأدب الشعبي، لأنّه المرآة التي تعكس الصورة الحقيقية لحياة المجتمع. وهو من أشكال الإبداع، والإشعاع الذي يصوّر كل نور اكتسب في حياة الفرد. ينسكب ضمن لغة فاعلة مؤثرة، يتأثر الفرد بمصطلحاتها المكتسبة من البيئة الفاعلة، «لأنّ اللغة تنظيم اجتماعي ترتبط أساسًا بحركة الإنسان الذي يشكل نواة المجتمع»[1].

ننهي بأن هذه الدراسة هي غيض من فيض في عالم الأمثال المختزنة بعبارات التماون، على أمل أن يستكمل البحث لسبر أغوار جديدة لم تذكر للعادات الشعبية.

(١) محمد، صادق: جماليات اللغة وغنى دلالتها، ط١ د.ت، ص٧٥.

المصادر والمراجع

١ – الإنجيل المقدس
٢ – القرآن الكريم
٣ – التوراة
٤ – إبراهيم، حسن: التاريخ السياسي والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث الغربي، بيروت، ١٩٩٦م.
٥ – ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم بيروت، ٧٦٥هـ.
٦ – ابن الجوزي، عبد الرحمن: الأذكياء، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨م.
٧ – التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة ١٨٣٠م ١٩٤٥م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م.
٨ – حسين محمد حسين، كمال الدين: دراسات في الأدب الشعبي، ط١، ١٩٩٩م.
٩ – ادوار، القش: روزنامة فلاحي فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر، مقالة في مجلة الباحث، ١٩٨١م.
١٠ – زيات، حبيب: فن الطبخ واصطلاح الأطعمة، مجلد ١٩٧٤\٤، ١٩٤١م.
١١ – عكاوي، رحاب: لآلي الأمثال، دار الفكر العربي للنشر، ط١، ٢٠٠٣م.
١٢ – عواد، ميخائيل: صورة مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١.
١٣ – سرحان، نمر: الحكاية الشعبية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨م.

المواقع الالكترونية:

– مجلة الحوار المتمدن، العدد ١٢٣٣، ١٩ حزيران ٢٠٠٥م.
– مجلة التراث العربي العدد ٨٦، ٨٧، ربيع الثاني ١٤٢٣هـ، آب ٢٠٠٢م.

تحليل التّربة المثاليّة لزراعة الصّعتر في لبنان

حسن شعيتو، زينب حمادة، نوال العجوز[1]

ملخص:

أجرينا هذه الدّراسة على عيّنات تربة مأخوذة من مختلف المناطق اللّبنانيّة لتحديد التّربة المثاليّة لزراعة الصّعتر في لبنان. قمنا بإجراء العديد من التّحاليل الكيميائيّة والفيزيائيّة لكلّ عيّنة على حدة. أظهرت نتائج اختبار التّربة قلويّة طفيفة (درجة الحموضة pH بين ٧ و٨)، ومستويات معتدلة من الفوسفور (بين ٥٠ و١٠٠ جزء في المليون)، ومستويات عالية من البوتاسيوم (أكبر من ٣٠٠ جزء في المليون) والنّيتروجين (أكبر من ٠,٢٪) ونسبة عالية من الحجر الجيري. هذه المعدّلات تختلف أحيانًا من منطقة إلى أخرى. من ناحية أخرى، يوضّح تحليل عيّنات التّربة التي جمعت من مختلف مناطق لبنان أن ثراء مغذيّات التّربة يترجم ازديادًا في نمو نبتة الصّعتر. بالنّظر إلى مختلف العوامل الجغرافيّة وتنوع التّربة اللّبنانيّة فقد وجدنا أن أفضل تربة مؤاتية لنمو الصّعتر هي التّربة الغنيّة بالحجر الجيري والتي توجد بأغلبها في جنوب لبنان.

المقدمة

يوفر لبنان – الواقع على البحر الأبيض المتوسط – بيئة مؤاتية لزراعة الصّعتر (Kintzios, 2004; Lamouroux, 1973). 90٪ من زراعة الصّعتر في لبنان تقع في مناطق الجنوب. في المناطق الدّاخليّة كالهرمل مثلاً، يمكن لصناعة الصّعتر أن تنمو على الرّغم من الظّروف الجوية غير المؤاتية حيث تبلغ كمية الأمطار ٣٠٠ ملم في السنة والمناخ شبه جاف (Atlas climatique du Liban, 1977).

الصّعتر هو نبات عطريّ عشبيّ معمر ينتمي إلى عائلة Labiatae، وينمو بكثرة في حوض البحر الأبيض المتوسط. ويعدّ

(١) كلّية الزّراعة، الجامعة اللّبنانيّة.

مناخ لبنان المعتدل والمشمس مناسبًا جدًا لزراعة مختلف النّباتات العطريّة والطبيّة. ويمكن لهذا النّبات أن ينمو في أي مكان من الجنوب إلى الشّمال وفي المناطق الدّاخليّة في لبنان، على ارتفاعات متفاوتة، وفي مختلف أنواع التّربة على ألا تكون ثقيلة وأن تكون جيدة التّصريف للمياه. كما يمكن أن يتحمّل معدّلات عالية من الكلس، ويمكن أن يتواجد في الغابات الخفيفة وعلى المنحدرات المشمسة وخفيفة التّربة (وزارة الزّراعة والمركز الدولي للدراسات الزّراعيّة المتوسطية، ١٩٩٢).

ويستخدم الصّعتر على نطاق واسع في الطّهي، وفي صناعة المنتجات الغذائية والمشروبات الكحولية (Aligiannis& al, 2001; Sivropoulou& al, 1996)، حيث يستعمل الصّعتر في كثير من الأطباق الشّرقيّة، ويحظى بشعبيّة كبيرة في لبنان، ولا سيما في صناعة المناقيش عن طريق خلطها مع السمسم والسماق المجفف وزيت الزيتون.

ينمو الصّعتر البريّ الجنوبيّ في فصل الربيع في عدة أماكن مثل وادي الحجير، الليطاني، المصيلح، سيناي، الخرطوم، تولين، حبوش، يحمر الشقيف، صريفا، ... وكذلك في بعض مناطق البقاع الغربي: لبايا، قليا... بالإضافة إلى ذلك، يزرع الصّعتر في شمال لبنان: كسروين، جبيل، الكورة، عكار... لكنها تمثل أقل من ١٠٪ من الزراعات في لبنان.

ولكي ينمو، يحتاج الصّعتر إلى مغذيّات ونوعية تربة غنية بالحجر الجيري أي الطّبقة السّطحيّة للأرض النّاتجة عن تفكّك الصّخور بسبب الأمطار ودرجات الحرارة المختلفة بعد ملايين السّنين. وتُخلط هذه الحبيبات الصغيرة مع المواد العضويّة المتحللة من خلال الكائنات الصغيرة مثل بكتيريا التّربة. يشكلّ هذا الخليط الطبقة العليا من التّربة الزّراعيّة المواتية والمناسبة لنمو جذور النّباتات (Voroney& al, 2007).

وعالجت هذه الدّراسة الخواص الفيزيائيّة والكيميائيّة للتّربة في عدة مناطق في لبنان حيث يزرع الصّعتر لتحديد تأثير التّربة والمناخ على جودة الصّعتر. في موازاة ذلك، أجريت دراسة أخرى على الخصائص الكيميائيّة للصعتر وعلى محتوى الزّيت الأساسي للعيّنات المختلفة وذلك للكشف عن نوعيتها وجودتها.

المواد وطرق الفحص

أخذ العيّنات

تم جمع عيّنات التّربة من مناطق مختلفة من لبنان من الجنوب إلى الشّمال، ومن عدّة ارتفاعات ومن أنواع تربة مختلفة. في كوثريّة السّياد استثنائيًّا، تم أخذ عينتين من التّربة بدلاً من عيّنة واحدة لأنّها تحوي نوعين مختلفين من التّربة. في كلّ التّحاليل

التي أجريناها، قمنا بتكرار التّجربة ثلاث مرات على كلّ عيّنة وأبرزنا في التّحليلات الإحصائيّة المعدل الوسطي لتكرار التّجربة عن كلّ عيّنة.

لقد قمنا بحصاد العيّنات على عمق ثابت من ٠ سم إلى ٢٥ سم بحيث لا يشمل هذا العمق سماكة المادة العضوية التي يمكن العثور عليها في التّربة المعدنية. وقد تم اختيار العمق وفقًا للبيانات المستخدمة في دراسات سابقة للتّربة اللّبنانيّة. (Lamouroux, 1973; Chalhoub& al, 2009) من أجل تجنّب تضرّر العيّنات، تم الاحتفاظ بها في مكان بارد وفي حاويات محكمة الإغلاق.

تحليل نسيج التّربة

يختلف نسيج التّربة من تربة إلى أخرى حسب كمية الجسيمات الموجودة (منظمة الأغذية والزّراعة للأمم المتحدة. روما، ٢٠٠٢). يجب فحص التّربة أولاً في غرابيل ذات أقطار متعددة أكبرها يبلغ ٢ ملم، حيث يبلغ قطر الرمال في التّربة بين ٠، ٠٥ – ٢ ملم، وقطر الطّمي بين ٠، ٠٠٢ – ٠، ٠٥ ملم، وقطر الطّين < ٠,٠٠٢ ملم.

لتحديد نسيج التّربة أخذنا ٥٠ غرام من كلّ عيّنة تراب وأضفنا عليها مزيجا يحوي ٤٠ غرام من فوسفات الصّوديوم (NaPO3) و١٠ غرام من كربونات الصّوديوم (Na2CO3) في ليتر من الماء المتأين، ثم أضفنا الماء المقطر مع التحريك السريع. ثم سكبنا الخليط في جرة هيدرومترية، مع تعديل الخليط بواسطة الماء المقطر.

أولاً، تم تحديد كمية الطّمي والطّين في التّربة عن طريق تقليب المزيج ووضع مقياس كثافة السوائل على الفور. بعد دقيقة واحدة نأخذ القراءة الأولى من مقياس كثافة السوائل، ونحولها إلى نسبة مئوية عن طريق الضرب بـ ١٠٠/كتلة التّربة.

ثانيًا، تحديد كمية الطّين في الاسطوانة، حيث أُعيد ضبط مقياس كثافة السّوائل لمدة ٤ ساعات، ثم أُخذت القراءة الثّانيّة.

ثم احتسبنا أخيرًا النّسبة المئوية للصّلصال والطّمي، وأضفناها بعد ذلك على مثلث نسيج التّربة لتحديدها.

تحليل حموضة التّربة pH

تم تحديد درجة الحموضة المحتملة للتربة pH على مزيج مائي من ١ إلى ٥. أذبنا كتلة من ٢ غرام من التّربة في ١٠ ملم من الماء المقطر ثم جانسنا المزيج عن طريق التحريك المغناطيسي لمدة ١٠ دقائق مرتين مع فاصل زمني لمدة ٣٠ دقيقة بينهما مما يسمح بفك جسيمات التّربة عن بعضها. وقيست درجة حموضة التّربة مباشرة من خلال قراءة الرّقم على مقياس الحموضة بعد غمره في مادة المزيج.

ومعايرة مقياس الحموضة من خلال عدة سوائل ذات حموضة pH ٤ و٧ أو ٧ و٩. (Council, 1992; AFNOR, 1999).

تحليل التوصيل الكهربائي EC

تم قياس الموصلية الكهربائية بواسطة مقياس الموصلية عن طريق غمر القطب في نفس المزيج.تم معايرة الجهاز بمعيار كلوريد البوتاسيوم KCl يعادل ١٤١٣ سم/ميكروسيمنز (Ryan & al, 1996).

تحليل الرّطوبة والمادة الجافة

يجب تحديد الرّطوبة في التّربة للحد من خسائر التبخر. وقد نُفّذ ذلك عبر أخذ كمية من العيّنة، ووضعها في فرن بدرجة حرارة ١٠٥ ± ٢ درجة مئوية حوالي ٤ – ٥ ساعات ما أدّى إلى تبخر الماء الذي تحتويه التّربة. نسبة المادة الجافة في التّربة (MS٪) هي النسبة التكميلية لمحتوى الرّطوبة وتم احتسابها وفق القاعدة التالية:

$$MS = \frac{[M0-M1] \times 100}{M0}$$

حيث:

– Mo: كتلة العيّنة الخام (g)

– M1: كتلة العيّنة (g) بعد وضعها في الفرن

–٪ MS: النسبة المئوية لمحتوى المادة الجافة في العيّنة

–٪ H: النسبة المئوية لمحتوى الرّطوبة في العيّنة

تحليل البيانات

تم اعتماد برنامج SPSS الإحصائي من أجل إعداد وجدولة البيانات بالإضافة إلى إعداد الرسوم البيانية الواردة في هذا البحث.

النّتائج

الرّطوبة

بعد التّجفيف على درجة حرارة تبلغ ١٠٥ درجة مئوية لمدة ساعة واحدة، لوحظت نسب مختلفة من كمية الماء في التّربة. النتائج مبينة في الرسم البياني أدناه. على سبيل المثال، يمكن ملاحظة أن الرّطوبة تختلف من ٢٠,٠٪ في منطقة البرجين إلى ٢٥,٠٪ في كوثريّة السّياد. يرجع هذا الاختلاف إلى الاختلافات في الارتفاع والظّروف المناخيّة.

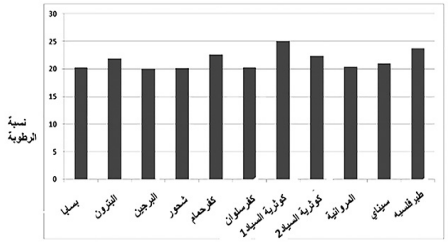

نسيج التّربة

يتراوح نسيج التّربة في العيّنات المأخوذة تركيبة عيّنات التّربة الموجودة

في المختبر من الطّمييّة الطّينية إلى الطّين الطّيني.

إجمالي النّيتروجين

من الرسم البياني أدناه، لاحظنا أن أعلى نسبة من النّيتروجين موجودة في بلدة البرجين (٠,٣٨٪) في حين أن أقل نسبة كانت في بلدة المروانية (١٥٪).

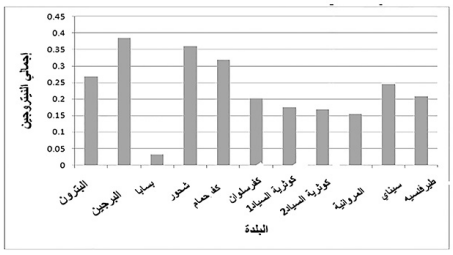

الفوسفور

من النتائج الواردة في الرسم البياني أدناه، يمكن ملاحظة أن كمية الفسفور في التّربة تتراوح بين ٠,٠١١ مجم/١٠٠ غرام في كوثريّة السّياد إلى ٥,٧٨ مجم/١٠٠ غرام في شحور.

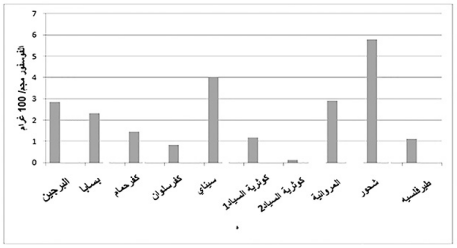

البوتاسيوم

وفقا للنّتائج التي حصلنا عليها، تختلف نسبة البوتاسيوم بشكل كبير بين المناطق اللّبنانيّة. على سبيل المثال، كان الحد الأدنى من البوتاسيوم ١٥,٢ مجم/١٠٠ غرام من التّربة في سيناي في حين أنّ الحد الأقصى كان ٤٧,٤ مجم/١٠٠ غرام في كفرحمام.

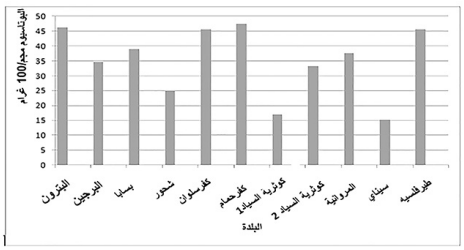

الكلس

يختلف مستوى الكلس في التّربة بشكلّ كبير حسب المناطق اللّبنانيّة. هذا المعدّل على سبيل المثال منخفض جدًا في كفرحمام بنسبة ٠,٨٩٪ في حين أنّ هذه النّسبة تصل في المناطق الأخرى إلى ٢٨,٥٥٪ كما هو الحال في سيناي.

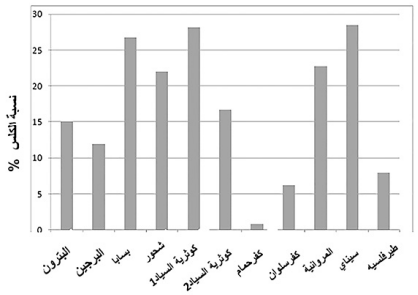

نسبة الحموضة pH

تحتوي معظم المناطق اللّبنانيّة على درجة حموضة pH قلويّة بعض الشيء ٨,٠٥ كما في بلدتي المروانية وكوثريّة السّياد بينما في المناطق الأخرى تكون

التّربة محايدة كما في بلدة البرجين مع درجة حموضة تبلغ 6.98.

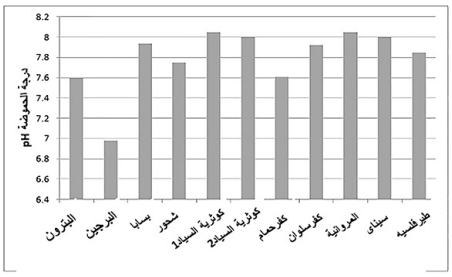

الموصلية الكهربائية

في لبنان، تتراوح الموصلية الكهربائية المقاسة بين ٠,٠٨١ في الكوثريّة و١,٠٨ في البترون.

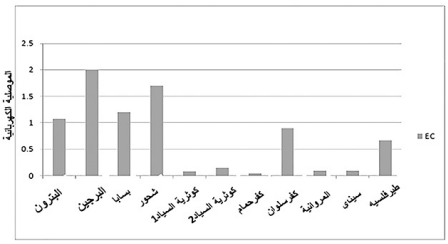

الخلاصة

تحقّق هذا البحث بعد ستة أشهر من العمل في مختبرات كلّية الزّراعة في الجامعة اللّبنانيّة.

وفقًا للنّتائج التي تم الحصول عليها، لاحظنا أنّ الرّطوبة تختلف بين المناطق اللّبنانيّة المختلفة. قد يكون هذا الاختلاف بسبب الاختلافات في الارتفاعات ومعدل هطول الأمطار السنوي منمنطقة إلى أخر (Brady &Weil, 1999). على سبيل المثال، في كفرحمام التي يصل ارتفاعها إلى ٨٠٠ متر فوق سطح البحر، كانت الرّطوبة ٢٢,٧٪ في حين أنها بلغت ٢٠,٥٪ في المروانية الأقل ارتفاعا، حيث يبلغ ارتفاعها ٣٤٠م. يمكن أن تؤثّر الجغرافيا أيضًا على الرّطوبة فبعض المناطق بعيدة عن البحر، والبعض الآخر أقرب مما يزيد أو يخفض الرّطوبة على التوالي. في كفرسلوان مثلاً»، يبلغ الارتفاع ١٣٨٠م. ومع ذلك، كانت الرّطوبة منخفضة (٢٠,٢٪). يمكن تفسير ذلك من خلال حقيقة أن طبيعة التّربة في كفرسلوان لا تسمح بحفظ المياه (التّربة التي يسهل اختراقها) والتي يمكن أن تسهم في انخفاض الرّطوبة على الرغم من الارتفاع العالي.

في لبنان، تحتوي تربة بعض المناطق على حموضة قلويّة (تتراوح درجة الحموضة pH بين 7.8 و7.4) كما في البترون وشحور وكفرحمام. في المناطق الأخرى، كانت درجة الحموضة متوسطة (تتراوح درجة الحموضة بين ٧,٩ – ٨,٤) كما هو الحال في بسابا، كوثريّة السّياد، سيناي، طرفلسيه، المروانية وكفرسلوان. أما بلدة البرجين فهي المنطقة الوحيدة التي كانت ذات رقم هيدروجيني محايد حيث كانت ٦,٩٨.

فيما يتعلّق بالتوصيل الكهربائي، وجدنا أن المحتوى المعدني كان منخفضًا كما هو الحال في كفرحمام (EC = 0.05)، طرفلسيه (EC = 0.67)، كوثريّة السّياد

(EC = 0.08). كانت المناطق اللّبنانيّة الأخرى معتدلة كما هو الحال في سيناي (EC = 0.1)، المروانية (EC = 0.1)، كفرسلوان (EC = 0.9). في مناطق أخرى، كان التّوصيل الكهربائيّ مرتفعًا كما في البترون (EC = 1.08)، البرجين (EC = 2) وبسابا (EC = 1.2). إنّ الاختلاف في نتائج التّوصيل الكهربائيّ يعود إلى الاختلاف في محتوى الأملاح المعدنيّة ودرجة الحموضة وتركيبة التّربات.

وفقًا للمقاييس الفيزيائيّة، كانت العيّنات التي اختبرناها منخفضة النّيتروجين إذ تحتوي هذه التّربة على نسبة مئوية قصوى تبلغ ٠,٣٨٦٠٪.

في البترون، كان محتوى النّيتروجين منخفضًا (٢٦٠ ⩾ ٥٠٠ جزء في المليون)، وكذلك بالنّسبة إلى مستوى الفسفور (٢٨,٥ إلى ٥٠ جزء في المليون). البترون غني بالبوتاسيوم بمعدل ٤٦٢ جزء في المليون. الحجر الجيري موجود بشكلّ معتدل على مستوى البترون بنسبة ١٥٪ من ثاني أكسيد الكربون.

في البرجين، يكون محتوى النّيتروجين منخفضًا (٣٨٦ ⩾ ٥٠٠ جزء في المليون)، وكذلك بالنّسبة إلى محتوى الفسفور (٢٣,١ – ٥٠ جزء في المليون). البترون غني بالبوتاسيوم بمعدل ٣٠٠ – ٣٤٦ جزء في المليون. الحجر الجيري موجود في البرجين بنسبة معتدلة تبلغ ١٢٪ من ثاني أكسيد الكربون.

بناءً على النتائج التي توصلنا إليها، فإنّ محتوى النّيتروجين في تربة بسابا منخفض للغاية (٣,٢ ⩾ ٥٠٠ جزء في المليون) وكذلك بالنّسبة إلى الفسفور (١٤,٤ ⩾ ٥٠ جزء في المليون) والبوتاسيوم (٣٨٩ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) لكن تربتها غنية بالحجر الجيري بنسبة ٢٦٪ من ثاني أكسيد الكربون.

في كفرحمام يعتبر مستوى النّيتروجين منخفضًا (٣١٧ ⩾ ٥٠٠ جزء في المليون)، مستوى الفوسفور متوسط (٥٠ ⩾ ٨٣ ⩾ ٣٥٠ جزء في المليون)، وتحتوي تربتها على نسبة عالية من البوتاسيوم (٤٧٤ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) ونقص في الحجر الجيري بنسبة ٠,٨٩٪ من ثاني أكسيد الكربون.

في كفرسلوان، يكون محتوى النّيتروجين منخفضًا (٢٠٣ ⩾ ٥٠٠ جزء في المليون)، وكذلك مستوى الفوسفور (٤٠,٣ ⩾ ٥٠ جزءًا في المليون). تربة كفرسلوان غنية بالبوتاسيوم (٤٥٧ جزء في المليون – ٣٠٠ جزء في المليون) فيما يتواجد الحجر الجيري بشكلّ معتدل في كفرسلوان بنسبة ٦,٢٥٪ من ثاني أكسيد الكربون.

وفقًا لنتائجنا، يعدّ مستوى النّيتروجين

منخفضًا في كوثريّة السّياد (١٦٩ و١٧٦ ⩽ ٥٠٠ جزء في المليون)، كذلك الحال بالنّسبة إلى الفسفور (١,١ و٢٩,١ ⩽ ٥٠ جزء في المليون)، في حين أن نسبة البوتاسيوم كانت مرتفعة (٣٣٢ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) وغنية بالحجر الجيري مع ٢٨,١٪ من كربونات الكالسيوم.

مثل جميع المناطق الأخرى، كانت تربة المروانية تحوي نسبة منخفضة من النّيتروجين (١٥٤ ⩽ ٥٠٠ جزء في المليون)، ونسبة معتدلة من الفسفور (٥٠ ⩽ ٥٧ ⩽ ٣٥٠ جزء في المليون)، في حين أن نسبة البوتاسيوم كانت مرتفعة (٣٧٦ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) وغنية بالحجر الجيري بنسبة ٢٢,٨٪ من كربونات الكالسيوم.

في سيناي، وجدنا أن التّربة تحوي نسبة منخفضة من النّيتروجين (٢٤٥ ⩽ ٥٠٠ جزء في المليون) والفوسفور (١١,٧ ⩽ ٥٠ جزء في المليون)، لكنها تحوي نسبة متوسطة من البوتاسيوم (١٠٠ ⩽ ١٧٠ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) وغنية بالحجر الجيري بنسبة ٢٨,٥٪ من كربونات الكالسيوم.

وفقًا لنتائجنا، تحتوي تربة شحور على نسبة منخفضة من النّيتروجين (٣٦٠ ⩽ ٥٠٠ جزء في المليون) والفسفور (١١,١ ⩽ ٥٠ جزء في المليون)، في حين أنّها ذات نسبة متوسطة من البوتاسيوم (١٠٠ ⩽ ٢٥٠ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) وغنية بالحجر الجيري بنسبة ٢٢,١٪ من كربونات الكالسيوم.

إنّ تربة طرفلسيه ذات نسبة منخفضة من النّيتروجين (٢٠٨ ⩽ ٥٠٠ جزء في المليون)، والفسفور (٤١,٦ ⩽ ٥٠ جزء في المليون)، لكنّها تحتوي على نسبة عالية من البوتاسيوم (٤٥٦ ⩽ ٣٠٠ جزء في المليون) ونسبة معتدلة من الحجر الجيري بنسبة ٢٢,١٪ من كربونات الكالسيوم.

بالخلاصة، تتأثّر نبتة الصّعتر بعدة عوامل: وفرة مغذيّات التّربة، وطبيعة التّربة (أي التّربة الغروية الغنية بالحجر الجيري) بالإضافة إلى العوامل المناخيّة حيث تفضل المناخ الحار والرّطب والمشمس، ومعدل هطول أمطار متوسط. ولذلك نلاحظ أنّ زراعة ونمو نبتة الصّعتر ملفت للنظر في منطقة جنوب لبنان خصوصًا إذ إنّ هذه المنطقة تمتلك كلّ مقومات الحياة المثاليّة لنمو نبتة الصّعتر: معدل حرارة بين ٦ – ٢٨ درجة مئوية مع معدل هطول أمطار من ٠,٥ إلى ٢,٧ متر سنويًا إضافة إلى تربة طينية أو كلسية أو غروية ذات درجة حموضة من ٤,٩ إلى ٨,٧. لا يمكن لنبتة الصّعتر البقاء على قيد الحياة في المناخات الشّمالية الباردة أو الجافة (Danin&Kunne, 1999; Letswaart, 1980).

بشكلّ عام، فإن نبتة الصّعتر تزرع على نطاق واسع في جنوب لبنان حيث التّربة غنية بالفوسفور، الصّوديوم، البوتاسيوم وكربونات الكالسيوم، كما هو الحال في البلدات الجنوبيّة التي تتميّز بتربة غنيّة بالمغذيّات وبمستويات عالية نسبيًا من الفوسفور والصّوديوم والبوتاسيوم.

من ناحية أخرى، يؤدّي المناخ وهطول الأمطار دورًا أساسيًا في نمو النّبات وزيادة محتواه من المواد الغذائية والزيوت الأساسية. يساهم المناخ الرّطب ومتوسط هطول الأمطار في جنوب لبنان في نمو زراعة الصّعتر في تلك المنطقة بشكل كبير مقارنة ببقية المناطق اللّبنانيّة الأخرى.

المصادر

- تقييم تلوث التّربة. دليل مرجعي. منظمة الأغذية والزّراعة للأمم المتحدة. روما، (٢٠٠٢).
- وزارة الزّراعة والمركز الدولي للدراسات الزّراعيّة المتوسطية. المبادئ التوجيهية للزراعة العضوي للصعتر. ١٩٩٢.

AFNOR. (1999). Détermination du pH (NF ISO 10390). Qualité des sols, volume1, pp. 339-347.

Aligiannis N., Kalpoutzakis E., Mitaku S., &Chinou I. B. (2001). Composition and antimicrobial activity of the essential oils of two *Origanum* species. Journal of Agriculture Food Chemistry, 49, pp. 4168-4170.

Atlas climatique du Liban (1977). Publié par le service météorologique du Liban. Tome I. Républiquelibanaise.

Brady N.C., Weil R. R. (1999). The nature and properties of soils, 12th ed. Prentice Hall, USA.

Chalhoub M., Vachier P., Coquet Y., Darwish T., Dever L., Mroueh M. (2009). Caractérisation des propriètéshydrodunamique d'un sol de la Bekaa (Liban) sur les rives du fleuve Litani. Etudes et gestion des sols, Vol 16, 67-84.

Council, Athens (1992). Handbook on reference methods for soil analysis. Soil and Plant Analysis.

Danin A. and Kunne I. (1996). 'Origanumjordanicum (Labiatae), a new species from Jordan, and notes on the other species of sect Campanulaticalyx,' Willdenowia, 25, 601-11.

Kintzios S. E. (2004). Agricultural University of Athens, Greece,Handbook of herbs and spices, Volume 2 Edited by K. V. Peter, CRC Press, Published by Woodhead Publishing Limited, Abington Hall, Abington Cambridge CB1 6AH, England.

LamourouxM (.1973) Evolution des minéraux argileux dans les sols du Liban.PEDOLOGIE, XXIII,l, p. 53-71.

Letswaart JHA. Taxonomic Revision of the genus Origanum (Labiatae). Leiden Botanical Series, Vol. 4. Leiden University Press: The Hague, 1980.

Ryan J., Garabet S., Harmsen K., and Rashid A. (1996). A soil and Plant Analysis Manual Adapted for the West Asia and North Africa Region. ICARDA, Aleppo, Syria.

Sivropoulou A., Papanikolaou E., Nikolaou C., Kokkini S., Lanaras T., &Arsenakis M. (1996). Antimicrobial and cytotoxic activities of Origanum essential oil. Journal of Agriculture Food Chemistry, 44, pp. 1202-1205.

Voroney, R. Paul & Heck, Richard J. (2007). The soil habitat" (PDF). In Paul, Eldor A. (ed.). Soil microbiology, ecology and biochemistry (3rd ed.). Amsterdam: Elsevier. pp. 25-49.

ضبط جودة المنتجات النسيجية من خلال تفسير نتائج وبيانات الاختبار باستخدام التقنيات الإحصائية

م. هاني ابراهيم العلي[1] - أ.د.م نزيه أبو صالح[2] - د.م جمال العمر[3]

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إظهار أهمية اتخاذ قرارات مبنية على تحليل وتقييم البيانات والمعلومات باستخدام أساليب وتقنيات إحصائية لضمان مراقبة وضبط فعال لجودة المنتجات النسيجية.

ويظهر هذا البحث أهمية تطبيق آليات ضبط الجودة في جميع مراحل العملية الإنتاجية، لدوره في اكتشاف مشاكل هذه العملية وإزالتها ومنع وصول المنتج المعيب إلى الزبون.

ويؤكد البحث أن ضبط الجودة يعتمد على المراقبة (الفحص)، فالمراقبة هي مصدر للبيانات التي سيتم تحليلها وتفسيرها عن طريق استخدام أكثر الأساليب والتقنيات الإحصائية شيوعيًا لمعالجة النتائج بطريقة علمية تمكن الباحثين من تحديد نقاط الضعف في العملية، وبالتالي تزويد الأقسام الإنتاجية بتغذية راجعة ونصائح تقنية تساعد في تتبع أثر التباين في المنتج وضبطه واتخاذ الأفعال التصحيحية والوقائية، وكما يقدم توصيات ومقترحات كضرورة إبقاء العملية الإنتاجية تحت مراقبة مستمرة للحصول على تحذير فوري عن أي مصدر جديد للاختلاف، والعمل على إزالة الأسباب التي تؤثر في جودة المنتج الذي يجب أن يتوافق مع بعض المعايير المقبولة والتي تعتمد على الاستخدام النهائي له، هذه المقترحات من شأنها إذا ما تم العمل بموجبها أن

(١) باحث دكتوراه في قسم هندسة ميكانيك الصناعات النسيجية وتقاناتها - كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية - جامعة دمشق.

(٢) أستاذ في قسم هندسة التصميم والإنتاج - كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية - جامعة دمشق.

(٣) محاضر في قسم هندسة ميكانيك الصناعات النسيجية- كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية - جامعة دمشق.

تساعد المنشآت النسيجية على تحقيق الجودة المطلوبة وبأقل تكلفة ممكنة.

الكلمات المفتاحية:

ضبط الجودة، المراقبة، تقنيات إحصائية، الأفعال التصحيحية والوقائية.

The Quality Control of textile products through interpretation Test data and Result using statistical techniques

Eng. Hani Al-Ali(*)
Prof. Nazih Abu Saleh(**)
Dr.Eng.Gamal Al-Omar(***)

Abstract

This research aims to show the importance of making decisions based on the analysis and evaluation of data and information using statistical methods and techniques to ensure effective quality control of textile products.

This research shows the importance of applying quality control mechanisms throughout the production process, in order to discover and remove the problems of this process and prevent the defective product before they reach the customer.

The research confirms that quality control depends on inspection. Inspection is a source of data that will be analyzed and interpreted by using the most popular statistical techniques to address results in a scientific way that enables researchers to identify weaknesses in the process.

And to make corrective and preventive actions. It also makes recommendations and proposals such as the need to keep the production process under constant supervision to obtain an immediate warning of any new source of difference and to work to remove the reasons that affect the quality of the product. Which should comply with certain accepted and end-use criteria, these proposals would, if implemented, help textile organizations achieve the required quality and at the lowest possible cost.

key words:

Quality control, inspection, statistical techniques, corrective and preventive actions.

(*) Postgraduate Student̃ Department of Mechanical of Textile Industrieš Faculty of Mechanical and Electrical Engineeringğ Damascus University.

(**) Professor, Department of Mechanical Design & production, Faculty of Mechanical and Electrical Engineering, Damascus University.

(***) Lecturer, Department of Mechanical of Textile Industries, Faculty of Mechanical and Electrical Engineering, Damascus University.

◆ **المرجعية النظرية:**

١ - مقدمة:

في ظل التبادل التجاري العالمي واقتصاد السوق لابد أن تتمتع المنتجات النسيجية بجودة وسعر مناسبين تنسجم ومتطلبات الأسواق الدولية، فالجودة تعرف بأنها «درجة تلبية مجموعة من الصفات المتميزة المتأصلة في المنتج للمتطلبات» [1].

والمنشأة التي تسعى لإنتاج منتجات، مطابقة للمتطلبات وترضي الزبائن، يجب أن يكون لديها نظام إدارة جودة فعال وفق متطلبات المواصفة الدولية ISO 9001:2015، والتي تطالب باستخدام أساليب وتقنيات إحصائية لتحليل البيانات الخاصة بمراقبة وتحسين أداء العمليات.

وإدارة الجودة كما نعلم تتضمن إلى أربعة فعاليات رئيسة هي: التخطيط للجودة، ضمان الجودة، ضبط الجودة، تحسين الجودة.

ويعرف ضبط الجودة وفق المواصفة ISO 9000:2015 بأنه جزء من إدارة الجودة على يركز تحقيق متطلبات الجودة (أثناء تحقيق المنتج/الخدمة) [2].

يتناول هذا البحث موضوعًا بالغ الأهمية ألا وهو آليات تفسير نتائج وبيانات الضبط الإحصائي للصفات المميزة الخاصة بجودة المنتجات النسيجية باستخدام التقنيات الإحصائية.

وإن لضبط الجودة باستخدام التقنيات الإحصائية دور رئيسي في التركيز على منع العيوب قبل حدوثها من خلال:

١ – ضبط تقني وفني يطبق في المراحل الإنتاجية المختلفة.

٢ – صيانة جيدة للآلات.

٣ – تطبيق تقنيات إحصائية لتحليل وتدعيم وتفسير البيانات الناتجة عن التفتيش.

حيث أن المطلوب من كل منشآه نسيجية أن تضع معايير أو مواصفات لجودة، ليس فقط للمادة الأولية والمنتج النهائي وإنما للمنتج في مراحل الانتاج المختلفة [3].

وفي هذا البحث سيعتمد الباحثون علم الإحصاء دليلاً للاستدلال على الانحرافات أو التباينات في المنتج المصنع عن مواصفة أو معيار الجودة، والتي ينبغي الكشف عن أسبابها لإزالتها قبل أن يصبح الاختلاف مؤثرًا بمافيه الكفاية على جودة المنتج.

٢ - مشكلة البحث:

إن التحقق من تلبية أي منتج للمتطلبات يتم بالاعتماد على عملية المراقبة والاختبار، ونظرًا لأهمية نتائج المراقبة والاختبار في اتخاذ القرارات بخصوص مطابقة، أو عدم مطابقة المواصفات الفنية، لذلك لابد من الحصول على نتائج دقيقة وصحيحة، هذه النتائج لاقيمة لها إن لم يتم تحليلها

وتفسيرها باستخدام تقنيات إحصائية، بهدف تزويد الأقسام الإنتاجية بتغذية راجعة ونصائح تقنية تساعد في تتبع أثر الاخلاف في المنتج وضبطه واتخاذ الأفعال التصحيحية والوقائية.

وتتجلى مشكلة البحث في أن معامل الغزول القطنية مطالبة بإنتاج منتجات قياسية من مواد أولية غير قياسية أساسًا أو المتغيرية فيها عالية، فجودة الغزول يجب أن تتوافق مع بعض المعايير المقبولة دوليًا والتي تعتمد على الاستخدام النهائي، ومشكلة موجودة أساسًا حيث أن المنشآت النسيجية تقوم بالتفتيش على المنتجات وتحصل على بيانات، ولكن لا يتم استخدام تقنيات إحصائية لتفسيرها مما يجعل عملية صنع القرار معقدة.

٣ - أهمية البحث:

انطلاقًا من مشكلة البحث واستنادًا إلى الأهداف المتوخّاة منه في مساعدة الشركات على انتاج منتجات بالجودة المطلوب، وبأقل تكلفة ممكنة من خلال إبقاء المنتج تحت مراقبة مستمرة للحصول على تحذير فوري عن أي مصدر جديد للاختلاف (الانحراف عن المواصفات) والذي من الممكن أن يكوم ناتج عن تطوير في الآلة أو إصلاح عطل فني فيها وهذا يؤدي إلى جعل عملية صنع القرار أكثر موضوعية ودقة.

ومن هذا المنطق ولأهمية ضبط الجودة أثناء العملية الإنتاجية سيتم إجراء معالجة إحصائية لنتائج البيانات الصادرة عن تفتيش المنتجات لتساعدنا في تتبع أثر الاختلاف في المنتج وضبطه وتزويد الأقسام بتغذية راجعة لمعرفة هل الاختلاف ناتج من المواد الأولية المستخدمة أومن احدى العمليات الإنتاجية التي مر بها المنتج.

٤ - أسئلة البحث:

يطرح هذا البحث التساؤلات التالية:

– هل يتم تفتيش المنتجات وتفسير نتائجه خلال المراحل الإنتاجية ممايحقق ضبط فعال للجودة أثناء الإنتاج.

– هل يتم الاعتماد على الحقائق في اتخاذ القرار، فيما يتعلق بما يلي:

- هل تستلم الشركة المواد الأولية، عندما:

١ – يكون هناك فروق بنتائج الاختبار بين العينات المرجعية والعينات المأخوذة من المواد المسلمة للشركة؟

٢ – تريد الشركة شراء أقطان ذات نعومة محددة لإنتاج غزول بنمرة محددة، وتكون الأقطان المسلمة من المورد مختلفة النعومة؟

- هل تدرس الشركة تجانس الأقطان من مصادر مختلفة؟

- عندما تريد الشركة انتاج غزل نمرة 24 إنكليزية، ويوجد اختلاف بقيم انتظامية

الغزول المنتجة من آلتين مختلفتين، فهل تقييم الشركة فيما إذا كان الغزل المنتج متطابق من حيث الانتظامية؟

٥ - **المنتج المختبر:** ألياف وغزول قطنية.

٦ - **الشركة:** شركة غزل جبلة.

٧ - أجهزة الاختبار والصفات المميزة المدروسة:

- **جهاز برسلي:** Pressley لاختبار متانة الألياف وتقدر بـ (CN/Tex).

المتانة تعد من الصفات الميكانيكية للألياف، وتعبر عن مدى مقاومة الألياف لقوى الشد [4].

- **جهاز وايرا** WIRA: لاختبار درجة النعومة وتقدر بميكرونير.

تعتمد نعومة الألياف على قطرها ومحيطها، إذ إن الألياف الرفيعة أكثر مقاومة والخشنة أقل [5].

- **جهاز أوستر** USTER: لاختبار انتظامية الغزل، يعبر عن نسبة عدم الانتظام بـ CV%.

درجة الانتظام للغزل تبين الاختلاف في قطر الغزل أو سمكه ووجود الأجزاء الرفيعة والسميكة والنبس فيه وهذه الخاصية لها من الأهمية الصناعية على جودة كفاءة المراحل التي تلي عملية الغزل مثل النسيج أو التريكو أو التجهيز [6].

◆ **الدراسة العملية:**

مواد وطرائق البحث:

الدراسة العملية تعتمد [8] ,[7], [3]، من أجل الإجابة عن أسئلة البحث، ويتم ذلك باستخدام الحزمة الإحصائية في برنامج (Excel) في تحليل النتائج التي تم جمعها في هذا البحث، فضلاً عن مجموعة أخرى من الأدوات الإحصائية الوصفية مثل المتوسط الحسابي، والانحراف المعياري، والاختلاف الحدي.

قام الباحث بالإطلاع على آلية معالجة نتائج تفتيش المنتجات في شركة غزل جبلة والتي تتم بشكل يومي، بحساب ما يلي:

- المتوسط الحسابي: هو حاصل قسمة مجموعة القياسات على عددها. وهو أكثر مقاييس النزعة المركزية استخدامًا، ويعتبر مقياسًا كافيًا للنزعة المركزية إذا كانت البيانات متناظرة، ولا تحتوي على قيم متطرفة.

$$\overline{X} = \frac{\sum X_i}{n} \quad \text{.....(1)}$$

- الانحراف المعياري Standard Division:

أهم المقاييس المستخدمة في تحديد المتغيرية، ويحسب باستخدام جميع البيانات. وهو الجذر التربيعي لمتوسط

مربع انحرافات البيانات عن المتوسط الحسابي.

$$S = \sqrt{\frac{\sum_{i=1}^{n} (X_i - \overline{X})^2}{n-1}} \quad \text{.....(2)}$$

- معامل الاختلاف CO-Efficient of Variation

وهو مجرد انحراف معياري معبر عنه كنسبة مئوية من المتوسط

$$CV = \frac{S}{\overline{X}} \times 100 \quad \text{.....(3)}$$

ويظهر الجدول رقم (1) (2) نتائج التفتيش بالات القطن والغزول المنتجة في شركة غزل جبلة بتاريخ ٢٠١٧/١٢/٢٦، وبالتالي الشركة تقوم بتفتيش المنتجات خلال المراحل الإنتاجية لضبط الجودة أثناء الإنتاج.

الجدول رقم (1) نتائج تفتيش الصفات المميزة للألياف القطنية

تسلسل	المحلج	النعومة Micronaire	الطول mm	الألياف القصيرة %	الانتظامية CVm%	الاستطالة %	قوة الشد cN
1	الفداء	4.1	28	24.6	76.2	6.2	51.7
2		5.5	28	12.8	88	5.6	39.1
3		4	27	19	80	5.8	47.1
المتوسط		**4.5**	**27.7**	**18.8**	**81.4**	**5.9**	**46.0**

الجدول رقم (2) نتائج تفتيش الصفات المميزة للغزول القطنية

الآلة	النمرة Ne		الانتظامية	الأماكن	الأماكن	النبس
	المطلوبة Ne	الفعلية Ne	CVm%	الرفيعة -50%	الغليظة +50%	Neps
(24-36) A	**24**	23.1	15.4	10	61	111
(33-47) B	**20**	20.5	12.9	9	37	64
Orion (4-3)	**24**	23.3	17.4	18	80	266

هذه البيانات ناتجة عن تفتيش المواد الأولية والمنتج، ولكن لاحظ الباحث عدم استخدام الشركة لأساليب إحصائية لتفسير هذه البيانات لتمكنها من الحد من العوامل التي تؤدي إلى إنتاج منتجات معيبة، ولتصبح الشركة قادرة على تتبع أثر المنتج داخل الشركة بدءًا من المواد الأولية وانتهاء بالمنتج النهائي.

هذه البيانات الناتجة بحاجة إلى تفسير ليتم اتخاذ قرار بالاعتماد عليها، وكما نعلم أن تفسير البيانات معقد في ضوء الأخطاء المرتبطة بالاعتيان والأخطاء الناتجة عن تجهيزات الاختبار المستخدمة.

فلا يمكن لنتائج اختبار عينتين منتجتين بنفس العملية، وتحت نفس الشروط، أن تكون متطابقة تمامًا، بسبب وجود متغيرية (عشوائية أو نظامية) في العملية، وإن تكن صغيرة [9].

المتغيرية النظامية أو المتغيرية الناتجة عن أخطاء نظامية كخطأ صيانة أو معايرة آلات يمكن السيطرة عليها وإزالتها، أما المتغيرية العشوائية (الطبيعية) فلابد من التعايش معها، بعد ضبط جميع العوامل المؤثرة على الإنتاجية ووثوقية نتائج الاختبار.

ويرى الباحث أن الأخطاء النظامية ممكن أن تنتج عن خلل في الآلة أو اختلاف في جودة المواد الأولية أو نتيجة عدم كفاءة العاملين أو نتيجة خلل في البنية التحتية أو

نتيجة استخدام طرق انتاج أو اختبار غير مناسبة... جميع هذه أخطاء يمكن السيطرة عليها وإزالتها من خلال وضع آليات لضبط والمراقبة عبر الزمن متل لوحات الضبط الاحصائي ودراسة مقدرة العمليات الإنتاجية.

يظهر الجدول التالي المتغيرية (الاختلاف) الحدي المسموح به الناتج عن الأخطاء العشوائية الطبيعية، والذي تم وضعه من قبل المؤسسات البحثية العلمية [3] لكلا من:

الجدول رقم (3) الاختلاف الحدي

الصفة المميزة لليف أو الغزل	عدد الاختبارات	الاختلاف الحدي المسموح به (٪ من المتوسط)
(قيمة النعومة لليف) الميكرونير	4 سدادة/ عينة	6
متانة الليف (3 ملم طول القياس)	10 قطوعات/ عينة	5
انتظامية الغزل U%	5 قراءات	7

الاختلاف الحدي يعتمد على معامل الاختلاف (CV%) وعدد الاختبارات المنفذة لتحديد خصائص الجودة كما هو موضح في الجدول السابق، وفي حال اختلاف عدد الاختبارات المنفذة يجب حساب الاختلاف الحدي (المسموح به) الجديد:

كما لاحظنا في الجدول رقم (3) أعطيت قيم الاختلاف الحدي بالاعتماد على عدد الاختبارات الموصى به لبعض الصفات المميزة لألياف أو الغزل القطني. ولكن إذا اختلف عدد الاختبارات المنفذة عن العدد الموصى به فإن الاختلاف الحدي سيختلف عن ماهو مذكور في الجدول (3) وسيتم حساب الاختلاف الحدي الجديد وفق الصيغة التالية:

$$New-CD\% = CD(Tabel1)\times\frac{\sqrt{N1}}{\sqrt{N2}} \quad .....(4)$$

N_1 = عدد الاختبارات الموصى بها في الجدول (3).

N_2 = عدد الاختبارات المنفذة بشكل فعلي.

وسيتم الاستفادة من الجدول السابق في الإجابة عن تساؤلات البحث: فعندما يتجاوز الاختلاف بين مجموعتين من البيانات الناتجة من تفتيش عينتين، الاختلاف الحدي (المسموح به) المذكور في الجدول رقم (3)، يمكننا القول أن مجموعتين مختلفتين إحصائيًا بذلك نستطيع تفسير النتائج والإجابة على التساؤلات التالية:

- هل تستلم الشركة المواد الأولية

١ – عندما يكون هناك فروق بنتائج

الاختبار بين العينات المرجعية والعينات المأخوذة من المواد الموردة؟

٢ – عندما تريد الشركة شراء أقطان ذات نعومة محددة لإنتاج غزول بنمرة محددة، وتكون الأقطان المسلمة من المورد مختلفة النعومة؟

- هل تدرس الشركة تجانس الأقطان من مصادر مختلفة؟
- عندما تريد الشركة انتاج غزل نمرة 24 إنكليزية، ويوجد اختلاف بقيم انتظامية الغزول المنتجة من آلتين مختلفتين، فهل تقييم الشركة فيما إذا كان الغزل المنتج متطابق من حيث الانتظامية؟

السؤال الأول: هل تستلم الشركة المواد الأولية، عندما يكون هناك فروق بنتائج الاختبار بين العينات المرجعية والعينات المأخوذة من المواد الموردة؟

شركة غزل جبلة تلقت عينات أولية من ألياف قطن من محلج الفداء، وتم إجراء اختبار النعومة عليها

وتم اعتماد النعومة كمثال لأن دقة أو نعومة ألياف القطن تعتبر من أهم الخواص التي تحدد اختيار الخامة المناسبة للاستعمالات المختلفة وتتوقف على قطر الألياف، كما أنها تتأثر بمقدار سمك جدار هذه الألياف الطبيعية.

وترتبط نعومة الألياف القطنية ارتباطًا وثيقًا بعدد الألياف في مقطع الخيط وبالتالي متانة ونمرة الخيط المنتج منها.

أي أنه كلما زادت دقة ونعومة الألياف كلما كان إنتاج خيوط ذات نمر رفيعة منها أمكن مع الأخذ بعين الاعتبار الطول والمتانة.

كذلك ترتبط نعومة الألياف بمدى قابليتها لتكوين العقد (النبس) لعلاقة نعومة الألياف بطولها، وتقاس درجة الدقة أو النعومة بواسطة جهاز الميكرونير.

(قيمة الميكرونير = ميكروغرام في البوصة) وتقاس نعومة الألياف أيضًا بجهاز الفحص المكثف HVI.

وكانت النتائج كما يلي:

4,3 – 4,3 – 4,4 – 4,2

وبالتالي

قيمة النعومة الوسطية للعينات الأساسية $MV_{basic} = 4.4$

وعندما وصلت الأقطان لإرض المعمل، أخذ عينات منها، وتم إجراء اختبار النعومة عليها، بمعدل أربعة مكررات كانت القراءات كما يلي:

4,5 – 4,8 – 4,7 – 4,7

وبالتالي

قيمة النعومة الوسطية للعينات المستلمة $MV_{delivered} = 4.6$

هل تقوم الشركة باستلام الأقطان نتيجة وجود فروق بنتائج الاختبار بين $MV_{delivered}$ وMV_{basic}؟

– الاختلاف في قيمة النعومة بين العينتين = 4.6-4.4 = 0.2

– متوسط قيمة النعومة للعينتين

– الاختلاف معبر عنه كنسبة مئوية من المتوسط

– القيمة الحدية لقيمة النعومة من الجدول رقم (3) = 6%

و بما أن الاختلاف الفعلي هو 4.4% وهو أقل من الاختلاف الحدي (المسموح به).

فيمكن للإدارة اتخاذ قرار بقبول الأقطان بناء على تفسير بيانات التفتيش.

هل تستلم الشركة المواد الأولية:

عندما تريد الشركة شراء أقطان ذات نعومة محددة لإنتاج غزول بنمرة محددة، وتكون الأقطان المسلمة من المورد بنعومة مختلفة عن المتفق عليها؟

أقطان المطلوب شراؤها ذات نعومة محددة (3.7 ميكرونير) لإنتاج غزول بنمرة محددة (50 إنكليزي).

الأقطان المسلمة من المورد للشركة تم اختبارها، وكانت النتائج كما يلي:

4,0 – 3,8 – 3,8 – 4,0

وبالتالي قيمة النعومة الوسطية = **3,9**

من خلال تفسير النتائج، سنجيب على تساؤل الشركة هل هذه الأقطان تلبي متطلباتها.

– الاختلاف في قيمة النعومة بين القيمة المحددة والقيمة الفعلية

3,9 – 3,7 = 0,2

– الاختلاف معبر عنه كنسبة مئوية من المتوسط

القيمة الحدية لقيمة النعومة من الجدول رقم **(3)** = **6٪**

وبما أن الاختلاف الفعلي هو **5,4٪** وهو أقل من الاختلاف الحدي **6٪.**

فالشركة تستطيع شراء الأقطان من المورد على الرغم من الاختلاف بقيمة النعومة.

السؤال الثاني: هل تدرس الشركة تجانس الأقطان من مصادر مختلفة؟

الشركة تتلقى أقطان من مصدرين مختلفين محالج العاصي والفداء، تم أخذ عينة من كل مصدر، وتم إجراء 5 اختبارات على كل عينة لمتانة الألياف وكانت النتائج كما يلي:

الجدول رقم (٤) متانة الألياف القطنية

رقم العينة	متانة الليف g/Tex					المتوسط الحسابي g/Tex
1	21	22	23	22	22	22
2	23	24	23	25	25	24

والمتانة كما نعلم هي من الخواص الميكانيكية للألياف التي تعبر عن مقاومتها للإجهادات المختلفة الناتجة من أحمال ثابتة أو قص أو ثني أو التواء أو إجهادات مركبة.

يعبر عن المتانة عادة بالقوة اللازمة لقطع الألياف بالنسبة إلى دقتها معبرًا عنها بالوحدات غرام/تكس وهي القوة اللازمة لإحداث القطع في الالياف منسوبة إلى مساحة مقطع الألياف بالميلليمتر المربع.

الاختلاف في قيم المتانة بين العينتين (g/tex)

$$24\text{-}22 = 2 \text{ g/tex}$$

وسبب الاختلاف ناتج عن أن الأقطان من مصدرين مختلفين، بالإضافة إلى الأخطاء النظامية والعشوائية المرافقة لعملية الاختبار كالأخطاء المرتبطة بالاعتيان.

متوسط قيمة المتانة للعينتين

الاختلاف معبر عنه كنسبة مئوية من المتوسط

إذًا الاختلاف الحقيقي هو 8.7%، تم حسابه بالإعتماد فقط على خمس اختبارات للعينة الواحدة

الاختلاف المعياري للمتانة من الجدول رقم (3) = 5% وتم تحديده بالاعتماد على 10 اختبارات.

لذلك يجب حساب الاختلاف المعياري الجديد بالاعتماد على العلاقة رقم (4):

$$New - CD\% = CD(Tabel1) \times \frac{\sqrt{N1}}{\sqrt{N2}}$$

$$\frac{5 \times \sqrt{10}}{\sqrt{5}} = 7.1\%$$

وبما أن الاختلاف الفعلي هو 8.7 % وهو أكبر من الاختلاف المعياري الجديد 7.1%.

وبالتالي يمكن اتخاذ قرار باعتبار العينتين مختلفتين غير متجانستين فيما يتعلق بخاصية المتانة، وبالتالي لا يجوز خلط المادتين ولابد من القيام بالإجراءات التصحيحية لكي لا يؤثر هذا الاختلاف في المتانة الألياف القطنية على جودة الغزول في المراحل الإنتاجية اللاحقة.

السؤال الثالث: الشركة تنتج غزل نمرة 24 إنكليزية، ويوجد اختلاف بقيم انتظامية الغزول المنتج من آلتين مختلفتين، فهل الغزول المنتجة متطابق من حيث الانتظامية؟

تنتج شركة غزل جبلة غزل نمرة 24 إنكليزية، ويوجد متغيرية بقيم انتظامية U% الغزل المنتج، حيث تم اجراء اختبار

الانتظامية لعينتين من الغزول مأخوذة من آلتي غزل بمعدل عشر قراءات لكل عينة فكانت النتائج الوسطية للعينات 13.8 و15.0 على التوالي.

– الاختلاف في قيم الانتظامية بين العينتين (CV%)

15.0-13.8 = 1.2 g/tex

– متوسط قيمة الانتظامية للعينتين

– الاختلاف معبر عنه كنسبة مئوية من المتوسط

إذًا الاختلاف الفعلي هو 8.3%، تم حسابه بالاعتماد فقط على عشر قراءات للعينة الواحدة.

وسبب الاختلاف ناتج عن أن العينتين (الغزول) مأخوذة من ألتي غزل، بالإضافة إلى الأخطاء النظامية والعشوائية المرافقة لعملية الاختبار كالأخطاء المرتبطة بالاعتيان.

بينما الاختلاف الحدي (المسموح به) للانتظامية من الجدول رقم (3) = 7% وتم تحديده بالاعتماد على 5 قراءات.

لذلك يجب حساب الاختلاف المعياري الجديد بالاعتماد على العلاقة:

$$New-CD\% = CD(Tabel1)\times\frac{\sqrt{N1}}{\sqrt{N2}}$$

$$\frac{7\times\sqrt{5}}{\sqrt{10}} = 5\%$$

وبما أن الاختلاف الفعلي هو 8.3% وهو أكبر من الاختلاف الحدي الجديد 5%.

وبالتالي يمكن اعتبار العينتين مختلفتين غير متجانستين فيما يتعلق بخاصية الانتظامية، لذلك لابد من تزويد الأقسام الإنتاجية بتغذية راجعة ونصائح تقنية تساعد في تتبع أثر الاختلاف في المنتج وضبطه واتخاذ الأفعال التصحيحية والوقائية اللازمة.

◆ الاستنتاجات والتوصيات:

عملية صنع القرار ممكن أن تكون معقدة وهي غالبًا ماتتضمن بعض الارتياب، لذلك فإن تحليل الأدلة والبيانات يجعل عملية صنع القرار أكثر موضوعية ودقة.

واستنتج الباحث أن تحليل البيانات وتفسيرها، يساعد إدارة الشركة أن:

١ – تتخذ قرار بقبول الأقطان على الرغم من وجود اختلاف بقيمة النعومة بين العينة الأولية المطلوبة والعينة المسلمة للشركة، وذلك لأن الاختلاف الفعلي (4.4%) في قيم خاصية النعومة أقل من الاختلاف المسموح به(6%).

٢ – تتخذ قرار بشراء أقطان من المورد على الرغم من الاختلاف بقيمة النعومة عن تلك المحددة من الشركة في طلب الشراء، وذلك لأن الاختلاف الفعلي (5.4%) في قيم خاصية النعومة أقل من الاختلاف الحدي 6% (المسموح به).

٣ – تدرس تجانس الأقطان من مصادر مختلفة، وتعتمد على المعالجة الإحصائية لنتائج اختبار العينات في اتخاذ قرار باعتبار الأقطان مختلفة أو متجانسة فيما يتعلق بصفة مميزة محددة للغزل، وبالتالي استنتاج عدم جواز خلطها مع بعضها البعض في حال كانت غير متجانسة واتخاذ الإجراءات التصحيحية لكي لا يؤثر هذا الاختلاف على جودة الغزول في المراحل الإنتاجية اللاحقة.

٤ – تضبط جودة المنتجات النسيجية وتدرس مدى تأثير المتغيرية بقيم الصفات المميزة للغزول المنتجة، فعندما يكون الاختلاف الفعلي لخاصية الانتظامية (8.3%) أكبر من الاختلاف الحدي 5% (المسموح به) فهذا دليل على أن العينات المنتجة في نفس الشركة من آلات مختلفة غير متجانسة فيما يتعلق بخاصية الانتظامية، لذلك لابد من تزويد الأقسام الإنتاجية بتغذية راجعة ونصائح تقنية تساعد في تتبع أثر الاختلاف في المنتج وضبطه واتخاذ الأفعال التصحيحية والوقائية اللازمة.

بالنظر إلى الاستنتاجات التي توصل إليها البحث يمكننا القيام بوضع المقترحات والتوصيات التالية:

١ – ضرورة القيام بمزيد من الأبحاث والدراسات التي تتناول موضوع ضبط الجودة في المنشآت النسيجية.

٢ – ضرورة تفهم جميع الإدارات في المنشاة النسيجية لأهمية استخدام أساليب إحصائية، بالإضافة إلى تلبية متطلبات العناصر والبنود الأخرى ذات العلاقة الواردة في المواصفة القياسية ISO 9001:2015، للتأكد من أن جودة المنتجات عن طريق اتخاذ قرارات مبنية على الأدلة.

٣ – ضرورة تطبيق أساليب عملية لمراقبة أداء العمليات الانتاجية والتأكد من أنها تفي بمتطلبات الجودة، والاستعانة بأدوات الجودة السبعة التي تساعد في تحديد المشاكل وحل أسبابها والتي مم الممكن أن تكون ذات علاقة باليد العاملة وبالمواد الأولية وطرق الإنتاج وبيئة العمل وأساليب الضبط والمراقبة وبالوضع الفني للآلات.....

٤ – يجب استخدام نتائج المعالجة الإحصائية كأداة إضافية لتحديد مشاكل التي يمكن أن تكون موجودة، فالنتائج المرفوضة التي يمكن أن تظهر خلال التحليل الإحصائي يجب أن يتم تدقيقها وتحديد سبب أو أسباب الأداء الغير مقبول والتي من الممكن أن يكون مصدرها بسبب خطأ بشري أو خطأ في معايرة تجهيزات الاختبار، خطأ ناتج من المواد الأولية، خطأ في العملية الانتاجية، خطأ ناتجة عن خلل في تكييف صالات الإنتاج، خطأ في عمليات

الصيانة أو التطوير للآلات...، ويجب القيام بالإجراءات التصحيحية إذا لزم الأمر.

٥ – عملية صنع القرار ممكن أن تكون معقدة وهي غالبًا ماتتضمن بعض الارتياب، لذلك فإن تحليل الأدلة والبيانات يجعل عملية صنع القرار أكثر موضوعية ودقة.

٦ – ضرورة تفسير البيانات لما لها من دور أساسي في تزويد الأقسام الإنتاجية بتغذية راجعة ونصائح تقنية تساعد في تتبع أثر الاخلاف في المنتج وضبطه واتخاذ الأفعال التصحيحية والوقائية اللازمة.

٧ – تفسير البيانات يحسن عملية التقييم لأداء العملية الإنتاجية، والمقدرة على إنجاز أهداف الجودة، يحسن عملية صنع القرار.

٨ – ضرورة العمل على إزالة الأسباب التي تؤثر في جودة المنتج النسيجي التي يجب أن تتوافق مع بعض المعايير أو المواصفات المقبولة والتي تعتمد على الاستخدام النهائي.

المراجع العلمية المُستخدمة

1 - ISO 9000:2015 - Quality management systems- Requirement, 5th ed, ISO.29P.
2 - ISO 9000:2015 - Quality management systems -- Fundamentals and vocabulary, 2nd.ed., ISO,51P.
3 - G. Thilagavathi, T. Karthik, Process Control and Yarn Quality in Spinning, WPI Publishing, 2015, 422P.
4 - ISO 3060:1974, Textiles -- Cotton fibres -- Determination of breaking tenacity of flat bundles, 4th ed, ISO,7P.
5 - ISO 2403:2014, Textiles -- Cotton fibres -- Determination of micronaire value, 2ed, ISO,7P.
6 - Zellweger Uster, Uster Evenness Testing - Application Handbook, Zellweger Uster Ltd Publication, 1986.
7 - Montgomery, D. C, Introduction to statistical quality control, New York: John Wiley and Sons, 6th ed.2015,724P.
8 - Schmuller Joseph, Statistical Analysis, Wiley publishing,2nd.Ed, 2009, 507P.
9 - K.Yumkella, Complying with ISO 17025,Practical guide book, UNIDO,122P

Avis de tempête sur la langue arabe

Guilda SKAF

En ce début du siècle, il semble important de se poser la question de savoir quelle est la place qu'occupe réellement la langue arabe, sur le terrain de la participation du monde arabe, aux avancées scientifiques et techniques et au progrès mondial, naguère grande langue de culture et de civilisation, aujourd'hui simple figurant dans le concert des six grandes langues de travail aux Nations-Unies. A l'ère de l'informatique, de l'internet et des bouleversantes avancées dans les conquêtes et les découvertes de l'univers et de l'homme, quelles sont les retombées linguistiques et sociales sur cet instrument de communication, de moins en moins maîtrisé par ses usagers.

D'emblée, il serait superflu de s'attarder sur l'impact de la révolution technologique sur les comportements des peuples du monde en développement, témoins impassibles et spectateurs impuissants, dont fait partie ce monde arabe, fortement secoué et balayé de nos jours par d'interminables conflits qui sapent son moral et déstabilisent sa composante identitaire. Dès lors, on ne s'attachera ici et maintenant qu'à évoquer les seuls risques qui planent sur sa langue et commencent déjà à infléchir les comportements langagiers de ses usagers dans le sens d'un cataclysme ravageur de ses structures lexico-syntaxiques et dévastateur de son patrimoine, laquelle langue a pourtant suscité la renaissance de l'Europe. A moins que le destin ne vienne à son secours pour sauver, in extremis, ce qui peut encore l'être et réhabiliter cet instrument riche, millénaire et haut en couleurs humaines et humanistes qu'est la Langue arabe.

Et pour susciter l'adhésion la plus large possible en vue d'une prise de conscience panarabe des dangers qui guettent cette langue, il faudrait d'abord, à notre sens, s'interdire de toujours et encore se gargariser de ses anciens exploits et autres victoires surannées et largement passées de mode. Et au lieu de ronronner et de chanter la même antienne, rabâchée jusque dans les établissements scolaires au point de perdre de vue la dure et amère réalité vecue et de déboussoler les jeunes générations, il est impératif de ne plus se cacher derrière son petit doigt, mais de prendre le taureau par les cornes, d'examiner le statut actuel de la langue arabe pour déterminer les maux qui rongent son organisme avant de décider de la thérapeutique à adopter pour tenter de redorer son blason.

L'on connait par ailleurs le rôle culturel et civilisationnel fondamental de la langue, au cours de son développement, sur les progrès sociaux de tout ordre. Certes, l'arabe est l'une des langues en usage dans les instances onusiennes, et qu'elle est la langue de plus de trois

cents millions d'arabophones, soit bien plus que les francophones. Mais aujourd'hui, combien sont-ils les véritables usagers de l'arabe?

Par ailleurs, la place de l'enseignement de l'arabe comme langue étrangère facultative en Europe, en Asie et dans les Amériques stagne ici, recule ailleurs, hormis de petits cercles d'individus voulant faire carrière dans des études d'orientalisme ou reluquant un poste aux Affaires Etrangères. Tout naturellement, le choix des apprenants d'une langue étrangères dans les établissements de l'enseignement est totalement conditionné par l'esprit de compétition et les impératifs du marché du travail. Et là, l'arabe, qui n'est plus une langue véhiculaire des savoirs, bat en retraite en raison de l'inexistence totale de références scientifiques et techniques d'actualité et de pointe.

Progrès des sciences et disponibilité de l'arabe

Dans leur désir d'entrer en contact direct avec les savoirs et les connaissances, sans passer par les aléas des traductions pour le moins tardives et imprécises, les usagers se trouvent contraints de choisir la ou les langues dans lesquelles s'effectuent les recherches, les langues productrices et émettrices des savoirs, les langues des rencontres internationales entre savants et chercheurs. Or, la langue arabe est une langue de consommation, demanderesse et dépourvue de toute initiative en la matière, totalement absente de la scène cognitive.

On est alors en droit de se demander, alors que les ressources financières du monde arabe sont colossales, quelles sont les causes de l'inanité de la langue arabe, et quelles sont les raisons, internes à la langue cette fois-ci, qui bloquent les institutions scientifiques et éducatives ainsi que les traducteurs face à cet afflux massif et quotidien de terminologies de plus en plus hautement spécialisées. Comment faire pour intégrer ces interminables listes de termes, de néologismes, et les assimiler dans les structures morphosyntaxiques(1) de l'arabe. Pour tenter de répondre à cette interrogation, deux cas au moins sont à prendre en considération: d'une part, les multiples formes complexes des unités lexicales des termes étrangers bien adaptés aux règles et aux potentialités combinatoires offertes par leur propre langue. D'autre part les possibilités structurelles, souvent aléatoires, pour transposer ou traduire les néologismes et autres innovations lexicales(2) par tous les moyens disponibles, en termes d'emprunt, de calque, de maintien du terme étranger tel quel avec parfois des accommodations phonétiques, le tout devant être, autant que faire se peut, compatible avec la phonetique, la morphologie et la syntaxe de l'arabe. Sinon, le néologisme entre dans sa forme originelle, signifiant et signifié dans la perspective saussurienne, par la porte béante des cas difficiles et rebelles aux normes de la grammaire arabe.

(1) Si la syntaxe est présente dans la terminologie c'est en raison de la multitude de termes dits lexies complexes, agglomérat dû à l'hyperspécialisation, de plusieurs lexies désignant un seul et même concept.

(2) Comme par exemple cette combinaison d'un sigle, le SMS, avec le suffixe *-isme* pour donner le terme SMSiste ou partisan du Système de Messages Succincts.

Alternance codique et bilinguisme

Parallèlement aux néologismes et leur traitement plus ou moins heureux, un autre écueil, un autre obstacle à surmonter, est représenté par l'alternance codique où l'on use du code écrit agrémenté par moments du parler populaire (ou dialectal), tant qu'au niveau des échanges quotidiens ordinaires, qu'à celui du niveau des instances sociales et/ou étatiques (radio, télévision, cinéma, publicité, mais heureusement pas-ou pas encore- la presse) censées quand même adopter la seule langue littéraire classique pour au moins donner le bon exemple. C'est là une grande indigence des gouvernements arabes. Se côtoient ainsi l'arabe classique avec la vingtaine de parlers égyptien, libanais, jordano-palestinien, du Golfe etc., parfois même on rencontre plus d'un parler pour un même pays: celui du fellah de la Haute-Egypte, et le cairote, mais qui tend à dégrossir, non grâce aux efforts publics,mais du fait de la généralisation des chaines de télévision et du cinéma dans tous les foyers arabes. Et si dans ces médias le français parlé, devenant de plus en plus de l'écrit oralisé, est très proche du français littéraire, il n'en va pas de même pour l'arabe qui, face à l'écrit, dispose d'une bonne trentaine de parlers locaux(1).

Cependant et tant que l'emploi du dialecte se maintient au niveau de l'oral seul, le mal est en quelque sorte circonscrit. Mais dès lors que l'oral est transcrit tel quel dans un nouveau système d'écriture doublant le code graphique de l'arabe classique, et muni de nouveaux signes scripturaux sans grand rapport avec l' alphabet habituel, le danger auquel s'expose l'arabe littéraire classique devient manifestement évident. Du coup, les jeunes générations arabes perdent progressivement les compétences de maîtrise de la Langue nationale, et par voie de conséquence, le contact avec leur immense et plusieurs fois séculaire patrimoine. Déjà la poésie de la jahilya ou période préislamique leur est incompréhensible sans le recours sinon le secours d' un dictionnaire de langue. Ce ravage peut s'étendre aux époques omeyyade et abbasside, à moins d'un miracle... C'est une situation socioculturelle et sociolinguistique qui doit impérativement être suivie de très près, pour la contrôler pour mieux la gérer. Beaucoup de pain sur la planche des décideurs concernés du monde arabe.

De son côté, le bilinguisme ronge la langue où l'on passe, dans une même phrase de l'arabe au français ou à l'anglais, autre variété d'alternance codique, une sorte de langue d'appoint, lorsque l'équivalent arabe d'un lexème étranger est inconnu ou bien il ne vient pas directement à l'esprit du locuteur. A cela s'ajoute un certain m'as-tu vu frimeur pour être dans le vent de ce qui se passe outre-atlantique. Sans oublier la solution de facilité que représente la loi du moindre effort consistant à exprimer en peu de mots, par raccourci, sa pensée. Ce mélange revêt alors la forme d'un sabir(2) particulier, et vient à la rescousse des communiquants.

(1) Les dialectes ne se caractérisent pas uniquement par leurs structures syntaxiques et par leur phonétique, mais également par leur stock lexical, et aux mêmes signifiés ne correspondent pas les mêmes signifiants.

(2) A l'origine, le sabir était un jargon fait d'espagnol, de français, d'italien et d'arabe parlé au 19eme siècle dans le pourtour de la Méditerranée, mais aujourd'hui un système linguistique mixte réduit à un vocabulaire limité et à quelques règles, survenant à la suite de contacts entre des communautés de langues différentes.

Toutefois, et au-delà de ce dérèglement systémique, un nouveau grave problème est apparu dans les médias de masse avec la toile et les téléphones portables.

Etude d'un cas: le SMS

De son vrai nom, Système de Messages Succincts, on tire l'aspect de la brièveté. C'est un moyen de communication qui facilite, il faut l'avouer, l'échange de messages courts dans toutes les applications de la toile, dont Facebook, Twitter, Viber, WeChat, telegram etc. Dans ce nouveau code hybride, l'arabe s'écrit avec des lettres latines et les consonnes arabes qui n'ont pas leur équivalent phonétique sont représentées par des chiffres surmontés du signe de l'apostrophe pour signaler l'emphase d'une consonne arabe, comme le sad et dad etc. Et aux lettres et chiffres on ajoute également des icônes et des images pour remplacer tout un concept (joie, tristesse étonnement, approbation, etc.).

Ce nouveau code hybride aura (a) pour conséquence, à plus ou moins brève échéance une profonde rupture au niveau des potentialités tant fonctionnelles et esthétiques de l'arabe classique. Rupture qui fera dissoudre les liens avec l'histoire de la nation arabe, avec son riche héritage civilisationnel, son immense corpus littéraire et scientifique, et ses valeurs humanitaires.

Les nouveaux monstres langagiers

Lorsque les communiquants arabophones de nos jours établissent des échanges verbaux par l'intermédiaire des nouveaux médias de masse, il en résulte un nouveau système langagier utilisant à la fois l'arabe et le français ou l'anglais. Ce vernaculaire, propre au monde arabe, appelé ici franco-arabe et l'anglo-arabe, est qualifié du neutre terme facebookien. Le bavardage en ligne, ou clavardage[1], de la jeunesse et même au-delà, mondiale et non seulement arabe, passe à travers un amalgame d'alphabet latin et de chiffres arabes moyennant une syntaxe fort réduite à une simple combinatoire de quelques règles de base, non sans rappeler le style télégraphique de la première moitié du siècle dernier.

La principale conséquence de l'apparition de nouveaux modes d'écriture qui s'implantent dans le paysage quotidien des échanges verbaux est la transgression des conventions et des règles scripturales de la langue nationale. Ces nouvelles formes de communication écrite, notamment sur les supports électroniques, s'exercent sur la toile (forums, chats, blogs etc.); ainsi que sur les réseaux de la téléphonie mobile: avec le portable, il est possible de communiquer avec n'importe quel individu de la planète, à n'importe quel moment, pour dire n'importe quoi.

Par ailleurs, ces messages accusent un véritable laxisme vis-à-vis des normes grammaticales et orthographiques. Les mutations développées par la prise en charge informatique et informatisée attaquent la langue naturelle humaine de plein fouet[2]. C'est d'abord une orthographie phonétisée comportant une réduction des phonèmes du signifiant, et qui ne

(1) Néologisme composé d' une troncation des initiales puis des finales dans clavier et bavarder.

(2) Jacques David et Harmony Goncalves, «L'écriture électronique, une menace pour la maitrise de la langue» in Le français aujourd'hui, n°156, 1, 2007, p.39-47.

maintient que les phonèmes prononcés. La menace pour la langue est de voir les règles de l'orthographe modifiées par ce nouveau sociolecte. La deuxième propriété tient dans l'exploitation de la «valeur sonore des caractères», c'est-à-dire les lettres, chiffres et autres symboles typographiques[1].

A cela s'ajoute une généralisation du phénomène d'abréviation donnant des lexies à composante consonantique comme dans: *toujours, longtemps, dans, tout, pour* etc. qui sont rendus par les seules consonnes, *soit: tjrs, lgtps, ds, tt, pr.*

Il y a aussi la création de syllabogrammes consistant à remplacer un syntagme de plusieurs unités lexicales, par la lettre initiale de ces unités: *j'ai vu, j'ai acheté du thé*, qui donnent: *gv, ght te.* Et il en va de même avec le «logogramme» où se combinent chiffres et symboles scientifiques: deux, plus, moins, arobase qui se réduisent à 2, +, -, @.

Pour leur part, les sigles sont aujourd'hui non seulement bien intégrés dans la langue surtout dans les disciplines scientifiques et techniques, mais ils deviennent à leur tour base de création verbale et de dérivation de nouvelles lexies. Le soldat appartenant aux forces de l'*ONU* est un soldat *onusien; le BCG* ou Bacille Calmette-Guérin du nom des deux médecins français qui l'ont découvert, peut déclencher une inflammation dite la *bécégite*, un membre de la *CGT* française, Confédération Générale des Travailleurs est un partisan *cégetiste.* C'est la néologie par acronymie.

L'expressivité trouve dans les signes de ponctuation un renchérissement de la valeur affective et émotive des signifiants qui font défaut à ce langage, et c'est la répétition d'un signe de ponctuation qui exprime le degré d'une plus ou moins grande sensation: *Koi?????* ou encore une réponse positive à une quelconque demande; *Ouiiiiiiii; et Merciiiii.*

L'onomatopée n'est pas en reste qui participe à ces mutations expressives, et le son rendu par le signe, signifiant et signifié, qui imite le bruit réel dégagé par le référent, est multiplié autant de fois que durent l'intensité et le temps du bruit. Ainsi, le rire s'écrit *haha*, et quand il se prolonge ou que l'émetteur veuille y marquer une insistance bien appuyée, c'est la reitération de la syllabe qui l'exprime; *hahahahahaha*, l'étonnement mue en *oooooh*, etc.

A ces nouvelles potentialités expressives s'ajoute un phénomène sémiotique, à savoir l'apparition des émoticônes. Avec la généralisation de l'usage des ordinateurs, les visages et les gestes iconiques se sont répandus dans les courriels au cours des trois dernières décennies, avec le terme générique émoticône. Tous ces petits visages en sourire, colère, indifférence, tristesse, enthousiasme... offrent aux usagers un mini-lexique leur épargnant l'effort de chercher l'expression de leur état d'âme et court-circuitant les ressources stylistico-rhétoriques de la langue classique.

Toutes ces innovations invasives et agressives contre la langue naturelle trouvent, de par leur maniabilité et la commodité de leurs usages, un écho favorable chez les usagers qui y

(1) Jacques Anis, *Texte et ordinateur. L'écriture réinventée.* Bruxelles, DE Boeck, 1998.

voient une aubaine d'échappatoire leur évitant les reproches et les blâmes pour leurs fautes et incorrections de langue adressés par les bien-pensants et surtout les bien-écrivants.

Mais le revers de la médaille (mais sans la connotation du secondaire et de l'infortune) montre un appauvrissement de l'expression des sentiments et de l'empathie. Les émotions dans ce nouveau langage sont standardisées, homogénéisées, impersonnelles et manquent, somme toute, de toute particularité distinctive. Au lieu de s'évertuer à trouver les formules correspondant exactement à ce qu'il ressent profondément, l'usager n'a qu'à appuyer une fois, ou plus, sur le visage ou l'image qu'il croit parler en son nom et exprimer ses sensations. Et le degré d'intensité est rendu par des touches successives de l'icône choisie.

En effet, la témérité de ces innovations, leur grande souplesse de maniabilité et leur instantanéité ne font qu'ajouter à leur efficacité et gommer leurs inconvénients. Les profondes mutations langagières apportées par ce nouveau type de langue construisent d'ores et déjà, et au fur et à mesure de l'intensification de l'informatisation.

Langue littéraire et écritures informatisées: cohabitation ou rejet?

Sans entrer dans les multiples moyens scripturaux offerts par l'informatique à ses usagers, le cas du SMS pourrait, dans les limites d'un article, servir de plate-forme de réflexion, et qui sera choisi comme élément de comparaison avec le séculaire système langagier qu'est la langue littéraire.

Les détracteurs des courts messages considèrent, en premier lieu, que ce nouveau code finit à la longue par détraquer les règles de la grammaire, en raison de ses composantes hétérogènes combinant un alphabet lettrique, des chiffres arithmétiques, des signes typographiques et des images icones sémiotiques. Soit un amalgame de signes linguistiques et extralinguistiques susceptibles, par la brièveté du message, d'étouffer le goût de l'écriture pour l'émetteur et le plaisir de la lecture pour le récepteur, ce va-et-vient s'effectuant dans des textes en bonne et due forme. Face à la limpidité du texte, le texto permet à ses usagers toutes les formes imparfaites que n'autorise guère le texte littéraire.

Toutefois, si l'on créditait le SMS de certaines indéniables qualités, telles la rapidité de l'acte de communication, le raccourci scriptural, une licence envers la norme, ces impressions ne seront pas taxées de réalisations arbitraires et fantaisistes: elles sont utilitaires et pratiques. Et bon nombre d'études montrent que cette nouvelle forme de créativité langagière, cette invention orthographique se trouve contenue dans des messages non extensibles à l'infini[1]. De quoi rassurer les sceptiques.

Ainsi sont maintenus les espaces blancs, signe de fin d'un mot et de début d'un autre; sauvegardée la syntaxe-même la plus rudimentaire possible-, observées les règles de communication. Ainsi, la présence de certains attributs de la langue naturelle dans sa transposition à l'écrit s'inscrit dans les messages de l'écriture électronique. Dans les échanges scripturaux,

(1) Jacques David et Harmony Goncalves, «L'écriture électronique une menace pour la maitrise de la langue française?», in Le français d'aujourd'hui, 2007/1 n°, p. 43

les SMS dévoilent une certaine compétence sociolinguistique chez les communiquants rédacteurs de texto. Les écarts entre les divers statuts culturels, professionnel et familier restent bien distincts, ce qui laisse supposer que le contexte où se déroule la communication est bien actualisé et présent lors de l'émission des messages, et une certaine adéquation entre les messages et la situation de leur énonciation apparaît dans ces échanges.

Par contre, le reproche que l'on pourrait adresser au langage SMS, en dehors du fait de lui accorder ou refuser tout esprit créatif, se manifeste dans cette écriture banalisée, répétitive et conforme à l'extrême au langage télégraphique ou sténographique d'antan. La conséquence est de constater une standardisation des émotions et des sentiments, un genre de copié-collé répétitif, toujours égal à lui-même, sans nuances ni teintes personnelles dans l'expression que l'habile combinaison de lettres, chiffres et images ne parvient pas à lui accorder une autonomie statutaire.

A cet égard, on peut invoquer une expérience[1] qui évalue l'influence du texto sur les jeunes en soulignant que «les élèves qui ne maitrisent pas encore l'orthographe conventionnelle d'écriture, ne recourent pas à ces simplifications ou inventions d'écriture, tout simplement parce que les procédés utilisés s'élaborent à partir d'une orthographe déjà construite». Et cet auteur de préciser que «les possibilités de création scripturales ne sont pas infinies[2]».

D'autres chercheurs ont lancé le bouchon plus loin en indiquant que leurs études tendent à «démontrer des progrès parfois plus importants de certaines capacités chez les enfants utilisant le SMS; mieux encore, ceux qui useraient de beaucoup de «SMSismes» basés sur la phonétisation seraient plus performants en orthographe[3]».

D'après ces constatations, il y a là un possible terrain de rapprochement entre les inconditionnels enthousiastes pour les SMS et les dénigreurs des vertus de ce nouveau mode de communication ainsi que les critiques de tous gabarits qui rêvent encore des temps où la langue arabe rayonnait de tous ses éclats sur le monde du moyen-âge, où les sciences se conjuguaient en arabe et où les hommes de science se tournaient en direction de Bagdad et Cordoue. Avec des rêves et des si on mettrait Paris dans une bouteille, ce qui n'empêche par le pullulement de méthodes d'envahir le marché de la didactique qui intègre ce nouveau langage[4]. Le débat, s'il devait s'ouvrir un jour dans la zone arabe, doit être dépassionné, et le fait de camper sur ses convictions et ses positions, si louables soient-elles et en dépit des sincères motivations de défense et illustration de la langue arabe, n'apporte rien à la cause. Bien plus, ces défenseurs sont de plus en plus isolés face à la déferlante des nouvelles technologies que ni lois, ni frontières, ni colloques sur colloques et autres palabres ne peuvent endiguer.

(1) De Jacques David, op.cit. p. 45.

(2) Ibid p44.

(3) Cédric Fairon et Jean-René Klein, «Les écritures et graphies inventives des SMS face aux graphies normées», Le français aujourd'hui, 2010/3,n°170, p. 120.

(4) Citons à titre d'exemple: Version originale. Méthode de français B1, de Monique Denyer, Paris, Maison des Langues, 2011, et Tandem-Niveau 2. Méthode de français, de Christine Bergeron, Paris, Didier, 2003.

Pourtant les responsables de l'éducation dans les pays arabes doivent bien se rappeler le phénomène du contact des civilisations et des cultures. Sous l'occupation ottomane, beaucoup de mots turcs empruntés ont été utilisés par les arabophones, et plus tard, sous les mandats français et britannique, d'autres emprunts lexicaux étaient consommés dans la langue courante. De nos jours, les sciences et les technologies de l'Occident producteur dont se nourrit le monde arabe, indolent spectateur et consommateur, envahissent même les lointaines contrées perdues. Le déferlement des innovations sur tous les plans rend perplexes les défenseurs de la langue arabe dont les efforts d'arabisation des vagues de néologismes tombent souvent à l'eau. A titre d'exemple du désarroi arabe, le manque de coordination dans le domaine de la traduction où l'on rencontre fréquemment une pléthore d'équivalents proposés pour un seul et même terme étranger. Un foisonnement synonymique qui déroute les usagers des diverses terminologies en dépit des efforts des autorités étatiques, sporadiques toujours en retard d'une guerre, et qui, si l'on ajoute l'incoordination dans le choix d'un seul et même terme pour le néologisme étranger, ne fait que compliquer davantage une situation linguistique déjà critique.

Dans tous ces bouleversements, un autre danger dans ce nouveau sociolecte vient de l'accueil favorable et de l'adhésion générale spontanée, à l'exception peut-être encore des personnes âgées. Tout nouveau, tout beau. Ce vernaculaire à la mode touche en fin de compte toutes les populations, y compris, en douce, ses adversaires. Chaque usager y trouve sa part et son affaire, et à examiner de près son succès planétaire, on peut évoquer la célérité du message qui épargne à l'émetteur l'exercice de la rédaction classique pour lequel il prenait toutes les précautions et tout son temps pour arranger ses idées dans une formulation grammaticale correcte. Ici le temps presse et le premier jet spontané est directement envoyé sans aucun aménagement linguistique: ce qui vient en premier à l'esprit est accouché sans aucune autre forme de procès.

De ce gain de temps découle le gain de l'espace: plus de mots longs et entiers alors que la loi du moindre effort fait son jeu. Les mots du message sont abrégés, tronqués, symbolisés, imagés ou iconisés. Qui n'a pas vu et lu cette fameuse «phrase» qui débute le clavardage, reduite en trois consonnes ش ع ت pour

شو عم تساوي

Différemment du séculaire système langagier, le nouveau langage n'hésite pas à représenter certaines consonnes par des chiffres, et des chiffres surmontés de l'apostrophe pour les consonne emphatisées comme avec 3, 6, 7, et 3',6', d' respectivement pour ع ط ح غ ظ ذ

A cela s'ajoute une qualité de taille, à savoir une élasticité et maniabilité qui libère l'émetteur des règles syntaxiques, orthographiques et phonétiques. En utilisant ce sociolecte, les usagers parviennent à communiquer sans nulle contrainte et se sentent ipso facto dans le vent du progrès. Autre avantage primordial, l'auteur du message se sent dans un espace privé qui lui garantit intimité et confidentialité.

Faut-il se hasarder pour voir dans ce mimétisme quasi mondial un abandon ou un rejet des langues nationales? Nous ne pensons et souhaitons pas. Mais ce qui est sûr et certain c'est que les usagers de la nouvelle mode se démarquent de leurs aînés et abordent, dans un commun esprit d'ouverture à l'Autre, les grandes questions qui se posent à l'humanité: volonté de lutte pour la paix contre les conflits armés, pour un environnement sain, une nourriture équitablement partagée, un enseignement pour tous, des soins médicaux disponibles, contre le réchauffement climatique etc. autant d'objectifs que les générations précédentes n'ont su réaliser. La jeunesse mondiale se retrouve autour de ces revendications: on s'envoie des commentaires d'un bout à l'autre du globe parce que l'on se sent concerné par les problèmes internationaux. Il n'est nul besoin de se connaitre pour communiquer du moment que les idéaux et les causes sont identiques.

Face à ce nouveau paysage communicationnel, les puristes et puritains sont-ils encore en droit de lever l'étendard des normes, alors que la langue arabe se métamorphose et mue en plusieurs visages et usages, se distanciant de jour en jour de la langue des ancêtres et devenant, pour certains, archaïque et stérile puisque ne répondant qu'aux besoins vitaux de base et à la communication ordinairement commune.

A ce stade se pose un grave problème: en effet, qu'adviendra-t-il bientôt des chefs-d'œuvre de la langue arabe, de ses trésors et autres corpus amassés au cours des siècles? Ont-il fait leur temps et sont-ils encore d'actualité? Qui peut prétendre, en dehors d'un cercle restreint de spécialistes, comprendre la poésie arabe des siècles passés sans le secours d'un dictionnaire de langue? S'achemine-t-on, aux dépens des cultures nationales, vers une culture mondialiste? Autant de questions que pose la problématique de la présence des nouveaux langages informatisés dans notre vie sociale.

Le débat ne date pas d'hier, et dès le début du siècle dernier, des voix se sont élevées pour engager une réforme de l'arabe. Et sans entrer dans les détails de l'affrontement entre les traditionnalistes et le camp des réformateurs, on se borne à citer les principaux auteurs de ce dernier[1]. Dans le clan des réformateurs, on peut citer dans un ordre dispersé d'importance: Taha Hussein, au moins à ses débuts, Al-Junaydi Khalifa, Abdel Aziz Fehmi, Saïd Akl, Youssef Sibaï, Tawfic el-Hakim, Issa Maalouf, Louis Awad.

Dans le camp des conservateurs, on se plaint de la façon dont on malmène la fusha, notamment dans les médias de masse, la publicité, les réseaux sociaux, l'internet, les portables. Autant dire un grand nombre d'obstacles que l'arabe littéraire ne semble pas en mesure d'y faire face, en dépit des grands et nuisibles écarts commis par tous ces moyens dont nous donnons les principaux motifs.

Il y a d'abord les graves fautes grammaticales commises en direct dans les débats télévisés, les réunions électorales, les interviews et autres joutes politiques qui se déroulent dans un style plat, fade et médiocre, et où les accords du genre et du nombre, les attributs du sujet, les connecteurs et autres déictiques sont mal employés.

(1) On laisse aux personnes intéressées par ce débat le soin de lire les ouvrages des uns et des autres.

A cela s'ajoutent des mots et expressions relevant du registre dialectal, or les parlers locaux ont une syntaxe, et parfois un lexique particulier, qui ont peu de traits communs avec la fusha, ce qui, face à des millions d'auditeurs et de téléspectateurs des radios et chaînes arabes, ne font qu'aggraver une situation déjà conflictuelle. Et quand il arrive qu'un invité s'exprime en bon arabe, il est vite classé comme un pédant qui cherche à faire étalage de son savoir ou d'une érudition affectée. Pour sa part, la publicité, avec ses nombreux et grands panneaux qui envahissent tous les espaces urbains et les voies de communication, ne fait pas l'affaire de la fusha puisque pratiquement tous les slogans transcrits ou chantés se font dans les parlers locaux.

Et sans prendre la peine de chercher un équivalent à un terme étranger, on assiste à un déferlement des emprunts lexicaux de signes entiers, et l'on emprunte la chose et le mot, le signifiant et le signifié. On remarque même des chaînes qui placent côte à côte deux alphabets comme dans MBC قناة ou ORBIT قناة.

Les fautes ne concernent pas seulement la syntaxe de la langue et sa combinatoire, mais on rencontre aussi des problèmes de prononciation de certaines consonnes avec souvent des finales sans aucune correspondance avec les élémentaires règles de la fonction du mot dans la phrase (sujet, complément, attribut, complément de nom, etc.)

Et le comble dans toutes ces déviations langagières, et c'est là que le bât blesse, cette invasion du franco-arabe ou de l'anglo-arabe qui approfondit le fossé entre la fusha d'une élite et cette hybridation langagière d'une majorité désabusée des promesses non tenues et des slogans pompeux, le tout suscité et développé par les espérances irréalisées.

Il y eut dans les années cinquante du siècle dernier un appel à la transcription de l'arabe en alphabet latin, appel qui n'a pas fait long feu. Par contre, repris par Kamal Ataturk, fondateur de la première république turque, ce projet est rendu obligatoire en Turquie et l'alphabet arabe est remplacé en 1928 par l'alphabet latin.

Conclusion

Comme nous venons de s'en rendre compte, les menaces qui planent sur l'arabe littéraire sont nombreuses, et tout projet pour endiguer l'invasion des nouveaux types d'échanges verbaux, parallèlement à la langue arabe nationale, dont se réclament toutes les constitutions du monde arabe, doit se faire sur une base, non de contrainte légiférante (et l'on sait que l' officialisation des réformes langagières par l'imposition de décrets ont échoué), mais d'une sensibilisation partagée par tous ceux qui veulent faire de la fusha une composante fondamentale de l'identité arabe.

Cette campagne visant à réhabiliter la fusha peut se faire autour de quelques axes qui exigent une adhésion réfléchie sans ambages: création d'un centre panarabe avec une permanence totale de traducteurs et de professionnels des domaines concernés, chargé d'arabiser, dès leur parution, les néologismes pour répondre presqu'instantanément aux besoins des usagers et couper cours à la pagaille des traductions indépendantes; sensibilisation des patrons des médias de masse pour éviter autant que faire se peut, les langages hybrides et

adopter les néologismes fournis par ce centre; réformer l'orthographe dans quelques chapitres, comme le problème du hamza, le fameux coup de glotte qui déroute, et autres pommes de discorde, mais sans nuire ou porter atteinte à la phonie de l'arabe ni à sa syntaxe fondamentale.

Et dans le secteur de l'informatique, lancer sans tarder des concours avec des prix fort substantiels pour galvaniser les candidats intéressés et susciter un nouvel élan. Les vedettes du cinéma, télévision, sports, chanson, animateurs d'émissions, etc. seront invités à participer à cette vaste campagne de sensibilisation.

Naturellement, tous les établissements scolaires d'enseignement publics et privés, et toutes les universités, centres culturels, maisons d'édition doivent coopérer. Sans ce grand forum, sans un rassemblement de toutes les volontés, la langue arabe risque sérieusement de changer de visage de perdre sa personnalité et tomber au rang d'un simple parler local.

On annonce un avis de tempête sur la langue arabe. Avis aux amateurs et défenseurs de cette prestigieuse langue.

Bibliographie

Cédric Fairon et Jean-René Klein, «Les écritures et graphies inventives des SMS face aux graphies normées», Le français aujourd'hui, 2010/3, n°170.

Jacques David et Harmony Goncalves, «L'écriture électronique, une menace pour la maitrise de la langue» in Le français aujourd'hui, n°156, 1, 2007.

Jacques Anis, *Texte et ordinateur. L'écriture réinventée*. Bruxelles, DE Boeck, 1998

- سامية بادي وسوهام بادي، «تأثير لغة التواصل الالكتروني على مستقبل الحرف العربي»، المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية، مجلد ٦، دبي ٢٠١٥، ص٧٩.
- ابراهيم أحمد حربلي، «ظاهرة العربيزي ومستعقبل الحرف العربي»، المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية، مجلد ١١، دبي ٢٠١٥، ص٥٦٨.
- محمد زكي خضر وآخرون، «رصد واقع اللغة العربية في ميدان التواصل على شبكة الانترنيت والهاتف المحمول»، اللجنة الوطنية الاردنية للنهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، مجمع اللغة الأردني، عمان ٢٠١٤، ص١٣٥.
- آمال سعد الدين، «ظاهرة (العربيزي) نيجية طبيعية لتمازج الحضارات»، جريدة الرياض، العدد ١٣٣٥١، تاريخ ٥/ ٧/ ٢٠١٠.
- هبة الله السمري ومنى الخاجة، «رؤية الشباب لواقع ومستقبل استخدام اللغة العربية في الاعلام الجديد – دراسة تطبيقية –»، أعمال المؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية، مجلد ٣، دبي ٢٠١٥ ص٣٠١.
- نزهة الخياط، «المحتوى الرقمي العربي على الشابكة بين الأبعاد الجيواستراتيجية ومفارقات الجاهزية المعلوماتية»، المجلس الدولي للغة العربية، مجلد ٩، دبي ٢٠١٥ ص ٦٠٤.

Forced migration and its impact on the employment of Syrian young women in Lebanon.

Suzanne Menhem[1]

Abstract:

The security occurrences which hit Syrian society since 2011 has led to the forced migration of Syrians, in general, and of "children, women and youth in particular".

The integration of Syrians in the Lebanese labor market is not new. The men were previously employed "in the construction and agriculture sectors'' and the women in domestic service and in agriculture, but this reality changed with the Lebanese civil war due.

This paper studies the employment of young Syrian women in Lebanon through the hypothesis of social and economic changes. It will raise the problematic of the employment of young Syrian women and their emergence in the Lebanese labor market.

Methodologically, in addition to the literature review, field work will be carried out to include firstly, an exploratory observation and secondly, a semi-structured interview on a sample of 20 young Syrian women.

The paper will also show the changes in their living conditions, in education and employment through the adoption of policies that can improve the future situation of young women and to propose recommendations and strategies to the concerned collaborators.

Keywords: Forced migration; Syrian young women refugees; Employment; Living conditions; Lebanon.

Introduction:

After the breakout of the Syrian war in 2011 and the ensuing crisis, thousands of Syrian refugees and their families came to Lebanon. The integration of Syrians into the Lebanese labor market, formal or informal, is not new. Syrians had been working illegally in both the construction and agriculture sectors. By 1945, an estimated 45% of Beirut's inhabitants were comprised of foreigners. Syrian workers then made up 25% of the workforce in the construction sector (Doraï & Hily, 2015).

After the end of the Lebanese civil war in 1990, the Syrian labor force entered into the industrial sector and the tourist services sector (hotels and restaurants).

Syria as a neighboring country and giving its close geographical context which favored

(1) Asssitant Professor at the Lebanese University, Institute of Social Sciences, section II-Rabieh Lebanon, Researcher associate at Institut FranÓais du Proche Orient (IFPO), Beirut, Liban & at Lebanese Research Center for Migration and Diaspora Studies (LERC), Notre Dame University, Zouk Mosbeh-Liban.

Syrians' trips back and returns home during weekends, and following their work week, but their wives and children remained in Syria.

What changed during the war were entire families moving and arriving in Lebanon with the opportunity for women to experience a form of freedom and democracy.

The high influx of young Syrian refugees created further competition for employment opportunities in Lebanon. The social changes imposed by Lebanese society pushes us to elaborate on the problem of the employment of the young Syrian refugees emerging on the Lebanese labor market. Syrian refugee girls in Lebanon entering the Lebanese labor market for the first time after dropping out of school, others who continue to work in the trades that they were trained in Syria and others who have integrated into new professions in Lebanon.

Hence, our interest is to conduct a study on this subject given its interest and to assess the extent of this social phenomenon, its importance, its diversity, its geographical distribution in Lebanese society, and the investigation and understanding of the socio-economic factors that influences these young Syrian refugees.

This paper aims to enable young Syrian refugees to recognize their rights and to help them integrate in better ways, especially those most marginalized or those who have dropped out of school at a young age, with the aim of entering the Syrian labor market after returning to Syria.

In addition, another objective of the study is to understand the social change experienced by these young refugees in Lebanon. This study will also attempt to identify and define the training they need.

The overarching questions of this paper is to what extent can Lebanon and its civil society support the massive influx of large numbers of Syrian refugees, and what roles can young Syrian refugees play in the labor market?

To answer the problem, we will formulate the following central hypothesis: to seek to evaluate the most significant sectors in which Syrian women work and to which socio-demographic category they belong; their integration into the local labor market which changed their way of life and the new forms of this change. In which circumstances were they employed? Where are their rights? What are their lifestyles? What have they always dreamed of? How do young Syrian refugees integrate into the Lebanese society socially and professionally?

This paper discusses the human development of these young women, the changes in their living conditions, and their access to work. This paper is divided into six sections.

1 - Overview on Syrian refugees in Lebanon:

Numerous studies, conferences, research notes, newspaper articles, reports of governmental and non-governmental organizations (eg NRC, Danish refugees, Caritas migrants...) have addressed the issue of the Syrian crisis in Lebanon.

The topics covered international attitudes, economic impacts and the role of the local

authorities in this crisis. These studies have also focused on the economic conditions and the impact of the Syrian exodus on the Lebanese economy, on the Lebanese workforce and the protection of the latter from the illegal Syrian competition. In addition, there are also studies on early marriage among Syrians in different parts of Lebanon, on various families and religions, and other studies on formal education and Syrian students in Lebanon.

Study examples include *Refugees of the Arab Spring* (Sam San Vilet & Guita Hourani, 2012), which sheds light on the massive flow of Syrian refugees in Lebanon one year after the crisis and reveals the political, societal and humanitarian factors posed by the Lebanese State policy.

A further new report published by the World Bank, entitled "*Forcibly Displaced - Toward a Supporting Approach for Refugees, the Internally Displaced, and Their Hosts*", provides a fresh look at the global refugee crisis as a challenge to achieving sustainable development led by actors of humanitarian aid to reduce the poverty of individuals in countries affected by the crisis. Initiatives to this end include new financial support for countries such as Lebanon and Jordan that host large numbers of refugees (World Bank, 2016).

Balanche and Verdeil in a study on the settlement of Syrian refugees in Lebanon, "*The insertion of refugees in Lebanon: a great precariousness*" (Balanche and Verdeil, 2016) highlight the social and demographic economic upheaval in Lebanon following the massive arrival of these Syrian refugees. (Balanche and Verdeil 2016).

A study which briefly discussed the impact of reactions on forced Syrian displacement in Lebanon and based on the fieldwork in the village of Bebnine (Christophersen Mona, Thorleifisson Cathrine Moe, Titlines Åge, 2013).

A study investigating the prevalence and main determinants of early marriage of Syrian refugee youth in Lebanon in 2016 in the Bekaa region of Lebanon that measure the phenomenon of early marriage in Lebanon relative to Syria (UNFPA, 2017).

A study that deals with family planning in general and the use of contraception in particular in 2017 (UNFPA, 2017) documenting the attitudes and practices of Syrian refugees in Lebanon towards family planning (in Lebanon).

According to the statistics of the United Nations High Commissioners for Refugees (UNHCR) in December 2017 the number of refugees has fallen to less than 1 million (997,905) for the first time since June 2017, of which the number of registered Syrian refugees was 1,001. 050, but in reality their total number exceeds the registered figures. One in six people in Lebanon is a Syrian refugee (UNHCR, Global Trends 2016). Displaced Syrians represent 25% of the Lebanese population according to the UNHCR in 2016 with 169 refugees per 1000 inhabitants, and their unemployment rate constitutes 40% of the Lebanese population according to the Lebanese Minister of Economy in 2017 (L'Orient-le jour 2017).

It should be noted that these refugees do not reside only in camps but are distributed in the cities and engage in Lebanese society. They are distributed on the Mouhafazats accord-

ing to the latest statistics of the UN in June 2017 as follows: 43% in Bekaa, 23% in Mount Lebanon, 21% in the North, 7% in the South, 4% in Nabatieh and 2% in Beirut.

In the past, many Lebanese employed Syrian women in domestic service and agriculture, but this reality changed with the Lebanese civil war because of both the instability of the security situation, the security situation itself and the change of the Syrian mentality.

The crisis that has plagued Syrian society since 2011 has led to the forced migration of Syrians in general involving "children, women and young women in particular". Thus, the population of Syrian refugees is characterized by its youth (Balanche and Verdeil, 2016).

This new reality, created by the Syrian crisis, poses a number of questions: the arrival of these young refugees in Lebanon; their insertion in the formal and informal Lebanese labor market; the conditions in which they work; their relationship with the Lebanese employer; their interaction with Lebanese and Syrian employees, and the socio-economic outcomes of this illegal employment of youth.

Access to work and income of these Syrian refugee girls in the Lebanese labor market remains lesser studied. Most of them had dropped out of school in Syria to come to work in Lebanon, while others of them continued to work in the same professions in which they worked in Syria.

Also, within this group were young women already working in Syria, and who now had a new opportunity to work in Lebanon.

The objective of their presence was to flee the war, but given the permeability of the economic structure, a new stratum of women workers formed within the Lebanese structure while the formation of a substitute structure became prominent in the labor market.

The result of this irregular migration is the search for work and earning a wage lower than what the Lebanese worker receives. Resigns to being without employment but to secure a source of living has become paramount.

The contribution of our research will lie in an in-depth study of young Syrian women in Lebanon, their effect on the labor market and a focus on changes with these Syrian women in order to make women's experiences visible.

2 - Concepts

To better understand the refugee status in Lebanon, forced migration and youth, the following concepts were used:

A refugee is defined by the 1951 United Nations Convention Relating to the Status of Refugees ''as any person who has a well-founded fear of persecution on the grounds of race, religion, nationality, membership in a particular social group or of his/her political opinions outside the country in which he/she holds the nationality or who cannot, because of this fear, want to return there''.

While hosting a large number of refugees on its soil, Lebanon is not a signatory to the 1951 Geneva Convention and only occasionally collaborates with the Office of the United

Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR). The signatory countries of the Convention are committed to protecting refugees by allowing them to enter their territory and granting them temporary or permanent resident status. Refugees in the absence of legal status, which affects many of them, find themselves in a situation of de facto illegality. Their extremely precarious legal status exposes them to the same type of restriction as regards access to the labor market, schooling, housing or social assistance. This situation of great legal precariousness is shared by Syrian refugees who have arrived since 2011. Aid organizations, the Office of the United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR), can strive to clearly distinguish refugees from migrants, although persons in these two categories share many characteristics in common with regard to social needs and cultural repercussions at the place of settlement (United Nations, UNHCR, 1997).

Forced Migration: Broadly speaking, this term refers not only to refugees and asylum seekers, but also to those forced to leave by ecological disasters or development projects (such as the construction of factories, or dams) (Jacob, 1997).

Youth: We can consider that youth is of the age when he chooses to transfer from one road to another, from school to working life, and from the family of origin to the procreation family, takes place (Mayer, 1998). UNESCO uses the universal definition of the United Nations to define the term "youth" as persons aged between 15 and 24 years. This ensures statistical consistency between regions.

3 - Methodology of the research:

Over the last six years, we have noticed the visibility of Syrian refugee girls in Lebanon and more specifically their presence on the labor market. Their dominant visibility on the geographical stage comes down to their modest salary accepted compared to the higher salaries of the Lebanese. This paper focuses on the work of these young Syrian refugees in different sectors and discusses the social and cultural changes they have experienced.

These Syrians are present in the Mohafazats (district) of Beirut and Mount Lebanon. Their place of residence extends from Beirut (Tarik El Jdide, Tarik el Matar, Mussaitbah, Hamra, Achrafieh) to Mount Lebanon (Bikfaya, Cornet Chahwan, Mazraat Yachouh, Rabieh, Zakrit, Jounieh, Aintoura al Metn, Dora, Bourj Hammoud, Jbeil and Antelias).

Our approach is divided into two phases:

The first phase is characterized by documentary research to access the most relevant knowledge by relying on documents and books that discuss the considerations of the study. We have also consulted various books, official sources, reports, references and social media (electronic forums, blogs,...) dealing with the subject, as well as the changes that have taken place in society in general following forced migration, and in particular among young Syrian women in social, economic and cultural terms.

The second phase is the practical: An exploration of the fieldwork. The qualitative approach will be selected whereby all the participating observations, including 20 anon-

ymous[1] semi-structured interviews, using random sampling, from September 2016 to April 2017, with young women between the ages of 15 and 24, was be explored to better understand the realities surrounding the presence of the Syrian refugees. Fieldwork will mobilize the methodological resources of sociology and ethnography. The objective of the field interviews will be collect information already still lacking form the data collected in the literature review and in the statistics. We will mention that, in order to carry out our study, interviews were conducted at the workplace and residences of these women in Beirut and the North Metn.

4 - The difficulties of this study:

Regarding the difficulties encountered on the ground, we cite as an example the refusal of young people to answer questions, specifically those living with their families and who were afraid to give details about their lives or in this case at the workplace. This is the reason why we tried to conduct interviews in a number of areas (saleswoman, beautician, housewives...) to achieve the required number of interviews.

The interviews were conducted in Beirut and North Metn where the presence of young Syrian refugees is most noticeable. The refusal to answer our questions forced us to visit these selected regions frequently. In addition, there was a time limit when carrying out this study, individually.

5 - The main results obtained for women's and their experience in Lebanon:

We present the main results obtained from the study in this section.

With regard to the young refugees selected in this study, the interviews indicate that their lives in Lebanon have changed on the economic and social level. They are aware of the consequences of forced migration, as an alternative and viable solution, as they try and adapt to their new life.

1 - The socio-demographic categories of these young refugees in Lebanon:

The crisis that forced young refugee women to enter Lebanon, family reunification or the loss of a family member and/or the lack of family support at home or the hope of a better life has led these women to leave Syria in the periods starting with the Syrian crisis until the date of implementation of the study.

According to interviews with women aged 15 and 24, it was noted that the minority of these women are married, the majority are single and the remaining few of the respondents are divorced.

Of the total number of married women, the majority were married in Lebanon to a Syrian or Lebanese and here we can ask a question on their integration in the Lebanese society, while the minority were already married in Syria; few of the respondents had been married in the first country of asylum, such as Turkey or Jordan, before coming to Lebanon.

(1) All the participants will, of course, be treated anonymously and their names will be mentioned as pseudonyms in the textÛ

2 - The educational level of young Syrian refugee women:

The study showed that 15% of young Syrian refugees in Lebanon held either a Bachelors degree or a Masters. Others had been registered (enrolled) in Bachelors or Masters degree programs, such as Arabic Literature, Law, Engineering, at a university in Syria.

Sana tells us: "*I was registered at Koubany University in Arab Literature but because of the war I dropped out of Universityl to flee to Turkey and then come to Lebanon".*

The majority of Syrian women have a primary level of education and the minority have a technical BT while few of respondents have never attended school.

Almost all of these young women have never had the opportunity to study in Lebanon, having left their education especially to help their parents, and also because of difficulties faced when understanding a foreign language difficulties (French or English) and the different levels of learning and programs in both at school and at the university.

Chaimaa tells us: ‘‘It was very difficult to join the university in Lebanon, especially the difficulty in equivalence of the subjects, the procedures are very difficult in terms of qualification... In terms of level of education, I did not follow my studies because things are very complicated, I went into professional life.

3 - Professional experience in Syria:

Preliminary results from our interviewers show that the professions of these young refugees are the result of asylum experience and their presence in Lebanon. All interviews show that usually women work in Syria. A Few of these women shown to have working experience in Syria, for example, Fawzia worked for 7 months before coming to Lebanon. When I asked her to talk about her experience, she replied: "I made accessories such as (bracelets, necklaces and earrings) on orders. Through this craftsmanship I earned a lot of money in Syria to support my family’’, moving from an economy based on information to an economy where by they can allowed them to save money and be more independent economically.

The majority of the women interviewed did not have any work experience in Syria before coming to the host country. They come to Lebanon to either continue their education, or having been allowed by their parents, to seek employment. In some cases having married early in Syria they came to Lebanon, to seek employment.

4 - Professional experience in Lebanon:

The war forced a separation between people and their homeland. Having arrived in Lebanon with modest means, hardly sufficient to meet prevalent conditions, they had to endure hardworking employment and to accept low wages...

Young Syrian refugees have accessed their jobs in Lebanon through a Lebanese friend or neighbor or by personal initiative. They work in the informal sector but suffered greatly to fit into the job market. The majority of young people work without having signed a work contract since they lack identity documents or work permits. In addition, although some of them have a university level education they are unable to work in areas of their specialty.

The arrival in Lebanon, the absence of the head of the family (husband), the difficult liv-

ing conditions, the expensive rents, the financial requirements/needs of the family (parents and children) are all factors which caused a mutation in the lives of these women, and pushed them to enter the labor market so as to make contributions to their families or to support themselves.

Table 1. Typology of jobs held by Syrian refugee women in Lebanon.

Level of Education	Job
Illiteracy:	Domestic workers-la plonge (restaurant), agricultural field (sort)
Primary	Domestic workers -la plonge (restaurant), agricultural field (sorting) hairdresser -bakery-
Complementary	Waitress in a restaurant- industrial factory- manufacture of accessories- hairdresser- nursing assistant- Bakery- Supermarket- sewing- pastry
Secondary	Saleswoman- beautician- hairdresser- telephone sales- bakery- supermarket (inventory and supplying) - pastry shop
University	saleswoman- cashier- accountant- OMT- phone sales- secretary- supermarket (inventory and vendor)
Technical	Saleswoman- industrial factory- Manufacture of accessories-hairdressers- beauticians- supermarket

The majority of Syrian women interviewed work in the informal sector and are present in all sectors. They occupy qualified or low-skilled jobs. These include employment in women's household, as salespeople in clothing stores, as telephone (operators), as waitresses in restaurants, as cashiers at supermarkets, or work at beauticians and hairdressers, in bakeries, pastry shops, or are involved in sewing, crafts..

They are found in these sectors because it represents the mindset of Syrian women once they arrive in Lebanon.

However due to the new environment and new ways of training these women develop and integrate into various occupations such as cashier or beautician.

A delay of 3 to 18 months is usually set for a woman to find a job in Lebanon. The majority of young women who only waited a few months to find their first job were ‘‘very lucky while the remaining minority of Syrian refugees waited a year and a half to get their first job.

Sanaa, 21, adds: *"I stayed for a year without working and then worked in the same field where I worked in Syria, namely making accessories. We Syrians, once we arrived in Lebanon, cannot leave our home to work, our husbands will forbid us to go outside to work. We have to stay at home and work from home. Work opportunities in factories or companies are better and well paid. Although I found a job not too far from home my husband and my family refused. An entrepreneur asked me to work with her, she has a workshop of artisanal work, I work with her today and I am paid on every piece that I make ".*

For economic reasons, the young women's family usually stay behind in Syria when the

money earned in Lebanon was send back to be spent. However due to the war, the whole family is now in Lebanon. The money earned by the Syrian worker for example in the construction sector, is hardly enough to care for the family, but is supplemented by aid from UNHCR, NGOs, charities, and so on.

Even those these women now enjoy freedom to work as skilled labor, the Entrepreneurs takes advantage of their dire situation to pay them the minimum wage possible.

5 - The working conditions:

In terms of wages, this study shows that the majority of wages are below the minimum wage of 675,000 LL. ($ 450) per month. The exception of few of the sample earn more than the minimum wage, 750 000 LL ($ 500) because they hold two jobs concurrently.

Leila says, "*It's like the oil does not feed," which implies that the salary is so puny that it's not enough for daily live".*

The paper shows that the majority of young Syrian refugees work between 10 and 12 hours without interruption and without extra allowance while the minority work 8 hours a day.

Young women work either full or part time or both, and often work in difficult circumstances to improve their living conditions.

Maysaa who works in a bakery adds that the schedule is always very hectic, 8 hours in a row, with no allowances for sitting, no break...

The study shows that the majority of girls face a lot of obstacles in their work: no employment contract, no social security, difficult working conditions, long working hours (on average of 10 to 12 hours), low wages, discrimination in the workplace, and a lack of protection from the law but their needs push them to work.

Only few of our respondents are happy and the remaining majority are not satisfied because of the absence of allowances, the long hours of work, no contributions....

Conditions whereby workers face a full week of work, long exhausting hours of hard effort, with little return or reward for their sacrifice, can be defined as a form of moral violence...

This form of moral discrimination or violence can be seen, for example, with Zalfa who works as a domestic worker in Lebanon. Zalfa is forced to live a life of solitude, not being allowed to eat at the table nor to share in family life. She suffers being reprimanded or slapped, either rightly or wrongly by the housewife, a form of abuse common to these working women and now (unfortunately) a seemingly acceptable way of life.

Even those who are literate are treated with disrespect as if inferior and this discrimination causes (is a cause of) moral violence.

6 - Culture of work:

Dialect and accent drives these women into silence at work. Even though the Arabic language is common between Lebanese and Syrians, these women find it very difficult to ex-

press themselves at work so they try to disguise their Syrian dialect so as not make mistakes in front of customers

If ever a question is asked, the boss or manager is called to answer for them directly.

7 - The ambitions of young Syrian women in Lebanon:

Despite their current situation, the young people who fled the Syrian conflict retain their many ambitions and dreams.

Shaima says, *"I would like to become a university professor in Aleppo".*

The ambitions of these young people are multiple but obstacles dominate, such as dropping out of school at a very young age, their displacement and other factors. Nevertheless, they still love life, their families and their country. They live in hope that the future will improve for the good especially with mind to the hard times they have endured. Most of them want peace and a return to their homes, their country of origin, to find decent jobs and earn a living that will realize their dreams.

8 - The changes in the lives of these women between Syria and Lebanon:

Social change in the lives of these young people has led to a breakdown of the Syrian patriarchal society. Young Syrian refugees leave the confines of home to work, meet and interact with friends on Sunday, to go out and do their shopping. They have also become more open to other nationalities.

These young women have become more independent. They enjoy the freedom to act and circulate on the streets, imitating Lebanese women with the aim of weaving into the Lebanese social fabric. They have aesthetically changed their look and appearance. But retain the hospitality common to both Lebanese and Syrians.

All this changing from the form of the regime in Syria, because Lebanon enjoys a democratic system.

This differs from the regime in Syria. There the young Syrian women are enclosed in an atmosphere on herself.

With Lebanon providing an open doorway to diversity, the mindset has flourished as seen with the frequent visiting of pubs, cafes, shopping centers,... at the cost of hiding their origins and swallowing their pride.

This culture influences their behavior and is creates a driving factor for changing and adapting to the Lebanese way of living. Which is grounded in democracy in contrast with the culture in Syria influenced by its politics of imposes an atmosphere that locks the young spirits and a regime that advocates a closed ways of life.

9 - Future aspiration:

The return to Syria remains a dilemma. The minority of women surveyed want to return home but not yet. They would prefer to wait until the war in Syria ends and the situation improves. The majority do not aspire to return home. They would prefer to stay in Lebanon to continue their studies and work. Others would pref er to settle in a third country.

Conclusion:

To provide young women with the necessary skills to improve their living conditions be it training in sewing, in learning English and/or French, in aesthetics, hairdressing, gastronomy or even when trying to enter the market with such items as homemade jams.... All these training can be used upon returning home and entering the job market.

What we can see from this paper is that the bitter-sweet reality experienced by young Syrian women, both in terms of social life and economic realities, is a double edged sword. A change of values and traditions vis-a-vis these young people may give promises of a future boom

Young Syrian refugees have paid a high price for the war in Syria. They have endured great hardships from the time of leaving their country until their arrival in the host country. Events have turned their lives upside down.

In contrast to economic migrants who move to destinations seeking work opportunities, these young people, having fled conflict and violence, are often vulnerable to the loss of resources and assets and not only have they suffered a lack of their basic rights but a lack of opportunities as well.

To overcome these problems and to restore confidence in their future lives they need specific support whereby they can finish their studies and find jobs suited for them.

If these young women are left without support they will face even more difficulties and marginalization.

References:

English and French:

Acatarino, Christine, MOROKVASIC, Mirjana (2005), Femmes, genre, migrations et mobilités, Revue Européennes des Migrations Internationales, vol 21, n£ 1.

Anomyme, Les déplacés syriens représentent 40% de la population au Liban, affirme le ministre de l'Économie. L'Orient- le jour 21-10-2017

Berneis, Nora, Brtl, Julia (2013), Understanding the heightening Syrian Refugee Crisis and Lebanon's Political Polarization, Carthage Research and Information Center.

Christophersen Mona, Thorleifisson Cathrine Moe, Titlines ége (2013), *Ambivalent Hospitality. Coping Strategies and Local Responses to Syrian Refugees in Lebanon*, Fafo-report 2013:48. [En ligne], http://www.fafo.no/pub/rapp/20338/20338.pdf, page consultée le 10 Janvier 2017.

Confluences méditerranée, La société libanaise à l'épreuve du drame syrien. L'Harmattan, N° 92 Hiver 2014 - 2015.

De Bel-Air, Françoise (2006), Migration et politique au Moyen-Orient: populations, territoires, citoyennetés à l'aube du XXIe siècle, Beyrouth, Institut Français du Proche-Orient (IFPO)

Doraï, Mohamed Kamel (2008), du brouillage des catégories de réfugiés et de deman-

deur d'asile à partir d'exemples moyen-orientaux, sous la direction de: Cambrézy Luc; Laacher, Smaïn; Lassaily-Jacob, Véronique; Legoux Luc (Eds), Paris, la Dispute.

Household Living conditions in Lebanon 2015 general and practical results and Indicators, December 2017, The Consultative center for studies and Documentation

International Labour Organization (2014), Assessment of the impact of Syrian refugees in Lebanon and their employment profile / ILO Regional Office for Arab States - Beirut: ILO, 2014 ISBN 9789221266769 (web pdf) International Labour Organization; ILO Regional Office for the Arab States.

International Alert, 2015, Citizens' perceptions of security threats stemming from

the syrian refugee presence in Lebanon, International Alert et Lebanon Center for Policy

Studies, février 2015.

Kasparain Choghig (2010), Migration et féminisation au Liban, CARIM-AS (notes d'analyse et de synthèse) 2010/70.

Kiwan, Fadia, Itani, Hala.S (2011), La migration au Liban sous l'angle du genre, CARIM-AS (notes d'analyse et de synthèse) 2011/21.

Lassaily-Jacob Véronique, 1999, Migrants malgré eux: une proposition de typologie in «Déplacés et réfugiés: la mobilité sous contrainte», IRD, Paris, 1999, p 27- 48.

Mansour, Carol (2013), Not Who we are, a documentary film produced in collaboration with the Heinrich Boell Foundation, Beirut- Lebanon.

Migrations forcées (2014), La crise syrienne, déplacement et protection, Refugee Studies Centre, Oxford Department of International Development, University of Oxford - See more at: http N° 47, septembre 2014. http://www.fmreview.org/fr/a-propos-de-nous.

Oxfam/Beirut Research and Information Center, November 2013, Survey on the livelihoods of Syrian refugees in Lebanon.

Reference series (2018), Economic impact of the Syrian crisis on Lebanon, INFOPRO.

Richard, Anne (2014), The Syrian refugee crisis, Anne Richard's, Assistant Secretary, Bureau of Population, Refugees, and Migration, US Department of State, testimony to the Senate Committee on the Judiciary, Subcommittee on the Constitution, Civil Rights and Human Rights on the Syrian Refugee Crisis', January 7, 2014.

Simon, Gildas (2015), Dictionnaire des Migrations Internationales, Armand Colin, Paris.

Thibos, Cameron (2014), One million Syrians in Lebanon: a milestone quickly passed Series/Report no.: Migration Policy Centre; Policy Briefs; 2014/03 URI:

http://hdl.handle.net/1814/31696

UNHCR, Rapport global 2014 - Liban

UNHCR, Rapport exercice 2013, Genève, 3 septembre 2014, 14 p.

UNHCR et PNUD, Impact of humanitarian aid on the Lebanese economy, 2015.

UNHCR, 2015, Data registration statistics.

UNHCR, (2017), Global trends, Forced Displacement in 2016

Vliet, Sam van, Hourani Guita (2012), "**Refugees of the Arab Spring": The Syrian Refugees in Lebanon**, Research Paper Series No. 1/2012, Carthage Center for Research and Information (CCRI) of the Lebanese Development Network (LDN) and the Lebanese Emigration Research Center (LERC) of Notre Dame University (NDU), published by the Center for Migration and Refugee Studies (CMRS) of the American University of Cairo (AUC),[ISSN 2221-3333]. [Link]

World Bank, September 20, 2013, Economic and Social Impact assessment of the Syrian Conflict.

World Bank, February 2013, Good Jobs Needed: The Role of Macro, Investment, Education, Labor and Social Protection Policies (MILES).

Zein, Fares el (ed.), August 2012, Rapid Assessment of the Impact of Syrian Crisis on Socio-Economic Situation in North and Bekaa, Development Management International.

Zlotinik, Hania (2003) The global dimensions of female migration, *Migration Information Source*, [http://www.migrationinformation.org/Feature/display.cfm? ID = 109].

Arabic:

غالب فاعور، ايريك فرداي، معين حمزة، أطلس لبنان تحديات جديدة، المجلس الوطني للبحوث العلمية والمعهد الفرنسي للشرق الأدنى. ١١٢ صفحة. بيروت، ٢٠١٦.

التقرير الانمائي، دعم المؤسسات الرسمية اللبنانية ضمن خطة العام ٢٠١٥ لاستجابة لبنان للأزمة السورية، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق،العدد الخامس عشر، الطبعة الاولى.

Webographie:

http://www.usj.edu.lb/

www.ilo.org

www.iom.org

http://www.unhcr.org/ar/4be7cc27201.html

http://www.unesco.org/new/en/social-and-human-sciences/themes/youth/

http://www.unfpa.org.lb/

https://www.usj.edu.lb/

http://www.worldbank.org/

Syrian Displaced and Justice Concerns in Lebanon

Prepared by Blanche Abi Assaf
PhD student in socio pedagogy

1. EXECUTIVE SUMMARY

The Syrian displaced population in Lebanon has grown to over 1.1 million by recent estimates. After the most serious violent spillover of the Syrian conflict onto Lebanese soil took place, new residency requirements were put in place by the Lebanese government in order to curb the influx of those seeking humanitarian relief from the Syrian war. Today, what is the situation of the Syrian displaced population in Lebanon? Do they face difficulties accessing justice? This research report is conducted as part of an ongoing effort to identify the justice needs of the Syrian displaced population and the instruments they are using, if any, to access it. This report is meant to feed into the research, to specify the best way to ease the plight of Syrian displaced refugees, and to provide improved mechanisms in conflict resolution and justice provision.

But the primary objective of the report is to provide an improved understanding of the justice needs of the Syrian displaced population in Lebanon; including the threats they face as well as the formal and informal methods they are using to access justice.

Methodology

Phase 1: Focus group that targets the strategy discussed and agreed upon

Phase 2: Focus group that guide development

Phase 3: Five focus groups that are conducted with the aim of understanding the following:

- What are the challenges faced by Syrians living in Lebanon when it comes to the legal system?
- How do Syrians living in Lebanon solve these issues?
- Who do Syrian displaced refugees trust as effective arbitrators?

Phase 4: Findings Report

Key Themes

- The new visa requirements implemented by the Lebanese government are viewed as confusing and costly, which puts the Syrian refugees outside the legal system and makes them afraid of deportation or arrest.

- Police are not notified when offense occurs out of fear of retribution.
- High level of concern of being deported (or leaving willingly) and not being able to return to Lebanon.
- General belief that the Lebanese justice system is slanted in favor of Lebanese citizens against the Syrian displaced refugees.
- Displaced refugees are encountering verbal harassment during everyday activities.
- The aid being provided is not enough and aid organizations are too slow and ineffective.
- High rental and visa renewal costs causing increased hardships.
- Political Parties in the South and Hermel are engaged when help is needed.
- Influential interlocutors are needed in order to secure one's rights.

2. INTRODUCTION

Syrian displaced refugees in Lebanon have little access to the Lebanese justice system and their interactions with the law are often bureaucratic, ad hoc, and contentious. Against this backdrop, many of these vulnerable groups seek action within informal justice systems in place in the country. This report will summarize their opinions and rely heavily on their accounts and verbatim quotes. The report will also identify the formal and informal justice systems and their perceived effectiveness.

In order to gain a wider perspective on the contents of this report, it is important first of all to describe recent developments in Lebanon related to the Syrian war. Today, 1.1 million Syrian displaced refugees currently reside across Lebanon and their host communities along with the Lebanese government are struggling to offer appropriate protection. Estimates put the number of unregistered displaced refugees at 700,000; many of them travelling back and forth between Lebanon and Syria. Since Lebanon's independence in 1943, Syrians have been able to travel across the border freely. On January 5, 2015, the Lebanese government put in place new visa requirements for Syrians in an effort to curb the number of displaced refugees crossing the border daily. Visas are purchased and renewed at a relatively high cost and Syrians can apply for tourism, business, medical treatment, and work permits. The Lebanese government has also become increasingly vocal about its inability to cope with the displaced influx. The Lebanese Ministry of Interior and Municipalities publically stated that Lebanon's new visa requirements "will only allow displaced under very limited and exceptional cases."(1) This announcement spread rumours among the Syrian displaced community as many of them felt afraid that they might be deported for not renewing visas while many others simply got confused or nervous about the new procedures.

(1) *Syrian's worried over Lebanon's new visa rules*, Nour Samaha, January 5th, 2015, http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2015/01/syrians-worried-over-lebanon-new-visa-rules-2015-1525310687936.html.

Increasing security threats in border regions, occasional clashes with armed groups, and increasing pressure on the Lebanese state due to the influx of displaced seeking humanitarian aid are factors which have left the Lebanese government mostly unable to cope with the demands presented by this complex situation. Many Syrian displaced refugees in Lebanon are focussed on survival. Those of them who took part in this research showed a keen awareness of the political and social complexity that the Lebanese environment presents. To arbitrate their conflicts and to seek justice, they are linking with and seeking support from the available institutions and individuals depending on the region or nature of the threat they face. Details on the nature of these threats and the interlocutors engaged to resolve them with be provided throughout the report. The report first describes the arrival, residency, and employment status of the participants in the five focus groups used to gather data. Particular attention was also given to the nature of the threats faced by Syrians, including legal, economic, and physical threats. A series of recommendations based on the findings are also presented.

3 - METHODOLOGY

This research is conducted in relation to the legal challenges faced by the Syrians residing in Lebanon. This qualitative research examines the threats and challenges that are faced by the Syrian displaced refugees and the mechanisms they use to seek justice and/or to resolve their problems.

The research includes five focus groups conducted with the Syrian displaced refugees ranging between 90 and 120 minutes implemented between March 20 and April 12, 2017. A discussion guide was developed and it included: (1) featured lines of inquiry concerning Syrian displaced arrival, residency, and legal status in Lebanon; (2) the nature of threats and conflicts faced and the resolutions to those threats; (3) and formal and informal mechanisms used and trusted. The focus group recruitment was conducted by recruitment specialists and discussions were professionally moderated.

3.1 Primary Research Objective

This focus group report aims to provide an improved understanding of the justice needs of the Syrian displaced population in Lebanon and the formal and informal methods they are using, if any, to access it; including interactions with formal and informal institutions and stakeholders.

3.2 Secondary Research Objectives

- To probe and uncover the legal, social, and physical threats faced by the Syrian displaced population in Lebanon.
- To probe and uncover the formal and informal mechanisms used and/or trusted by the Syrian displaced population to seek and achieve justice.

3.3 Choice of Target Locations

Focus group target locations were chosen based on proximity to the border as well as available data on displaced clusters in Lebanon. The locations cover three major regions

where the displaced refugees have settled in informal residences and camps as well as rented apartments.

3.4 Focus Groups

	Locations	No. of Participants	Gender	Age Range
1	West Bekaa (Mixed)	13	Mixed / With a majority of male participants	18+
2	Hermel (Mixed)	9	Mixed /With a majority of male participants	18+
3	Akkar (Females)	14	Women participants only	18+
4	Akkar (Males)	13	Male participants only	18+
5	South (Mixed)	14	Mixed /With a majority of male participants	18+

4. FINDINGS

4.1 Arrival, Residency and Employment in Lebanon

The majority of focus group participants travelled to Lebanon between 2011 and 2014, with the exception of several men who had been working in the country and then brought their families to join them after the beginning of hostilities. Several recounts of journeys across the border indicate that a significant number of individuals and families later joined a member of the family, usually a male who had crossed first, except for the case of a young woman who entered Lebanon to prepare for the eventual arrival of her relatives. A significant percentage of the participants also reported having long-standing friendships or familial ties in Lebanon; which also eased their entry into the country as displaced.

Half of the participants in the focus groups reported living in rented apartments, many of which are shared with extended relatives or other Syrian families. A considerable majority described their residency as being ‘‘temporary’’ including camps, tents, and garages. All participants in the focus groups are currently registered with the UNHCR as displaced.

	Location	Rented Apartment	Temporary Residence (camp, tent, garage)
1	West Bekaa (Mixed)	55%	45%
2	Akkar (Females)	55%	45%
3	Hermel (Mixed)	55%	45%
4	Akkar (Males)	55%	45%
5	South (Mixed)	65%	35%

When asked whether their entry into Lebanon was legal, participants gave mixed responses with many claiming entry through official border crossings while others crossed the border illegally. Similarly, some reported having short journeys while others had difficult and long journeys as they waited for too long at military checkpoints on the Syrian side of the border. Several men reported being held and questioned by Lebanese authorities for

two to three days. The most difficult journeys were reported by male focus group members in Akkar who had entered illegally. Some travelled on foot and this took about one week. Many of the legal entrants across focus groups also reported paying bribes at Syrian checkpoints and to border authorities in order to gain entry into Lebanon. Some confusion over entry procedures was evident with participants describing continuous rumors of border crossing closures and an ad hoc entry system where everything from personal connections to simple ones seemed to influence the success of entry.

The majority of the West Bekaa participants reported legal entry into the country, with two men explaining that they had to pay a bribe to an official at the Syrian border and another explaining that although he entered legally, his family later crossed the border through Arsal illegally. One female participant reported that her daughter entered using a forged passport before her family followed legally. With the exception of the male focus group in Akkar, the participants in the three other focus group locations mirrored the West Bekaa findings, with most reporting legal entry.

In terms of employment, the groups varied widely. Most of the participants with jobs were employed on a day to day basis, with very few fixed jobs. Several had jobs with aid organizations or as teachers as well. In Hermel and the South, several men indicated that they had been working in Lebanon before the conflict started in Syria. Later on, they brought their families across the border as displaced in order to escape the violence.

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	- "I bribed someone at the Syrian border to get into Lebanon". - "I came to Lebanon legally and my family followed illegally through Arsal." - "We entered legally but we paid at the checkpoints in Syria." - "My daughter was smuggled in with a fake passport and then we followed legally." - "My trip took three days because I am from Qalamoun and the Lebanese border officials were investigating me." - "When I entered, the treatment from the Lebanese side was really bad. I waited for two days and there was a lot of pressure at the border." - "We stayed for a full day at the border on the Syrian side. In Lebanon, it was faster." - "There were rumors that they weren't letting anyone through the border, but I went through easily when I followed my daughter." - "My cousin was in Lebanon and she helped us to find a place to stay. We are four families in one house." - "My wife's family lives in Lebanon, so we came and stayed with them." - "We came to Taanayel because there was a friend of my father who is already here and he helped us." - "I've known people from my village who live here in Bar Elias, then I moved to Anjar for work and that is why I came."

3	Hermel (Mixed)	- "My family has long standing ties here in the region. If someone bothers us, we have a lot of support and people to help us."
4	Akkar (Male)	- "I entered legally with my family, and the trip took me 2 hours." - "It is impossible to get someone across the border now in a legal way. My wife went to Syria due to a medical reason and I couldn't get her back, so I had to smuggle her here. I even went with my sponsor saying that I don't work. They linked my wife's re - entry with my visa renewal. At the end, I gave up, my wife was pregnant and I needed to get her here, so I had to smuggle her through Wadi Khaled." - "I entered legally, but then my family followed me and entered Lebanon illegally. Once in Lebanon, we fixed their documents and made their stay legal." - "We left from the Qusair area, and the areas we had to pass were loyal to the regime. Someone from here met us with ID numbers of other people to bring us inside the Lebanese borders." - "Many guys were prisoners in Syria so they can't enter legally anyway because they will get arrested again in Syria - so they leave Syria illegally and enter to Lebanon." - "Six years ago, the Syrian regime did not allow families to leave altogether, so men would come and then families would follow illegally." - "My family has long standing ties here in the region. If someone bothers us, we have a lot of support and people to help us."
5	South (mixed)	- "We entered Lebanon in a legal way, but in a couple of days the visas of all the family members will expire." - "We came in groups depending on the situation. My brothers came first, and then they were followed by my brother in law. Later on, my mom followed them. I came last since I stayed in Syria until my university closed." - "It took me two days to get here, I had an issue at the Syrian border; something common in Syria they call similar names - I had no issues at the Lebanese Border." - "There was a lot of traffic at the Lebanese border; the Lebanese General Security look at you; if they like you, they let you in; if they don't, they ask you to leave; you can't say a word." - "If you look like a family man, they let you in, if you look like a worker, they send you back." (speaking about the Lebanese border officials).

4.2 Current Legal Status

- *Theme: The new visa requirements implemented by the Lebanese government are viewed as confusing.*
- *Theme: Displaced refugees are unable to renew their visas due to the new requirements, which puts them outside of the legal system and in fear of deportation or arrest.*

It was evident across focus groups that the majority of the participants are having mod-

erate to severe problems with their legal residency status in Lebanon. A wide range of difficulties was reported, starting from applying for visas, the inability to acquire necessary Syrian documents, mobility barriers, and fear of arrest or deportation, to the relatively immense economic burden of the process itself.

Problems with mobility were also prevalent across all groups and were largely due to fear of being detained for having an expired visa or invalid Syrian identification documents. First hand stories and accounts from friends and relatives about instances of detention or travel restrictions are additional reasons why the Syrian displaced refugees distrust the visa system. A female participant from the Akkar group explained: "[Even] if I want to get my papers in order, we can't travel to different places in the country because we can get stopped at checkpoints, so we can't renew our papers!" This sentiment was repeated by several participants including a male from the Hermel group: ''When my visa is expired, I wouldn't dare to travel to renew it. My Syrian ID wasn't accepted, so I have to go to the border to fix it, and I wouldn't dare to do so. The General Security rejected my application because my Syrian ID is damaged and my Lebanese visa is expired."

Yet another major obstacle for the Syrian displaced refugees in Lebanon includes the financial burden placed on them by the visa renewal requirements. Across five focus groups, there was strong evidence that the high cost of the renewal system, especially for families, proves unrealistic and a major discouraging factor for visa renewal. One male participant in the Akkar group voiced the frustration of his peers.

A male displaced describes his situation: ''We are 7 people in the family-it will cost me 1400$ to renew their papers; I couldn't do so, thus I only renewed my own so I can travel.'' In addition to the current economic hardship faced by the Syrian displaced population in Lebanon, the financial burden-especially on families-brought by the visa and residency permit requirements adds yet more frustration and angst to their situation. It also puts individuals face to face with a legal system that they perceive to be slanted against them.

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	-"After 6 months, you have to renew your visa at GS, but GS is not renewing the visas." - "Again recently, I made a rent contract with the landowner, I prepared all my papers, from the mukhtar and the municipality and I took them to Zahle GS, and I got a Lebanese sponsor. But they told me I need a bank statement."
2	Akkar (Females)	- "I thought about going to Bahrain to get my passport renewed at the Syrian embassy, but General Security said if I leave, I won't be able to come back into Lebanon." - "People who are trying to renew their visas are too afraid to go to GS, because it's taking too long to renew and they hold your ID".

3	Hermel (Mixed)	- "I also have to go back to Syria to fix my papers and ID in order to apply to a new visa. I'm afraid of both sides, I might go to Syria and not get my papers fixed and they may not allow me to get back into Lebanon." - "The Syrians in Hermel are mostly illegal entrants, it's rare to find someone to sponsor you here in Hermel-even if you work for him. They have their own trouble with the state and they don't want to sponsor us."
5	South (Mixed)	- "Five family members have expired documents. I renewed mine yesterday and paid 200 USD as renewal fees." - ''We know nothing about our papers' renewal because every three days, they come up with new decisions." - ''My experience in renewing the papers has been very hard and annoying-my papers are currently at the general security. My papers expired two months ago and they kept telling me to wait because some amendments to the law might be introduced until 15 days ago. I will visit them soon to see what happened. I submitted my papers with my sponsors, they request around 17 documents and each document should be photocopied three times-it's like a book. I am renewing because I need to bring my wife from Syria.'' - ''My two kids want to come here once they finish university and I am worried because I don't know what kind of papers GS will request from us.'' - ''I went for more than 20 times to renew my papers during 4-5 months; they started requesting all these documents.. The cost to prepare these papers is around 160$ plus 200$ per person. Ironically, you have to sign a pledge that you don't work. Where am I supposed to get the money then?'' - ''It's been an illegal resident for 4 months-the reason why I am illegal is my passport. My passport has expired and I used it to enter Lebanon because my ID card mentions that I am from Raqqa province and I can't use it to come to Lebanon. General Security refused to renew my papers; the Syrian embassy refused to renew it (Syrian authorities extended the expiry dates for 2 years just a week ago). They told me at the Syrian embassy that papers will not be renewed to anyone who comes from Raqqa even if you go back to Syria.'' - ''Many Lebanese took advantage and turned the issue of papers into a business-A Lebanese guy told me that he would sponsor as many Syrians as I want for 200$, he also offered me a deal-for every 10 people I get paid for, I will offer you one''.

4.3 Nature of Identified Threats

4.3.1 Physical Assault

- *Theme: There is continuous fear of raids on temporary residences and camps.*
- *Theme:Police are not notified when offense has occurred out of fear of retribution.*

Accounts of physical assaults on people and property were alarmingly common among the focus group participants. Participants in the West Bekaa, Hermel, and Akkar recounted incidents of assault perpetrated by both Lebanese civilians and official security institutions.

Participants from the Akkar group described the difficult situation of raids on their homes and property. One male from Akkar explained that ''[in] addition to getting locked at home, they raid your place every day. Kherbet Daoud for example they raid it every day. It's like they are putting pressure on us-they want to make the Syrian people behave because they have a perception that the Syrian displaced in Lebanon are a time bomb.'' Two days ago, they raided a settlement in Minia and arrested 40 guys who were severely beaten and accused of not having the right documents-my brother is still arrested.'' A female participant in the Akkar group explained that private residences are also being attacked. She recounted an incident that involved a Syrian family close to where she lives: ''I know of one Syrian family whose home was attacked because they are Syrian. They broke their property and threatened the women. We need to end these violent acts. When I called UHCR, they told us not to go outside for our safety."

Beatings and kidnappings were relevant and recurring themes in the West Bekaa and Hermel group as well. One woman from the West Bekaa group explained that:

''[at] the last checkpoint near Arsal, the military asked for our identification. It seemed like something was going on. My ID is from Yabroud so they asked me to get out of the car and they held me for 30 minutes, they started accusing me of being an extremist and fighting in Syria. They beat me for another 30 minutes before they let me go".

Other participants also reported being held by Lebanese authorities for short periods and out of the five focus groups, two cases of kidnapping were also recounted. A male in the Hermel group describes a situation involving his cousin who was ''kidnapped in Al Ain''. According to the participant, the kidnappers assaulted his cousin and were later arrested by the ISF, but his cousin was too ''afraid of retribution'' so he didn't file charges.

Two people from the group in the South described a situation where a young boy was poisoned and an autopsy wasn't held for days after his death. There was suspicion among the community that the boy's death was related to personal family issues, but nothing was done to investigate: ''a kid was poisoned and later died after eating a contaminated cucumber. The medical examiner did not perform an autopsy until after the child was buried when his father demanded one."

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	- "There's a camp in Taanayel, near to here, and at about 5am in the morning about 30 police cars came to the camp and took away all the men to check their papers and investigate."
2	Akkar (Male)	- "A fight broke out between Syrians and Lebanese without a clear reason. The fight got bigger and several people (Lebanese and Syrians were injured)-Police came and arrested several Syrians and they didn't even dare taking their injured people to the hospital. We fixed it using an informal manner by mitigating the conflict via the elderly people of the two camps."
3	Hermel (Mixed)	- "Young single men are the ones who are attacked the most." (Male)-"Since the problems in Arsal, the assaults and attacks have increased." - "Lots of Syrians are afraid to go out at night so they don't get attacked, there's a lot of anger, we try to avoid this." - "A while back, some Syrians were kidnapped in al Ain, we don't know who they are, they are kidnapped and tortured a little and then let go."
5	South (Mixed)	- A child died from poisoned food-we arrived at the hospital and we saw the dad sitting with the doctor as he was telling him that his son died. We asked the Dr. to give him a death certificate stating the death reason-the father told him I don't need anything from you-we found a place for him to be buried-So we didn't ask for an autopsy right away.

4.3.2 Legality

- *Theme: There is a general belief that the Lebanese justice system is slanted in favor of Lebanese citizens or in favor of those willing to take part in corruption.*

Legal threats were prioritized as pressing among several participants across focus groups. In many cases, these threats stem from difficult, conditional, and costly residency and work permit renewal procedures-some of which are evident in the above section on the participants' current legal status in Lebanon. Discussions around perceived discrimination and the unfair nature of the Lebanese justice system were also abundant across focus groups.

With the exception of the female Akkar group, several individuals from each of the other four groups believed that visa renewals and residency permits are a major threat faced by the Syrian displaced population.

Gaining agreement from several others in the group, a female living in Akkar believes the residency problem "is mostly with the men, if they can't renew their papers, they can't work, the women mostly stay home, but it's the men that are the big problem."

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	-‘‘The law in Lebanon is like the law in Syria, it’s is with the strong, you need people to implement laws; otherwise, it’s not a law." (Male)
2	Akkar (Males)	-"We all have papers but the General Security is not renewing anyone’s documents, so all of us have expired documents/papers". - ‘‘The Lebanese government knows that Syrians cannot afford to pay money-they are playing this game for a country to come and sponsor this. Qatar did it before.’’ - ‘‘You have 200 people standing in the queue and they only process 5 per day and they even make fun of us.’’
3	Hermel (Mixed)	- ‘‘There’s an old agreement between Lebanon and Syria that allows people to come and go through the borders. What happened to that? The Lebanese can come into Syria without any problem, but we have problems coming to Lebanon."
4	Akkar (Females)	-"It’s like we are in jail, we can’t move, we can’t register our kids in school, the kids aren’t recognized, we can’t go to the Syrian embassy to have our papers done, we sit at home and we are always scared."
5	South (Mixed)	-‘‘Food and water is something we can afford but to be stuck at the border, especially for elderly, people this is bad.’’

4.3.3 Intimidation and Discrimination

- *Theme: There is continuous fear of raids on temporary residences and camps, resulting in arrest and/or deportation.*
- *Theme: Displaced refugees are encountering verbal harassment during day activities.*

Focus group participants identified a range of threats concerning intimidation and discrimination attributed to official state institutions and Lebanese citizens generally. A male in the West Bekaa group recounted a situation in another camp he was working in. ‘‘The military came and took all the young men who had expired visas and they also destroyed camps and warehouse tents, they don’t want the camp so close to the Syrian border so they ordered us to leave. This was based on a decision by the Ministry of Defense to have all camps at least 6km far from the Syrian border.’’

Accounts of verbal harassment by participants in the West Bekaa and Hermal group demonstrate a lack of social cohesion and xenophobia. A male in the West Bekaa group explains that not even the children are spared from harassment, "[there’s] a school in Majdal Anjar for Syrians so we enrolled our kids; the residents up there harass them and especially the girls when they go to school, and no one can complain. The law is always with the Lebanese person, if you’re Syrian, you can’t complain."

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	- "Our camp was attacked with firearms, and they burned our tents. They would come into the camp and threaten us, I don't know who they are, they are young people. The Lebanese are negotiating using us. This happened 3-4 times."
2	Akkar (Males)	- "There is only one thing that's different between here and Syria: we don't hear the explosions and the bombs. As for being arrested, it is the same thing and it might be even worse in Lebanon. Before the Arsal issue, Lebanese prisons had around 14,000 Syrian prisoners. After this issue, the number may have doubled. You also find women in prison. We even have lists of names. What hurts us most is that we started hearing that the Lebanese government gets paid $60 per day per prisoner from UNHCR."
3	Hermel (Mixed)	- "When we go to renew our papers at the General Security, we always hear maledictions from the GS members. They accuse us of being dirty, etc."
4	Akkar (Females)	- "The Lebanese look at us like we are inferior because we are Syrians. Where is our protection?"
5	South (Mixed)	- "Here, it's a little different than other regions-everyone knows everyone and we have a good relation with people-there's mutual respect among us."- "If the problem is big, the army intelligence would interfere to solve the issue in a humanitarian way (if the problem wasn't big) but if the problem is big, they would arrest everyone. We, as Syrians are categories or groups, intelligence would take us all and then we would say who's guilty. As a result, innocent people are let away. If we don't solve the problem among us at the army offices, then it is transferred to the court and we have to pay 250,000 LBP."-"In general, Syrians and Lebanese live in harmony in this region."

4.3.4 Aid and Economic Hardship

- *Theme: The aid provided is not enough and aid organizations are too slow and ineffective.*
- *Theme: The high rental and visa renewal costs cause increased hardships.*

The overriding sentiment towards aid amongst the focus group participants can be summarized with 'it's not enough'. There are difficulties to access aid, to get response from and to communicate with UNHCR and other aid organizations. But some other aid organizations were also cited as being active in the areas of the focus groups including the Red Cross and the Lebanese NGO Amel.

A male in the West Bekaa group expressed his frustration at what he perceived to be an unclear aid provision system: "[the] standards for receiving aid are not clear. For example, families with older people should be getting aid, but it's not the case." A peer in the group echoed these remarks and explained: "I registered with UNHCR since four months and we are working but hardly making any money. Our rent is 350 USD and my wife and I make 500 USD per month. UNHCR has not responded to us yet." And the economic challenges

faced by displaced refugees are exasperated by costs associated with worker sponsorship and residency and visa procedures. A male participant living in West Bekaa explained that the price to renew visas is unrealistic, especially for large families, ‘‘[how] can we pay 200USD to renew our visas? That’s why people aren’t renewing. If you have a family of 4 persons, you have to pay 800USD every 6 months! Who can afford that?"

Those living in rented apartments also protested the high rental costs. A male from the Akkar group provided insight into how some families are making ends meet. ‘‘[Many] of the Syrian displaced had to sell their jewelry to cover their rent expenses, others are moving every month from one place to another because they can’t cover the rent expenses and therefore get kicked out of their apartments.’’

A female in Akkar group who is a volunteer with UNHCR summarizes her view of and dwindling hope that international and other aid organizations can help the displaced in their situation: "[We] are talking about people’s lives being destroyed, about families being torn apart. All of you organizations that want to help get to a point where you can’t do anything and you just stop, that is what is going to happen with you too."

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	-"Most of the aid comes from UNHCR in winter when there is rain, and we have two types of help; we get goods and money, but the aid of money went down from 30USD per person per month to 19 USD and it’s hardly enough. "Now, we just focus on buying the basics like milk for my son." - "The aid is being distributed unfairly, some people are getting two or three aid cards and some are getting none. I spoke up in order to save the children and they told me that there’s a mistake." (Male) - "There are no job opportunities, my relative works in a coal factory and gets 8 dollars per day, we get broke by the end of each month, we may have to leave our apartments and live in a camp".
2	Akkar (Males)	- "Some NGOs donate "Food Boxes" from time to time but these donations are occasional and very minimal.’’ - ‘‘This pressure on the Syrians will turn into a bomb-next month I might not be able to pay, my wife will ask for divorce and I won’t have an option but to leave to Syria and join whatever group in Syria to survive." - "My son has cancer, and he needs 600 USD for a monthly injection, I have been talking to all the local and international organizations, no one covers cancer."
3	Hermel (Mixed)	- "I have 5 kids, and I’m making about 100USD per month and my baby daughter needs milk and food..." - "It’s hard to pay rent, and other expenses, and the help is not enough." - "If you want to eat only bread, the financial assistance is still not enough."

4	Akkar (Females)	-"The Palestinian displaced population gets 40-50 dollars a month per person from UNRWA whereas the Syrian refugee gets only 19 dollars." - "UNHCR isn't helping us with medicines either." - "For our family, we get only 100 dollars a month. If I want to cook a proper meal for my family, I have to pay about 30 dollars." - ''I feel guilty, I'm a volunteer with UNHCR, I called them for help at 2am, and they did not answer me." - ''Four months ago, a young woman died here in this building. We couldn't get her help. We couldn't get a hospital to cover her because there was no approval from Beirut since the UNHCR staff was on holiday."
5	South (Mixed)	-''My daughter is 13 years old, and instead of being in school, she is working in order to help me get money to the family."-''UNHCR cards are being sold and traded for 250$.''-''The chawich (or the person responsible of the camp) lends you money until you can't pay back anymore so he could take your Aid card in return.''

4.4 Formal and Informal Mechanisms of Justice: Who Do Syrian Displaced Refugees Trust?

- *Theme: The refugees do nothing when victimized out of fear of retribution or legal trouble.*
- *Theme: Official channels often fail of to provide resolution or effective arbitration.*
- *Theme: Influential interlocutors are needed in order to secure one's rights.*

Amid the above-described major difficulties and threats faced by the Syrian displaced community, who do they trust? A general theme of distrust of state institutions and a feeling of subjugation were prevalent across the five focus group areas.

Participants were asked about their interactions and trust towards aid institutions, the Lebanese state and its security bodies, and the personal relationships with key individuals. It is significant to note that almost none of the problems and conflicts that required arbitration was seen as fully and fairly resolved by the participants.

However, not everyone feels comfortable or connected enough to rely on the party for support. Doing nothing was also a recurrent theme: ''A Lebanese guy didn't pay me $600 for a job I did for him. I visited him and he threatened me. I called him after a month and he threatened me again and said that he would cause my removal from the region. I didn't dare resorting to anyone including parties after that.''

The choice to stay silent when treated unjustly, mostly due to fear over residency status or retribution, was also repeated by several participants. A participant in the male Akkar group dramatically explained that ''[if] you create a problem, they will deport you from the area-you and your family-If I get punched in the face, I don't dare go to the police even if I have the full right. My papers are expired.'' His counterpart responded that ''the only current solution is to stay silent and try to stay away from trouble as much as possible.'' The

sentiment was repeated in West Bekaa as well, ''[If] something happens to me, I don't go anywhere, I don't trust anyone."

The South group participants provided two accounts where Syrians are being taken advantage of financially in business. In such cases, they either do nothing or seek justice through informal means due to their legal status in the country. A male participant explains his situation, ''I sold 10 tanks of olive oil to a Lebanese who didn't pay and I didn't go to the police because I didn't dare-my papers are expired. I went to talk to him three times and eventually, he told me to go to the police.'' Another male described a different situation where legal arbitration was seen as less effective than asking a political party for help, ''[if] you go to the police to file a complaint, the matter will end up in a courtroom, it takes a lot of time and money-my brother wasn't paid 4000$ for a job he did, he asked for support from a political party.''

Despite these accounts, there were some participants who insisted that Lebanese state institutions were the correct path towards justice. Two men in the Akkar group explained that they would resort to the Lebanese army if they were threatened or abused. In the South, participants were more vocal towards their support for state institutions. One male participant explained that he would resort to the Internal Security Forces despite his residency status: [here], even if i don't have a card, I would go to the police. They might not renew your papers, but if you have a problem and you go to file a complaint, they would definitely listen to you even if your card if broken or expired''. His peer quickly chimed in agreement. ''In the environment we are living, we trust that the Lebanese authorities will protect us.''

Much discussion about the role of UNHCR in securing the needs-was across the five focus groups as they believed UNHCR is failing to respond adequately to the challenges outlined during discussion. This feeling resonated across focus groups. In the West Bekaa, a male participant explains resignedly, ''[if] I had a problem, I would go to UNHCR, but I know they will do nothing.'' In the South, one experience was shared by a male member as a success story:

''Syrians also have a Syrian Committee that has been active for the past three years and is playing the role of an intermediary between the Syrians and the Lebanese Government and UNHCR. This committee consists of Lebanese and Syrian members and is sponsored by an NGO. For example, if a fight occurs between two Syrians, the committee interferes and tries to reconcile between them. The creation of this committee has been announced to the Lebanese Government. The first task done by the committee was helping UNHCR with the distribution of goods to the Syrians in the camps. The committee also helped any Syrian Displaced in anything they need such as medical care, registering the kids in school, etc."

The committee is composed of Lebanese and Syrians with the knowledge of the Lebanese government and it coordinates among UNHCR, the government, and displaced com-

munities. Its major role was described as ‘‘welcoming displaced arriving to the south to help them settle.’’ Moreover, the committees played a role in restricting prostitution by reporting the case to the Internal Security Forces.’’

In Hermel especially, there was wide agreement that Syrians under the sponsorship of area residents are somehow more protected. As one male participant put it, "If you work for one of the big families in Hermel, you are protected and no one will mess with you. This is helping us to sleep at night."

	Locations	Additional Verbatim Quotes
1	West Bekaa (Mixed)	- "UNHCR is supposed to help you find legal support, so I would go to them." - ‘‘UNHCR can’t provide protection. It needs to coordinate with the Ministry of Interior and Municipalities on resolving the conflicts and complaints of the Syrian displaced refugees." - "Depending on the problem, I would find out who could help me more, but again it depends on the nature of the problem." - "When I have a problem, I prefer to go to someone who is influential in the community."
2	Akkar (Males)	- "We trust no one! No political party, no Lebanese authorities, etc. No one." - ‘‘If they get threatened or assaulted by any Lebanese person, the Syrian displaced refugees don’t dare to go to any party especially that their papers have currently expired.’’ - ‘‘I can’t go to the police and file a complaint-the Lebanese citizen is connected and he has connections, so he will get out of this and I will pay the price.’’
3	Hermel (Mixed)	-"You need to know people here, I had legal problems with my ex-husband, my father has relationships with the ISF and he was able to resolve the issue."
4	Akkar (Females)	-‘‘We don’t feel safe, my husband went to renew his visa and they arrested him."
5	South (Mixed)	-"We trust the Lebanese Authorities." - ‘‘If it is a small amount of money, I would come to a Syrian organization and it would mediate between us. If it is something bigger than this, I would go to the police.’’ - "There was once a fight between a Lebanese and a Syrian at the displaced camp. The Lebanese man contacted the Lebanese Army while the Syrian displaced contacted the Committee mediator since he could be trusted by the Lebanese and he is a big support to any Syrian displaced who needs help. Together, the mediator and the Lebanese Army’s, solved the dispute in a friendly manner and the money was paid.

5. RECCOMENDATIONS AND CONCLUSION

The following recommendations are based solely on the findings in this report and on the opinion of the analyst. The focus group participants have described what they perceive as a difficult and hostile environment to live in. First and foremost, a serious effort towards damage control is needed to help ease the immediate tensions between the Syrian displaced refugees and their host communities on the one hand and to begin to build trust between the most vulnerable groups and the institutions that are meant to serve them, including the Lebanese government on the other hand.

It was also evident from the discussions that despite great efforts by UNHCR to ease the pain of the displaced community, the participants largely felt that the agency was ineffective at arbitrating conflicts, with the expectation of the committee in the South, which is worthy of further research as a possible model to emulate in other areas of the country.

In terms of residency and legal issues, the Lebanese government, along with aid organizations, would serve the displaced community through a comprehensive communication strategy that outlines visa and residency procedures in a clear and concise way that is accessible to the displaced. Active investigation of ways that ease the cost of the visa renewal process would also be of benefit.

Communication processes between aid organizations and the communities need improving. Clear expectations need to be transferred to the community about the role, mandate, and capacity of those who receive aid in order to stem the tide of cynicism amongst those attempting to engage with these organizations-with particular attention given to UNHCR.

While the above points require multi-level programming and a long-term approach, direct interventions in some of the key areas could quickly improve the lives and ease some of the identified threats. Easing the financial burden of the visa renewal process, especially on families, is critical. Legal residency status is important for receiving services such as education for children and for freedom of mobility.

Action is needed; otherwise, the continued slide into a legal gray zone and increased financial burden with little recourse for justice or legal action leaves a growing and vulnerable population with little recourse. A wide look at the information gained from the five focus groups shows a displaced community that is in a day to day survival mode in an unpredictable environment that is quickly changing around them. The five focus groups highlighted a number of different major and pressing legal, economic, and physical threats all of which were seen as priorities by large percentages of each group. Disillusionment with aid organizations, widespread harassment, a heavy economic burden, and a general feeling of helplessness were also recurring themes. When examined together and given the context, it would seem that these are huge challenges for all stakeholders to surmount.

Reference

(1)Syrian's worried over Lebanon's new visa rules, Nour Samaha, January 5th, 2015, http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2015/01/syrians-worried-over-lebanon-new-visa-rules-2-0151525310687936.html

"Annual Data and Forecast." *Economic Intelligence Unit*, 2014. http://country.eiu.com/article.aspx?articleid=192502603&Country=Lebanon&topic=Economy&subtopic=Charts and tables&subsubtopic=Annual data and forecast.

"Christian Groups Begin to Support New Electoral Law." *Economic Intelligence Unit*, 2013. http://country.eiu.com/article.aspx?articleid=690197053&Country=Lebanon&topic=Politics&subtopic=Forecast&subsubtopic=International relations&u=1&pid=1962502580&oid=1962502580&uid=1.

"Attack on Sunni Clerics Risks Provoking Sectarian Clashes." *Economic Intelligence Unit*, 2013. http://country.eiu.com/article.aspx?articleid=910291675&Country=Lebanon&topic=Politics&subtopic=Forecast&subsubtopic=Political stability&u=1&pid=1922502576&oid=1922502576&uid=1.

"Sectarian Clashes Escalate in Tripoli." *Economic Intelligence Unit*, 2013. http://country.eiu.com/article.aspx?articleid=910528475&Country=Lebanon&topic=Politics&subtopic=Forecast&subsubtopic=Political stability&u=1&pid=1922502576&oid=1922502576&uid=1.

"Lebanese Army Clashes with Syrian Rebels in Arsal." *Economic Intelligence Unit*, 2014. http://country.eiu.com/article.aspx?articleid=1702141554&Country=Lebanon&topic=Politics&subtopic=Forecast&subsubtopic=Political stability&u=1&pid=1922502576&oid=1922502576&uid=1.

"Large Car Bomb Hits Shia Neighbourhood in Beirut." *Economic Intelligence Unit*, 2013. http://country.eiu.com/article.aspx?articleid=680704052&Country=Lebanon&topic=Politics&subtopic=Forecast&subsubtopic=Political stability&u=1&pid=1922502576&oid=1922502576&uid=1.